الحَقَائِقُ والدَّقَائِقُ

في المعارف الإلهية

الحقائق والدّقائق

في المعارف الإلهية

المعاد

حقيقته، قوانينه، منازله، مشاهده، وخاتمته

الجزء الثّاني

الشيخ

فَاضِل الصّفّار

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمد وآله الطيبين الطاهرين واللعنة الدائمة على أعدائهم من الجن والإنس أجمعين.

المطلب الثالث: في مشاهد الحشر

يبتدأ الحشر من النفخة الثانية لإسرافيل التي بها تعود الأرواح إلى أجسادها، ويقوم الناس لرب العالمين ليجزى كل إنسان بما عمل، ويمر الناس في الحشر بمشاهد عديدة:

المشهد الأول: الإحياء والنشر

قد تحدثت الآيات والأخبار عن هذا المشهد، وفصلت كيفية حدوثه؛ إذ قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾[١].

والشيء النكر هو الأمر الفظيع الذي لم يعرف مثله من قبل فينكرونه استعظاماً[٢]، ولذا يكونون مهطعين أي مادين أعناقهم وموجهيها إلى صوت الداعي انقياداً لما فيه من الاستعظام والفزع، كما هو حال الإنسان لدى استماعه للصوت الموحش أو رؤية المنظر المخيف[٣].

---

١ - سورة القمر: الآية ٦- ٨.

٢ - معجم مقاييس اللغة: ص١٠٠٩، (نكر)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٢٤، (نكر)؛ مجمع البيان: ج٩، ص٣١١.

٣ - معجم مقاييس اللغة: ص١٠٣٣،(هطع)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٤٣، (هطع)؛ مجمع البحرين: ج٤، ص٤١٠، (هطع).

والآية المباركة تدل على أن الحشر يبتدأ بدعوة من الله سبحانه، وأن الناس ينقادون إليها قهراً فيخرجون من قبورهم استعداداً للحشر، خاشعة أبصارهم لما يرونه من عظمة القدرة وهيبة الأمر الإلهي وهوله، وقد شبههم بالجراد المنتشر، ووجه التشبيه يعود لاحتمالين:

الأول: أن يكون التشبيه بانتشار الجراد لأن القبور منتشرة في الأرض، وما من قطعة منها إلاّ وقد كانت قبراً في يوم ما، فلذا يكون خروجهم مبعثراً لا يخضع لنظام أو ترتيب، كما هو حال الجراد حينما ينتشر يتراكم على بعضه ويملأ أطراف الأرض، وهنا يذعن الكفار ويصرحون بأنه يوم عسير عليهم لما قدموه في حياتهم، وهو يوحي إلى أن المؤمن يكون أحسن حالاً لحسن ظنه بربه، وبما قدمه من أعمال صالحة، فضلاً عن أمله بالعنايات الإلهية التي وعد بها كالشفاعة.

الثاني: أن يكون التشبيه بالجراد نفسه فيكشف عن أن خروج الناس من أجداثهم يكون حجمهم صغيراً في بادئ الأمر، ثم تكبر أجسامهم، وهذا يتوافق مع الروايات والبراهين التي وجهت المعاد الجسماني ببقاء الطينة الأصلية لا ينالها فناء أو اضمحلال في أجساد أخرى كما مر عليك، ولا مانع من اجتماع كلا الوصفين، وعلى كل حال فإن الآية صريحة الدلالة على المعاد الجسماني، وقد وصف النبي ﷺ كيفية الإحياء والحشر من القبور بقوله ﷺ: «والصور قرن من نور فيه أثقاب على عدد أرواح العباد، فتجتمع الأرواح كلها فتجعل في الصور، فإذا نادى إسرافيل في الصور خرجت الأرواح من أثقاب الصور فتنتشر بين السماء والأرض كأنها النحل. يخرج من كل ثقب ولا يخرج من ذلك الثقب غيره، فأرواح المؤمنين تخرج من أثقابها نائرة بنور

الإيمان وبنور أعمالها الصالحة، وأرواح الكفار تخرج مظلمة بظلمة الكفر، وإسرافيل يديم الصوت والأرواح قد انتشرت ما بين السماء والأرض، ثم تدخل كل روح إلى جسدها الذي فارقته في دار الدنيا»[1]. ويؤكد الحديث ثلاث حقائق:

الحقيقة الأولى: أن الأرواح تجتمع من عالم البرزخ في صور إسرافيل، وهو يدل على أن الحقائق الشفافة أو المجردة ولو نسبياً قابلة للجمع من دون تزاحم أو تضايق كما تجتمع أنوار الشموع في الفضاء الواحد، وبناء على أن الصورة حقيقية واقعية كما يظهر من النصوص لابد وأن يكون عظيماً بحيث يستوعب كل الأرواح، وأما بناء على أنه كناية عن القدرة والإرادة الإلهية التي منحت لإسرافيل وهو ما قد يستظهر من وصف الصور بالنور فالأمر أجلى.

الحقيقة الثانية: لا يبعد أن يكون الثقب والنقب كناية عن تعلق الإرادة بالأرواح وأمرها بالإعادة، ومن الواضح أن الإرادة تتعلق بالأشخاص كما يفيده قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2] فالقول وتعلق الإرادة يتوجه إلى الشيء بذاته، فلذا يختص كل ثقب بروح، ولا يصدر منه غيرها.

الحقيقة الثالثة: أن الأرواح تتصف بصفات أعمالها، فروح المؤمن تكون نورية؛ لأن النور هو صفة الإيمان والعمل الصالح، وبعكسه روح الكافر،

١ - تفسير البرهان: ج٦، ص٥٦٤، ح٣؛ وانظر الكافي: ج٨، ص١٠٤، ح٧٩؛ تفسير كنز الدقائق: ج١٢، ص٥٢٥، تفسير الآية ٨ من سورة القمر.

٢ - سورة يس: الآية ٨٢.

وهذا يؤكد ما تقدم من أن الأعمال والملكات والصفات النفسانية تتجسد في الآخرة، وأن الناس يحشرون على حسب سجاياهم النفسية لا أشكالهم الدنيوية، وأخيراً تدخل الأرواح في أجسادها التي أعدت وأخرجت من الأجداث لحين وقت الحساب.

ومن هنا يحشر مع كل إنسان كتابه الذي ختم في قبره، وعلق في عنقه، ويصنف الناس صنفين صنف يحشر وكتابه بيمينه، وآخر كتابه بشماله، واليمين في الآخرة علامة الفوز والنجاة، والشمال علامة الخسارة والعذاب، ولذا يضع كتابه وراء ظهره خجلاً أو خوفاً، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾[١].

المشهد الثاني: الحساب والشهود

لعل من أصعب ما يواجه الإنسان في المحشر هو موقف الحساب؛ لأنه موقف يصارح فيه العبد، ويواجه صحيفة أعماله، ويحاسب عليها، فيوبخ على السيئات، ويحمد على الحسنات، فلذا يكون مهولاً مخيفاً؛ لأن العبد يجهل فيه مصيره، ومن أكثر ما يخيف الإنسان الأمر المجهول الذي يتوقع فيه الضرر أو الخطر، لاسيما إذا كان عالماً بجناياته وأخطائه، وأن المحكمة عادلة ودقيقة، والحاكم مطلع على خفاياه، والغاية من هذا الموقف هي إظهار العدل الإلهي من جهات عديدة:

---

١ - سورة الانشقاق: الآية ٧- ١١.

الأولى: إعطاء كل ذي حق حقه بمجازاة العاملين على أعمالهم، بمعاقبة المسيء ومكافأة المحسن بالأجر والثواب.

الثانية: إظهار صدق الأنبياء والرسل عليهم السلام في دعواتهم، وهذه حكمة بالغة تعطي للأنبياء الذين كذبوا وعذبوا وأوذوا في سبيل الله سبحانه مكانتهم، وتكشف عن صدق وعد الله سبحانه لهم.

الثالثة: لتحريض العباد على الطاعة والخوف من الآخرة، فإن المشهد المهول يزيد داعي الاستعداد له والخوف من آثاره.

الرابعة: إقامة الحجة ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيي عن بينة، ومن الواضح أن ما من عبد إلاّ ولله عليه حجة إما في ذنب اقترفه، وإما في نعمة قصر عن شكرها، كما ورد في الأخبار[١]، وهذه من الحقائق التي يجب الاعتقاد بها وإظهارها على الجوانح والجوارح[٢]، وقد نص عليها الكتاب والسنة في نصوص كثيرة فضلاً عما يقضي به العقل .

منها: قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾[٤] وتفصيل البحث يقع في أمور:

١ - الأمالي (للطوسي): ص٢١١؛ بحار الأنوار: ج٧، ص٢٦٢، ح١٣؛ ج٦٨، ص٤٦، ح٥٥.

٢ - انظر الاعتقادات (للصدوق): ص٧٣؛ تصحيح الاعتقاد: ص١١٤؛ حق اليقين: ص٤٣١.

٣ - سورة البقرة: الآية ٢٨١.

٤ - سورة الغاشية: الآية ٢٥ - ٢٦.

الأمر الأول: في مبدأ الحساب وخصوصياته

يبدأ الحساب بنشر الكتاب وقراءته من قبل الإنسان نفسه فبعد أن يحشره الله سبحانه يعطى كتابه بيمينه أو بشماله بحسب عمله ومستواه ويقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبًا﴾[١] وهذا الموقف يعبر عنه بموقف عرض صحيفة الأعمال، ولعل الأمر بقراءته بنفسه يعود لغايات:

الأولى: تذكير الإنسان وإلفاته إلى عمله بنفسه؛ لأنه يقرأ في صحيفة عمله ما كتبه بيده وبخطه على كفنه حينما دفن ودخل عالم القبر كما عرفت، لأن ما يمر على الإنسان من عوالم غريبة ومهولة قد تنسيه أعماله، بل إن أهوال الحشر سينسي الأم ولدها، ويجعلها مشغولة بنفسها. قال سبحانه: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[٢] فكيف بالأعمال فإنها لسوئها ونقصانها إما ينساها الإنسان أو يتناساها خوفاً من مصيرها، ولكن إذا قرأ صحيفته ووجد أنها جمعت كل صغيرة وكبيرة يصاب بالذهول؛ إذ يقول: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾[٣] وعند ذلك يستسلم للحساب، ويجد نفسه هي الحاكمة عليه؛ لأن صحيفته تكشف مصيره، ولعل هذا أحد أسباب سرعة الحساب؛ حيث وصف الباري عز وجل بأنه: ﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[٤] إذ لو كان كل إنسان حاكماً على نفسه لا يطول

---

١ - سورة الإسراء: الآية ١٤.

٢ - سورة الحج: الآية ٢.

٣ - سورة الكهف: الآية ٤٩.

٤ - سورة البقرة: الآية ٢٠٢؛ سورة آل عمران: الآية ١٩٩؛ سورة المائدة: الآية ٤.

موقف الحساب طويلاً؛ فإن كل إنسان يعرف عمله ويحكم على نفسه بالمصير المناسب. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن الإنسان لم يشهد حقيقة أعماله وآثارها لغفلته وجهله في الدنيا؛ لما عرفت من اختلاف قوانين النشأتين، فإذا حوسب يقف على حقيقة أعماله، وهذا ما يؤكده قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾(١) إذ يرى بنفسه نتائج ما قدم وما أخر، ويشهد عليها كما كشف عن ذلك أمير المؤمنين عليه السلام في بيان معنى الآية فقال: «ليقفوا على ما فعلوا»(٢) وبهذا يتضح أن الحساب إنما يجرى لأجل أن يعلم الإنسان ويلتفت إلى ما فعل، وتكون الحجة عليه دامغة، وليس لأجل أن يعلم بها الباري عز وجل أو ملائكته وأنبياؤه والشهداء من أوليائه، وذلك لأنهم مطلعون على حقائق الأشياء وشهداء عليها، ولم يغفل عن ذلك إلاّ الإنسان نفسه، فتكشف له أعماله التي كان غافلاً عنها أو مستورة عليه في ظاهرها وباطنها.

والثانية: قطع الأعاذير والحجج على العباد أمام العدالة الإلهية؛ لأن الإنسان إذا وجد صحيفة عمله وأنها مكتوبة بيده تسقط أعاذيره، ويذعن للعدالة، وهو تطبيق لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾(٣).

الثالثة: إظهار الحق على رؤوس الأشهاد لإعلاء شأن الأنبياء والمؤمنين في إظهار صدق دعواهم وصدق نصر الله سبحانه لهم في مقابل إظهار وهن

١ - سورة الزلزلة: الآية ٦.

٢ - انظر تفسير القمي: ج٢، ص٤٣٣؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص٢٨٨، ح١٢.

٣ - سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

الكفر وخيبة أئمته الذين استعلوا على الحق وجحدوا به، وبذلك يكون الطرفان قد دخلا في مراحل الجزاء؛ إذ يفرح المؤمنون بوعد الله ونصره وظهور كلمته، ويعذب الكافرون بما عملوا، وتتضمن هذه الغاية حكمة أخرى، وهي أن إظهار الحساب بهذا النحو يظهر فضله سبحانه في العفو عن ذنوب بعض العباد، كما يظهر عدله عند معاقبتهم، وحتى يتم كل ذلك لابد من توفر أركان المحكمة العادلة من وجود المدعي والمدعى عليه والشهود والدواوين والصحف والحاكم العادل، ويمتاز الحساب الإلهي في هذه المرحلة بخصوصيات عديدة:

الخصوصية الأولى: أنه لا يقتصر على عدد الأعمال وكميتها، بل يشمل كيفيتها، أي صحتها وفسادها وقبولها وردها، كما أنه لا يقتصر على العمل وحده، بل يشمل النوايا والأفكار والمعتقدات والصفات النفسانية بناء على أنها ليست من أعمال الجوانح، وبهذا يظهر أن الحساب في عرف الشرع اصطلاح خاص يعم معناه العرفي واللغوي؛ إذ الحساب في اللغة يطلق على عد الأعداد والمقادير[١] لأجل معرفته، فموضوعه العدد، وغايته رفع الجهالة، فلذا يقع الحساب بين الجاهلين، وبهذا أخذ جمع من أهل المعقول فعرفوه بجمع متفرقات الحسنات والسيئات في الأعمال والأقوال وآثارها لتجزى كل نفس بما عملت[٢]، إلّا أن المستفاد من النصوص أعم من ذلك

١ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٣٢، (حسب)؛ وانظر معجم مقاييس اللغة: ص٢٤٤، (حسب).

٢ - انظر كتاب العرشية: ص٨٠؛ رسائل فلسفية (رسالة الحشرية): ص٢٩٤؛ أسرار الآيات: ص٢١٤؛ علم اليقين: ج٢، ص٩٥٧.

موضوعاً، كما أن غايته ليست رفع الجهالة عن المتحاسبين؛ لأن المحاسب هو الله سبحانه، وهو عالم بكل شيء، ويعلم السر وأخفى، وإنما الغاية هو تذكير الإنسان وإقامة الحجة عليه.

الخصوصية الثانية: أن للحساب ميزاناً وهو الحق. به تعرف الأشياء وتوزن، فيوضع الحق في كفة ميزان وتوضع الأعمال في كفة أخرى فيكون الحساب بعرضها على ميزان الحق، وإليه أشار قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1] ويظهر من قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[2] أن الميزان ليس واحداً، بل متعدداً، فلكل إنسان ميزان، وربما لكل عمل ميزان كما ستعرفه في مشهد الميزان.

الخصوصية الثالثة: أنه مضبوط ومسجل فلا تخفى منه خافية أو تنسى، وقد عبر عنها في النصوص بصحيفة الأعمال، وهذه الخصوصية تظهر قبل وزن الأعمال من خلال كيفية الحشر، فإنها إذا أعطيت للإنسان بيمينه يعرف أن حسابه يسيراً، وأنه ناج، وإذا أعطيت إليه من وراء ظهره فإنه يعلم بخسارته، وحينئذ يكون الحساب لبيان التفاصيل وإسقاط الأعاذير، وإليه أشار قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾[3].

وبهذا يتضح أن إصلاح الإنسان نفسه وتحسين عمله يسهل له الحساب،

١ - سورة الأعراف: الآية ٨.
٢ - سورة الأنبياء: الآية ٤٧.
٣ - سورة الانشقاق: الآية: ٦- ١٢.

وييسر له المساءلة، كما يتضح أحد وجوه سرعة الحساب؛ إذ كشفت الأخبار عن أحوال بعضهم وقالت: إنه يمر في الحساب كالبرق الخاطف، وبعضهم بمقدار صلاة يصليها، وبعضهم يحبو على الصراط حبواً لشدة حسابه وهكذا.

الخصوصية الرابعة: المداقة في الحساب؛ لأنه يقوم على الاستقصاء التام، فلا تفوت فائتة إلاّ وتجمع وتحضر ويحاسب عليها، ولذا وصف بسوء الحساب؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾[١] والسر في وصفه بالسوء مع أنه حساب عدل لا ظلم فيه ولا بخس يعود لوجوه:

أحدها: شدة الاستقصاء ودقة المحاسبة، وقد وصف الحساب بالسوء على هذا المعنى؛ لأنه يكون على خلاف ما يتوقعه المرء من المسامحة والتيسير، ومن هنا ورد عن الصادق عليه السلام: «من استقصى فقد أساء» إذ جاء في رواية محمد بن عيسى أن أبا عبد الله عليه السلام قال لرجل شكاه بعض إخوانه: «ما لأخيك فلان يشكوك؟» قال: أيشكوني إذا استقصيت حقي؟ قال: فجلس مغضباً ثم قال: «كأنك إذا أستقصيت لم تسئ؟ أرأيت ما حكى الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ أخافوا أن يجور عليهم الله؟ لا والله ما خافوا إلاّ الاستقصاء فسماه الله عز وجل: ﴿سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ فمن استقصى فقد أساء»[٢].

ثانيها: شدة المجازاة ودقتها؛ إذ يجد الناس أن سيئاتهم أحصيت وينالون جزاءها، إلاّ أن ما كانوا يظنون أنها من حسناتهم قد محيت أو أحبطت بسبب الذنوب أو التضييع في الأداء، فيعدون حسابهم سيئاً من حيث نتيجته لا من

١ – سورة الرعد: الآية ٢١.

٢ – تفسير العياشي: ج٢، ص٢٢٦، ح٤١؛ تفسير البرهان: ج٤، ص٢٧٠، ح٢٣.

حيث عدالته، وهذا ما وردت الإشارة إليه في بعض الأخبار، ففي رواية هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «سوء الحساب أن يحسب عليهم السيئات ولا يحسب لهم الحسنات، وهو الاستقصاء»[١] وفي رواية أخرى هو المداقة والاستقصاء[٢]، وفي ثالثة: «لا تقبل حسناتهم ويؤخذون بسيئاتهم»[٣].

ثالثها: لملازمته مع سوء الموقف، فإن الإنسان إذا وقف في موقف الحساب وقرأ صحيفة أعماله وتجسدت جملة من أعماله وظهرت سجاياه وأخلاقه الباطنة فإنه يخاف من سوء العاقبة، بل وغالباً ما يصحبه اللوم والرهبة، خصوصاً إذا لاحظ المعذبين وشدة المداقة معهم، فإن الموقف يكون سيئاً بالنسبة إليه وإن كان الحساب عادلاً، وهذا التعبير يستعمل كثيراً في العرف؛ إذ يطلقون على المواقف الشديدة والصعبة بالسيئة، وتفيد بعض الأخبار أن الناس يختلفون في مستوى التدقيق وليسوا على شاكلة واحدة، وكلما زادت عليهم النعم زادت المداقة، وأكثر الذين يتعرضون إلى التدقيق هم أهل العقول، وكلما زاد العقل أزداد التدقيق.

ففي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنما يداق الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا»[٤] ويشمل هذا العلماء وأهل الرأي والخواص من كل مجتمع وأمة على اختلاف تخصصاتهم ومجالاتهم، وهو ظاهر؛ لوضوح أن الحساب يدور مدار التكليف، والتكليف

١ - مجمع البيان: ج٦، ص٣٣؛ تفسير البرهان: ج٤، ص٢٧٠، ح٢٦.
٢ - تفسير العياشي: ج٢، ص٢٢٥، ح٣٩.
٣ - تفسير العياشي: ج٢، ص٢٢٥، ح٣٧.
٤ - الكافي: ج١، ص١١، ح٧.

يكون على قدر العقل، فمحاسبة الغني والعالم والرئيس وصاحب الوجاهة أشد من محاسبة الفقير والجاهل والمرؤوس والوضيع إما لسعة مسؤولياته وكثرة أعماله التي تتعلق بالحقوق العامة، أو لزيادة النعم الإلهية التي أولاها الله سبحانه بها، أو لأنه يتحمل أوزار أتباعه، أو لغير ذلك من وجوه توجب شدة الحساب ومداقته كما يستفاد ذلك من مضامين الأخبار.

الخصوصية الخامسة: تصفية الحساب، ويراد بها تميّز الأعمال المدونة في صحيفة الأعمال بين الأعمال التي غفرت أو محي أثرها فلا يحاسب عليها الباري عز وجل وبين الأعمال التي سيؤاخذ عليها، وبها يتحدد مصير العبد النهائي.

وتتم التصفية والتمييز بعرض الأعمال على ميزان الحق، وإليه أشار قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[1] وهناك ثلاثة طرق أخرى تتم بها تصفية الأعمال وآثارها اختلفوا فيها أهل المعقول بين مثبت وناف ومفصل:

الطريق الأول: التكفير، ويراد به محو الطاعة أثر المعصية السابقة عليها[2]، فلو فعل العبد معصية استحق بها العقوبة، لكنه إذا فعل طاعة بعدها استحق المثوبة، فإن الطاعة اللاحقة تمحي أثر المعصية السابقة، وسميت بالتكفير؛ لأنها تستر المعصية وتغطيها كما هو معنى الكفر لغة[3]، وقد سميت الكفارة

١ – سورة الأعراف: الآية ٨– ٩.

٢ – انظر كشف المراد: ص٤٣٩، المسألة السابعة؛ تصحيح الاعتقاد: ص٩٣– ٩٤.

٣ – الكفر في اللغة: الستر والتغطية، انظر معجم مقاييس اللغة: ص٨٩٧، (كفر)؛ مفردات

بذلك لأنها تغطي إثم المعصية، وقد ذهب المشهور إلى بطلانه[١]، بل ادعي عليه الإجماع بدعوى منافاته لظواهر النصوص، نظير قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[٢] فإنه ظاهر في أن كل عمل يترتب عليه جزاؤه، وهو يبطل التكفير، وبدعوى منافاته للقواعد العقلية، وذلك لأن التكفير يستلزم انقلاب الشيء عما وقع عليه، وهو من المحالات، وفيهما نظر ظاهر، لقيام النصوص الكثيرة الدالة على التكفير، فتكون مقيدة لمثل الآية المذكورة، ودليلاً على أمكانه عقلاً، ووقوعه خارجاً.

منها: قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[٣] وهي صريحة في أن اجتناب الذنوب الكبيرة يمحي السيئات ويغطيها، والسيئات هي كل ما يسيء للإنسان من العقوبات والآثام والذنوب الصغيرة[٤]، كما يعضده قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾[٥] بناء على أن المستثنى هي المعصية الصغيرة، والمستفاد من منطوق الآية دلالتان:

الأولى: أن الذنوب الصغيرة تمحيها الطاعة في اجتناب الكبيرة، وقد عبر

ألفاظ القرآن الكريم: ص٧١٤، (كفر).

١ - انظر كشف المراد: ص٤٣٩؛ توضيح المراد: ص٨٢٣؛ القول السديد: ص٣٩٥؛ بحار الأنوار: ج٥، ص٣٣١، باب ١٨ الوعد والوعيد والحبط والتكفير.

٢ - سورة الزلزلة: الآية ٧- ٨.

٣ - سورة النساء: الآية ٣١.

٤ - انظر مواهب الرحمن: ج٨، ص١٣٦.

٥ - سورة النجم: الآية ٣٢.

عنها بالتكفير، وهو المراد من التكفير المصطلح.

الثانية: أن نتيجة التكفير هو دخول الجنة، ولازمه أن التكفير يمحي الذنوب وآثاره الوضعية والاعتبارية معاً كما نصت عليه الأخبار[١].

نعم ورد في الأخبار أن التكفير مشروط بالإيمان بالمعنى الأخص، كما في رواية ميسر عن أبي جعفر عليه السلام [٢]، ورواية الحلبي عن الصادق عليه السلام [٣]، ورواية محمد بن الفضيل عن الرضا عليه السلام [٤] ورواية محمد بن أبي عمير عن موسى بن جعفر عليه السلام [٥]، وفي رواية الفضيل عن أبي جعفر عليه السلام: «أما والله يا فضيل ... لا يغفر الذنوب إلاّ لكم، ولا يقبل إلاّ منكم، وإنكم لأهل هذه الآية: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾»[٦].

وبذلك يتضح أن التكفير ستر المعصية وأثرها لا انقلابها، ويتحقق بغلبة ثواب الطاعة بما يرجح كفة العبد في الحساب، أو بمحو إثم المعصية ونفيه، وهما غير الانقلاب، على أن الانقلاب إذا كان بأمر الله سبحانه وقدرته فهو ممكن، بل واقع، وشواهده كثيرة.

منها: انقلاب الخمر إلى خل وبالعكس، ويكفي في الدلالة عليه ورود

١ - انظر حاشية الأردبيلي: ص٤٦٩؛ مجمع البيان: ج١، ص٨٥.
٢ - تفسير العياشي: ج١، ص٢٣٧، ح١٠٤.
٣ - ثواب الأعمال: ص١٢٩-١٣٠؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص٥٥، ح٢٠٤.
٤ - ثواب الأعمال: ص١٣٠؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص٥٦، ح٢٠٥.
٥ - التوحيد: ص٤٠٧، ح٦.
٦ - الكافي: ج٨، ص٢٨٨، ح٤٣٤.

النص فيه؛ إذ قال سبحانه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[١] فإن ظاهر تبديل السيئة بالحسنة هو انقلابها الواقعي، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[٢] أي يزيلنها ويمحينها، ونلاحظ أن الآية الأولى نسبت التبديل إلى الباري عز وجل، بينما الثانية نسبته إلى ذات الحسنة، وأصالة حمل اللفظ على المعنى الحقيقي الظاهر ما دام لم يمنعه مانع يقتضي تجويز التكفير بالنحوين.

هذا مضافاً إلى قيام الضرورة على وجود جملة من الأعمال تمحي الذنوب منها التوبة، ومنها الاستغفار، ومنها العمل الصالح؛ إذ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[٣] وقال سبحانه: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[٤].

ومنها: الصلوات الخمس فإنها مكفرة لما بينها من غير الكبائر[٥].

ومنها: صلاة الجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان، فإنهما مكفران لما بينهما إذ اجتنبت الكبائر، إلى غير ذلك مما دلت عليه النصوص.

والخلاصة: أن تكفير الذنوب أمر ممكن عقلاً وواقع خارجاً، ويكفي لإثباته ورود النص به، بل هو مما يقضي به العقل، وذلك لأن التكفير مقتضى

١ – سورة الفرقان: الآية ٧٠.
٢ – سورة هود: الآية١١٤.
٣ – سورة النساء: الآية١٧.
٤ – سورة طه: الآية٨٢.
٥ – علل الشرائع: ج٢، ص٣٢٨، ح٢؛ بحار الأنوار: ج٧٩، ص٢٦٥– ٢٦٦، ح١٤.

اللطف؛ لما فيه من تقريب للعباد إلى الطاعة وإبعاد عن المعصية، بل عدم وقوعه مخالف للوعد والرحمة الإلهية، وهما مما يتنزه عنه الباري عز وجل، ومنه يعرف أن شبهة الاستحالة باطلة إما من جهة الموضوع وذلك لعدم تحقق الانقلاب فيها، أو باطلة من جهة الحكم؛ لأن الانقلاب إذا كان بأمر الله فليس بمستحيل وحينئذ تختص الاستحالة بالانقلاب الذاتي.

الطريق الثاني: الإحباط المحض، وهو عكس التكفير، ويراد به: أن تمحق السيئات الحسنات السابقة عليها، فلو أطاع العبد ربه مدة من عمره ثم عصاه فإن المعصية اللاحقة تمحي ثواب الطاعة السابقة مهما عظمت، ولو أن عبداً أطاع أيام دهره ثم تكلم بكذبة أو شرب جرعة من خمر كان كمن لم يعبد الله، ولم يطع طرفة عين[1].

والإحباط في اللغة: هو الإبطال. يقال أحبط الله عمل الكافر أي أبطله[2]، ويتحقق الحبط بتوفر العمل على ما يوجب بطلانه من نفسه، وإتيان العامل بالعمل ثم إفساده بما ينافيه، وبذلك يظهر وجه الفرق بينه وبين التكفير، فإن التكفير يختص بإمحاء الحسنات لآثار السيئات، بينما يختص الإحباط بإبطال السيئات للحسنات.

وكيف كان، فإنه لو صح هذا الطريق فإنه يقايس بين المحاسن والمساوئ فيصفي أحدهما الآخر، ويصفو الغالب منهما، وبه يتحدد مصير العبد، لكنهم اختلفوا في صحته على أقوال، فجمهور المعتزلة وجمع من الاشاعرة

١ - توضيح المراد: ص٨٢٤؛ فلسفات إسلامية: ج٢، ص٥٦٧.

٢ - معجم مقاييس اللغة: ص٢٧٥،(حبط)؛ لسان العرب: ج٧، ص٢٧٢،(حبط)؛ مجمع البحرين: ج٤، ص٢٤٠،(حبط).

وبعض الإمامية قالوا ببطلانه[١]، ولعله المشهور[٢]، وبعضهم قال بإمكانه ووقوعه[٣]، وبعضهم فصل بين الإيمان والكفر فأحدهما يحبط الثاني وبين غيرهما من المساوئ فلا[٤].

واستدل النافون بوجوه عديدة عمدتها ثلاثة عقلية:

الوجه الأول: مبتن على دعوى أن الإحباط محال ذاتاً من جهة استلزامه الانقلاب، أو عرضاً لاستلزامه الظلم وترجيح المرجوح.

وتقريره: أن القول بإبطال المساوئ للمحاسن يستلزم أن تبطل سيئة واحدة طاعات كثيرة بذل فيها العبد عمره، وجاهد فيها نفسه، وهذا في الوقت الذي يستلزم ترجيح المرجوح - لأن السيئة الواحدة لا تضاهي المحاسن الكثيرة - فإنه يستلزم بخس حقوق الناس؛ بداهة أن العبد يستحق على الطاعات ثواباً كثيراً صرف فيها عمره، وجاهد نفسه، فإبطال المعصية لها جميعاً بخس لحقه، بل يستلزم ترجيح العاصي دائماً على المطيع العاصي أحياناً، وهو خلف.

الوجه الثاني: مبتن على السبر والتقسيم، وقد نسب إلى بعض المحققين[٥].

---

١ - انظر كشف المراد: ص٤٣٩؛ توضيح المراد: ص٨٢٤؛ فلسفات إسلامية: ج٢، ص٥٦٧؛ وفي حاشية الأردبيلي ادعي عليه الإجماع. أنظر ص٤٦٩.

٢ - توضيح المراد: ص٨٢٣؛ بحار الأنوار: ج٥، ص٣٣٢، تحقيق؛ الشافي في الإمامة:ج٣، ص١٤٠؛ شرح المواقف: ج٨، ص٣٠٨؛ شرح نهج البلاغة: ج٧، ص١٢.

٣ - انظر القول السديد: ص٣٩٧.

٤ - انظر توضيح المراد: ص٨٢٥.

٥ - انظر مجمع البحرين: ج٤، ص٢٤١.

وتقريره: أن استحقاق الثواب مشروط بالموافاة[١]، أي بقاء العبد موفياً بعهد الإيمان والطاعة إلى آخر عمره، وهذا الشرط شرعي نص عليه الكتاب في آيات عديدة، منها قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[٢] وعليه فمن كان من أهل الموافاة ولم يلبس إيمانه بظلم كان ممن يستحق الثواب الدائم مطلقاً، ومن كان من أهل الكفر ومات على ذلك استحق العقاب الدائم مطلقاً، ومن كان ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فإن وافى بالتوبة استحق الثواب مطلقاً؛ لأن التوبة ماحية للذنوب، وإن لم يواف بها فإما أن يستحق ثواب إيمانه أو لا، وعدم الاستحقاق باطل بنص الكتاب، إذ قال سبحانه: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[٣] وقال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[٤] فيتعين الاستحقاق، وحيث إنه يستحق العقوبة أيضاً بسبب المعصية فلا يخلو إما أن يقال بأنه يثاب ثم يعاقب وهو باطل بالنص والإجماع؛ لأن ثواب الآخرة يتحقق بدخول الجنة، ومن يدخلها لا يخرج منها، ولازمه بطلان العقاب، أو يقال بأنه يعاقب أولاً ثم يثاب وهو المطلوب، وهو ما يستفاد من النصوص الكثيرة منها قوله عليه السلام في حال الجهنميين بعد العقاب: «يخرجون من النار كالحمم أو كالفحم، فيراهم أهل الجنة فيقولون: هؤلاء الجهنميون، فيؤمر بهم فيغمسون في عين الحيوان، فيخرجون وأحدهم كالبدر ليلة تمامه»[٥] هذا هو الصحيح، وبه يظهر بطلان الإحباط من جهة

---

١ - انظر كشف المراد: ص٤٣٨؛ القول السديد: ص٣٩٤؛ توضيح المراد: ص٨٢٢.

٢ - سورة الزمر: الآية٦٥.

٣ - سورة الكهف: الآية٣٠.

٤ - سورة الزلزلة: الآية ٧.

٥ - مجمع البحرين: ج١، ص٤٤٧، (حبط).

العقل؛ لاستلزامه خلود المؤمنين المخلطين في أعمالهم في العذاب، ومساواتهم بالكفار، و من جهة النقل لما عرفت.

الوجه الثالث: مبتن على منافاة الإحباط للوعود الإلهية، وحيث إن التالي باطل فالمقدم مثله.

وتقريره: أن الباري عز وجل حث عباده على التوبة، وأخبرهم بأن التوبة توجب غفران الذنوب، ووعدهم بالتوبة على التائبين؛ إذ قال سبحانه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾[١] وقال سبحانه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾[٢] كما أنه وعدهم بالجزاء العادل على كل عمل يعملونه من خير أو شر، فيثيبهم على الخير، ويعاقبهم على الشر، كما وعدهم بأنه سوف يريهم أعمالهم خيرها وشرها في الآخرة، وهذه كلها يكذبها الإحباط.

والكل ضعيف، وذلك لتضافر النصوص على وقوع الاحباط في الأعمال، منها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن

---

١ - سورة غافر: الآية٢.

٢ - سورة طه: الآية٨٢.

٣ - سورة الأعراف: الآية ١٤٧.

٤ - سورة المائدة: الآية ٥.

٥ - سورة البقرة: الآية ٢١٧.

تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾[٢] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

ومن هذه الآيات يستفاد أن الإحباط يدور على محور مهم، وهو فساد العقيدة بالكفر أو بالنفاق، كما يستفاد أن الإحباط لا يختص بعالم الآخرة، بل يتحقق حتى في الدنيا، كما أنه يشمل صورة مشاقة النبي أو رفع الصوت في محضره، فبناء على أنهما ليسا من مصاديق الكفر والنفاق موضوعاً فإنهما يكونان منهما حكماً؛ لما فيهما من مخالفة الأدب والإيذاء، ومشاقة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد الهدى ينطبق على كل مخالف له صلى الله عليه وآله وسلم في القول والعمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾[٣].

وعلى هذا الأساس يكون المنكر للإمام الذي نصبه النبي أو المقدم غيره عليه محبط العمل، وهذا المضمون يتوافق مع مضامين الروايات الدالة على أن المنكر لإمام زمانه يموت ميتة جاهلية، وأن قبول الأعمال يدور مدار الولاية، وأن حب علي عليه السلام إيمان وبغضه كفر ونفاق.

هذا وفي بعض الآيات والروايات ما يدل على أن الإحباط يصيب الطاعة ويبطلها منذ حينها أحياناً، وأحياناً يبطلها بعد وقوعها، وأحياناً أخرى يبدل حقيقتها، وأحياناً يبطل حقيقتها، وأحياناً خامسة يبطل أثرها، فمن الأول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ

١ - سورة الحجرات: الآية ٢.
٢ - سورة محمد: الآية ٣٢.
٣ - سورة محمد: الآية ٣٣.

﴿رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[١] فإنه دال على أن الإحباط يقع بأربعة عوامل هي: عدم الإيمان والرياء والمن والأذى.

ومن الثاني ما ورد عن النبي ﷺ: «أن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[٢] ومثله ورد في العجب[٣] وفي الغيبة أيضاً[٤].

ومن الثالث ما ورد عن الباقر عليه السلام: «الإبقاء على العمل أشد من العمل» فقيل له: وما الإبقاء على العمل؟ قال: «يصل الرجل بصلة وينفق نفقة لله وحده لا شريك له فكتب له سراً، ثم يذكرها فتمحى فتكتب له علانية، ثم يذكرها فتمحى وتكتب له رياء»[٥] وهذا يتوافق مع مضمون الآية السابقة، ومع مضمون قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[٦].

ومن الرابع قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾[٧] والهباء الشيء الناعم جداً المنبث الذي تراه متطايراً في الكوة لدى نفوذ الضوء فيها[٨]، وفي لسان العرب: دقائق التراب ساطعة ومنثورة على وجه

---

١ - سورة البقرة: الآية ٢٦٤.

٢ - رسائل الشهيد الثاني: ص٣١٠؛ بحار الأنوار: ج٧٣، ص٢٥٥، ح٢٦.

٣ - انظر تفسير الأمثل: ج١٦، ص٢٨٥؛ وروح البيان: ج٨، ص٥٢٢.

٤ - جامع الأخبار: ص٤١٢، ح١١٤٤؛ مستدرك الوسائل: ج٩، الباب ١٣٢ من أبواب أحكام العشرة، ص١٢١، ح٣٠.

٥ - الكافي: ج٢، ص٢٩٦- ٢٩٧، ح١٦؛ مشكاة الأنوار: ص٥٣٤، ح١٧٨٧.

٦ - سورة محمد: الآية ٣٣.

٧ - سورة الفرقان: الآية ٢٣.

٨ - انظر معجم مقاييس اللغة: ص١٠٢٣، (هبو)؛ مجمع البيان: ج٧، ص٢٩١، تفسير الآية المزبورة؛ مجمع البحرين: ج١، ص٤٦٩، (هبا).

الأرض[١]، والمقصود واحد.

ومعنى الآية أن الله سبحانه أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور، والمراد من الأعمال كل ما فعلوه بالقصد وطلبوا فائدته بناء على أن العمل أخص من الفعل، فيشمل الكثير من أعمال الخير كصلة الرحم وإغاثة الملهوف والصلاة والصيام ونحوها.

وقوله: ﴿وَقَدِمۡنَآ﴾ إشارة إلى أن إبطال الأعمال هنا ناشئ من عدم قبوله عنده سبحانه؛ لعدم توفر شرائطه، وهو ما ورد في صحيحة أبي حمزة عن الباقر عليه السلام في معنى الآية إذ قال: «بعث الله عز وجل يوم القيامة قوماً بين أيديهم نور كالقباطي، ثم يقول له: كن هباء منثورا» ثم قال: «أما والله يا أبا حمزة إنهم كانوا يصومون ويصلون ولكن كانوا إذا عرض لهم شيء من الحرام أخذوه، وإذا ذكر لهم شيء من فضل أمير المؤمنين أنكروه»[٢] وقريب من هذا المضمون ورد في العلل عنه[٣] عليه السلام، كما ورد عن الصادق عليه السلام في روايات مستفيضة[٤]، وهي في مجملها تدل على أمرين:

أحدهما: أن أعمالهم السابقة تبطل بسبب عدم تورعهم عن الحرام، ونكران فضل أمير المؤمنين عليه السلام.

---

١ - لسان العرب: ج١٥، ص٣٥٠، (هبا).

٢ - انظر تفسير القمي: ج٢، ص١١٢؛ تفسير نور الثقلين: ج٥، ص١٩٤، ح٣٢؛ والقباطي ثياب بيض رقيقة من كتان تنسج بمصر منسوبة إلى القبط، ويراد بها هنا الكناية عن جمال العمل الذي جاؤوا به من حيث شكله وإن كان باطلاً من حيث جوهره. انظر مجمع البحرين: ج٤، ص٢٦٦، (قبط)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٨٤٢، (قبط).

٣ - علل الشرائع: ص٦٠٦، ح٨١.

٤ - انظر بصائر الدرجات: ص٤٤٦، ح١٥؛ الكافي: ج٢، ص٨١، ح٥؛ ج٥، ص١٢٦، ح١٠.

وثانيهما: أن العقيدة الفاسدة تبطل العمل، فلا يختص الإحباط بإبطال الأعمال بالأعمال.

ومن الخامس ما ورد في بعض الأخبار أن بعض الناس يجد أن كل ما عمله من محاسن نزل في حساب غيره، أو حمل أوزار غيره، فمن الأول المستغيب في بعض المراتب فإنه تمنح محاسنه إلى من اغتابه.

ففي النبوي الشريف: «يؤتى بأحد يوم القيامة يوقف بين يدي الله ويدفع إليه كتابه فلا يرى حسناته، فيقول: إلهي ليس هذا كتابي! فإني لا أرى فيها طاعتي؟ فيقال له: إن ربك لا يضل ولا ينسى. ذهب عملك باغتياب الناس، ثم يؤتى بآخر ويدفع إليه كتابه، فيرى فيه طاعات كثيرة، فيقول: إلهي ما هذا كتابي! فإني ما عملت هذه الطاعات؟ فيقال: لأن فلانا اغتابك فدفعت حسناته إليك»[١].

ومن الثاني ما ورد في أكلة الديون، فقد ورد عن الباقر أو الصادق عليهما السلام: «أنه يؤتى يوم القيامة بصاحب الدين يشكو الوحشة، فإن كانت له حسنات أخذ منه لصاحب الدين، وإن لم تكن له حسنات ألقي عليه من سيئات صاحب الدين»[٢] ومقتضى الجمع بين الأدلة هو حمله على القادرين على الأداء ولم يؤدوا، ويتلخص من كل هذا أن الإحباط يمكن تصنيفه على ثلاثة أصناف:

١ - جامع الأخبار: ص٤١٢، ح١١٤٤؛ مستدرك الوسائل: ج٩، الباب١٣٢ من أبواب أحكام العشرة، ص١٢١، ح٣٠.

٢ - الوسائل: ج١٨، الباب١ من أبواب الدين والقرض، ص٣١٧- ٣١٨، ح٨؛ بحار الأنوار: ج٧، ص٢٧٤، ح٤٦.

الأول: الإحباط الذاتي، وينشأ من ذات العمل؛ لعدم توفر مقتضيات البقاء والصحة فيه، وهذا يقع في الأعمال المقترنة بفساد العقيدة، ومن خصوصياته أنه يوجد باطلاً من أول حدوثه كالكفر والارتداد ومثلها الرياء والمن والأذى، وهذه الثلاثة وإن كانت من أعمال الجوارح إلاّ أنها ترجع إلى فساد العقيدة.

والثاني: الإحباط العارض، وهو يلحق العمل الحسن، ويبطله ذاتاً أو أثراً، أو يبدل حقيقة الشيء، وهذا كالأول إبطال حقيقي للشيء، ويكون متأخراً عن العمل، ويتحقق في الغالب في عالم الآخرة.

والثالث: الإحباط الجزائي، ويتحقق بتدوين جزاء العمل في سجل غير العامل، أو محوه منه، وهو إبطال اعتباري يرجع إلى نظام الثواب والعقاب، ونلفت النظر هنا إلى حقيقتين:

الحقيقة الأولى: أن الإحباط ليس من الحقائق التي يدركها العقل بمفرده؛ لأنه لا يرجع إلى ضرورة عقلية، فلذا يقتصر في التصديق به على ما ورد من الشرع، وقد عرفت أن الآيات والروايات أكدت على وجوده ووقوعه، فلذا لابد من التوقف فيه على مقدار ما ورد به النص، فلا يمكن التوسعة أكثر مما أخبر به الشرع، ولا التضييق منه إذا وسع الشرع فيه، وبهذا يظهر أن الإحباط من حيث الكبرى والصغرى شرعي لا عقلي. نعم يمكن أن نوجه كيفية وقوع بطلان العمل وإحباطه ببعض الوجوه العقلية لتقريبه إلى الأذهان، وهناك أكثر من ضابطة يمكن إرجاع الإحباط إليها:

منها: قاعدة السنخية بين العمل والعامل والجزاء بناء على أن إرادة العامل

علة العمل، وأن العمل علة الجزاء أو سبب له، فالخلل في العقيدة أو في النية أو في التجري والعصيان يؤدي إلى خلل العمل فيبطله.

ومنها: قاعدة تبعية الأعمال القصدية لاسيما الطاعات والمعاصي للقصود، فتكون النية والقصد بمنزلة جزء العلة الأخير في تحقق العمل، وخلل النية يحصل بفساد العقيدة أو بفساد الدواعي.

ومنها: قاعدة غلبة القوة عند التصادم، وهي تنطبق هنا من جهة أن كل عمل ومنها المعاصي والطاعات له آثار وضعية تلازمه، فإذا تصادمت المعاصي والطاعات تغلب المعاصي وتمحي الطاعات لغلبتها عليها، وذلك لأن الطاعات غالباً ما تتقوم بشروط يصعب توفرها منها الإخلاص وصدق النية، ومنها تقوى العامل، بخلاف المعاصي.

الحقيقة الثانية: أن إخبار الشرع عن وقوع الإحباط في بعض الأعمال يكشف عن بطلان دعوى استحالته الذاتية أو العرضية، أما بطلان الأول فلما عرفت من أن الإحباط ليس انقلاباً، بل هو وقوع الشيء مطابقاً لعلته الحقيقية. **هذا أولاً.**

وثانياً: على فرض التسليم فهو بلا مانع؛ لما عرفت من وقوع الانقلاب في الحقائق التكوينية، كانقلاب الخل إلى خمر وبالعكس، فيكون الإحباط منه، وأدل دليل على إمكان الشيء وقوعه في الخارج.

وثالثاً: على فرض التسليم فإن استحالة الانقلاب ليست بقاعدة عامة؛ لأن الانقلاب على نوعين:

الانقلاب الذاتي والانقلاب بالعلة، والاستحالة مختصة بالأول؛ إذ من

الواضح أن الشيء لا ينقلب من نفسه، وأما الانقلاب بإرادة القادر بالقدرة التامة فلا مانع منه، بل هو ما يقتضيه قانون الخلق والتكوين؛ لوضوح أن خلق الأشياء بالجعل التركيبي يتقوم بتبدل الحقائق وانقلابها من شيء إلى آخر، فجسم الإنسان تكون من لحم وعظم مثلاً، وهو انقلاب من الطين، والشجر والثمر انقلاب عن الماء والأملاح والطين، والنار انقلاب من الخشب والفحم ونحو ذلك، وأما الجعل البسيط فهو خارج تخصصاً عن الإحباط.

والحاصل: أن إبطال الأعمال بإبطالها ذاتاً أو آثاراً يقع بقدرة الله سبحانه وإرادته، فيقع في جميع مراتبه إما مطابقاً لقانون العلية المودعة في الوجود أو لقانون عموم القدرة الإلهية العامة، فدعوى استحالته لا تستند إلى وجه وجيه.

وبذلك يتضح وجه بطلان الثاني أي دعوى استلزامه الظلم وترجيح العاصي على المطيع؛ لأن ما يقع بإرادة العبد وسوء اختياره هو مقتضى العدل والترجيح بالمرجح. نعم يبقى إشكال منافاته لظواهر بعض النصوص، ويمكن الجواب عنه من جهتين:

الأولى: جهة المقتضي، وذلك لأن مثل قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[1] وارد في مقام بيان ترتب الجزاء على العمل، وليس في مقام بيان حقيقة الجزاء وكيفية ترتبه، فتكون أدلة الإحباط مفسرة لذلك، وبذلك يظهر أنه لا تنافي بين أدلة الجزاء وأدلة الإحباط، بل أحدهما مفسر للآخر.

١ - سورة الزلزلة: الآية ٧.

والثانية: جهة المانع؛ إذ لو افترضنا أن أدلة الجزاء واردة في مقام البيان فإنها إذا لوحظت بالقياس إلى أدلة الإحباط فلا تخلو إما أن تكون مقيدة بها - لأن تلك مطلقة وهذه مقيدة بناء على وقوع التقييد بين المثبتين - أو تكون كاشفة عن بعض المراتب والخصوصيات، كما يقال ذلك في كل مثبتين لا يقع التقييد بينهما، ومن الواضح أن أدلة الإحباط لم تثبت وقوعه في جميع الأعمال، بل بعض الأعمال التي دل الدليل على وقوع الإحباط فيها، ومقتضى الجمع بينها هو أن نلتزم بالإحباط بما دل عليه النص، ويبقى الباقي تحت إطلاق أدلة الجزاء أو عمومه.

فيتحصل: أن الإحباط في بعض الأعمال التي دل عليها الدليل حقيقة واقعة في الآخرة، ويجب الاعتقاد بها؛ لإخبار المعصوم عليه السلام بها. وبذلك يظهر أن القول بالتفصيل مما لا مقتضي له؛ لتضافر الأدلة على وقوع الإحباط في غير الإيمان والكفر.

نعم بعض أهل المعقول جمع التكفير والإحباط في معنى واحد، وأراد به تأثير العمل اللاحق بالسابق، فإن كان اللاحق سيئة سماه إحباطاً، وإن كان حسنة سماه تكفيراً[1]، فمن أتى بحسنة ثم أتى بسيئة أحبطت الحسنة وبقيت السيئة يحاسب عليها، ومن أتى بسيئة أولاً ثم أتى بحسنة كفرت الحسنة عن السيئة وتبقى هي في ميزان الحساب، وهذا المعنى باطل لم يساعد عليه نص ولا عقل، ولعل النافين نظروا إليه وأطلقوا القول ببطلان التكفير والإحباط، ولم يريدوا إبطالهما مطلقاً حتى بالمعاني التي ذكرناها، ولو صح هذا كما لا يبعد

١ - انظر كشف المراد: ص٤٣٩؛ توضيح المراد: ص٨٤٣؛ القول السديد: ص٣٩٦.

ينحل به الخلاف.

الطريق الثالث: الموازنة، وقد حكي عن المشهور إنكارها[١]، وأجازها جمع من الخاصة والعامة[٢]، والمراد بها أن توازن الأعمال الحسنة والقبيحة مع بعضها ويسقط منهما ما يتعادلان فيه وما زاد من أيهما يحاسب عليه، فإن كان الفضل لقبائحه انتفت حسناته فيخلد في النار، والعكس بالعكس، وإن تساوت حسناته وقبائحه كان كمن لم يفعل شيئاً، وحينئذ هل تناله الشفاعة ويدخل الجنة لأنه مقتضى الرحمة والفضل الإلهي؟ أم يختبر من جديد؟ أم يترك أجره إلى الله سبحانه؟ احتمالات وبعضها أقوال[٣].

والدليل على بطلان الموازنة مبني على وجهين عقلي وشرعي:

الأول: استلزامه للترجيح بلا مرجح.

والثاني: مخالفتها لظواهر النصوص.

وتقرير الأول: أن المعادلة بين المحاسن والقبائح لا تخلو من حالتين هما حالة الغلبة لأحدهما وحالة التساوي، فإن كانت الأولى كما لو كانت الحسنات عشرة والقبائح خمسة لا يمكن الترجيح، لأن الحسنات تعادل القبائح بالضعف؛ إذ خمسة منها تعادل القبائح وتبقى خمسة في نتيجة الحساب، ولكن لا يعلم بالحسنات الساقطة بالموازنة هل الأولى أم الثانية، وحيث لا مرجح

---

١ - انظر كشف المراد: ص٤٣٩؛ توضيح المراد: ص٨٢٤؛ مجمع البحرين: ج٤، ص٢٤١، (حبط).

٢ - انظر القول السديد: ص٣٩٧.

٣ - رسائل المرتضى: ج١، ص١٤٩؛ انظر فلسفات أسلامية: ج٢، ص٥٦٨؛ المواقف: ج٣، ص٥٠١؛ التفسير الكبير: ج٦، ص٤٠؛ روح المعاني: ج٢، ص١١٠.

فالترجيح يكون باطلاً، وإن كانت الثانية فالإشكال فيها أوضح.

وتقرير الثاني: أن ظاهر النصوص الواردة بالثواب على الطاعات والعقاب على المعاصي يفيد أن كل عمل يلازمه جزاؤه، ولم يدل دليل يثبت وقوع الموازنة، وحيث إن المسألة شرعية تعبدية محضة يجب الاقتصار على ما دل عليه النص، فالقول بوجودها والحال هذه يستلزم التقول على الله سبحانه من غير علم، وقد نهى عنه سبحانه بمثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[2].

ويكفي لرد الوجهين إخبار المعصوم بوجود الموازنة وعرض الأعمال على الميزان، فمن ثقلت موازينه يدخل الجنة، ومن خفت موازينه يدخل النار كما عرفت وستعرف.

وهذا الإخبار السمعي من الشرع يكشف عن بطلان دعوى النفي؛ لأن المسألة سمعية وليست بعقلية، وقد عرفت أن فيما يتعلق بشؤون الآخرة من قوانين وأحكام فوق ما يتصوره العقل ويدركه. **هذا أولاً**.

وثانياً: أن المحذور العقلي غير وجيه في الكبرى والصغرى. أما الكبرى فلأنا لا نسلم قبح الترجيح بلا مرجح، فإن القدر المتيقن الذي يحكم باستحالته العقل هو الترجح بلا مرجح، وأما الترجيح بلا مرجح فهو ممكن عقلاً، وواقع خارجاً من قبل الفاعل المختار؛ لأن الاختيار والإرادة يكفي

١ - سورة الإسراء: الآية ٣٦.

٢ - سورة الحاقة: الآية ٤٤- ٤٦.

لصحة الترجيح كما مثلوا له بطريقي الهارب ورغيفي الطالب، فإن الذي يريد الهروب وصار أمامه طريقان متساويان بالنسبة إليه من جميع الجهات فإنه لا يمكن أن يقف متحملاً الضرر والخطر؛ بدعوى أن هروبه بأي واحد من الطريقين يكون من مصاديق الترجيح بلا مرجح، مع أنا نلاحظ أن وقوفه محتجاً بهذه الذريعة مما يقبحه العقلاء، ويجدونه خارجاً عن موازين العقل والعقلاء؛ بداهة أن اختياره لأحد الطريقين وإنقاذ نفسه به يتم بالإرادة والقصد، وهي كافية للترجيح فالترجيح من غير مرجح لا يجري في الفاعل المختار لأن الاختيار مرجح نعم أن صح فهو في الفاعل بالجبر.

وأما الوجه الثاني فيجاب عنه من جهتين:

الأولى: ما عرفته من أن أدلة ترتب الجزاء على العمل ليست في مقام البيان من جميع الجهات لتصلح دليلاً على النفي.

والثانية: ما عرفت من إمكان الجمع بينها وبين الآيات والروايات الدالة على الموازنة. نعم يبقى إشكال على المثبتين لها بأن الفاضل المتبقي من المحاسن والمساوئ بعد معادلتها يكون قليلاً بلحاظ وقوع الكسر والانكسار بين المثوبات والعقوبات، ولازم ذلك أن يكون العقاب المتبقي قليلاً لا يناسب الخلود في العذاب، ولا يخفى أن الموازنة موضوعاً لا تتحقق إلاّ بشرطين:

أحدهما: أن لا يكون هناك تكفير أو إحباط في الأعمال، وإلاّ أخذ بمقتضى الحسنات في الأول والسيئات في الثاني، وبهذا يتضح أن الموازنة تختص بالأعمال التي لا يقع فيها تكفير أو إحباط .

ثانيهما: أن لا يكون الجزاء معنى عدمي، بأن يحمل العقاب على الحرمان من

الثواب، ويكون الثواب بمعنى نفي العقاب، وإلاّ لم يبق موضوع للموازنة.

وتوضيح ذلك: أن الثواب على العمل يمكن أن يكون على نحوين:

أحدهما: مجازاة كل عمل حسن بما تقتضيه الحكمة من الحسنات أو الدرجات مطلقاً.

ثانيهما: مجازاة العمل الحسن بالحسنات أو الدرجات بشرط أن لا يفعل ما يوجب العقوبة، فلو فعل ذلك يكون الجزاء هو عدم ترتب الثواب، ومثله يقال في العقاب.

والموازنة بين الأعمال تصح على النحو الأول، وأما على النحو الثاني فإنه لا يبقى موضوع للموازنة؛ لوجود طرف غالب دائماً، وعلى فرض التساوي يتساقطان ويبقى العبد كمن لم يعمل شيئاً، ولكن الأول هو الذي يتوافق مع ظواهر النصوص، وهو المركوز في الأذهان عن معنى الثواب والعقاب. نعم لا يبعد وجود طائفة من الأعمال التي يكون أثرها بمعنى سلب الأثر، كما قد تدل عليه بعض النصوص، فينبغي أن يؤخذ بمقتضى النص في الموارد التي دل عليها، ويؤخذ بالضابطة العامة في الموارد غير المنصوصة، وبذلك يتضح أن موضوع الموازنة يتحقق في الأعمال التي لا يقع فيها تكفير ولا إحباط ، وكان جزاؤها بنحو ترتب الأثر مطلقاً لا مشروطاً.

الخصوصية السادسة: استناد الحساب إلى النبي والأئمة عليهم السلام، فقد تواترت الأخبار على أن النبي والأئمة عليهم السلام هم الذين يتولون حساب الخلق، كما يشهدون عليهم بما أنهم مظهر علم الله وقدرته، وأنهم وعاء مشيئته، وأنهم يده وعينه وحكمه وعدله، وأن رضاهم رضاه، وسخطهم سخطه، وهو مما

يقضي به العقل؛ لأن محكمة الحساب تتقوم بأركان عمدتها القاضي والشاهد وصحيفة العمل، وهذا ما لا يتحقق إلاّ بالحضور والمعاينة عند المتحاسبين، وحيث إنه سبحانه منزه عن مثل ذلك تعين أن يكون من يخلفه في ذلك، ويجسد علمه وحكمته وعدله في مراتبها العالية، وليس ذلك إلاّ محمداً وآل محمد عليهم السلام، وقد تضافرت الأدلة العقلية والنقلية على أنهم عليهم السلام يملكون الولاية على التكوين والتشريع كما يملكون الولاية على الحساب والجزاء، وهو ما تواتر معناه في النصوص الكثيرة.

منها: ما ورد في رواية جابر بن عبد الله عن أبي جعفر عن علي أمير المؤمنين عليه السلام حيث عرفه بالبيان والمعاني فقال: «أما البيان فهو أن تعرف أن الله سبحانه ليس كمثله شيء فتعبده، ولا تشرك به شيئاً، وأما المعاني فنحن معانيه، ونحن جنبه وأمره وحكمه وكلمته وعلمه وحقه، وإذا شئنا شاء الله، ويريد الله ما نريده، ونحن المثاني التي أعطى الله نبينا، ونحن وجه الله الذي يتقلب في الأرض بين أظهركم، فمن عرفنا فأمامه اليقين، ومن جهلنا فأمامه سجين، ولو شئنا خرقنا الأرض وصعدنا السماء، وإن إلينا إياب هذا الخلق ثم إن علينا حسابهم»[1].

وورد هذا المضمون في رواية سماعة عن الكاظم[2] عليه السلام، وقد ورد ما يفصله بطرق العامة عن رسول الله[3] صلى الله عليه وآله، ومنها ما روي عن أبي عبد الله عليه السلام: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لأمير المؤمنين عليه السلام: يا علي، أنت ديّان هذه الأمة، والمتولي حسابها، وأنت ركن الله الأعظم يوم القيامة، إلاّ وإن المآب إليك، والحساب

١ - انظر مشارق أنوار اليقين: ص١٨١؛ المظاهر الإلهية: ج١، ص٢٩١.

٢ - الكافي: ج٨، ص١٦٢، ح١٦٧.

٣ - انظر مائة منقبة: ص٤٧ - ٤٨، المنقبة الخامسة؛ مناقب آل أبي طالب عليهم السلام: ج١، ص٢٩٢.

عليك، والصراط صراطك، والميزان ميزانك، والموقف موقفك»[١].

وهي صريحة الدلالة على أن الإمام عليه السلام يتولى الحساب، وأن الصراط والميزان يدوران مدار معرفة الإمام ومحبته بناء على تقدير ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر في قوله: «الصراط صراطك والميزان ميزانك» فيدل على الحصر، وهو ما يقتضيه الظهور والأصل الذي يستدعي حمل الألفاظ على معانيها الحقيقية، وربما يحمل على المعنى المجازي، ويراد به أن الصراط والميزان موكولان إليك، وأنت الحاكم فيهما، وهو ما قد يقتضيه السياق لوروده في سياق قوله: «إلاّ وإن المآب إليك، والحساب عليك».

والثمرة بينهما تظهر في تعيين حقيقة الصراط والميزان، فإنه على الأول يكونان من الحقائق المعنوية، بخلافه على الثاني، لكنك قد عرفت في غير مورد إمكان الجمع بالقول بهما؛ لوجود المقتضي وانعدام المانع وسيأتيك في بحث الميزان.

ومنها: ما رواه المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام في بيان معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾[٢] قال: «نحن والله هم، إلينا يرجعون، وعلينا يعرضون، وعندنا يقفون، وعن حبنا يسألون»[٣] وقد ورد هذا المضمون في فقرات الزيارة الجامعة عن الإمام الجواد عليه السلام: «وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم»[٤].

---

١ - انظر بحار الأنوار: ج٢٤، ص٢٧٢، ح٥٤؛ مشارق أنوار اليقين: ص٢٨٤.

٢ - سورة الغاشية: الآية ٢٦.

٣ - بحار الأنوار: ج٢٤، ص٢٧٢، ح٥٣؛ مشارق أنوار اليقين: ص٢٨٣.

٤ - من لا يحضره الفقيه: ج٢، ص٦١٢، ح٣٢١٣.

ومنها: رواية جابر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال: «يا جابر إذا كان يوم القيامة جمع الله عز وجل الأولين والآخرين لفصل الخطاب، ودعي رسول الله صلى الله عليه وآله، ودعي أمير المؤمنين عليه السلام، فيكسى رسول الله حلة خضراء تضيء ما بين المشرق والمغرب، ويكسى علي مثلها .. ثم يدعى بنا فيدفع إلينا حساب الناس، فنحن والله ندخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار»[١] ولعل إكساء النبي والإمام عليه السلام بالحلة يعود إلى التمييز، أو التشريف والتكريم، أو لحفظ مراسيم الحساب والمحاكمة كما هو معهود في المحاكم، أو لغير ذلك من وجوه تقتضيها الحكمة.

ومنها: ما ورد في تفسير القمي عن الصادق عليه السلام: «كل أمة يحاسبها إمام زمانها، ويعرف الأئمة أولياءهم وأعداءهم بسيماهم، وهو قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾[٢] وهم الأئمة يعرفون كلا بسيماهم، فيعطون أولياءهم كتابهم بيمينهم فيمرون إلى الجنة بلا حساب، ويعطون أعداءهم كتابهم بشمالهم فيمرون إلى النار بلا حساب»[٣] وهي دالة على ثلاث حقائق أخرى:

الحقيقة الأولى: أن كل أمة يحاسبها إمام زمانها، وهذا يتوافق مع مضامين الآيات والروايات الدالة على أن كل نبي يحاسب أمته؛ لأنه شهيد عليها، وأن النبي صلى الله عليه وآله يحاسب الجميع لأنه شهيد عليهم، نظير قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا

١ - الكافي: ج٨، ص١٤٠، ح١٥٤؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج٨، ص١٨٩- ١٩٠، ح٣١؛ بحار الأنوار: ج٢٧، ص٣١٦، ح١٤.

٢ - سورة الأعراف: الآية ٤٦.

٣ - تفسير القمي: ج٢، ص٣٨٤؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج٨، ص١٩١، ح٤٠.

جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[١] وقوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[٢] إذ فسر الشهداء بطرق الخاصة والعامة بالأئمة[٣] عليهم السلام.

وقد فصل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كيفية الشهادة بقوله: «فيقام الرسل فيسألون عن تأدية الرسالات التي حملوها إلى أممهم، فأخبروا أنهم قد أدوا ذلك إلى أممهم، وتسأل الأمم فجحدوا، كما قال الله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾[٤] فيقولون: ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾[٥] فيستشهد الرسل رسول الله صلى الله عليه وآله فيشهد بصدق الرسل وبكذب من جحدها من الأمم، فيقول لكل أمة منهم: ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٦] أي مقتدر على شهادة جوارحكم عليكم بتبليغ الرسل إليكم رسالاتهم، وكذلك قال الله لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[٧] فلا يستطيعون رد شهادته خوفاً من أن يختم الله على أفواههم، وأن تشهد عليهم جوارحهم بما كانوا يعملون، ويشهد على منافقي قومه وأمته وكفارهم بإلحادهم وعنادهم ونقضهم عهوده، وتغييرهم

١ – سورة النساء: الآية ٤١.
٢ – سورة البقرة: الآية ١٤٣.
٣ – انظر الكافي: ج١، ص١٩١، ح٤؛ شواهد التنزيل: ج١، ص٩٢؛ إحقاق الحق: ج١، ص٥٥٣.
٤ – سورة الأعراف: الآية ٦.
٥ – سورة المائدة: الآية ١٩.
٦ – سورة المائدة: الآية ١٩.
٧ – سورة النساء: الآية ٤١.

سنّته، واعتدائهم على أهل بيته عليهم السلام، وانقلابهم على أعقابهم، وارتدادهم على أدبارهم، واحتذائهم في ذلك سنّة من تقدمهم من الأمم الظالمة الخائنة لأنبيائها، فيقولون بأجمعهم: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾[1]»[2].

الحقيقة الثانية: أن كل جيل من المؤمنين يحاسبهم إمامهم الذي عاصروه وكان حجة عليهم، وهذا الزمان – زمان الغيبة – سيتولى حساب أهله حجة الله ووليه الأعظم مولانا صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف؛ لأنه الشاهد والشهيد عليهم، وهذا ما ورد مضمونه في رواية سماعة عن الصادق عليه السلام في بيان معنى الآية المزبورة حيث قال: «في كل قرن منهم – أي أمة محمد – إمام منا شاهد عليهم، ومحمد صلى الله عليه وآله شاهد علينا»[3] وهذا ما اتفقت عليه كلمة الإمامية كما قرروه في بعض كتبهم الكلامية[4] والروائية[5] والفقهية[6] والأدبية[7].

---

١ – سورة المؤمنون: الآية ١٠٦.
٢ – الاحتجاج: ج١، ص٣٦٠– ٣٦١؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص٦٦، ح٢٥٦.
٣ – التوحيد: ص٢٦١، ح٥.
٤ – انظر الاعتقادات (للصدوق): ص٨٨– ٨٩؛ تصحيح الاعتقاد: ص٩٣– ٩٤؛ بحار الأنوار: ج٧، ص٢٥٢، ح٩؛ المظاهر الإلهية: ج١، ص٢٨١.
٥ – انظر روضة المتقين: ج٥، ص٤٧٨؛ بحار الأنوار: ج٩٩، ص١٣٩، الزيارة الجامعة.
٦ – انظر الفقه (الحكم في الإسلام): ج٩٩، ص٧؛ المظاهر الإلهية: ج١، ص٢٩٧.
٧ – انظر مثلاً ما قاله العبدي:

وأنتم ولاة الحشر والنشر والجزاء ... وأنتم ليوم المفزع الهول مفزع

المناقب (لابن شهرآشوب): ج٣، ص٣١؛ الغدير: ج٢، ص٢٩٦، بل وفي قصيدة ابن أبي الحديد ورد قوله في مدح أمير المؤمنين عليه السلام: ◄

والحقيقة الثالثة: أن أهل الجنة وأهل النار يتميزون بعلائم عديدة أولاها صحف أعمالهم، وأن الذي يميزهم هم الأئمة عليهم السلام؛ إذ يعطون الفائزين كتبهم بأيمانهم، والخاسرين يعطونهم كتبهم بشمالهم، وهذا في الوقت الذي يؤكد أن الحساب يقوم بهم عليهم السلام يكشف عن معنى سرعة الحساب وسرعة تنفيذه كما ستعرف[1].

الأمر الثاني: في محاور الحساب

تؤكد الأخبار المعتبرة أن الحساب يدور حول عمل الإنسان في أربعة محاور:

الأول: العمر فيما أفناه.

والثاني: عن شبابه كيف قضاه؟

والثالث: عن رزقه واكتسابه ما هو مصدره؟ وأين أنفقه؟

والرابع: عن حب آل محمد عليهم السلام [2].

والسؤال الأول يدور عن مدة الحياة وهو عام، والثاني عن مرحلة الشباب

◄ بل أنت في يوم القيامة حاكم في العالمين وشافع ومشفع

وإليه في يوم المعاد حسابنا وهو الملاذ لنا غداً والمفزع

الروضة المختارة (شرح القصائد العلويات السبع): ص١٤١، ص١٤٣؛ شرح نهج البلاغة: ج١، ص١٤، مقدمة التحقيق؛ المظاهر الإلهية: ج١، ص٤١٩- ٤٢٠.

١ - انظر تفصيل ولايتهم عليهم السلام في الجزاء والحساب في كتاب المظاهر الإلهية: ج١، ص٢٨١، وما بعدها.

٢ - انظر بحار الأنوار: ج٧، ص٢٥٨، ح١.

بالخصوص، والثالث عن ماله وما يكتسبه الإنسان من أموال وأعمال يقتات عليها، وهذا أخص من الثاني، ويمكن أن تتلخص هذه المحاور الثلاثة بشيء واحد وهو العيش الحلال؛ لأنه يتضمن كل الواجبات واجتناب المحرمات، فيكون السؤال الآخر في مقابله هو حب أهل البيتﻊ فالرواية تؤكد أن حساب الآخرة يدور على طاعة الجوارح وهي الفروع، وطاعة الجوانح وهي الأصول، ومن الواضح أن حب أهل البيتﻊ هو الأهم؛ لأنه يتضمن الإيمان بكل أصول الدين وفروعه، كما يتضمن التبري من أعداء الله وأعداء رسوله؛ لأنه لا يمكن أن يكون الإنسان محباً لهمﻊ وهو محب لأعداء الله أو أعداء رسوله، أو محباً لأعدائهمﻊ.

وهذا ما يؤكده الحديث النبوي المروي عن الصادقﻉ قال: قال رسول اللهﷺ: «أنا أول قادم على الله، ثم يقدم عليّ كتاب الله، ثم يقدم عليّ أهل بيتي، ثم يقدم عليّ أمتي، فيقفون فيسألهم: ما فعلتم في كتابي وأهل بيت نبيكم؟»[1] أي ما فعلتم في احترامهما وأكرامهما وإطاعتهما؟

والمستفاد من الأخبار الشريفة أن الحساب يقع على ثلاثة قضايا:

الأولى: الدين، فيختص السؤال بالمسلمين عامة؛ لما دل على أن أهل الشرك لا تنصب لهم الموازين، وإنما يحشرون إلى جهنم زمرا لثبوت الحجة عليهم سلفاً، وهو ما نص عليه السجادﻉ في حديث قالﻉ: «اعلموا - عباد الله - أن أهل الشرك لا تنصب لهم الموازين، ولا تنشر لهم الدواوين، وإنما يحشرون إلى جهنم زمراً، وإنما تنصب الموازين وتنشر الدواوين لأهل

١ - بحار الأنوار: ج٧، ص٢٦٥، ح٢٢.

الإسلام»[١] ويستفاد من الأخبار ومن حكم العقل وإجماع أهل المعقول أن الكفار الذين يحشرون إلى جهنم دون حساب هم العامدون في الكفر، وأما الجاهلون فهم صنفان: مقصر وقاصر، والأول يلحق بالأول استحقاقاً؛ لأن التقصير اختياري فيلحقه بالعمد، وربما يناله العفو أو الشفاعة تفضلاً، وأما القاصر فربما يناله العفو والشفاعة تفضلاً، أو يمتحن في الآخرة من جديد؛ لتضافر الأدلة الأربعة على أنه لا يعاقب[٢].

الثانية: الولاية لأهل البيت عليهم السلام ليتميز المؤمن بهم من غيره؛ وقد عرفت أن الإيمان بهم يتضمن الإيمان بأصول الدين وفروعه، وهو ما تواترت به الأخبار كالنبوي الشريف الذي رواه الرضا عليه السلام عن أبائه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن: «أول ما يسأل عنه العبد حبنا أهل البيت عليهم السلام»[٣] والمقصود من الحب هنا الجهتان الموضوعية والطريقية، أي التي يترتب عليها الانقياد والطاعة والإتباع جمعاً بين الأدلة.

وفي رواية أخرى بسنده عن آبائه عليهم السلام عن رسول صلى الله عليه وآله وسلم في خطاب لعلي عليه السلام: «يا علي: إن أول ما يسأل عنه العبد بعد موته شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله، وأنك ولي المؤمنين بما جعله الله وجعلته لك،

١ - الكافي: ج٨، ص٧٥، ح٢٩؛ الآمالي (للصدوق): ص٥٩٥؛ مستدرك الوسائل: ج١١، الباب ٤٠ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ص٣٣١، ح١٨؛ بحار الأنوار: ج٧، ص٢٥٩، ح٢؛ حق اليقين: ص٤٢٧.

٢ - انظر الفقه (البيع): ج٤، ص٢٦٥.

٣ - عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص٦٧، ح٢٥٨.

فمن أقر بذلك وكان يعتقده صار إلى النعيم الذي لا زوال له»[١] والتصنيف الثلاثي الجاري في المرحلة الأولى يجري هنا أيضاً.

الثالثة: التقوى والعمل الصالح، ليتميز المطيع من العاصي من الشيعة والموالين، فإن تفاوت الدرجات يقاس على أساس التقوى والعمل، وقد تضافر هذا المعنى في الأخبار، ففي رواية أبي بصير قال: قال الصادق عليه السلام: «شيعتنا أهل الورع والاجتهاد، وأهل الوفاء والأمانة، وأهل الزهد والعبادة، أصحاب أحدى وخمسين ركعة في اليوم والليلة، القائمون بالليل، الصائمون بالنهار، يزكون أموالهم، ويحجون البيت، ويجتنبون كل محرم»[٢].

والتحقيق أن ولاية الأئمة عليهم السلام هي الحقيقة الجامعة لمضمون الإيمان والعدالة، ومن هنا تؤكد الأخبار على أن الإيمان بهم عليهم السلام هو مفتاح الجنة، وأن مخالفتهم طريق النار، فالمؤمن بهم والمتبع لأمرهم هو مؤمن بالله ورسوله، ومتبع لهما، والمخالف لهم مخالف لهما، والذي يعصي الله ورسوله جزاؤه جهنم، وذلك لأن حب آل محمد عليهم السلام له جنبة موضوعية، أي أن حبهم فرض واجب على الجميع بمقتضى آية المودة[٣] والروايات المتواترة الدالة على أن حبهم إيمان، وبغضهم كفر، ونحو ذلك[٤]، وله جنبة طريقية

---

١ - عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص١٣٧، ح٨.

٢ - صفات الشيعة: ص٢، ح١.

٣ - أي قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ سورة الشورى: الآية ٢٣.

٤ - انظر الصحيفة السجادية: ص١٦؛ خلاصة عبقات الأنوار: ج٩، ص١٦٣؛ بحار الأنوار: ج٢٣، ص٢٣٢- ٢٤١؛ إحقاق الحق: ج٣، ص٣؛ دلائل الصدق: ج٢، ص٧٧؛ الغدير: ج٣، ص١٨٣.

أيضاً، لأن الحب طريق إلى الطاعة والاقتداء في القول والعمل، وقد مر عليك في مباحث الإمامة تفصيل ذلك.

وعليه فإذا حشر العبد إلى ربه وكان مؤمناً بآل محمد الذين جعلهم الله حججاً على عباده وخلفاء لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ينظر في أعماله وتقواه ليعطى جزاءه على حسب طاعته.

وأما إذا كان مخالفاً لهم أو مبغضاً لهم فإنه لا يبقى مورد لمحاسبته على تقواه؛ لأن الذنب الكبير يقطع سبيل السؤال عن الصغير، وذات الأمر يأتي في الطاعة، فإن الذي يلتزم بالطاعة في الفريضة الكبيرة قد يغطي حسنها على بعض المعاصي الصغيرة، وهي قضية يقر بها العقل، ويعمل بمقتضاها العقلاء. أما حكم العقل فلأنه يرى أن حسن الولاية وعلو مقامها يغلب على قبح المعصية بما قد يمحيها أو يغفرها، وأما حكم العقلاء فلأن المعهود من سيرتهم أنهم يمدحون أهل الطاعات في الأمور الكبيرة، ولأجلها يغضون الطرف عن بعض الصغائر، خاصة مع الالتفات إلى أن البشر غالباً ما يخطأ أو يسيء، فإذا كان مطيعاً ملتزماً في المهام الكبرى فإن العفو يلازمه فيما هو أدنى.

ومن هنا تؤكد الأخبار على أن ولاية آل محمد عليهم السلام وطاعتهم توجب غفران الذنوب، فقد روى الشيخ قدس سره بسنده عن الحسين بن مصعب قال: سمعت جعفر بن محمد عليه السلام يقول: «من أحبنا لله وأحب محبنا لا لغرض دنيا يصيبها منه، وعادى عدوّنا لا لإحنة كانت بينه وبينه، ثم جاء يوم القيامة

وعليه من الذنوب مثل رمل عالج[١] وزبد البحر غفرها الله تعالى له».[٢]

ونلاحظ أن الحديث الشريف كشف عن غفران الذنوب بشرطين:

أحدهما: أن يكون العبد المذنب محباً لآل محمد عليهم السلام؛ لأن الله سبحانه أمر به، وأوجبه عليه، وليس لمصلحة شخصية.

ثانيهما: أن يكون معادياً لأعدائهم؛ لأن الله سبحانه أمر بالتبري من أعداء الله وأعداء رسوله، ومن أجلى مصاديق الحب لله والبغض لله هو الإمامة بتقديم من أمر الله بتقديمه واتباعه في القول والعمل والاجتناب عمن نهى الله سبحانه عن اتباعه والإئتمام به.

ومن الواضح أن هذا الإئتمام يشكل عمق الإيمان بالله وجوهره، والمخالفة فيه تشكل عمق عدم الإيمان وجوهره، ولذا صار الأول مفتاحاً لمحو الذنوب، والثاني مفتاحاً للعذاب الدائم، وهذا ما تؤكده الأخبار الكثيرة الدالة على أن حب علي حسنة لا تضر معها سيئة، وبغض علي سيئة لا تنفع معها حسنة[٣].

وبذلك يتضح أن حب آل محمد عليهم السلام واتباعهم في القول والعمل يجعل العبد في أعلى مراتب القرب والجزاء الأحسن، كما أن حبهم مع بعض الطاعة وبعض العصيان يوجب غفران ذنوب العاصين فينالون الجزاء الحسن، وأن مجرد حبهم يوجب غفران الذنوب، ويجعل العبد في الرتبة الثالثة من الجزاء. ولا يخفى أن

١ - نقل أن عالج جبال متواصلة يتصل أعلاها بالدهناء، والدهناء بقرب يمامة وأسفلها بنجد، وفي كلام البعض رمل عالج محيط بأكثر أرض العرب. مجمع البحرين: ج٣، ص٢٣٠، (علج).

٢ - الأمالي (للطوسي): ص١٥٦، ح١١؛ بحار الأنوار: ج٢٧، ص٥٤، ح٧.

٣ - عوالي اللآلئ: ج٤، ص٨٦، ح١٠٣.

الحب الحقيقي يتقوم بركنين هما: التولي والتبري فلا يكفي أحدهما في صدق الحب الكامل، وقد مر عليك بعض التفصيل عن ذلك فيما تقدم.

ويتحصل: أن الحساب حقيقة واقعة لا محالة، وسيسأل الناس في المحشر عن إيمانهم ومعتقدهم، كما يسألون عن أعمالهم، ومفتاح السؤال والمحاسبة هو حب محمد وآل محمد عليهم السلام، فإن كان العبد محباً لهم ومبغضاً لأعدائهم يسأل عن باقي أعماله، وإلاّ كان فاقداً لأهلية المساءلة فيجازى على معتقده الباطل، فضلاً عن عمله. نعم هذا إذا كان عالماً عامداً، وكذا إذا كان جاهلاً مقصراً فإنه يستحق العذاب، إلاّ إذا تفضل الباري عليه بمحو ذنوبه بعد أن يقر بخطئه فيعذبه مدة، ثم يعفو عنه، أو يعفو عنه بشفاعتهم عليهم السلام، وأما الجاهل القاصر فربما يمتحن وربما يعفى عنه، وحيث إن الله سبحانه أراد أن تجري المحاسبة في ضمن نظام المحاكم اقتضت حكمته أن يجعل شهوداً على العبد، لكي يقطع سبيل العذر والتبرير.

الأمر الثالث: في الشهود

فإن لله سبحانه شهوداً كثيرة تظهر شهادتها عند الحساب.

الشاهد الأول: علمه سبحانه، فإنه شاهد على عباده لا تخفى عليه منهم خافية، ومن الواضح أن المذنب إذا علم بأن الحاكم شاهد وعالم بحقيقة ذنبه لا يبقى معه مجال لعذر، ولو طبق عليه العقاب يجده عدلاً واستحقاقاً، وهو أمر ضروري لا خلاف فيه بين أهل الأديان والشرائع. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾[1] وتدل الآيات والروايات

١ - سورة الحج: الآية ١٧.

على أن محاسبة الله سبحانه لعباده تتم بأسرع مما يتصور؛ إذ وصف سبحانه نفسه بأنه أسرع الحاسبين[١]، وأنه سريع الحساب[٢]، وفي الأخبار أنه سبحانه يحاسب جميع عباده في مقدار حلب شاة،[٣] وفي رواية أخرى يحاسبهم في مقدار لمح البصر[٤]، وهو ما يقضي به العقل؛ لأنه سبحانه ليس بجسم ولا جسماني، ومحيط علماً بكل شيء، وقادر على كل شيء، فلا مانع من محاسبة الجميع بسرعة فائقة من دون أن يختلط حساب بعضهم مع بعض، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سئل كيف يحاسب الله الخلق ولا يرونه؟ قال: «كما يرزقهم ولا يرونه»[٥].

فما يقتضي طول المدة هو المحاسبة بالآلات والجوارح الجسمية، وربما يراد به أن حسابه سبحانه يكون بمقتضى علمه، فيعطي كلاً جزاءه لعلمه بما عمل، وربما يراد به ما تقدم من أن الأعمال والصفات تتجسم في الآخرة، فيكون مصير كل إنسان معلوماً من عمله، وربما تكون آثار الأعمال ملازمة لجوارح الإنسان وجوانحه التي عمل بها، ولو قدر وجود أجهزة دقيقة تنظر أو تسجل الأعمال الدقيقة لاستطاعت أن تكشف عدد النظرات الآثمة التي تعملها العين، وعدد الكلمات القبيحة التي تعملها الألسنة، أو الكلمات التي تسمعها الآذان، كما

---

١ – إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ سورة الأنعام: الآية ٦٢.

٢ – إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ سورة البقرة: الآية ٢٠٢.

٣ – الأمالي (للمرتضى): ج٢، ص٥٤؛ بحار الأنوار: ج٧، ص٢٥٤، باب ١١؛ شرح أصول الكافي: ج١١، ص٢٧٩.

٤ – انظر مجمع البيان: ج٢، ص٥١-٥٢، تفسير الآية ٢٠٢ من سورة البقرة.

٥ – نهج البلاغة: ج٤، ص٧٢، رقم ٣٠٠؛ روضة الواعظين: ص٣٣؛ الأمالي (للمرتضى): ج١، ص١٠٣؛ مجمع البيان: ج٤، ص٧٥؛ تفسير الآية٦٢ من سورة الأنعام.

تكشف الأجهزة اليوم آثار عمل اليد وبصمة الإبهام، وكذا ما يفعله في نفسه وقلبه، فلو كان الحساب يستند إليها لا يحتاج إلى وقت ولا إلى طول مدة، وعليه ينبغي أن تحمل الروايات الدالة على طول المدة على حساب الملائكة، أو على طول مدة المحاسبة لا الحساب، أو على الحالة النفسية والشعورية للعبد المذنب.

الشاهد الثاني: النبي والوصي عليه السلام، فإن كل نبي سيكون شاهداً على أمته، وهو قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾[1].

ولم تصرح الآية بأن الشاهد في كل أمة هو النبي، إلاّ أن قرينة العقل تقضي بذلك؛ لأن الشاهد على الأمة لا بد وأن يتمتع بثلاث خصوصيات:

الأولى: أن يكون ذا مقام معنوي رفيع حتى يليق بالشهادة عند الله، ويكون قوله مصدقاً في مقام المحاسبة.

الثانية: أن يكون محيطاً إحاطة علمية بحقائق الأعمال وما يختلج في القلوب والنفوس، كما يحيط بالأعمال في جميع الأمكنة والأزمنة؛ بداهة أن الشهادة مشروطة بالحضور الحسي أو العلمي.

الثالثة: أن يكون معصوماً من الخطأ والنسيان؛ ليكون شاهداً عدلاً في تحمل الشهادة وفي أدائها.

وهذه الخصوصيات الثلاث لا تليق إلاّ بمقام النبي، وأظهر المصاديق وأكملها هو المصطفى محمد صلى الله عليه وآله، وأوصياؤه الأطهار عليهم السلام وخلفاؤه وهو ما

---

١ - سورة النحل: الآية ٨٩.

دل عليه قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾.

وقد اتفق المسلمون عليه من حيث الأصل وإن اختلفوا في مصداق الشاهد بعد النبيﷺ؛ إذ اتفقوا على ضرورة وجود شاهد حجة في كل عصر وزمان دفعاً للتسلسل؛ إذ لو لم يكن الشاهد معصوماً احتاج هو الآخر إلى شاهد معصوم[1]، وهو لا ينطبق إلّا على قول الإمامية، وبه تضافرت النصوص، نظير قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[2] حيث فسر المؤمنون بالأئمةعليهم السلام.

إذ لا تصدق الرؤية لأعمال الأمة لجميع المؤمنين، ولا لجماعة منهم غير معصومة؛ لمخالفتها للبداهة والوجدان والاجماع والعقل، فضلاً عن نصوص الشرع، وتؤكد مجموع هذه الآيات على ثلاث حقائق:

الأولى: أن النبي والإمامعليه السلام يحيطان علماً بالوجود فيعلمان بكل ما سوى الله من أحداث ووقائع، ولا ينحصر علمهما بما كان من أفعال الجوارح، بل حتى ما يدور في جنحات الجوانح. كل ذلك بإذن الله وقدرته.

الثانية: أن النبي والإمامعليه السلام حيان لا يموتان بإذن الله سبحانه كما يموت الناس، فهما حتى في عالم البرزخ مطلعان على أسرار العوالم، ولاطلاعهما طريقان: طريق الإخبار عبر الملائكة وطريق الإحاطة الروحية، فلا يفترق حال النبي والإمام بين الحياة والموت.

---

١ - انظر مجمع البيان: ح٦، ص١٩٠؛ تفسير الأمثل: ج١٨، ص٢١٦؛ تفسير الرازي: ج٧، ص٨٤؛ روح المعاني: ج١٤، ص٦٠٤- ٦٠٥، تفسير الآية المزبورة.

٢ - سورة التوبة: الآية ١٠٥.

الثالثة: أن الإمام عليه السلام كالنبي صلى الله عليه وآله في المقامات المعنوية والمهام التكوينية والتشريعية، إلاّ النبوة وعلو الرتبة، ومن هنا تأتي الشهادة في رتبتين شهادة الإمام على الأمة وشهادة النبي على الإمام عليه السلام، وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(١) ولا شك في أن الأمة الوسط هم الأئمة عليهم السلام؛ لعدم انطباق الخصوصيات الثلاث المتقدمة إلاّ عليهم، وهو ما وردت به الأخبار المتواترة.

ففي رواية بريد العجلي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن معنى الآية. قال عليه السلام: «نحن الأمة الوسطى، ونحن شهداء الله على خلقه وحججه في أرضه ... فرسول الله الشهيد علينا بما بلغنا عن الله عز وجل، ونحن الشهداء على الناس، بمن صدق صدقناه يوم القيامة، ومن كذب كذبناه يوم القيامة»(٢).

وفي رواية أخرى في جواب من توهم أن المراد من الأمة الوسط هم عموم المسلمين. قال عليه السلام: «أفترى أن من لا تجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر يطلب الله شهادته يوم القيامة ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية؟ »(٣) وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: «لا يكون شهداء على الناس إلاّ الأئمة والرسل، فأما الأمة فإنه غير جائز أن يستشهدها الله تعالى على الناس وفيهم من لا تجوز شهادته في الدنيا على حزمة بقل»(٤).

١ – سورة البقرة: الآية ١٤٣.

٢ – الكافي: ج٢، ص١٩٠، ح٢.

٣ – تفسير العياشي: ج١، ص٦٣، ح١١٤، من سورة البقرة.

٤ – المناقب (لابن شهر أشوب): ج٣، ص٣١٤، تفسير نور الثقلين: ج١، ص١٦٧، ح٤١١؛

وقد ورد هذا المضمون من طرق العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً[١]، وهذا ما يؤكده المعنى اللغوي، فإن الوسط في اللغة هو العدل والخير، ففي العين: الوسط من الناس وكل شيء أعدله وأفضله[٢]، وهو لا ينطبق إلّا على المعصوم؛ بداهة أن غير المعصوم لا ينجو من الإفراط والتفريط عمداً أو جهلاً أو سهواً.

وبذلك يعرف أن المراد من الأمة الجماعة التي تتصف بالوسطية بالمعنى المذكور، وهم المعصومون من آل محمد عليهم السلام، فيشمل علياً وفاطمة إلى المهدي عجل الله فرجه، وهو يتوافق مع معنى الأمة لغة، فإنها في اللغة الجماعة التي يجمعها أمر واحد[٣]، فتفسيرها بهم عليهم السلام من باب المصداق الأكمل، أو يكون اصطلاحاً خاصاً هنا دلت عليه القرينة، وهو الوسطية، فيكون من باب إطلاق لفظ العام على الخاص، وأما إذا فسرت الأمة بالدين الحق المخالف لسائر الأديان كما ورد عن الخليل[٤] فالأمر فيه أجلى.

نعم ورد عن الباقر عليه السلام ما يجمع في الشهادة بين ثلاث مراتب، وهي شهادة الرسول على الأئمة عليهم السلام، وشهادة الأئمة عليهم السلام على شيعتهم، وشهادة شيعتهم والموالين على سائر الناس[٥]، وبذلك يمكن الجمع بين الأدلة كما

بحار الأنوار: ج٢٣، ص٣٥١، ح٦٣.

١ – شواهد التنزيل: ج١، ص١١٩.

٢ – العين: ج٧، ص٢٧٩،(وسط).

٣ – مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٦،(أم).

٤ – العين: ج٨، ص٤٢٧، (أمم)؛ وانظر معجم مقاييس اللغة: ص٢٧، (أم).

٥ – الكافي: ج١، ص٢٥١، ح٧؛ تفسير نور الثقلين: ص١٦٦، ح٤٠٤.

يمكن أن يجمع بين أقوال المفسرين المختلفة، فتأمل.

نعم اختلفوا في معنى الشهادة على قولين:

القول الأول: هو المشهور. ذهب إلى أن المراد من الشهادة هنا الحضور العلمي، باعتبار أن كل نبي ووصي شاهد على أعمال أمته في حياته وبعد مماته استناداً إلى مقامه الروحاني ومراتبه المعنوية الإلهية، فيطلع على كل أعمال الأمة لكي يؤدي شهادته عليها في الآخرة بإذن الله سبحانه، وهذا القول يتفق مع المعنى اللغوي للشهادة، وهو المتبادر من ظاهر الآيات وحكم العقل بلزومه.

القول الثاني: ذهب إلى أن الشهادة هنا هي شهادة العمل، بمعنى أن يكون عمل النبي والوصي عليه السلام نموذجاً وحجة على الأمة، فيكون الميزان الذي يحتكم إليه، فيحكم على من طابقه بالإيمان والطاعة، وعلى من خالفه بالعصيان أو بعدم الإيمان، وهذا أمر كثير الوقوع في الخارج لدى الحكم على صحة الأشياء وفسادها وصواب الأعمال وخطئها[1]، وفيه تكلف شديد لم يساعد عليه دليل نقلي ولا ضرورة عقلية، بل يتنافى مع ما عرفت من الآيات والروايات الصريحة في الشهادة الحضورية، فضلاً عما يستلزم من التقدير في أكثر الآيات والروايات الواردة في الشهادة، وفيه ما فيه، على أن لا مانع من الجمع بينهما، سوى أن سيرة النبي والإمام عليه السلام تكون شهادة في الدنيا وهما شاهدان في الآخرة.

الشاهد الثالث: الملائكة. إذ جعل الله سبحانه لكل إنسان ثلاثة أصناف من الملائكة تلازمه، صنف يحرسه ويحميه من الأخطار، وإليه أشار قوله

---

١ - انظر تفسير الأمثل: ج٣، ص١٦٥.

تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾[1] والمعقبات جمع معقبة، وتعني الملائكة التي تعقب الإنسان، وتعمل على حفظه بشكل متناوب ومستمر إلى آخر أجله، وقد وردت بصيغة الجمع؛ لأن الأخبار دلت على أنهم أربعة، ملكان يحفظانه في النهار، وملكان في الليل[2]، ويحفظانه من بين يديه ومن خلفه من الحوادث والآفات والأمراض التي قد تهلكه قبل الأجل، وكل عاقل يدرك أنه لولا حفظ الله سبحانه للإنسان لمات وهو طفل صغير من تسمم الجو، أو تلوثه، أو اختراق الجراثيم المليونية أو الأكثر المنتشرة في الهواء والماء وسائر الأطعمة، أو أهلكته عوامل الطبيعة، أو الوساوس والقلق والأمراض الروحية، أو العوارض الخارجية مثل: الجن والوحوش والحوادث الطارئة، فإن الإنسان بطبعه كائن ضعيف لا يقدر على حماية نفسه من العوارض لولا حفظ الله وحمايته.

وعليه فالمعقبات وصف للملائكة؛ لأنها تتعاقب بتبادل المهام ليلاً ونهاراً، وهو ما وردت به الأخبار، فعن أمير المؤمنين عليه السلام في معنى المعقبات: «أنهم ملائكة يحفظونه من المهالك حتى ينتهوا به إلى المقادير، فيخلون بينه وبين المقادير»[3].

وفي مضمون رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام يحفظونه بأمر الله من بئر يقع فيه، أو يقع عليه حائط ، أو يصيبه شيء، حتى إذا جاء القدر خلوا بينه

١ – سورة الرعد: الآية ١١.
٢ – انظر تفسير القمي: ج١، ص٣٦٠؛ مجمع البيان: ج٦، ص١٨–١٩، تفسير الآية المزبورة.
٣ – مجمع البيان: ج٦، ص١٩؛ تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٤٢٢،ح٤٤.

وبينه يدفعونه إلى المقادير[١]، وعن الصادق عليه السلام في رواية الاحتجاج: «إن الله برأفته ولطفه أيضاً وكلهم بعباده يذبون عنهم مردة الشيطان وهوام الأرض وآفات كثيرة من حيث لا يرون بإذن الله إلى أن يجيء أمر الله عز وجل»[٢].

وصنف آخر يحصي عليه أعماله وأقواله في الدنيا، وإلى الأول أشار قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٣] وإلى الثاني أشار قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[٤].

ونلاحظ هنا أن هذا الصنف من الملائكة يتصف بأنه حافظ لا ينسى ولا يغفل، وهو في عين الحال كريم أي مكرم عند ربه كناية عن المكانة والسلطة التي يحظى بها حتى يحيط علماً بأفعال بني آدم وأقوالهم، مع أنهم أشرف من خلق، ومن اللطائف أن هؤلاء الملائكة يكتبون ما يعمل الإنسان وليس مجرد يحفظونه، ولعل ذلك لأجل إظهار مزيد الدقة وشدة الحساب، أو لإعداد صحيفة أعمال الإنسان التي تكتمل في القبر عند حضور الملكين، ثم يختمانها ويعلقانها في عنقه لتكون شاهدة عليه في القبر وفي الحشر.

ومن الواضح أن هذا من اللطف لأنه يزيد في داعي التقوى والطاعة خوفاً من دقة الحساب، وهو ما ورد عن الصادق عليه السلام حينما سئل عن علة وضع الملائكة لتسجيل أعمال الإنسان مع أن الله سبحانه عز وجل يعلم السر وأخفى، ولا يحتاج إلى شهادة الملائكة؟ قال عليه السلام: «استعبدهم بذلك،

١ - انظر تفسير القمي: ج١، ص٣٦٠؛ تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٤٢١، ح٤٢.
٢ - الاحتجاج: ج٢، ص٩٥.
٣ - سورة الانفطار: الآيات ١٠-١٢.
٤ - سورة ق: الآية ١٨.

وجعلهم شهوداً على خلقه؛ ليكون العباد لملازمتهم إياهم أشد على طاعة الله مواظبة، وعن معصيته أشد انقباضاً، وكم من عبد يهم بمعصية فذكر مكانهما فارعوى وكف، فيقول ربي يراني، وحفظتي عليّ بذلك تشهد»[١].

ومن هنا أسماهم الباري بالرقيب، وهو اسم ملك اليمين، والعتيد اسم ملك الشمال على ما هو المشهور بين المفسرين[٢]، وربما يكون الرقيب العتيد وصفين لكل واحد من الملكين، وهو الأقرب إلى الظهور؛ لاحتياج المعنى الأول إلى تقدير واو العاطفة، ولا داعي إليه مع الظهور السليم عن المانع العقلي أو الشرعي.

والرقيب هو الذي يراقب الإنسان ويحفظ أعماله[٣]، والعتيد الحاضر المهيأ المستعد للعمل[٤]، وهما صيغة مبالغة بمعنى فاعل، فتدل على شدة الرقابة والحفظ والحضور.

وقد خص القول بالرقابة والحضور مع أن قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ في الآية السابقة دال عليه للتأكيد على غاية الدقة والشمول؛ لأن التعبير: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ يشمل كل لفظ صغير أو كبير له معنى أو خال من المعنى.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنهما يحصيان حتى عدد الأنفاس[٥]، فلذا تكون

١ - الاحتجاج: ج٢، ص٩٥.

٢ - انظر تفسير الأمثل: ج١٧، ص٢١.

٣ - انظر معجم مقاييس اللغة: ص٣٩٦، (رقب)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٦٢، (رقب)؛ مجمع البحرين: ج٢، ص٧٢، (رقب).

٤ - معجم مقاييس اللغة: ص٧٠٦، (عتد)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٤٥، (عتد)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٩٨، (عتد).

٥ - انظر نهج البلاغة: ج٢، ص٥٢، الخطبة ١٥٧.

حاثة للعباد على مزيد من الرقابة والمواظبة على أفعالهم، وهو ما يؤكد قوله تعالى: ﴿يَوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾[١] وللتأكيد على أهمية القول واللسان في التحكم بآخرة الإنسان كما له من الأهمية في التحكم في دنياه فإن أكثر اللسان هو منشأ الخير والشر؛ لأن بواسطته يتم نقل المعلومة، وبه يقع التعليم والتعلم في كل شيء بنحو السبب التام أو جزء السبب.

ونلاحظ هنا أن ملكاً واحداً إذا كان رقيباً عتيداً لا يفلت منه الإنسان، فما بالك إذ كانوا أربعة يتناوبون عليه؟ وتؤكد الأخبار أن ملك اليمين يكتب حسناته، وملك الشمال يكتب سيئاته، وملك اليمين أمير على ملك الشمال، فإذا عمل الإنسان حسنة كتبها ملك اليمين بعشر أمثالها، وهو ما وعد الله سبحانه به؛ إذ قال سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[٢] وإذا عمل سيئة فأراد ملك الشمال أن يكتبها أمره صاحب اليمين أن يمسك عن الكتابة سبع ساعات، فإن استغفر الله منها وتاب لم يكتب عليه شيء، وإلاّ كتبها سيئة واحدة[٣].

وفي رواية أخرى أن ملكي الليل وملكي النهار يأتيان المؤمن عند حضور صلاة الفجر، فإذا هبطا صعد الملكان الموكلان بالليل، فإذا غربت الشمس نزل إليه الموكلان بكتابة الليل، ويصعد الملكان الكاتبان بالنهار بديوانه إلى الله عز وجل، فلا يزال ذلك دأبهم إلى وقت حضور أجله، فإذا حضر أجله قالا للرجل الصالح: جزاك الله من صاحب عنا خيراً، فكم من عمل صالح

---

١ - سورة الكهف: الآية ٤٩.

٢ - سورة الأنعام: الآية ١٦٠.

٣ - انظر جوامع الجامع: ص٤٦١؛ تفسير نور الثقلين: ج٧، ص١٢٢، ح٢٤، ح٢٥؛ وانظر سعد السعود: ص٢٢٥- ٢٢٦؛ ح١.

أريتناه؟ وكم من قول حسن اسمعتناه؟ ومن مجلس خير أحضرتناه؟ فنحن اليوم على ما تحبه، وشفعاؤك إلى ربك، وإن كان عاصياً قالا له: جزاك الله من صاحب عنا شراً، فلقد كنت تؤذينا، فكم من عمل سيء أريتناه؟ وكم من قول سيء أسمعتناه؟ ومن مجلس سوء أحضرتناه؟ ونحن لك اليوم على ما تكره، وشهيدان عند ربك[١].

ومن لطف الله سبحانه بعبده هو مكافأته للحسنة بعشرة، وتسجيلها له ولو لم يعمل إذا ابتلاه بما يمنع منها، فعن النبي ﷺ: «أنه ما من أحد من المسلمين يبتلى ببلاء في جسده إلاّ أمر الله تعالى الحفظة فقال: اكتبوا لعبدي ما كان يعمل وهو صحيح ما دام مشدوداً في وثاقي - أي بسبب مرض أو سفر- فيكتب له ما كان يعمل وهو صحيح مقيم[٢].

نعم يشترط في هذا التعويض أن يكون العبد مواظباً على العمل في وقت صحته وإقامته فمنعه عنه البلاء أو الابتلاء، وهل هذا التعويض في مقابل الألم الذي نزل به من ربه حسب نظرية الأعواض التي تقتضيها الحكمة الإلهية إذ قرر في علم الكلام أن الله سبحانه يعوض العبد عن كل ألم أو حرمان وقع فيه من دون اختياره، كما لو شاء الله سبحانه أن يبتليه بمرض ملازم، أو بفقدان ولده، أو شاء أن يمتحنه بفقر أو ظلم ونحو ذلك، سواء لاختياره هو أو لاختيار غيره به، أم أنه خير ورحمة ينالهما من باب التفضيل واللطف؟ احتمالان، ولا تنافي بين الأمرين، بناء على أن نظرية الأعواض هي

١ - سعد السعود: ص٢٢٥- ٢٢٦؛ تفسير نور الثقلين: ج٧، ص١٢١، ح٢٠.
٢ - انظر بحار الأنوار: ح٥٩، ص١٨٧، ح٣٤، ح٣٥؛ وانظر روح المعاني: ج٢٦، ص١٦٥، تفسير الآية المزبورة.

الأخرى مبنية على اللطف والتفضل لا الاستحقاق[١].

والثاني أقرب إلى الظهور، وربما يجمع بينهما بأن نظرية العوض تقتضي جبران الضرر أو الحرمان بمثله، إلاّ أن الزيادة عليه تفّضل.

ويدل على الثاني الروايات الدالة على أن الله سبحانه يجازي العبد على النية الحسنة ولو لم يعملها، بخلاف السيئة، ففي رواية أبي بصير عن الصادق عليه السلام قال: «إن المؤمن ليهم بالحسنة ولا يعمل بها فتكتب له حسنة، وإن هو عملها كتبت له عشر حسنات، وإن المؤمن ليهم بالسيئة أن يعملها فلا يعملها فلا تكتب عليه»[٢] وغيرها مما هو متضافر[٣].

وبذلك يتضح أن صحيفة الأعمال التي تحشر مع العبد هي عبارة عما سجله الكرام الكاتبين من الأعمال، وما أقره العبد في قبره لمنكر ونكير، وهو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾[٤] وهو الكتاب ينشر أمام العبد يوم القيامة فيقرأه ويكفيه الحجة، كما قال سبحانه: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[٥].

وهناك صنف ثالث من الملائكة يسوق العبد في المحشر، ويشهد عليه في

---

١ – انظر تفصيل النظرية في كشف المراد: ص٣٦٠، المسألة الرابعة عشرة؛ القول السديد: ص٣١٨، ما بعدها.

٢ – الكافي: ج٢، ص٤٢٨، ح٢.

٣ – الكافي: ج٢، ص٤٢٨، ح٤.

٤ – سورة القمر: الآية ٥٢– ٥٣.

٥ – سورة الإسراء: الآية ١٤.

الحساب، وإليه أشار قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[١] والمشهور بين أهل التفسير أن السائق ملك يسوق العبد إلى الحساب، والسوق هو الحث على السير[٢]، والشهيد ملك آخر يشهد له أو عليه، أو يشهد بقراءة كتابه الذي ألزم في عنقه، وحشر حاملاً إياه، وربما يكون ملك واحد يتصف بالوصفين معاً، فيكون سائقه وشاهده[٣]، وعليه يكون العطف للصفة، بخلاف الأول فإنه يكون للموصوف، والمشهور بين المفسرين هو الأول، وهو الأقرب إلى الظهور[٤].

وفي نهج البلاغة ما يدل عليه[٥]، ويعضده رواية جابر بن يزيد عن الصادق عليه السلام: «أن السائق هو أمير المؤمنين عليه السلام، والشهيد رسول الله صلى الله عليه وآله»[٦] وقريب منه ورد بطرق العامة[٧]، وهو من باب بيان أكمل المصاديق، أو بيان مراتب السلسلة الطولية، فإن الملك مأمور بأمرهما، مطيع لهما عليهما السلام، فيكون الإمام هو السائق بواسطة الملك، كما أن النبي صلى الله عليه وآله هو الشاهد بواسطته، ويتوافق هذا المضمون مع ما عرفت من أن كل نبي شاهد على أمته، والنبي

١ - سورة ق: الآية ٢١.
٢ - مجمع البيان: ج٩، ص١٤١؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٤٦٤، (سوق)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٤٧٦، (سوق).
٣ - تفسير كنز الدقائق: ج١٢، ص٢٧٤، تفسير الآية المزبورة.
٤ - مجمع البيان: ج٩، ص٢٤٣؛ تفسير الأمثل: ج١٧، ص٢٥-٢٦؛ روح المعاني: ج٢٦، ص٤٦٥، تفسير الآية المزبورة.
٥ - نهج البلاغة: ج١، ص١٤٨، الخطبة ٨٥.
٦ - تأويل الآيات الباهرات: ج٢، ص٦٠٩، ح٢.
٧ - انظر روح المعاني: ج٢٦، ص٤٦٥، تفسير الآية المزبورة.

المصطفى ﷺ شاهد على الأنبياء وعلى أمته.

وقد اختلف في أن السائق والشهيد هو ذات الملك الرقيب العتيد أم غيره؛ ويعضد الأول أن الشهادة تتقوم بالحضور والشهود، وهو مختص، لكنه يتنافى مع الروايات الدالة على أن الملك الرقيب العتيد أكثر من واحد، ويرتفع الإشكال إذا حمل السائق والشهيد على أنهما اسما جنس، فيدل على أن للسوق ملائكة وللشهادة كذلك، ولا تنافي بين المعنيين؛ لإمكان حملهما على اختلاف الأفراد أو اختلاف المنازل، كما يمكن أن يكون الشهيد غير الرقيب العتيد، وأداء الشهادة يكون بالعلم الحضوري، أو بالشهادة على الشهادة، لاسيما مع تجسم الأعمال التي لا تبقي مجالاً للعذر، ولعل الغاية من اتحاد السائق والشهيد تتضمن حكمتين:

الأولى: إظهار العدل والمصير الحتم الذي سيلاقيه الإنسان فيقدمانه ملكان أحدهما يتحكم بمسيره ويمنعه من التمرد أو الفرار، والآخر يلزمه الحجة بالشهادة.

والثانية: إشعار الإنسان بخطورة الحشر وكيفيته؛ ليعد له عدته، ولا يتهاون في أمره.

الشاهد الرابع: الأعضاء والجوارح التي بواسطتها عمل الإنسان الطاعة والمعصية، والمكان والزمان اللذين وقع فيهما الفعل، كما نص عليه القرآن في آيات عديدة، وقد مر عليك تفصيله في الأمر الثاني من هذه المباحث.

الشاهد الخامس: تجسم الأعمال وظهورها للعيان، فقد عرفت أن كل عمل يقوم به الإنسان سواء كان جانحياً أم جارحياً له صورتان: صورة

دنيوية وصورة أخروية، والصورة الأخروية تظهر بواقعها وشكلها المشهود، فلا هي خافية ولا يمكن إخفاؤها. قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[١] وهو صريح في أن ما يراه الإنسان في الآخرة هو ذات العمل الذي قام به في الدنيا، وليس ثوابه أو الصحيفة التي كتب فيها، وهو ما يؤكده قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾[٢] فإن (ما) موصولة تعود على ذات العمل وليس صحيفته أو جزاؤه[٣]، والفعل (تجد) يكشف عن الوجود الحقيقي، فكل إنسان يجد نفس عمله الذي عمله في الدنيا حاضراً يوم القيامة، ويشهد له أو عليه.

ولعل مما يعضد هذه الحقيقة قوله: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ فيتمنى أصحاب الأعمال السيئة الابتعاد عن أعمالهم والتبري منها، ولا يتمنون بطلانها أو فناءها، مع أن مقتضى الحال يستدعي تمني الثاني لا الأول، وهذا يكشف عن أنهم يعلمون بأن ما وجد لا يفنى ولا يمكن إبطاله، فلا يبقى أمامه طريق للخلاص سوى تجنبه والابتعاد منه ولو لمدة لرجاء العفو عنه، أو لتخفيف أضراره، كما هو النهج الذي تقتضيه الفطرة والأسلوب العقلائي في مواجهة المخاطر والأضرار.

والخلاصة: أن تمني أهل المعاصي الابتعاد عن الذنوب زماناً أو مكاناً وعدم تمنيهم زوالها يكشف بالكشف الإني عن علمهم بعدم إمكانه، وأنه

١ - سورة الزلزلة: الآية ٧- ٨.

٢ - سورة آل عمران: الآية ٣٠.

٣ - انظر مجمع البيان: ج٢، ص٢٧٦، تفسير الآية المزبورة.

حقيقة واقعة مشهودة موجودة لا يمكن الخلاص منها، وهذا ما تؤكده الأخبار، فقد ورد عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم: «لا بد لك يا قيس من قرين يدفن معك وهو حي، وتدفن معه وأنت ميت، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، ثم لا يحشر إلاّ معك، ولا تبعث إلاّ معه، ولا تسأل إلاّ عنه، ولا تبعث إلاّ معه، فلا تجعله إلاّ صالحاً، فإنه إن صلح آنست به وإن فسد لا تستوحش إلاّ منه، وهو فعلك»[1] ويشير الحديث إلى حقيقة هامة، وهي أن العمل الذي تعارفه الإنسان مهما كان نوعه وشكله يلازمه ولا يفارقه لحظة من عمره، وهو حي في سائر العوالم التي يمر بها الإنسان لدى تنقلاته في النشأة الدنيوية والأخروية، كما أنه سيكون شاهداً عليه ينطق بحقائق الأفعال ووقائعها، وفي عين الحال يشكل مصير الإنسان وعاقبته.

المشهد الثالث: الميزان

لا خلاف بين المسلمين في حقية الميزان، وأنه من المشاهد التي يقف عليها الناس في الآخرة لتوزن أعمالهم، وبه يتعين مصيرهم، فمن خفت موازينه يكون خاسراً، ومن ثقلت موازينه يكون من الفائزين، والغاية منه تعود إلى وجوه:

أحدها: إظهار العدل وإسقاط الحجج والأعذار.

وثانيها: إظهار صدق الأنبياء عليهم السلام؛ إذ قامت دعواهم على الإخبار عن المعاد وما يجري فيه من العدل والإنصاف ومجازاة المحسنين والعاصين في مقابل إظهار كذب دعوات الشيطان وشياطين الدنيا من المترفين وزعماء الباطل.

---

١ - الخصال: ص١١٤، ج٩٣؛ بحار الأنوار: ج٧٤، ص١١١، ح١.

وثالثها: تنعيم المؤمن بإظهار آثار إيمانه وفوائد عمله، وتبشيره بالمصير الحسن، وتهويل العاصي، وتوبيخه بإظهار آثار المعاصي، وندمه على فعلها؛ لما يرى من الإحباط أو خفة الميزان.

ومن الواضح أن الميزان من الحقائق التي لا سبيل للعقل في إدراكها، وإنما يقتصر فيها على ما نص عليه الشرع، وقد تضافرت الآيات والروايات في الكشف عن هذه الحقيقة وشرح بعض حالاتها، منها قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[1] ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[2].

وقد دلت الآية الأولى على أن جميع الأعمال تجمع في مشهد الميزان، سواء كانت كبيرة أو صغيرة؛ لأجل أن لا يبخس حق أحد، ولا يفوت الحق أحد، فالغرض من الميزان هو العدل حتى في الأمور الصغيرة التي تبلغ حبة الخردل، والتي قد يغفل عنها الناس أو ينسوها بسبب ضآلتها أو صغرها.

ودلت الآية الثانية على أن الوزن يكون الحق لتمييز الخاسر من الرابح، فالظالم سواء لنفسه أو لغيره يكون خفيف الميزان، ومصيره إلى النار، وأما من ثقلت موازينه فمصيره إلى الجنة، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن

١ - سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

٢ - سورة الأعراف: الآية ٨- ٩.

ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾[1].

وقد وصفت العيشة بالراضية بصيغة اسم الفاعل لا المفعول للدلالة على اتحاد النعمة بأهلها؛ وتأكيداً على أنها حياة ملؤها النعمة ورغد العيش، وأنها في عين الحال خالية من المنغصات التي تمنع من نعمتها أو تحرم من لذتها وهنائها.

وفي آية أخرى يؤكد الباري أن هذه العيشة تكون في جنة خاصة وصفت بالعالية؛ إذ قال سبحانه: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾[2] وهذا ما وردت به الأخبار الشريفة أيضاً.

ومن هنا اتفقت الكلمة على أن الإيمان بالميزان واجب، وإنكاره كفر[3]، وإنما الخلاف وقع في أمرين:

أحدهما: أن الثقل والخفة وصفان للميزان أم لما يوضع فيه؟ فقد ذهب إلى الأول جماعة تمسكاً بظاهر لفظ (الميزان) المنصرف إلى كل ما يوزن به الأشياء، وذهب إلى الثاني جماعة بدعوى أن الموازين جمع الموزون وليس إلاّ العمل أو آثاره[4]، وتترتب على هذا الخلاف ثمرة مهمة في فهم معنى الوزن والميزان كما سنرى.

١ - سورة القارعة: ٦- ٩.
٢ - سورة الحاقة: الآية ٢١- ٢٢.
٣ - انظر حق اليقين: ص٤٢٢.
٤ - انظر التبيان: ج٤، ص٣٥٢ تفسير الآية ٨ من سورة الأعراف؛ تفسير الميزان: ج١٥، ٦٩؛ تفسير الأمثل: ج٢٠، ص٤١٢؛ تفسير أبي السعود : ج٩، ص١٩٣.

ثانيهما: في معنى الميزان وأنه حقيقة حسية كالميزان الذي يستخدمه البقالون في وزن الأشياء أم حقيقة معنوية تميز الحق من الباطل في الحقائق والأعمال، وأكثر المفسرين والمتكلمين من الخاصة والعامة ذهبوا إلى الأول[١]؛ تمسكاً بظواهر الآيات والروايات الدالة عليه، وذهب جماعة من الفريقين إلى الثاني[٢]؛ استناداً إلى وجوه عقلية وبعض الروايات العاضدة لها، وتحرير الحق في المسألة يستدعي البحث في أمور:

الأمر الأول: في معنى الميزان لغة واصطلاحاً

الميزان في اللغة ما يعرف به قدر الشيء أي مقداره[٣]، وهو قسمان:

أحدهما: معنوي، ويراد به العدل. سمي بالميزان لأنه يوازن الأشياء وينصفها، وفي المعجم: الوزن يدل على تعديل واستقامة. يقال: قام ميزان النهار إذا انتصف النهار[٤].

وثانيها: آلة توزن بها الأشياء لمعرفة مقدارها، وفيه ورد قوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾[٥] أي ما يوزن ليتوصل به إلى الإنصاف، وقد روي أن جبرائيل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح عليه السلام، وقال: مر قومك يزنوا به[٦]،

١ - انظر حق اليقين: ص٤٢٢.
٢ - انظر التبيان: ج٤، ص٣٥٢، تفسير الآية ٨ من سورة الأعراف؛ حق اليقين: ص٤٢٤.
٣ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٦٨، (وزن).
٤ - معجم مقاييس اللغة: ص١٠٥١، (وزن)؛ كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج٢، ص١٦٧٢.
٥ - سورة الرحمن: الآية ٧.
٦ - انظر مجمع البحرين: ج٦، ص٣٢٥، (وزن).

وجمع الميزان موازين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[(١)] والملحوظ أن النصوص الشريفة فسرت الميزان الذي ينصب في الآخرة بكلا المعنيين، فقد ورد: «أن الله ينصب ميزاناً له لسان وكفتان يوم القيامة فيوزن به أعمال العباد والحسنات والسيئات»[(٢)] وورد عن الصادق عليه السلام أنه فسر الميزان بالعدل[(٣)]، كما ورد أن الميزان هو النبي والإمام عليهما السلام [(٤)].

وفي الآيات المتقدمة ما يشهد لهذا المعنى، حيث وصف الموازين بالقسط ، والوزن بالحق، وهو في الاصطلاح عند الخاصة والعامة ما يعرف به مقادير الأعمال. نعم أنكر المعتزلة الميزان، على ما ستعرف فينبغي أن يضاف للمعنى المصطلح العقائد أيضاً؛ لأنها توزن ويحاسب عليها.

ومن هنا اختلفوا في أن ميزان الآخرة هل هو الأول أم الثاني؟ وقد ذهب إلى كل فريق على ما عرفت، وتردد ثالث واكتفى بالالتزام الإجمالي دون الخوض في التفاصيل[(٥)]، وبذلك يتضح أن الميزان حقيقة واقعية كشفها الشرع، وأراد بها ما يعرف به مقادير الأعمال وقدر العقائد والسجايا والصفات، بناء على أن بعض مراتب الناس تعرف من خلال سجاياهم كما قد يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[(٦)].

---

١ - سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

٢ - مجمع البيان: ج٤، ص٢٢٠، تفسير الآية ٨ من سورة الأعراف؛ حق اليقين: ص٤٢٢.

٣ - انظر الاحتجاج: ج٢، ص٢٤٧؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص٤٢٨، ح١١.

٤ - الكافي: ج١، ص٤١٩، ح٣٦؛ انظر بحار الأنوار: ج٧، ص٢٤٩، ح٦؛ كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج٢، ص١٦٧٢.

٥ - انظر بحار الأنوار: ج٧، ص٢٥٣، ح٩.

٦ - سورة الكهف: الآية ١٠٥.

بتقريب: أن إضافة الوزن إلى الكفار يدل على أن الوزن يكون لهم لا لأعمالهم، ولا يصح أن يوزن الإنسان إلاّ بلحاظ صفاته وخصوصياته، بل ورد في بعض الأخبار أن الرجحان في الميزان يكون بحسب باطن العبد وظاهره[٧].

وتوضيحه: أن لكل عمل من الأعمال البدنية تأثيراً في النفس، فإن كان العمل حسناً نورانياً انعكس على النفس أثره ونوره وصيرها نورانية أيضاً، كما يدرك ذلك بالحس لمن واظب على الصلاة وقراءة القرآن وتهجد في الليل، كما له تأثير على تخليص النفس من أسر الشهوات والارتقاء بها من المرتبة الأدنى إلى المرتبة الأعلى حتى تنزه من القبائح، فإذا ازدادت المحاسن والأعمال الصالحة ازداد النور والتأثير في النفس.

وكذلك في الأعمال الطالحة فإنها تزيد من ظلام النفس وكدورتها، فإذا تضاعفت زاد ظلامها، وهذه الحقائق محجوبة في الدنيا لكنها في الآخرة تظهر ويراها الجميع؛ إذ تنكشف حقائق الناس، فبعضهم نورانيون وبعضهم ظلمانيون، وبه يتضح الفائزون والخاسرون من صورهم وصفاتهم النفسانية، كما يتضح أن الميزان هو انكشاف السرائر والملكات النفسانية وظهور مدى قرب العبد من ربه ومدى بعده بحسب رتبته النورية[٨].

نعم إذا وسعنا في مفهوم العمل ليشمل أفعال الجوارح والجوانح كما قد يستفاد من بعض النصوص كقوله تعالى: ﴿ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾[٩] و: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ

٧ – تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٦٦٠؛ ح١٣؛ وانظر تفسير الميزان: ج٨، ص١٥.
٨ – انظر الأسفار: ج٩، ص٣٠٣– ٣٠٤؛ تفسير المنار: ج٨، ص٣٢٣.
٩ – سورة البقرة: الآية ٢٨٣.

دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾[١] أمكن إدخال العقائد والصفات النفسانية في مراتب العمل، ويصح تعريف المشهور لجواز الاقتصار في التعريف على ما تعرف به مقادير الأعمال، وكيف كان فإن الثمرة بين التعريفين تظهر في تفسير حقيقة الميزان.

الأمر الثاني: في حقيقة الميزان

اختلفوا في حقيقة الميزان وكيفية الوزن على أقوال:

القول الأول: ذهب إلى أن الميزان حقيقة حسية به توزن حسنات الناس وسيئاتهم، ويحاسبون عليها. اختاره أكثر المفسرين والمتكلمين من الخاصة والعامة[٢]، واستندوا في ذلك إلى ظواهر النصوص نظير قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[٣] فإن التأكيد على الاتيان بكل شيء ولو كان مثقال حبة من خردل يدل على أن الوزن والحساب يكون بالميزان الحسي، بل لا يستقيم معنى الآية المباركة إلاّ بحمل المعنى عليه.

كما وردت أخبار عديدة بما هو أصرح من ذلك، منها ما ورد عن الباقر أو الصادق عليه السلام: «ما في الميزان شيء أثقل من الصلاة على محمد وآل محمد، وإن الرجل لتوضع أعماله في الميزان فتميل به، فيخرج صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة عليه فيضعها

١ - سورة سبأ: الآية ١٣.

٢ - انظر حق اليقين: ص٤٢٢؛ تفسير كنز الدقائق: ج٨، ص٤٣٣، تفسير الآية ٤٧ من سورة الأنبياء؛ مقتنيات الدرر: ج٤، ص٣٠٨- ٣٠٩، تفسير الآية ٨ من سورة الأعراف؛ روح المعاني: ج٨، ص٤٥٠، تفسير الآية ٨ من سورة الأعراف؛ تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٤٣٠، ح٧٦؛ تفسير القرطبي: ج١١، ص٢٩٣.

٣ - سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

في ميزانه فيرجح به»[١] ومثله ورد في كلمة التوحيد وأنها تثقل الموازين عن النبي[٢]ﷺ، وفي الشهادتين ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «خف ميزان ترفعان منه، وثقل ميزان توضعان فيه»[٣] ومثل ذلك ورد بطرق العامة أيضاً[٤].

واختلفوا في الموزون فذهب جماعة إلى أنه العمل، وهو ظاهر الآيات وبعض الروايات، وعن ابن عباس أن المؤمن يؤتى بعمله في أحسن صورة فتوزن فتثقل حسناته على سيئاته، فذلك قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٥] وأما أعمال الكافر فتؤتى بصورة قبيحة فتوزن تلك الصورة[٦]، ويتوافق هذا القول مع تجسم الأعمال.

وذهب جماعة آخرون إلى أن الموزون هو صحائف الأعمال، بحجة أن الأعمال مما لا تقبل الوزن؛ لأنها أعراض، والأعراض فانية فيستحيل إعادتها، ولو أعيدت ليس لها وزن؛ لأنها لا توصف بالثقل والخفة، ولو كان لها وزن فهي لا تقوم بأنفسها، بل بغيرها، فالوزن يكون للغير؛ إذ ينصب الميزان للجن والإنس، وينصب مستقبلاً العرش إحدى كفتيه على الجنة والأخرى على جهنم، ولو وضعت السماوات والأرض في إحداهما لوسعتهن، وجبرائيل آخذ بعموده ينظر إلى لسانه.

---

١ - الكافي: ج٢، ص٤٩٤، ح١٥؛ تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٦٥٩، ح٧.
٢ - تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٦٥٩، ح١٢.
٣ - تفسير نور الثقلين: ج٥، ٦٥٩، ح٨.
٤ - انظر روح المعاني: ج٨، ص٤٥٠- ٤٥٢، تفسير الآية ٨ من سورة الأعراف.
٥ - سورة الأعراف: الآية ٨.
٦ - مقتنيات الدرر: ج٤، ص٣٠٩، تفسير الآية ٨ من سورة الأعراف؛ تفسير تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٣، ص٥٤٨، تفسير الآية ٨ من سورة الأعراف.

وقد ورد عن النبيﷺ أنه يؤتى برجل يوم القيامة إلى الميزان ويؤتى له بتسعة وتسعين سجلاً، كل سجل منها مد البصر، فيها خطاياه، ثم يخرج له قرطاس كالأنملة فيه شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله يوضع في الأخرى فترجح[١]، ولا يتوجه هذا القول إلّا بالقول بتجسم الأعمال، وإن المراد من الصحيفة هو ما جمعت فيه الأعمال - أي الوجود الخارجي - بداهة أن لا معنى لوزن ذات الصحيفة، ويشهد له أن الصحيفة تكون مد البصر، وهذا لا ينطبق على السجل المعهود، وبه يتحد القولان وإن اختلفا في التعبير.

وأما المحاذير العقلية المذكورة لمنع وزن العمل فهي ضعيفة؛ لأنها مبنية على دعوى أن الأعمال أعراض، وأن العرض متصرم الوجود فلا يصح إعادته، وقد عرفت أنها دعوى باطلة في المبنى وفي البناء.

ومن هنا قال الشيخ البهائيؒ أن الموزون في الآخرة هو الأعمال نفسها لا صحائفها، وما يقال من أن تجسم العرض باطل عقلاً كلام ظاهري عامي؛ إذ لا مانع من أن يكون الشيء عرضاً في نشأة وجوهراً في نشأة أخرى، واستشهد له بشاهدين:

الأول: ما ورد عن النبيﷺ في قوله لقيس بن عاصم ووفد بني تميم من تجسم العمل، وأنه يدفن مع صاحبه، ويكون مؤنسه في القبر والمحشر، أو موحشه، وقد تقدم نص الخبر[٢].

---

١ - التبيان: ج٤، ص٣٥٢ تفسير الآية ٨ من سورة الأعراف؛ وانظر تفسير كنز الدقائق: ج٨، ص٤٣٢، تفسير الآية ٤٧ من سورة الأنبياء؛ حق اليقين: ص٤٢٢.

٢ - الأمالي (للصدوق): ص٥٠- ٥١، ح٤؛ الخصال: ص١١٤، ح٩٣؛ معاني الأخبار: ص٢٣٣، ح١.

والثاني: قول بعض أصحاب القلوب إن الحيات والعقارب بل والنيران التي تظهر في القيامة هي بعينها الأعمال القبيحة والأخلاق الذميمة والعقائد الباطلة التي ظهرت في هذه النشأة بهذه الصورة، وتجلببت بهذه الجلابيب، كما أن الروح والريحان والحور والثمار هي الأخلاق الزكية والأعمال الصالحة والاعتقادات الحقة التي برزت في هذا العالم بهذا الزي، وتسمت بهذا الاسم، إذ الحقيقة واحدة تختلف صورها باختلاف المواطن، وهذا ما يعضده قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[١] فإنها في مقام الإخبار عن حقيقة العذاب الذي يحيط بأهل العذاب وهم غافلون عنه متصورون أنه ينالهم في المستقبل، وأنهم يعذبون في النشأة الأخرى، والحال أنها دالة على أن العذاب حال بهم ومحيط بهم في هذه النشأة؛ لأن قبائحهم الخلقية والعملية والاعتقادية محيطة بهم في الدنيا، وهي بعينها جهنم التي ستظهر لهم في النشأة الأخرى بصورة النار وعقاربها وحياتها[٢].

وقريب منه قاله العلامة المجلسي ﵀ وإن مال إلى أن تجسم الأعمال يتم بخلق المشابه لا بتحول الأعراض إلى جواهر[٣]، وذهب بعضهم إلى أن الوزن يقع على العامل لا العمل، وذلك بأن يوزن المحسن والمسيء نفسهما، فيؤتى بالرجل العظيم الجثة فلا يزن جناح بعوضة إشارة إلى أن من كان عظيماً في ظاهره ينكشف باطنه في الآخرة فيظهر قلته وصغره[٤]، وهذا إن صح فيتوافق

---

١ – سورة العنكبوت: الآية ٥٤.

٢ – انظر مصابيح الأنوار: ج٢، ص١٥١ (بتصرف)؛ حق اليقين: ص٤٢٣.

٣ – بحار الأنوار: ج٧، ص٢٢٩، بيان.

٤ – مجمع البيان: ج٤، ص٢٢٠، تفسير الآية ٨ من سورة الأعراف؛ وانظر مجمع البحرين: ج٦، ص٣٢٥، (وزن).

مع نظرية تجسم الصفات والسجايا النفسية.

وذهب بعض آخر إلى أن الوزن يتم بظهور علامات الحسنات والسيئات في الكفتين، فيراها الإنسان ويترجح الغالب منها، وهذا يتوافق مع قول القاضي عبد الجبار بإمكان أن يضع الله سبحانه علامة للطاعة وهي النور وعلامة للمعصية وهي الظلمة ثم يجعل النور في إحدى الكفتين والظلمة في الكفة الأخرى فإن ترجحت كفة النور حكم لصاحبها بالثواب، وإن ترجحت كفة الظلمة حكم لصاحبها بالعقاب[١]، ويجمع بينهما القول بأن المراد بالوزن ظهور مقدار المؤمن في العظمة ومقدار الكافر في الذلة، فمن أتى بالعمل الصالح الذي يعظم قدره فقد أفلح، ومن أتى بالعمل السيء الذي لا وزن ولا قيمة له فقد خسر[٢]. ويمكن أن يتحقق ذلك بمعرفة وزن الصفات أو وزن ما يعادلها من النور والظلمة. نعم روى بعض العامة ما يدل على أن الوزن يكون لجسم المؤمن[٣]، وضعفه ظاهر.

والحق أن القول بوزن الأعمال أقرب إلى ظواهر النصوص، ويتوافق مع البرهان؛ لوضوح أن لا معنى لوزن ذات المؤمن لولا تجسم أعماله وصفاته، كما أن وضع العلامة للعمل - أن قيل بصحته - فهو عبارة ثانية عن تجسم الأعمال وإن أشكل القول به من جهة عدم وجود الدليل عليه، بل قد عرفت

---

١ - انظر شرح الأصول الخمسة: ص٧٣٥؛ الإلهيات: ج٤،ص٢٦٧،الهامش رقم(٢)؛ وانظر روح المعاني: ج٨،ص٤٥٢.

٢ - انظر مجمع البيان: ج٤، ص٢٢٠، تفسير الآية ٨ من سورة الأعراف؛ وانظر مجمع البحرين: ج٦، ص٣٢٥، (وزن).

٣ - وانظر روح المعاني: ج٨،ص٤٥٢، تفسير الآية ٨ من سورة الأعراف.

أن الأدلة الظاهرة في تجسم الأعمال والصفات تدل على أن لكل عمل صورة وشكلاً يغاير باقي الأعمال والصفات، لا أن تكون جميع الأعمال الحسنة بصورة النور والقبيحة بصورة الظلمة.

ولعل من هنا ذهب المشهور، بل لعل المتفق عليه بينهم إلى أن الذي يوزن هو العمل لا الصحيفة ولا العامل، كما أنه المتبادر من الأدلة بل هو ما صرح به، ففي تفسير القمي في معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ﴾ قال: المجازاة بالأعمال إن خيراً فخير وإن شراً فشر[١].

وعلى خلاف ذلك ذهب المعتزلة؛ إذ قال بعضهم بأن وزن الأعمال بالميزان المتعارف أمر ممكن عقلاً، ولكنه لم يثبت وقوعاً، كما حكي عن العلاق وبشر ابن المعتمر[٢]، وقال جماعة منهم باستحالته ذاتاً وعرضاً. أما الاستحالة الذاتية فقد عرفت وجهها ووجه المناقشة فيها، وأما الاستحالة العرضية فمن جهة اللغوية، وذلك لأن الغرض من الوزن والميزان هو العلم بتفاوت الأعمال وتفاضلها، والله سبحانه عالم بذلك، ففعل ما لا فائدة فيه قبيح يتنزه الباري عنه[٣].

لكنك عرفت أن الغاية من الميزان ليس ما ذكر، بل إعلام الناس وإقامة الحجة عليهم وإظهار صدق الأنبياء وتنعيم المطيعين وتوبيخ العاصين، وهذه فوائد جمة تقتضيها الحكمة، وتنفي اللغوية. وبذلك يظهر إمكان تصحيح هذا القول من جهة وجود المقتضي، لما عرفت من قيام النصوص عليه وعدم

١ - تفسير القمي: ج١، ص٢٢٤؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج٢، ص٤٢٩، ح١٦.
٢ - روح المعاني: ج٨، ص٤٥٢؛ وانظر كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج٢، ص١٦٧٢.
٣ - روح المعاني: ج٨، ص٤٥٢؛ كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج٢، ص١٦٧٢؛ وانظر الإلهيات: ج٤، ص٢٦٧.

المانع. نعم قد يقال بوجود المانع، وهو النصوص الدالة على أن الميزان حقيقة معنوية، وهو ما ستعرفه في القول الثاني.

القول الثاني: ذهب إلى أن الميزان حقيقة معنوية يراد به الكناية عن تطبيق العدالة وإيصال الحقوق إلى أهلها، وإظهار حقانية العقائد والأعمال الناشئة منها أو بطلانها، وقد سميت هذه بالميزان لأنها تتوافق معه من حيث الغاية، بل والمعنى اللغوي؛ لأن الميزان هو الذي يعادل الأشياء ويوازنها، وعلى هذا الأساس كان لكل شيء ميزان يدل على اعتداله ونظمه وتوازن أجزائه، فكما أن القبّان وذا الكفتين ميزان للأثقال والاسطرلاب ميزان للارتفاعات والمواقيت والشاقول ميزان لمعرفة الأعمدة والمسطر ميزان لاستقامة الخطوط في الماديات فإن علم المنطق ميزان للفكر في العلوم النظرية، وعلم النحو ميزان الكلام في الإعراب والبناء، والعروض ميزان الشعر، والعقل الكامل ميزان لجميع الأشياء في المعنويات.

وكذلك ينبغي أن يكون معنى الميزان في الآخرة الضابطة التي تبين صحة الأعمال والعقائد من زيفها وبطلانها، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[1] وصيغة الجمع تدل على تعدد الميزان؛ لأن لكل شيء ميزاناً من جنسه[2]، ولكنه بحسب حقيقته وجوهره واحد، وهو ما يوزن به الشيء، والذي يختلف هو الشيء الموزون؛ إذ تارة يكون جسماً، وتارة نوراً، وتارة ناراً وحرارة، وأخرى فكراً وعقيدة وهكذا، والغاية منه هو تمييز الحق من الباطل، والفضيلة والرذيلة، والعدل والظلم فيها، وعلى هذا الأساس حمل الميزان على

---

١ – سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

٢ – انظر الأسفار: ج٩، ص٢٩٩، (بتصرف).

المعنى المجازي، والمراد به هو العدل والقضاء، ووجه المشابهة يعود لأمرين:

أحدهما: أن العدل في الأخذ والعطاء المادي يظهر في الوزن والميزان، فشبّه به معادلة الثواب والعقاب للأعمال؛ لأن به يظهر العدل.

وثانيهما: للاشتراك في الغاية؛ إذ الغاية من الميزان في الدنيا هو معرفة المقادير وإعطاء كل ذي حق حقه، فكذلك الغاية منه في الآخرة. اختار هذا القول جمع من المتقدمين والمتأخرين والمعاصرين[1]، ويمتاز عن القول الأول بسمات عديدة:

الأولى: أنه يدفع شبهة المعتزلة الذين أنكروا الميزان ذاتاً أو عرضاً بنحو نفي المقتضي؛ إذ لا يبقى مجال للإشكالات المذكورة.

والثانية: أنه أجمع؛ لأن الميزان بهذا المعنى توزن به الأعمال أيضاً كما توزن العقائد والصفات، بخلافه الميزان الحسي فإنه لا يمكن أن يشمل المعاني المجردة المذكورة؛ لأنها ليس لها وزن إلاّ على القول بتجسمها.

والثالثة: أنه يفيد وجود الميزان في النشأة الدنيوية أيضاً ولا يقتصر على النشأة الأخروية، وهذا يتطابق مع نصوص الآيات والروايات الدالة على أن العذاب والنعيم ملازمان لحياة البشر في جميع النشآت، سوى أنه في الدنيا محجوب عنها، وكيف كان فقد استدلوا لهذا القول بوجوه:

الوجه الأول: أنه سبحانه وصفه في القرآن بأنه منزل من جانبه، ووصفه

---

١ - تصحيح الاعتقاد: ص٩٣- ٩٤؛ التبيان: ج٤، ص٣٥٢؛ مجمع البيان: ج٤، ص٢٢٠، تفسير الآية ٨ من سورة الأعراف؛ حق اليقين: ص٤٢٤؛ الإلهيات: ج٤، ص٢٦٥- ٢٦٦؛ تفسير الأمثل: ج٤، ص٣٩٢- ٣٩٣، تفسير الآية ٨ من سورة الأعراف؛ وانظر تفسير الرازي: ج٤، ص٢٧- ٢٩.

بأنه حق وقسط ، وهذا لا يستقيم إلاّ بحمل الميزان على المعنى؛ لوضوح أن الميزان الحسي عرفي أوجده العقلاء تطبيقاً للعدالة بينهم، كما أنه آلة لضمان الحق وليس الحق نفسه. قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾[١] وقال سبحانه: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾[٢].

الوجه الثاني: حكم العقل؛ لأنه يقضي بأن الأعمال أعراض وقد فنيت في الدنيا، ووزن المعدوم في الآخرة محال، والقول بأن الموزون هو صحائف الأعمال أو الصور المشابهة للأعمال يفتقر إلى دليل فضلاً عن أنه لغوي؛ لأن المكلف إن كان مقراً بالعدل الإلهي فهو واثق من عدالة القضاء والجزاء فلا يحتاج إلى الميزان، وإن كان منكراً فلا يجديه الميزان؛ لأنه يحتمل بأن إظهار السيئات على الحسنات ناشئ من حكم الله لا عدله، وللحاكم أن يفعل ما شاء، فلا فائدة للميزان على كل تقدير[٣].

الوجه الثالث: الروايات الكثيرة التي فسرت الميزان بالحقائق المعنوية من قبيل الكتاب والعدل والأنبياء والأوصياء والعقل والصلاة ونحوها.

ففي الاحتجاج عن أبي عبد الله عليه السلام قال السائل: أو ليس توزن الأعمال؟ قال عليه السلام: «لا، لأن الأعمال ليست بأجسام، وإنما هي صفة ما عملوا، وإنما يحتاج إلى وزن الشيء من جهل عدد الأشياء ولا يعرف ثقلها وخفتها، وإن الله لا يخفى عليه شيء» قال: فما معنى الميزان؟ قال: «العدل» قال: فما معناه

١ – سورة الشورى: الآية ١٧.

٢ – سورة الأعراف: الآية ٨.

٣ – انظر حق اليقين: ص٤٢٤، (بتصرف).

في كتابه: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾؟ قال: «فمن رجح عمله»[١].

وفي مجمع البيان جاء في الخبر: «أن الصلاة ميزان فمن وفى استوفى»[٢] وفي حديث آخر أن كتاب الله ميزان[٣]، وفي حديث آخر: «أن أمير المؤمنين والأئمةعليهم السلام من ذريته هم الموازين»[٤] وفي زيارتهعليه السلام: «السلام على يعسوب الإيمان، وميزان الأعمال، وسيف ذي الجلال»[٥] وهذا ما يساعده الاستعمال العرفي، فإن العلماء القادة والزعماء يكونون ميزاناً في الأفكار والأعمال لمن يقتدي بهم، فالصالحون يكونون ميزاناً للمحاسن، والطالحون للمساوئ، وعلى هذا الأساس يقاس الناس بحسب درجة قربهم وبعدهم منهم، فالذي يتأسى بالنبي والإمامعليه السلام مثلاً ويكتسب من صفاته وسجاياه يكون أقرب من غيره إليه، وبهذا المقدار يكتسب وزناً وقيمة بين الناس، وكلما أبتعد عنه قلّت قيمته، حتى إذا عاداه أو خاصمه يصبح بلا قيمة، ولعل هذا أحد الأسباب التي جعلت الإسلام لم يقم وزناً للكافر والمنافق، بينما اعتبر المؤمن أشرف من الكعبة.

ويتحصل من ذلك: أن ما يناسب النشأة الآخرة من الميزان هو ما يعرف فيه الحق من الباطل لا الميزان الحسي، وعليه ينبغي أن تحمل الآيات والروايات الواردة فيه. نعم يمكن إرجاع سائر المعاني المذكورة إلى معنى واحد وهو

١ - الاحتجاج: ج٢، ص ٢٤٧.
٢ - مجمع البيان: ج٤، ص٦١٦؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص٤٢٩، ح١٢.
٣ - انظر بحار الأنوار: ج٧٨، ص١٦٢.
٤ - بحار الأنوار: ح٧، ص٢٥٢، ح٩.
٥ - مستدرك الوسائل: ج١٠، الباب ٢١ من أبواب المزار وما يناسبه، ص٢٢٢، ح١.

النبي والإمامعليه السلام؛ لأنه المصداق الأكمل الذي ينطبق عليه معنى الميزان، وبه تتحقق غايته، وبهذا يتضح معنى ما ورد من أن الميزان له لسان وينطق؛ لأنها صفة النبيصلى الله عليه وآله وسلم والإمامعليه السلام، كما يتضح تفسير الميزان بالعدل؛ بداهة أن العدل صفة لا تتحقق إلاّ بعادل يحكم في الأشياء ويوزنها، وذلك هو النبي والإمامعليه السلام، ويؤيده هذا شاهدان:

الأول: ما تقدم من أن محمداً وآل محمدعليهم السلام لهم ولاية الجزاء والحساب، فهم الذين يحاسبون الناس ويوزنون أعمالهم، ويحكمون عليها بالقبول والرد والحق والباطل.

والثاني: ما تقدم من أن النبيصلى الله عليه وآله وسلم شاهد على الناس وأن علياًعليه السلام قسيم الجنة والنار.

وربما يناقش من جهتين:

الأولى: أنه يتنافى مع النصوص الظاهرة أو الصريحة في أن الميزان حقيقة حسية به يتم وزن الأعمال كما عرفت، ولازم التنافي أن نؤول هذه الأدلة لأجل التمسك بظاهر ما دل على الميزان المعنوي، أو نؤول ما دل على الميزان المعنوي لأجل التمسك بظاهر ما دل على الميزان الحسي، وحيث لا يوجد مرجح لأحدهما يتوقف، ويترك الأمر إلى أهله، وهو ما التزم به جمع من الأعلام(١).

١ - انظر شرح العقائد العضدية: ج٢، ص٢٦٤؛ بحار الأنوار: ج٧، ص٢٥٣، أقول؛ حق اليقين: ص٤٢٥؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٣، ص٥٤٨؛ الإلهيات: ج٤، ص٢٦٧؛ وانظر روح المعاني: ج٨، ص٤٥٠- ٤٥١.

والثانية: أنه يتنافى مع صريح الآيات المتقدمة، حيث جعلت الضابطة في الربح والخسارة خفة الوزن وثقله، وهي من الأوصاف التي تطلق على الثقل الحسي، فلو كان الوزن المعنوي هو المراد لورد وصفه بالصحة والخطأ، أو الحق والباطل؛ لأن هذه أوصاف المعاني. فالقول بالميزان المعنوي مناف لظهور الآيات لا يصار إليه إلاّ لضرورة من قبيل وجود دليل معارض، أو حكم عقلي مانع، وحيث لا ضرورة يتعين الأخذ بالظاهر، فيثبت أن الميزان هو الحسي.

ويمكن مناقشة كلتا الجهتين بذات المناقشتين، وذلك لأن ما دل على الميزان الحسي يتعارض مع ما دل على الميزان المعنوي، ولا ترجيح لأحدهما على الآخر، كما أن إطلاق الثقل والخفة على الميزان الحسي وإن كان هو الغالب إلاّ أنه لا يمنع من إطلاقه على المعنويات أيضاً، ففي العرف يقال فلان له وزن أو ثقيل الوزن ويريدون به صاحب قدرة ونفوذ في السلطة، أو في العلم، أو في المال والتجارة، وإثبات الشيء لا ينفي ما عداه، بل قد يقال بلزوم حمله على الميزان المعنوي؛ لورود الروايات به، فإنها مفسرة للقرآن ومبينة لمضامينه.

فيتحصل مما تقدم: عدم تمامية الحصر في كلا القولين؛ لعدم كفاية الأدلة، ولعل الأوجه هو اختيار قول ثالث في المقام.

القول الثالث: هو التفصيل بين الأعمال وبين العقائد والصفات، والأولى توزن بالميزان الحسي كما قد يستفاد من الآيات والروايات الواردة في باب ميزان الأعمال، ويعضدها ما دل على تجسم الأعمال، وإنها حقائق مادية لها حجم ووزن وشكل، والثانية والثالثة توزن بميزان العدل والحق؛ لأنها

حقائق مجردة أو شفافة محلها الجوانح، وهو ما قد يستفاد من النصوص، فإن الذي يتتبع الآيات وبعض الروايات الواردة في بيان الميزان وحقيقته يجد أنها جعلت ضابطة الترجيح بين الحسنات والسيئات مقابل الثقل والخفة، والمنصرف منها ما يتعلق بأعمال الجوارح، بينما جعلت ضابطة الترجيح في المعتقدات والسجايا النفسية الحق مقابل الباطل، وهذا يدل على وجود ميزانين أحدهما للأجسام وهي الأعمال، والآخر للمعاني وهي العقائد، وبيان هذه الحقيقة يتوقف على تقديم مقدمة.

وخلاصتها: أن الآيات الشريفة التي تحدثت عن ميزان الأعمال وصفته بالقسط غالباً وبالثقل والخفة كذلك، وفي بعض الموارد القليلة ووصفته بالحق، فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[1] ومن الثاني قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾[2] ومن الثالث قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾[3] ونلاحظ هنا ثلاثة أوصاف مختلفة الدلالة بحسب المعنى اللغوي والمفهوم العرفي، بل وبحسب القرائن الداخلية للآيات، فبعضها يدل على أن الوزن حقيقة حسية، وبعضها يدل على أنه حقيقة معنوية.

الوصف الأول: القسط، ويراد به النصيب بالعدل كالنصف[4]، ويطلق

١ – سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

٢ – سورة المؤمنون: الآية ١٠٢– ١٠٣.

٣ – سورة الأعراف: الآية ٨– ٩.

٤ – مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٧٠، (قسط).

في الموازين غالباً، ومنه سمي الميزان بالقسطاس[١]؛ إذ قال تعالى: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾[٢] والميزان لا يوصف بالعدل وإنما بالقسط ، ولذا قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ولم يصفه بالعدل، لأن العدل نتيجة القسط ؛ إذ بعد إعطاء كل ذي حق حقه يقال له عدل، وأما القسط فهو آلته وطريقه.

ومن هنا امتاز القسط عن العدل في أنه أقرب إلى المحسوسات، بخلاف العدل فإنه أقرب إلى المعاني والمجردات، ولذا اقترن الأول بالمكيل والموزون كما في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾[٣] وقد أطلق في اللغة على كل ما يضمن الحقوق كالأموال والدماء ونحوها؛ إذ ألزم بمراعاة القسط فيها[٤]، وبه ورد الاستعمال القرآني[٥]، بينما استعمل الثاني لدى الحكم في الأشياء بالحق والقضاء بشرع الله وحدوده؛ لأنه إلى المعاني أقرب من المحسوسات، بل في المفردات أن العدل يستعمل فيما يدرك بالبصيرة[٦]، ومنه سمي الحق سبحانه بالعدل، وقد وصف سبحانه الحكم بالعدل، وكذا القول والمحبة؛ إذ قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[٧] وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا

١ – انظر معجم مقاييس اللغة: ص٨٥٦، (قسط)؛ لسان العرب: ج٧، ص٣٧٧، (قسط).
٢ – سورة الإسراء: الآية ٣٥.
٣ – سورة الرحمن: الآية ٩.
٤ – انظر دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني: ص١٥٣.
٥ – انظر الآية ٣، ١٢٧ من سورة النساء؛ والآية ٢٨٢ من سورة البقرة.
٦ – مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٥١، (عدل).
٧ – سورة النساء: الآية ٥٨.

قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾[١] لأن القول ناشئ من الفكر والعقيدة، أو صفة النفس؛ إذ إن الكلام صفة المتكلم على ما يقولون، وقال سبحانه: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[٢] لأن العدالة هنا ناشئة من العاطفة القلبية، لكن العدالة العملية التي تسمى بالقسط، فأمرها مستطاع وممكن عادة.

فالقسط والعدل معنيان يطلق أحدهما في الماديات والآخر في المعنويات، والملحوظ أن الآيات التي ورد فيها ذكر الميزان لم يستعمل بها لفظ العدل بل القسط، وهذا مما قد يعد قرينة على أن الميزان الذي توزن فيه الأعمال في الآخرة من الحقائق المحسوسة.

الوصف الثاني: الثقل، وتقابله الخفة، وهو كل ما يوزن به أو يقدر به. يقال: هو ثقيل وأصله في الأجسام، وربما يستعمل في المعاني مجازاً بلحاظ الاشتراك في الأثر، فيقال فلان ثقيل الخلق في مقام ذمه؛ لأنه يوجب المضايقة للآخرين، أو فلان ثقيل الأذن كناية عن عدم جودة السمع، وكأنه يثقل عن قبول ما يلقى إليه[٣]، والمثقال مأخوذ منه، وهو ما توزن به الأشياء الدقيقة، وفيه قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[٤] والثقيل يطلق في مقابل الخفيف في موردين:

أحدهما: في مورد المقايسة والنسبة بين شيئين؛ إذ يقال للشيء ثقيل إذا

١ - سورة الأنعام: الآية ١٥٢.
٢ - سورة النساء: الآية ١٢٩.
٣ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٧٤، (ثقل)؛ وانظر لسان العرب: ج١١، ص٨٥، (ثقل).
٤ - سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

قابله جسم آخر أخف منه، ولهذا يصح أن يكون الشيء ثقيلاً بالقياس إلى ما هو أخف، وخفيفاً بالقياس إلى ما هو أثقل.

ثانيهما: في مورد بيان الطبيعة، فإن الأجسام بعضها ثقيل في نفسه ومن طبعه الهبوط إلى الأسفل كالحجر والتراب، وبعضها خفيف وطبعه الصعود كالنار والهواء، فالميزان في هذا المورد هو ذات الشيء، ويعرف من خلال صفاته وآثاره، ولا حاجة فيه إلى الميزان كما هو واضح، فيقال للأول جسم ثقيل وللثاني خفيف[1].

ونلاحظ أن الآيات التي تعرضت إلى ميزان الأعمال وكيفية الوزن تضمنت المقايسة كالآيات المتقدمة؛ إذ جعلت الأعمال ثقيلة في مقابل الخفيفة، وأشارت إلى أن الذي تثقل كفة حسناته يكون رابحاً، والتي تخف يكون خاسراً، كما نلاحظ أن الآيات التي تعرضت إلى الثقل والخفة استعمل فيها لفظ (الموازين) وهو جمع ميزان[2]؛ للإشارة إلى أن هناك أكثر من ميزان؛ لأن بعضها للأعمال، وبعضها للعقائد، وبعضها للصفات، أو لاختلاف الأعمال، ولكل عمل ميزان، أو لاختلاف الناس كما ستعرف.

نعم يمكن حمل معاني الآيات على المورد الثاني، وحينئذ يحكم على الأعمال بأنها ثقيلة أو خفيفة من خلال طبيعتها، فالأعمال الحسنة تكون ثقيلة الوزن لثقل اعتبارها ومقامها عند الله سبحانه فتكون في ميزان الحساب ثقيلة،

١ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٧٤- ١٧٥، (ثقل)؛ معجم مقاييس اللغة: ص١٦٩، (ثقل).

٢ - انظر لسان العرب: ج١٣، ص٤٤٦، (وزن).

والأعمال السيئة خفيفة؛ لأنها حابطة أو لا قيمة لها عند الله سبحانه.

وهذا ما قد يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾[1] وعدم إقامة الوزن لهم يعود إلى عدم المقتضي، وذلك لأن حبط العمل هو بطلانه، ومن كان كذلك لا يحتاج إلى الوزن؛ لأن مصيره النار وإن كان قد قدم في حياته أعمالاً صالحة كثيرة، ومنشأ حبط العمل هو الكفر والتكذيب بآيات الله، فإن العمل مهما بلغ إنما يثقل ويعد موزوناً إذا اقترن بالإيمان والتسليم، فإن الإيمان يجعل طبيعة العمل ثقيلة بخلاف الكفر، ولذا وصف الباري عز وجل هؤلاء بأنهم الأخسرون أعمالاً، وأن سعيهم في الدنيا وفي الآخرة حابط ؛ إذ قال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾[2].

ومن هذه الحقيقة يتضح بعض وجوه السر في أن ولاية الأئمة عليهم السلام مفتاح قبول الأعمال، وهي باب النجاة في الآخرة، ولولاها لم يقبل عمل ويفز فائز؛ لأن ثقل العمل وخفته تقال في الأجسام والحقائق المحسوسة، بخلاف المعاني فإنه لا يقال لها ثقيلة أو خفيفة إلاّ بنحو من المجاز والمسامحة، فينبغي أن تحمل الآيات التي تعرضت إلى الميزان على هذا المعنى؛ لأنها جميعاً جعلت الترجيح بالثقل والخفة لا الحق والباطل، والأصل هو حمل الألفاظ

١ - سورة الكهف: الآية ١٠٥.

٢ - سورة الكهف: الآية ١٠٣- ١٠٥.

على معانيها الحقيقية ما دام لا توجد قرينة على المجاز، ولا يمنع منها مانع عقلي أو شرعي، وهذه قد تعد قرينة على أن الميزان في الآخرة حقيقة محسوسة لاسيما فيما يتعلق بالأعمال بناء على تجسمها، ومما تقدم تتضح حقائق:

الحقيقة الأولى: أن الثقل على المعنى الأول يتطلب وجود ميزان يرجح فيه الثقيل على الخفيف، وأما على المعنى الثاني فلا توجد حاجة إلى الميزان؛ لأن ميزان كل عمل طبعه وذاته، وعلى هذا فإن المعنى الأول يتوافق مع قول المشهور، والثاني يتوافق مع قول غير المشهور الذين أنكروا وجود الميزان، ورجحوا أن يكون الميزان هو العدل في القضاء، لكن يختلف معهم من حيث إنهم أنكروا أن يكون الثقل حقيقياً محسوساً، وأرجعوه إلى الثقل المعنوي.

الحقيقة الثانية: أن المعنى الأول أوفق بظواهر النصوص وإجماع الكلمة على وجود الميزان، فحمل دلالة الآيات عليه أولى من الثاني، بل لا يمكن حمل الدلالة على ما قاله غير المشهور، وذلك لوجود المانع؛ إذ قد عرفت أن الثقل يطلق في الأمور المحسوسة لا المعاني المجردة، فلو أريد حمل المعنى عليه لاستدعى حمل ظواهر الآيات على خلاف الظهور من دون دليل يستوجبه، وهو كما ترى، فحمل دلالة الآيات على الميزان المعنوي يفتقر إلى دليل.

الحقيقة الثالثة: أن المعنى الثاني للثقل لا يتنافى مع قول المشهور؛ لأنهم لم يحصروا الميزان بالمعنى الأول، كما أن دلالة الآيات المباركة تحتمل الانطباق على المعنيين، فلذا يمكن الجمع بين مقالة المشهور وبين المعنى الثاني للثقل الذي يستغني عن وجود الميزان بأكثر من صيغة:

الصيغة الأولى: مبنية على تفاوت الناس في الأعمال، فالذين خلطوا

عملاً صالحاً وآخر سيئاً توزن أعمالهم لينظر الراجح منها، وهذا هو المستفاد من ظواهر النصوص التي دلت على حساب الحسنات والسيئات وإيجاد المراجحة بينها.

وأما الذين محضوا الأعمال في الطاعات أو محضوها في المعاصي فإن أمرهم معلوم، ولا يتوقف تعيين الراجح منها إلى الميزان؛ لأن الطاعات في نفسها وطبعها تتمتع بالثقل والقيمة عند الله سبحانه، والمعاصي عكسها، وهو ما قد تشير إليه الآية المتقدمة الدالة على أن الكفار تحبط أعمالهم فلا يقام لهم وزن، وعليه لا مانع من حمل الثقل في الآيات على كلا معنييه من دون تناف في المدلول.

الصيغة الثانية: مبنية على تفاوت الأعمال أنفسها، فبعضها يخضع لضابطة الميزان، وهي التي دون ثوابها وعقابها، وأما الأعمال الظاهرة في محاسنها ومساوئها أو التي تتجسم في الآخرة فإنها لا توزن لعدم وجود الفائدة من وزنها؛ لأن ظهور حقيقة العمل وجوهره تكشف مصيره، وتظهر ثقله من خفته، وقد مر عليك في بحث تجسّم الأعمال أن الأعمال على أصناف، بعضها يتجسم، وبعضها يدون ثوابه وعقابه في صحيفة العمل، فلذا يتوقف بيان الرجحان فيه إلى الوزن والميزان.

الصيغة الثالثة: مبنية على اختلاف حقائق الموزونات، فإن العقائد مثلاً مما لا توزن في الميزان، وإنما يعرف وزنها وثقلها من خفتها من خلال ظهور الحق في الآخرة، فالعقيدة الحقة معروفة والباطلة كذلك، بخلاف الأعمال فإنها توزن، وهذا ما قد يظهر من بعض النصوص كما ستعرف.

الصيغة الرابعة: مبنية على اختلاف منازل الآخرة ومشاهدها؛ إذ لعل في بعض المنازل يكون الوزن بظهور طبيعة العمل والمعتقد، وفي بعضها يكون بالميزان، وهذا أيضاً قد يعرف من بعض الأخبار.

والحاصل: أن وصف الوزن بالثقل والخفة قد يشير إلى أن الميزان في الآخرة حقيقة محسوسة لا مجردة، وهذا يؤكد قول المشهور في حقيقة الميزان، وتبقى صحة قول غير المشهور متوقفة على بيان الروايات كما ستعرف.

الوصف الثالث: الحق، وهو نقيض الباطل[١]، ويقال لكل ما صح وثبت وصدق[٢]، ويطلق في الغالب على المعاني، ويدرك بالعقل والبصيرة، ومن هنا قيل في الله سبحانه هو الحق، كما يقال أن قوله سبحانه حق، والموت حق، والبعث حق[٣]؛ لأنها حقائق ثابتة وصادقة لا تختلف ولا تتخلف، كما يقال لما يملكه الإنسان من سلطة على أعيان الأشياء أو آثارها أو منافعها أنها حق، كحق الحياة وحق السكنى وحق الزواج ونحوها باعتبارها ثابتة له لا تزول عنه إلاّ بسبب، كما يقال للاعتقاد بالشيء المطابق للواقع أنه حق لهذه الجهات، بخلاف المخالف للواقع؛ إذ يعبر عنه بالضلال؛ لما فيه من ضياع الشيء وذهابه في غير حقه[٤]، كما يعبر عنه بالباطل لما فيه من ذهاب للشيء وقلة مكثه ولبثه[٥]،

---

١ – معجم مقاييس اللغة: ص٢٢٧، (حق)؛ لسان العرب: ج١٠، ص٤٩، (حقق)؛ وانظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٤٦، (حق).

٢ – المعجم الوسيط: ج١، ص١٨٧، (حق)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص١٤٨، (حقق).

٣ – انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٤٦، (حق).

٤ – معجم مقاييس اللغة: ص٥٧٢، (ضل).

٥ – معجم مقاييس اللغة: ص١٢٠، (بطل)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٢٩، (بطل).

وإليه يشير قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[١].

ومن الواضح أن البطلان والضلالة لا تقالان على المحسوسات وإنما على المعاني، والحاكم بهما العقل والبصيرة، والحق مثلهما، ومن هنا قد يظهر أن الحق في قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾[٢] هو الوزن المعنوي لا الحسي، ويراد به الميزان الذي يميز الرابحين عن الخاسرين حسب مطابقتهم للعمل الصحيح والعقيدة الحقة وعدمها.

ومن الواضح أن هذا الوصف يرجح أن يكون الميزان حقيقة معنوية غير محسوسة إلاّ أننا إذا لا حظنا الموصوف وهو الوزن فإنه قد يقيد المعنى ويكون قرينة على أن الوزن حسي لا معنوي.

وتوضيح ذلك: أن الوزن في قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ مبتدأ وخبره الحق، وهو يحتمل أحد معنيين:

الأول: أنه بيان للوصف، والمعنى أن الوزن في يوم القيامة يتصف بالحق، والمراد منه العدل، فلا يظلم في الميزان أحد.

والثاني: أنه خبر مفصول بضمير الفصل المقدر، وتقدير الجملة: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ ومعناه أن يكون الحق هو الوزن، فيكون بمثابة الأثقال التي توضع في كفة الميزان فتكشف وزن الأشياء، وكذلك الحق في الآخرة، وعلى المعنى الأول يتعين أن يحمل الوزن على المصدرية، ومفاده أن الميزان الذي توزن فيه الأشياء حق؛ لأنه لا يخطأ ولا يكذب ولا يتبدل، فيعطي كل ذي

١ – سورة يونس: الآية ٣٢.

٢ – سورة الأعراف: الآية ٨.

حق حقه، ولازم هذا المعنى هو حمل الميزان على الحقيقة المحسوسة، ويتوافق مع قول المشهور؛ لأن حمل الوزن على المصدر يكون قرينة متصلة توجب حمل الحق على الظاهر في المعاني على خلاف ظاهره؛ إذ يحمل على أنه كناية عن العدل في الموازنة وإعطاء كل ذي حق حقه، وعلى المعنى الثاني يتعين أن يحمل الوزن على أنه مصدر بمعنى اسم الفاعل، والمراد به الثقل الذي يوضع في الميزان، وبه تقاس الأشياء وتوزن، وهذا يتوافق مع القول المشهور أيضاً، أو يحمل على أنه بمعنى اسم المفعول، ومعناه أن يكون الحق هو الموزون، أي الذي له قيمة، واعتبار الحق في مقابل غير الحق إذ لا وزن له، وهذا يتوافق مع قول غير المشهور؛ لأنه لا يلتزم بوجود ميزان تتعادل فيه الأشياء، بل هناك وزن واحد وهو الحق، وكل الأعمال والعقائد والصفات تعرض عليه، فما وافقه كان موزوناً وله ثقل واعتبار، وإلاّ كان باطلاً.

والمعنى الأول أقرب إلى ظهور الآية الشريفة، وهو معضود بقرينتين داخلية وخارجية. أما الأولى فهي لفظ (الثقل) و(الخفة) إذ قد عرفت أنهما يطلقان على الأشياء المحسوسة، وأما الثانية فهي الروايات الظاهرة في أن الميزان محسوس توزن به الحسنات والسيئات.

منها: ما رواه الصدوق قدس سره في التوحيد بإسناده عن أبي معمر السعداني عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث قال: «وأما قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ .... وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ فإنما يعني الحساب. توزن الحسنات والسيئات، والحسنات ثقل الميزان، والسيئات خفة الميزان»[1].

١ - التوحيد: ص٢٦٨، ح٥.

ومنها: ما رواه الكافي بإسناده عن علي بن الحسين عليه السلام في حديث طويل منه: «اعلموا - عباد الله - أن أهل الشرك لا تنصب لهم الموازين، ولا تنشر لهم الدواوين، وإنما يحشرون إلى جهنم زمراً، وإنما نصب الموازين ونشر الدواوين لأهل الإسلام»[١].

وتقريب المعنى: أن نصب الموازين كنشر الدواوين ظاهر في وجود حقيقة خارجية محسوسة للموازين، ولذا تنصب، كما أن تحديد نصب الموازين لأهل الإسلام يكشف عن أن الموزون هو الأعمال لا العقائد؛ لأن فاسد العقيدة لا يقام له وزن، ويحشر إلى جهنم زمراً، فبناء على تجسم الأعمال لا مناص من حمل الميزان على الحقيقة المحسوسة.

هذا ولكن الملحوظ أن هذه الأخبار معارضة بالأخبار الأخرى التي دلت بالملازمة أو التضمن على أن الميزان حقيقة معنوية لا حسية.

ومنها: ما ورد في تفسير القمي في قوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ قال عليه السلام: «المجازاة بالأعمال إن خيراً فخير وإن شراً فشر»[٢] فإنها ظاهرة في أن الجزاء يكون بالثواب والعقاب على العمل من دون ميزان، وأن العمل الخير معلوم، وجزاؤه خير، والعمل الشر معلوم أيضاً وجزاؤه مثله.

ومنها: رواية هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام التي فسرت الموازين بالأنبياء والأوصياء[٣]، وقد وردت الموازين بصيغة الجمع للدلالة على أن

١ - الكافي: ج٨، ص٧٥، ح٢٩؛ وانظر الأمالي (للصدوق): ص٥٩٥، ح١.
٢ - تفسير القمي: ج١، ص٢٢٤.
٣ - معاني الأخبار: ص٣١، ح١؛ وانظر التوحيد: ص٢٦٨؛ الكافي: ج١، ص٤١٩، ح٣٦.

جميع الأنبياء والأوصياء هم موازين، وكل نبي ووصي هو ميزان لأمته، أو أن لكل عمل نبياً أو وصياً يكون ميزانه.

ومنها: رواية هشام بن الحكم عن الصادق عليه السلام حينما سأله الزنديق: أو ليس توزن الأعمال؟ قال: «لا، إن الأعمال ليست بأجسام وإنما هي صفة ما عملوا ثم عرف الميزان بالعدل، ومعنى ثقل العمل رجحانه[1]، وقد مر عليك نص الرواية.

ومن الواضح أن الرواية ناظرة إلى الأعمال في الدنيا، فلذا وصفتها بأنها ليست بأجسام؛ لوضوح أن الأعمال أجسام في نشأة الآخرة كما عرفت، وقوله: «إنما هي صفة ما عملوا» ناظر إلى دواعي العمل ونيته؛ لأن العمل عبارة عن أفعال يؤديها الإنسان، إلاّ أن وصفها بالحلية والحرمة والطاعة والمعصية والحسن والقبح راجع إلى الدواعي والنيات، فمقاربة المرأة مثلاً هو فعل واحد من حيث الحركات، ولكنه إن كان بعقد شرعي يكون حلالاً، وإذا كان بقصد القربة والتعفف يكون عبادة، وهكذا.

وأما في الآخرة فإن الميزان هو ثقل العمل ورجحانه، ومن هنا يقع التعارض بين الأدلة؛ لأن بعضها يثبت الميزان المحسوس، وبعضها يثبت غير المحسوس، ولأجل حل التعارض لابد من الوصول إلى صيغة للجمع الدلالي أولاً؛ لأنه مهما أمكن أولى من الطرح؛ إذ معه لا يبقى موضوع للتساقط ولا التخيير حتى على القول بأنهما يجريان في روايات العقائد، كما أنه أولى من التوقف بناء على أن الاعتقاد الإجمالي غير كاف بعد مجيء النص.

---

١ - الاحتجاج: ج٢، ص٩٨- ٩٩؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص٥، ح١١.

وهناك أكثر من صيغة للجمع عمدتها التفصيل بين الأعمال فيقال بأن الميزان فيها محسوس وبين غيرها، وميزانها الحق والعدل، وهذا ما تقتضيه قرينة المناسبة بين الحكم والموضوع، وهو مقتضى القاعدة في المثبتين لما اتفقت عليه كلمتهم من عدم وقوع التنافي بين المثبتين، ولازمه العمل بكليهما معاً، وهذا القول أولى بالأخذ؛ لأنه يستند إلى العمل بظواهر النصوص من دون ترجيح، لكن الحق الذي يقتضيه التحقيق هو القول بأن الميزان حقيقة محسوسة يستند إلى طبائع الأشياء لا إلى الميزان المعهود في العرف، وبه نجمع بين الأدلة والأقوال، ويرتفع الخلاف، وهذا ما نفصله في الأمر الثالث.

الأمر الثالث: الميزان حقيقة محسوسة

قد مر عليك أن ثقل الأشياء تارة يعرف بالمقايسة إلى غيرها، فيقال الطن من التراب أثقل من المن منه، وتارة يعرف بالقياس إلى نفسها، فيقال التراب أثقل من الهواء؛ لأن طبيعة التراب ثقيلة، وهذا في الماديات واضح، وكذلك في المعنويات، فيقال العلم والحلم والعدالة حقائق ثقيلة، بينما الجهل والسفاهة والفسق حقائق خفيفة، وقد مر عليك أن الأعمال والصفات والعقائد تتجسد وتكتسب أشكالاً ظاهرة في النشأة الأخروية؛ لأن القوانين الحاكمة في عالم الآخرة غير القوانين الحاكمة في عالم الدنيا.

وعليه فإن الأعمال الصالحة تتجسد بصورة جميلة وشكل حسن، والأعمال القبيحة عكسها، كما أن السجايا والملكات تظهر على حقيقتها، فالصفات الحسنة تتشكل بصورة حسنة والقبيحة عكسها، والعقائد وإن كانت نتائج عقلية إلاّ أن محلها النفس والقلب، فتكون جزء الصفات والملكات، فيظهر أثرها على الصفات فتزيدها نوراً إن كانت عقائد حقة، أو ظلاماً أن كانت

باطلة، وهذا ما تؤكده الآيات والروايات التي تنص على أن المؤمنين يسعى نورهم من بين أيدهم وبأيمانهم، وأما غيرهم فيعيشون في ظلام دامس، ويحشرون عمياً، ويطلبون الرؤية والنور فلا يستجاب لهم، وإلى هذه الحقيقة يشير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾[١].

وهي في مجملها دالة على أن المؤمن والمؤمنة يشعان نوراً في الآخرة، ويحملان معهما النور، والأول هو نور الإيمان يتجسد وينعكس من وجوههم وقلوبهم، والثاني نور العمل الذي يقترن معهم في المحشر، أو الذي يشع من صحائف أعمالهم، وقد عبر عنه بأنه يسعى للإشارة إلى أن المؤمنين يسرعون المشي إلى الجنة؛ لأنهم لا يمرون بمرحلة الحساب والميزان، أو أنهم يطوون هذه المنازل بسرعة خاطفة؛ لأن عقائدهم وأعمالهم ظاهرة الحسن والجمال.

نعم تختلف مراتب النور وشدته بحسب مراتب الإيمان ودرجات الأعمال، كما ورد في تفسير القمي أن النور يقسم بين الناس على قدر إيمانهم[٢]، فبعض المؤمنين يضيء نوره إلى مسافات طويلة، ويهديه إلى الجنة، وبعضهم الأقل رتبة وعملاً لا يضيء نوره إلاّ موضع قدميه، وبعض آخر يكون نوره على إبهامه يطفأ مرة ويتوهج أخرى[٣].

١ – سورة الحديد: الآية ١٢– ١٣.

٢ – تفسير القمي: ج٢، ص٣٥١.

٣ – انظر مجمع البيان: ج٩، ص٣٩١، تفسير الآيتين المزبورتين.

وعلى خلاف ذلك المنافقون والمنافقات، فإن نفاقهم يتجسد ظلاماً دامساً يتركهم تائهين لا يرون طريقاً، ولا يهتدون سبيلاً، فيلتمسون من المؤمنين أن ينتظروهم لكي يقتبسوا من نورهم، أو يقتدوا بهم ويسيروا على الصراط، فترد دعواهم بالتوبيخ والاستهزاء، فيقال لهم: ﴿ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾[1] أي ارجعوا إلى النفاق والتمسوا منه النور، وهو من باب التعليق على المحال والغاية منه إظهار زيف ما كانوا عليه، ومصيرهم إلى النار.

ومن خلال ما تقدم يتضح أن العقائد كالأعمال تتجسد وتظهر للعيان بشكلها المناسب والمسانخ إن خيراً فخير، وأن شراً فشر، كما يتضح أن وزن الأعمال بالميزان المعهود عند العرض مما لا جدوى فيه؛ لأنه أن أريد منه معرفة قيمة الأعمال أو قدرها فهو تحصيل للحاصل، وإن أريد منه إعلام الناس وإقامة الحجة فهو لغو؛ لأن الظهور الحسي للعمل والعقيدة تكفي عن كل ذلك.

وعليه لا بد وأن يحمل الميزان على ظهور حقيقة الشيء وطبيعته من حيث الثقل والخفة والحق والباطل، فإن العمل الثقيل ظاهر ومتميز عن الخفيف بشكله وصورته، والعقيدة الحقة كذلك، وهذا المعنى يتوافق مع النصوص التي وصفت الوزن بالحق والعدل، ونصت على أن الترجيح يكون بالعمل، كما يتوافق مع النصوص الدالة على أن الترجيح يكون بالثقل، ويتوافق أيضاً مع الروايات التي عرفت الميزان بالنبي والإمام عليه السلام، أو بالصلاة والكتاب، أو بالعقل ونحوها؛ لأن هذه جميعاً تظهر بشكلها الإلهي المحسوس، فتكون مائزاً للحق من الباطل، والثقيل من الخفيف.

---

١ - سورة الحديد: الآية ١٣.

ويمكن أن يكون التمييز بنحو من المقايسة، وذلك بأن تظهر العقائد الحقة بشكلها التام بجميع أجزائها وشرائطها، وكذلك السجايا والملكات تظهر بشكلها الكامل، والأعمال تظهر بتمام أجزائها وشرائطها التي تعد أكمل حالاتها، وعلى أساسه تقاس عقائد الناس وملكاتهم وأعمالهم؛ إذ تعرض عقيدة المؤمن بالتوحيد والنبوة والإمامة على العقيدة الكاملة، ومن خلاله تعرف درجة مطابقة عقيدته للعقيدة التامة، وهو ما يعبر عنه بحق العقيدة، فكلما كانت المطابقة أتم كانت العقيدة أسلم وأقرب إلى الحق، وبه تتميز درجات المؤمنين، وكذلك في الملكات والأعمال، فيعرف وزن العقائد والصفات والأعمال من خلال معرفة مدى مطابقتها للعقيدة الحقة والصفات الحقة والأعمال الحقة، فكلما اقترب ما عند الإنسان منها من الحق يكون أثقل وزناً.

وبهذا يتضح أن الذي يستحق الوزن بالأصالة هو الحسنات، وأما السيئات فلا توزن، بل تعرف بالعرض، ومن هنا نسب الوزن في الثقل والخفة إلى الحسنات، وقسم الباري عز وجل أهل الحساب إلى ثقيل الحسنات وخفيفها، ولم يذكر من تساوت حسناته وسيئاته أو زادت سيئاته، لأنه لا وزن له[1]، ومن هذا التوجيه يمكن أن نتوصل إلى عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ﴾ هو أن يقاس كل عمل يؤديه الإنسان على حق العمل عند الله سبحانه، والذي قرره في شرعه، وهو عبارة عن كماله ومرتبته العليا، ويوزن به، وعلى أساسه يقرر قبوله أو رده وثقله أو خفته.

١ - انظر علم اليقين: ج٢، ص٩٤٨؛ تفسير الميزان: ج٨، ص١١.

والحقيقة الثانية: أن لكل عمل ميزانه الخاص، ولا يوجد ميزان واحد تقاس به جميع الأشياء، بل للعقائد أكثر من ميزان، وللصفات والأعمال كذلك، ولعل من هنا ورد بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ نعم الميزان الأول والأوفى الذي على أساسه تصلح الأعمال والصفات للوزن والمقايسة هي ولاية محمد وآل محمد عليهم السلام؛ لأن الولاية مفتاح الأعمال والصفات وهي أول ما ينظر فيه من أعمال بني آدم، فمن كان موالياً نظر في باقي أعماله، ولوحظ وزنها، وأما غير الموالين فلا يقام لهم وزن؛ لما عرفت من أن عدم الإيمان ملازم لحبط العمل، وهذا ما تؤكده النصوص المتقدمة التي فسرت الموازين بالأنبياء والأوصياء والنصوص الأخرى التي دلت على أن الحساب والفصل في الجنة والنار يرجع إلى النبي وأمير المؤمنين عليه السلام.

الحقيقة الثالثة: أن قول النبي صلى الله عليه وآله: «ضربة علي يوم الخندق تعدل عبادة الثقلين»[1] يرجع إلى صدقها واشتمالها على الحق، فإنها ضربة حق كلها غير مشوبة بالباطل، وبه يتضح معنى قوله صلى الله عليه وآله في شأن علي عليه السلام في معركة الخندق: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»[2] كما يتضح الوجه في أفضلية صلاة العالم على الجاهل، وأفضلية صلاة المتزوج على العزب، وأفضلية صلاة الجماعة على الفرادى، وهكذا باقي الأعمال والطاعات، وذلك لأنها أقرب إلى حق الصلاة.

وربما يعضد هذا التوجيه أكثر من معاضد:

---

١ - عوالي اللآلئ: ج٤، ص٨٦، ح١٠٢.

٢ - بحار الأنوار: ج٢٠، ص٢١٥، ح٢٧.

الأول: عدم وجود ما ينافيه، فإن أكثر ما تمسك به القائلون بالميزان الحسي بالمعنى العرفي أي ذو الكفتين أو القبان ليس له ظهور صريح فيه، ولم يرد من الطرق المعتبرة عن النبي والأئمة عليهم السلام ما يفيد ذلك. نعم وردت بعض المرويات من طرق الجمهور وهي لا تصلح دليلاً من حيث السند ولا الدلالة لإمكان توجيهها بما ذكرنا.

بل الملحوظ أنها إما ظاهرة أو أظهر فيما ذكرنا، أو تحتمل الوجهين معاً، لكنك عرفت أن حملها على الميزان العرفي مبتلى بالمانع؛ لاستلزامه تحصيل الحاصل واللغوية، فيبقى الوزن الذاتي بلا مانع.

الثاني: أن ما ورد من أن الله سبحانه ينصب ميزاناً له لسان وكفتان يوم القيامة لم يعرف أنه رواية وردت عنهم بالطرق المعتبرة، وإنما هو قول ذكره صاحب مجمع البيان رحمه الله ولم ينسبه إليهم بل نقله عن ابن عباس والحسن والجبائي[1]، ولعله مضمون مستنبط من مجموع النصوص، فلا يكون حجة على غير صاحبه، وعلى فرض أنه رواية فقد عرفت أنه يمكن أن توجه بالنبي والإمام عليه السلام، أو بتجسد الحق من كل شيء.

الثالث: ما تقدم من بيان معنى الحساب وأن العبد إذا حضر إلى الحساب يحضر معه عمله وعقائده وصفاته، فإنه يتوافق مع معنى الوزن والميزان بالتوجيه الذي ذكرناه فإن معنى محاسبة العبد هو ظهور خصوصياته الجانحية والجارحية وبيان ثقلها وخفتها، وهذا شاهد آخر يوجه معنى سرعة الحساب ودقته في الآخرة؛ لأن تجسم الحقائق يمنع من الخلط والاشتباه كما يمنع من الغفلة والنسيان.

---

١ - انظر مجمع البيان: ج٤، ص٢٢٠، تفسير الآية ٨ من سورة الأعراف.

هذا كله ما يقتضيه التحقيق استناداً إلى ظواهر الأدلة والقرائن العقلية والعرفية بحسب مقتضى العلم الإجمالي، والله سبحانه وأولياؤه أعلم بحقيقة الأمر وتفاصيله، ومن هنا قال بعض الأعلام بأن الأحوط والأولى الإيمان بالميزان والتسليم له بحسب ما ورد في الأدلة، ولا نتكلف علم ما لم يوضح لنا بصريح البيان[١].

المشهد الرابع: الصراط

لا خلاف بين المسلمين في أن الصراط حق يمر عليه أهل المحشر أبرارهم وفجارهم، وقد أشارت إليه آيات عديدة من القرآن، وتوترات به الأخبار بطرق الفريقين[٢]:

منها: قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[٣] إذ تدل على أن كل العباد لابد وأن يردوا النار، وأن هذه اللابدية وعد إلهي للعباد لا مناص من الالتزام به. هذا مما اتفق عليه الفريقان، وإنما اختلفوا في أن الورود هنا بمعنى الوصول والإشراف فقط، فيكون نظير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾[٤] أو هو بمعنى الدخول فيكون نظير قوله تعالى في فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾[٥]

---

١ - بحار الأنوار: ج٧، ص٢٥٣، أقول؛ حق اليقين: ص٤٢٥.
٢ - انظر الاعتقادات (للصدوق): ص٧٠؛ تصحيح الاعتقاد: ص١٠٨؛ حق اليقين: ص٤٥٧.
٣ - سورة مريم: الآية ٧١- ٧٢.
٤ - سورة القصص: الآية ٢٣.
٥ - سورة هود: الآية ٩٨.

والأكثر على الثاني[١]، وهو المروي عن جابر بن عبد الله عن النبي[٢] ﷺ، ولكن الله سبحانه بمنّه ولطفه يجعل النار برداً وسلاماً على المؤمنين إظهاراً لكرامتهم واشعارهم بالرحمة والرضوان، ويجعلها محرقة للمذنبين عقاباً ووفاءً بالوعيد، وهذا المعنى تساعد عليه القرينة الداخلية.

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[٣] فإن النجاة والذر لا يصدقان إلاّ بعد الدخول، والأوجه هو حمل الورود على معناه العام، وهو الموافاة إلى الشيء[٤] والحضور[٥]، فالعصاة والمذنبون يدخلونها، والمحسنون المطيعون يعبرون عليها، ويشهد له قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[٦] والروايات الكثيرة التي عرفت حقيقة الصراط وأحوال الناس فيه.

وبه يتضح أن الروايات الدالة على أن الجميع يدخلون النار إلاّ أنها لا تحرق المؤمنين يراد منه المرور والعبور، ويستفاد من الأخبار أيضاً أن الصراط ميزان آخر يتميز به أهل الإيمان من أهل الكفر بعد مشهد الميزان، أنه مرحلة من مراحل العذاب يمر عليه الناس، فيكون تطهيراً لأهل الجنة، وتعذيباً لأهل النار، وبالرغم من أن الروايات الواردة بشأنه كثيرة وقد تعرضت إلى

---

١ - انظر مجمع البيان: ج٦، ص٤٤١- ٤٤٢، تفسير الآيتين المزبورتين.

٢ - انظر مجمع البيان: ج٦، ص٤٤١- ٤٤٢، تفسير الآيتين المزبورتين.

٣ - سورة مريم: الآية ٧٢.

٤ - معجم مقاييس اللغة: ص١٠٥١، (ورد)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٦٥، (ورد)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص١٦٠، (ورد).

٥ - لسان العرب: ج٣، ص٤٥٧، (ورد)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص١٠٢٤، (ورد).

٦ - سورة الأنبياء: الآية ١٠١.

الكثير من جوانبه إلاّ أن هناك مشكلتين تواجهها:

الأولى: وقوع بعض الاختلاف في مداليلها الذي يستدعي تحري وجه الجمع بينها أو رفع الغموض عنها.

الثانية: أن أهل الكلام والباحثين في الموضوعات الاعتقادية لم يتوقفوا عندها كثيراً توقفاً تحليلياً استدلالياً، وإنما اكتفوا في كثير من الأحيان بسرد الروايات والاكتفاء بما حملته من مداليل، بما ربما أوقع البحث ببعض الغموض قاد كلمات الأعلام فيه إلى بعض الاضطراب بالرغم من أنه من المعتقدات الحقة التي يجب على كل مؤمن أن يلتزم بها ويذعن إلى النصوص المعتبرة التي كشفت عن وجوده، ومن هنا وجدنا من المناسب الوقوف عنده للبحث في بعض تفاصيله بنحو موجز، ورفع بعض وجوه اللبس فيه، أو في الروايات الواردة بشأنه، ويتلخص البحث في الصراط في أمور:

الأمر الأول: في حقيقة الصراط وحكمته

الصراط لغة وعرفاً الطريق[١]، واستعمل شرعاً في الطريق المستقيم، ولذا نسبه سبحانه إليه إذ قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[٢] وهو أخص مطلقاً من السبيل؛ إذ يطلق على طريق قصد به الخير أو الشر، ومن هنا ورد في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ

١ - معجم مقاييس اللغة: ص٥٦٩، (صرط)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٨٣، (صرط)؛ لسان العرب: ج٧، ص٣٤٠، (صرط)؛ مجمع البحرين: ج ٢، ص٦٠٢، (صرط).

٢ - سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

﴿ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[١] ولم يستعمل الصراط ، بينما نسب السبيل إلى الضلالة بصيغة الجمع، ولما نسبه إلى نفسه أفرده في الآية الأولى.

وأما في المصطلح فهو جسر على جهنم أوله في الموقف وآخره على باب الجنة، وهو أحدّ من السيف وأدق من الشعرة، وعليه ممر جميع الخلق في الآخرة، وفي طريقه عقبات يبتلى بها الناس، فيعذب العاصي، وينجو المطيع بحسب تفاوتهم في الدرجات كما في الأخبار الشريفة[٢]، ووصفه بأنه أدق من الشعرة وأحد من السيف يحتمل معنيين:

الأول: المعنى الحقيقي، ولذا لا يجتازه أحد إلاّ بإذن من الإمام عليه السلام وبإرادة ربانية.

والثاني: المعنى المجازي، ويراد به الإشارة لشدة عدالته ودقته، بحيث لا يفوته مسيء، ولا يهضم فيه محسن، ووصفه بأحد من السيف للإشارة إلى صعوبته؛ بداهة أن الإنسان لا يقدر على المشي على حد السيف ما لم يحظ بقدرة أو وسائل تحفظه من الأذى، وليس ذلك إلاّ ولاية الإمام عليه السلام واتباعه، ولا مانع من إرادة كلا المعنيين بالدلالة التضمنية؛ لوجود المقتضي وانعدام المانع، فحصر بعض الأعلام المعنى بالثاني فقط مما لا وجه له؛ لأصالة حمل الكلام على ظهوره ما لم يكن اضطرار إلى التأويل، بل ذلك هو مقتضى التعبد بالقرآن والحديث ما دام العقل قاصراً عن إدراك عمق المعاني الغيبية التي لا يعرفها

١ – سورة الإنسان: الآية ٣.

٢ – انظر بحار الأنوار: ج٨، ص٦٤– ٦٥، ح١؛ كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج٢، ص١٠٧٥.

إلاّ الله وأولياؤه الطاهرون[١].

وبهذا يظهر أن المراد هنا بالعقبات المحطات التي يستوقف فيها الناس فيسألون عن معتقداتهم وأعمالهم، ومفتاح الجواز على الصراط هو ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، فإنه إذا كان المؤمن موالياً جاز كبرى العقبات؛ لأنها خلاصة أصول الدين وفروعه؛ بداهة أن الذي يوالي علياً عليه السلام يكون قد والى الرسول صلى الله عليه وآله وأطاعه، والذي يوالي الرسول ويطيعه صلى الله عليه وآله يكون موحداً لا محالة.

فإذا تجاوز المؤمن هذه العقبة ينظر حينئذ في أعماله المتعلقة بفروع دينه من صلاة ونحوها من العبادات، وإلاّ زلت قدمه من الصراط وهوى إلى جهنم، ففي النبوي الشريف: «لا يجوز على الصراط أحد إلاّ من كانت معه براءة من النار بولايته لعلي بن أبي طالب عليه السلام»[٢].

وفي حديث ابن عباس ما يقرب من هذا المعنى كما سيمر عليك في أحوال الصراط[٣]، وقريب منه رواه عبد الله بن عمر قال: سألنا رسول الله صلى الله عليه وآله عن علي بن أبي طالب عليه السلام فقال - في حديث مفصل -: «ألا ومن أحب علياً قبل الله منه صلاته وصيامه وقيامه، واستجاب الله دعاءه، ألا ومن أحب علياً استغفرت له الملائكة، وفتحت له أبواب الجنان يدخلها من أي باب شاء، ألا ومن أحب علياً مر على الصراط كالبرق الخاطف، ولم ير مؤنة المرور، ألا

١ - انظر تصحيح الاعتقاد: ص٨٧ وما بعدها؛ حق اليقين: ص٤٥٨.

٢ - الاعتقادات (للصدوق): ص٨٧٠.

٣ - انظر تفسير مقاتل: ص٣٧٨؛ المناقب (لابن شهر أشوب): ج٢، ص٧؛ تفسير البرهان: ج٨، ص٥٩، ح١١؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٦٧، ح٨؛ ج٣٩، ص٢٠١، ح٢٣.

ومن أحب علياً أمن من الحساب والميزان والصراط»[١].

والمراد من الحب هنا معناه المصطلح أي التولي له بالمحبة والطاعة والنصرة والتبري من أعدائه وخصومه، لا المعنى اللغوي كما هو واضح، وبذلك يظهر وجه الحكمة من نصب الصراط ، ففي بعض الأخبار أن الله تعالى لا يدخل أحداً الجنة حتى يطلعه على النار وما فيها من العذاب؛ ليعلم تمام فضل الله عليه، وكمال لطفه وإحسانه إليه، فيزداد لذلك فرحاً وسروراً بالجنة ونعيمها، ولا يدخل أحداً النار حتى يطلعه على الجنة وما فيها من أنواع النعيم والثواب؛ ليكون ذلك زيادة عقوبة له وحسرة له على ما فاته من الجنة ونعيمها[٢].

ومن وجوه الحكمة أيضاً تطهير بعض المذنبين من بقايا المعاصي وآثارها؛ ليدخل الجنة طاهراً جديراً برضوان الله ونعيمه، كما أن منها ظهور حقانية آل محمد عليهم السلام ومقامهم عند الله سبحانه والتي هي خلاصة الرسالات السماوية ودعوات الأنبياء على رؤوس الأشهاد، فتكون لله الحجة البالغة على العصاة والمخالفين وفي مكافأة المطيعين، وبذلك يظهر أن الصراط في المصطلح الكلامي حقيقة واقعية كشفتها النصوص وهي بهذا المعنى تكون حقيقة شرعية لا لغوية ولا عرفية، كما أن له شكلاً مادياً محسوساً يمر الناس عليه فيعذبون أو يتنعمون، وهو ما دلت عليه النصوص المتواترة، ولا داعي لتأويل هذه النصوص على خلاف ظهورها بحمل الصراط على معان أخرى

---

١ - انظر فضائل الشيعة: ص٣، ح١؛ معالم الزلفى: ج٢، ص٥٤٨، ح٩؛ تأويل الآيات: ج٢، ص٨٦٣.

٢ - انظر الأنوار النعمانية: ج٤، ص٢٨٧.

ما دام في نفسه ممكناً، وقد أخبر المعصوم بوجوده، ولا يلزم من حمله على ظاهره مانع عقلي أو شرعي، فالمقتضي للإيمان بالصراط بمعناه المحسوس موجود والمانع منه مفقود. نعم للصراط مظاهر وأشكال عديدة وردت بها الأخبار وهو ما ستتعرض إليه في الأمر التالي.

الأمر الثاني: مظاهر الصراط

تؤكد الأخبار الشريفة أن لله سبحانه صراطين، صراطاً في الدنيا وصراطاً في الآخرة. أما الأول فهو الصراط المستقيم، ويراد به ما قصر عن الغلو، وارتفع عن التقصير، واستقام فلم يعدل إلى شيء من الباطل، وأما الطريق الآخر فهو طريق المؤمنين إلى الجنة[1].

وبناء على المعنى الأول يظهر وجه الجمع بين الأقوال التي اختلفت في تعريف الصراط المستقيم، فبعضهم عرفه بطريق الحق، وبعضهم بالدين والتوحيد، وثالث باتباع الأنبياء والرسل؛ إذ إن الصراط المستقيم هو الاعتدال في الفكر والعمل، فلا يغالي في معتقده، ولا يقصر ولا ينحرف في أعماله ومواقفه.

وهذا الاعتدال هو مظهر الحق، وغاية الدين، وطريق الأنبياء والرسل، وإليه أشار قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[2] ومن الواضح أن الهداية إلى صراط الله سبحانه متوقفة على المعرفة، ومن هنا يظهر أن العلوم الحقة والأعمال الصالحة استناداً إلى ما جاء به الشرع الأنور هي أيضاً من الصراط المستقيم، كما أن الأنبياء

---

١ - انظر معاني الأخبار: ص٣٣، ح٤.

٢ - سورة الشورى: الآية ٥٢- ٥٣.

والأوصياء عليهم السلام صراط أيضاً؛ لأنهم من الطرق إلى الله سبحانه[1].

كما يظهر أن من أعظم مظاهر الصراط المستقيم في الدنيا هو معرفة الحجة والإمام الذي أوجب الله على الناس اتباعه، فإن معرفته من أجلى مصاديق الهدى، وإنكاره أو الجهل به من أجلى مصاديق الضلالة، ولذا ورد في الدعاء المبارك: «اللهم عرفني حجتك فإنك أن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني»[2] وتضافر بطرق الفريقين عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أن من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»[3].

ووجهه ظاهر؛ بداهة أن معرفة الإمام الذي نصبه الله حجة على الخلق واتباعه في القول والعمل هو الطريق الموصل إلى معرفة الله سبحانه وطاعته، ومن هنا تضافرت الأخبار في أن الصراط المستقيم هو أمير المؤمنين عليه السلام[4]، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا الصراط الممدود بين الجنة والنار، وأنا الميزان»[5].

وفي النبوي الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أتاني جبرائيل عليه السلام فقال: أبشرك يا محمد بما تجوز على الصراط؟ قال: قلت: بلى. قال: تجوز بنور الله، ويجوز عليّ بنورك، ونورك من نور الله، وتجوز أمتك بنور علي، ونور عليّ من

١ - انظر علم اليقين: ج٢، ص٩٦٦- ٩٦٧.
٢ - الكافي: ج١، ص٣٣٧، ح٥.
٣ - الكافي: ج١، ص٣٧٧، ح٣؛ كفاية الأثر: ص٢٩٦؛ الوسائل: ج١٦، الباب٣٣ من أبواب الأمر والنهي وما يناسبهما، ص٢٤٦، ح٢٣.
٤ - معاني الأخبار: ص٣٢، ح٢، ح٣.
٥ - الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: ص٤٦٧، ح٣.

نورك، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور»[1] ويدل هذا الخبر على حقيقتين:

الحقيقة الأولى: أن جميع الخلق حتى رسول الله صلى الله عليه وآله وأولياؤه يمرون على الصراط ، ويظهر منه أن طريق الصراط مظلم إلاّ من كان له نور يستضيء به.

الحقيقة الثانية: أن الذي لا يوالي علياً عليه السلام لم يكن له نور، ولذا يعثر في عقبات الصراط ، ويهوي إلى النار، وهذا ما يؤكده النبوي الشريف: «أثبتكم قدماً على الصراط أشدكم حباً لأهل بيتي عليهم السلام»[2] إذ يشير إلى أن المحبين أيضاً قد يعثرون، وقد يثبتون على الصراط ، فيكون الثبات على قدر المحبة، وإليه أشار الإمام أبو جعفر عليه السلام بقوله: «قال النبي لعلي عليه السلام: ما ثبت حبك في قلب امرئ مؤمن فزلت به قدم على الصراط إلاّ ثبتت له قدم حتى أدخله الله بحبك الجنة»[3].

والخلاصة: أن المستفاد من مجموع النصوص المتقدمة أن الصراط دنيوي وأخروي، والإمام المعصوم عليه السلام هو الجامع المشترك للصراط في النشأتين. أما في الدنيا فلما عرفت من أن الإيمان بالإمام واتباعه هو عين الإيمان بسائر أصول الدين وفروعه، وأما في الآخرة فلأنه أيضاً الميزان الذي يدور عليه حساب الناس وجزاؤهم كما مر عليك.

وبذلك يظهر أن للصراط مظهرين من حيث الشكل وإن كانا من حيث الجوهر شيئاً واحداً:

---

١ - تفسير الفرات: ص٢٨٧، ح٣٨٧؛ بحار الأنوار: ج٧، ص٣٣٢، ح١٥؛ ج٨، ص٦٩، ح١٤؛ وانظر المناقب (لابن شهر أشوب): ج٢، ص٧.

٢ - فضائل الشيعة: ص٥؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٦٩، ح١٦؛ ج٢٧، ص١٥٨، ح٥.

٣ - بحار الأنوار: ج٨، ص٦٩، ح١٧.

أحدهما: الصراط الظاهر، وهو الطريق الممدود بين الموقف والجنة، ويمر عليه جميع الخلق حتى الأنبياء والأولياء عليهم السلام.

وثانيهما: الصراط الباطن، وهو طريق الإمام عليه السلام، وكل جيل صراطه إمام زمانه، كما كان ميزان كل جيل إمام زمانه، فمن مشى في حياته على خُطى إمامه في العقيدة والعمل كان على الصراط المستقيم، ومصيره الجنة، ومن خالفه وعصاه تعثر على الصراط وهوى في النار، وهو ما عرفته من الأخبار المتقدمة، ويختلف الناس في سرعة مشيهم ووصولهم إلى الجنة على قدر معرفتهم بالإمام عليه السلام، فكلما كانت المعرفة أكثر كان الحب أكثر، ولازم ذلك أن يكون الاقتداء والاتباع أتم، وحيث إن المعرفة نور تكون سرعة المشي والوصول إلى الغاية على حسب شدة النور كما عرفته من الرواية السابقة، وفي النبوي الشريف: «إن مرورهم على الصراط على قدر نورهم»[١] أي معرفتهم.

وفي حديث آخر: «إن الصراط يظهر يوم القيامة للأبصار على قدر المارين عليه، فيكون دقيقاً في حق بعض، وجليلاً في حق آخرين، وإنهم يعطون نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه، ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك، حتى يكون آخرهم رجلاً يعطى نوره على إبهام قدمه فيضيء مرة ويطفئ مرة، فإذا أضاء قدمه مشى، وإذا طفئ قام»[٢] ويكشف هذا الحديث عن حقيقتين:

١ - مجمع الزوائد: ج١٠، ص٣٤١؛ المعجم الكبير: ج٩، ص٣٥٨؛ انظر فيض القدير: ج١، ص١٩٢، رقم ١٥٩؛ الحكمة المتعالية: ج٥، ص٢٨٦.
٢ - علم اليقين: ج٢، ص٩٧٠؛ وانظر المستدرك على الصحيحين: ج٤، ص٥٩٠.

الأولى: أن عثرات الصراط وعقباته تنشأ من ظلمانية الأعمال، إذ إن الصراط الذي هو أحد من السيف وأدق من الشعر لشدة ضبطه ودقته لا يمكن تجاوزه بالظلام.

والثانية: أهمية المعرفة ووجوب سعي المؤمن لاكتساب المعارف وتوسيع الإطلاع في العقيدة، لا سيما معرفة الإمام ومجاهدة النفس في اتباعه؛ لأن منازل العباد ودرجاتهم ومستوى نعيم الآخرة وعذابها يتوقف عليها، وهذا وجه عقلي آخر يضاف على الوجوه المذكورة لوجوب المعرفة، ووجه الجمع بين المظهرين هو أن إذن الجواز على الصراط يكتسب من المعرفة والولاية، فإذا حشر العبد نظر في توليه لإمامه ومتابعته، فإن كان من أهل الولاية أجيز المرور على الصراط ، وحينئذ يسلك الطريق الممدود إلى الجنة من دون أن يحترق، وإلاّ هوى إلى النار، وهذا ما يؤكده حديث المفضل بن عمر قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الصراط ؟ فقال: «هو الطريق إلى معرفة الله عز وجل، وهما صراطان، صراط في الدنيا وصراط في الآخرة، فأما الصراط الذي في الدنيا فهو الإمام المفروض الطاعة، من عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مر على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدنيا زلت قدمه عن الصراط في الآخرة فتردى في نار جهنم»[1].

ويعضد هذا المضمون قول الإمام عليّ عليه السلام الذي رواه محمد بن الفضيل عن الصادق عليه السلام: «فلا أزال واقفاً على الصراط أدعو وأقول: ربّ سلّم شيعتي ومحبيّ وأنصاري ومن تولاني في دار الدنيا»[2] ويدل الحديثان على أن

١ - بحار الأنوار: ج٨، ص٦٦، ح٣.
٢ - بحار الأنوار: ج٨، ص٦٩، ح١٥.

المعرفة في الدنيا هي قوام النجاة في الآخرة؛ لأنها دار الاختبار والامتحان.

الأمر الثالث: بعض أحوال الصراط

تحدثت الأخبار عن أحوال الصراط، وكشفت عن أن الصراط مواقف، ولكل موقف أحداث ومشاهد عظيمة نلخصها في خمسة:

الموقف الأول: الحشر الشامل، فما من عبد إلاّ ويمر على الصراط، حتى الأنبياء والأولياءعليهم السلام، فهو مشهد عام لا يستثنى منه أحد، فقد روى الصدوقرحمه الله بإسناده عن أبي جعفر الباقرعليه السلام قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ﴾ سئل عن ذلك رسول اللهصلى الله عليه وآله فقال: أخبرني الروح الأمين أن الله لا إله غيره إذا جمع الأولين والآخرين أتي بجهنم تقاد بألف زمام، آخذ بكل زمام مائة ألف ملك من الغلاظ الشداد، لها هدة وتغيظ وزفير، وإنها لتزفر الزفرة، فلولا أن الله عز وجل أخرهم إلى الحساب لأهلكت الجمع، ثم يخرج منها عنق يحيط بالخلائق البر منهم والفاجر، فما خلق الله عز وجل عبداً من عباده ملكاً ولا نبياً إلاّ نادى: ربي نفسي نفسي، وأنت يا نبي الله تنادي: أمتي أمتي، ثم يوضع عليها صراط أدق من حد السيف، عليه ثلاث قناطر. أما واحدة فعليها الأمانة والرحم، وأما الأخرى فعليها الصلاة، وأما الأخرى فعليها عدل ربّ العالمين لا إله غيره ... وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ والناس على الصراط ، فمتعلق وقدم تزل وقدم تستمسك، والملائكة حولهم ينادون: يا حليم اغفر واصفح .... والناس يتهافتون فيها كالفراش، فإذا نجا ناج برحمة الله عز وجل نظر إليها....»[1]

١ - انظر الأمالي (للصدوق): ص٢٤١- ٢٤٢؛ حق اليقين: ص٤٥٩.

ويشير هذا الحديث الشريف إلى عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن جهنم وجود حي يدرك له حس وحركة، ورواح ومجيء، وهي تتنفس وتشهق وتزفر، وهذا يؤكد ما تقدم من تجسم الأعمال والصفات، وعلى هذا يظهر أن قوله: «تقاد بألف زمام آخذ بكل زمام مائة ألف ملك» قد يراد به المعنى الحقيقي، ولا محذور فيه، وتوهم عجز الملائكة عن الإتيان بالنار العظيمة مردود بأنهم موصوفون بالغلاظ الشداد، وهذا الوصف من خصوصيات عالم الآخرة لا الدنيا، فلابد وأن تكون قدرتهم هائلة حتى يقدروا على النار، بل حيث إن الأمر يرجع إلى قدرة الله ومشيئته سبحانه فإنه سبحانه يعطي ملائكته القدرة، ويأمر النار بالطاعة، فلا وجه للإشكال أو الاستبعاد بعد أن أخبر المعصوم بوجوده، وعدم إدراكنا للحقيقة والكيفية لا يضر بأصل الوجود، فإن الإنسان كان ولازال يجهل الكثير من الحقائق التكوينية، وربما كان يستبعدها في برهة من الزمن؛ لقصور عقله أو قصور العلم عن تفسيره، ثم تطور العقل والعلم وصارت من الحقائق البديهية، هذا إذا حمل اللفظ على المعنى الحقيقي وأما إذا أول إلى المعنى المجازي فالأمر فيه أجلى.

الحقيقة الثانية: أن مجيء جهنم وإحاطتها بالخلائق يكون قبل الحساب، فلذا يهول العباد منظرها، ويرعبهم حالها من دون أن تحرقهم، فيكون التخويف رتبة من مراتب العذاب النفسي لهم، ولعل هذا أحد الوجوه في توجيه معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[1] وتعضد هذه الحقيقة

١ – سورة مريم: الآية ٧١.

ما تقدم من أن الملائكة يأتون بالنار ولا يحترقون بها، ويفهم من ذلك أن الحساب يكون على الصراط.

الحقيقة الثالثة: العنق في قولهعليه السلام: «يخرج منها عنق» هو وصلة ما بين الرأس والجسد أطلق على النار؛ لأن بها امتداد واتصال بين رأسها وجسمها وأصلها[١]، وفي لسان العرب: العنق من كل شيء أوله[٢]، وبين المعنيين تطابق فيما نحن فيه؛ لأن امتداد النار يكون من رأسها وأولها، والمعنى أن النار تمتد عنقها حتى تحيط بالمحشر، وتحف بأهله، وهنا يستشعر الجميع بهولها وعذابها، ويدرك بالخطر الحتمي، ولذا يستغيث كل لنفسه إلاّ الحبيب المصطفىصلى الله عليه وآله وسلم فإنه مظهر الرحمة الإلهية ينادي أمتي، ولا ينجو من أمته إلاّ الذين ملكوا براءة من النار بولاية علي بن أبي طالبعليه السلام كما هو مقتضى الجمع بين الأدلة الواردة بطرق الفريقين[٣].

الحقيقة الرابعة: أن الصراط حقيقة محسوسة توضع على النار بعد أن يراها الخلائق، ويتحسسون عذابها، ومنه يبدأ الحساب، وأول ما ينظر فيه من أعمال ابن آدم هو الأمانة والرحم، والمراد به هنا رحم رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم وقرباه، وهم أهل بيتهعليهم السلام جمعاً بين الأدلة؛ إذ إن الخلق عاهدوا الله في الميثاق على محبتهم ومتابعتهم، وعاهدوه أيضاً بالإسلام على أن يطيعوا الله ورسوله فيما يأمر وينهي، ونص رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم على أنه جعل عترته وديعته في أمته، وأمرهم بالتمسك بها واتباعها، فيكون الحساب على حفظ الإمامة والوديعة.

---

١ - معجم مقاييس اللغة: ص٦٨٣، (عنق).

٢ - لسان العرب: ج١٠، ص٢٧٣، (عنق)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٦٣٢، (عنق).

٣ - انظر الفضائل: ص١٢١؛ لكافي: ج٨، ص٣١٢، ح٤٨٦؛ الأمالي (للصدوق): ص٢٤٢، ح٤.

وقد عرفت أن حفظ الإمامة وأتباعها هي العنوان الجامع لكل أصول الدين، ولذا قدمها على قنطرة الصلاة، وبذلك يظهر أن حمل الرحم هنا على الرحم النسبي بين الناس لا يساعد عليه دليل، بل الدليل على خلافه من وجهين:

أحدهما: أنه يستلزم ترجيح المرجوح؛ لوضوح أن حفظ الصلاة أهم من صلة الأرحام؛ لأنها عمود الدين، وإذا قبلت قبل ما سواها، فتقديمها على الصلاة ترجيح للمرجوح.

وثانيهما: الترجيح بلا مرجح؛ لأن الأعمال التي يسأل عنها العبد كثيرة بعضها عبادات كالحج والصيام والزكاة، وبعضها واجبات كصدق الحديث والعدل في الرعية ونحوهما، وهذه إن لم تكن أهم من صلة الأرحام فإنها لا تكون أقل منها رتبة، فتخصيص صلة الأرحام بالذكر بلا مرجح ظاهر يتنافى مع حكمة الحكيم.

والخلاصة: لا يمكن أن يكون المراد من قوله: «فأما واحدة فعليها الأمانة والرحم» المعنى العام للرحم؛ لوجود المانع العقلي، فلابد وأن يراد منه المعنى الخاص وهو الأمانة في حفظ عترة النبي وأهل بيته عليهم السلام؛ إذ يسأل الناس عن محبتهم ونصرتهم واتباعهم في القول والعمل، فإن فاز العبد بذلك يمر بالقنطرة الثانية، وتكون هذه القنطرة حينئذ لأجل زيادة الدرجة لا للعذاب في النار؛ لأن الولاية نجاة من النار كما مر عليك تفصيله، وبهذا يتضح وجه الجمع بين الأخبار التي دلت على أن الولاية مفتاح الأعمال، وأنها نجاة من النار، وبين مثل هذا الخبر الذي يدل على أن المؤمن يسأل عن صلاته أيضاً.

ويعضد هذا الجمع قولهعليه السلام: «وأما الثالثة فعليها عدل رب العالمين» إذ إن ظهور العدالة يتم بمكافأة كل عبد بعمله، وهذا إنما يكون بعد الفراغ من صحة معتقده وصحة عمله، ومفتاح العقيدة الحقة هو الولاية، كما أن مفتاح الأعمال الصلاة.

الموقف الثاني: حضور النبي وأهل بيته وخواصهمعليهم السلام على الصراط، وقد ورد هذا المعنى بطرق الفريقين، منها: ما ورد في تفسير مقاتل عن عطا عن ابن عباس في معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ﴾[١] قال: لا يعذب الله محمداً والذين آمنوا معه، أي لا يعذب علي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين وحمزة وجعفراً، «نورهم يسعى» يضيء على الصراط لعلي وفاطمة مثل الدنيا سبعين مرة، فيسعى نورهم بين أيديهم، ويسعى عن أيمانهم وهم يتبعونها، فيمضي أهل بيت محمد وآله زمرة على الصراط مثل البرق الخاطف، ثم قوم مثل الريح، ثم قوم مثل عدو الفرس، ثم يمضي قوم مثل المشي، ثم قوم مثل الحبو، ثم قوم مثل الزحف، ويجعله الله على المؤمنين عريضاً، وعلى المذنبين دقيقاً، قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ حتى نجتاز به على الصراط[٢].

وقريب منه ورد أيضاً بطرق الجمهور عن أنس بن مالك عن النبيصلى الله عليه وآله[٣]، وورد مضمونه عن الباقر والصادقعليهما السلام[٤].

١ – سورة التحريم: الآية ٨.

٢ – تفسير مقاتل: ص٣٧٨؛ وانظر المناقب (لابن شهر أشوب): ج٢، ص٧؛ تفسير البرهان: ج٨، ص٥٩، ح١١؛ بحر الأنوار: ج٨، ص٦٧، ح٨؛ ج٣٩، ص٢٠١، ح٢٣.

٣ – صحيح البخاري: ج٨، ص١٨٧.

٤ – انظر تفسير القمي: ج٢، ص٣٧٨؛ الكافي: ج١، ص١٥١، ح٥.

والحديث صريح في أن (آل محمد عليهم السلام) يجوزون الصراط بأقصى سرعة، وأما شيعتهم ومواليهم فيختلف مسيرهم على حسب درجاتهم ومراتبهم في المعرفة وفي العمل، ولذا جماعة يمرون كالريح، وجماعة يزحفون، والغاية من ذلك هو تطهيرهم على الصراط قبل دخول الجنة، ولذا يكون الصراط للمؤمنين عريضاً لكي يمروا عليه مسرعين، وعلى المذنبين يكون دقيقاً، وذلك لاستيفاء الحساب منهم، ولأجل تطهيرهم بعقباته، ولكن الموالين لآل محمد يدخلون الجنة ولا يدخلون النار في نهاية المطاف، وهذا ما أشار إليه حديث جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وآله قال: كنت ذات يوم عند النبي صلى الله عليه وآله إذ أقبل بوجهه على علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: «ألاّ أبشرك يا أبا الحسن؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: هذا جبرئيل يخبرني عن الله جل جلاله أنه قد أعطى شيعتك ومحبيك سبع خصال: الرفق عند الموت، والأنس عند الوحشة، والنور عند الظلمة، والأمن عند الفزع، والقسط عند الميزان، والجواز على الصراط ، ودخول الجنة قبل الناس نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم»[١].

الموقف الثالث: حضور علي عليه السلام وفاطمة عليها السلام، وهذا ما تضافرت به الأخبار بطرق الفريقين أيضاً، ففي المناقب عن تفسير مقاتل عن عطاء عن ابن عباس في بيان المشي على الصراط قال: فيجوز أمير المؤمنين في هودج من الزمرد الأخضر ومعه فاطمة على نجيب من الياقوت الأحمر حولها سبعون ألف حور كالبرق اللامع[٢].

١ - الخصال: ص٤٠٢، ص١١٢؛ تفسير البرهان: ج٨، ص٦٠، ح١٣.
٢ - انظر المناقب (لابن شهر آشوب): ج٢، ص٧؛ تفسير البرهان: ج٨، ص٥٩، ح١١.

والزمرد حجر كريم أخضر اللون شديد الخضرة شفاف[١]، والياقوت حجر كريم، وهو أكثر الأحجار صلابة بعد الماس، ولونه في الغالب شفاف مشرب بالحمرة، ويستعمل للزينة[٢]، والنجيب الفاضل على مثله النفيس في نوعه، ويطلق على خيار الأبل[٣]، والهودج أداة ذات قبة توضع على ظهر الجمل؛ لتركب فيها النساء عادة[٤].

وفي تفسير الإمام العسكري عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله ما يكمل هذا المشهد. حيث قال: «إن الله تعالى إذا بعث الخلائق من الأولين والآخرين نادى منادي ربنا من تحت عرشه: يا معشر الخلائق غضوا أبصاركم لتجوز فاطمة بنت محمد سيدة نساء العالمين على الصراط، فيغض الخلائق كلهم أبصارهم، فتجوز فاطمة على الصراط لا يبقى أحد في القيامة إلاّغض بصره عنها إلاّ محمد وعلي والحسن والحسين عليهم السلام والطاهرون من أولادهم، فإنهم محارمها، فإذا دخلت الجنة بقي مرطها ممدوداً على الصراط طرف منه بيدها وهي في الجنة، وطرف في عرصات القيامة، فينادي منادي: ربنا يا أيها المحبون لفاطمة تعلقوا بأهداب مرط فاطمة سيدة نساء العالمين، فلا يبقى محب لفاطمة إلاّ تعلق بهدبة من أهداب مرطها حتى يتعلق بها أكثر من ألف فئام وألف فئام. قالوا: وكم فئام واحد يا رسول الله؟ قال: ألف ألف»[٥] أي ينجون من النار.

١ - المعجم الوسيط: ج١، ص٤٠٠، (الزمرد).
٢ - المعجم الوسيط: ج٢، ص١٠٦٥، (الياقوت).
٣ - المعجم الوسيط: ج٢، ص٩٠١، (نجب)
٤ - المعجم الوسيط: ج ٢، ص٩٧٦، (هدج).
٥ - تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص٤٣٤.

ويتضمن الحديثان الإشارة إلى حقائق:

الحقيقة الأولى: أن لأمير المؤمنين عليه السلام والصديقة الزهراء عليها السلام تشريفاً خاصاً على الصراط ومشهداً تندهش له عيون الخلائق، وتنخطف له قلوبها؛ إذ يأتيان بهيئة كأنهما يزفان إلى الجنة، ولعل الوجه في ذلك هو ظهور كرامتهما ومقامهما عند الله سبحانه، فيتنعمان بما وعدهما الله سبحانه من الفضل والأجر، ويتعذب خصومهما الذين ما تركوا منكراً إلاّ وفعلوه لأجل الانتقاص منهما، وإزالتهما من المراتب التي أعطاها الله سبحانه إليهما.

وإن الجنة وأهلها يفرحون لقدومهما إليها؛ لأنهم يتشرفون بنزولهما في الجنة، ويزدادون مكانة وكرامة، أو أن نعمهم تزداد عليهم ببركة نزولهما، وهذا أمر من شأنه أن يهيئ النفوس والقلوب لاستقباله، وهو مرسوم يحصل لدى كل جماعة يقدم عليهم وافد كريم؛ إذ يتهيئون له ويطلعون لاستقباله والاحتفاء به، ولعل مما يقوي هذا الاحتمال هو احتفاء الحور بها عليها السلام حتى تدخل الجنة، ومن الواضح أن الجنة هي مسكن الحور وليس المحشر، والعدد المذكور للحور يحتمل المعنى الحقيقي لخصوصية في العدد، ويحتمل المعنى المجازي من باب الإشارة إلى الكثرة.

الحقيقة الثانية: أن جميع الخلائق ممنوعون من النظر إلى فاطمة عليها السلام؛ فلذا أمروا بغض البصر، وهذه الحقيقة تدل على أن المعاد يكون جسمانياً، وأن الرؤية تتحقق بالعين كما يفيده لفظ البصر والغض؛ والوجه في هذا الأمر فيه أكثر من احتمال:

أحدها: قصور الخلائق عن رتبة النظر إليها عليها السلام؛ لأنها صفية الله سبحانه

وناموس الأنبياء والأئمة عليهم السلام، فالنظر إليها رتبة معنوية وشرف كبير لا يناله إلاّ الأولياء.

ثانيها: أنه إكراماً لفاطمة عليها السلام؛ إذ إن غيرتها ومكانتها تأبى أن تكون في معرض النظر، وهذا يدل على غاية الكمال والنزاهة.

ثالثها: أنه إكراماً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولأمير المؤمنين عليه السلام ولأولادها الطاهرين عليهم السلام، بل وسائر الأنبياء والأولياء.

ومن الواضح أن الأمر بغض النظر يكشف عن وجود تكليف في الآخرة وإن كان يغاير التكليف في الدنيا، وربما يكون التكليف مختصاً ببعض المنازل مثل دخول الجنة، كما ربما يكشف عن وجود نوع من الامتحان والاختبار للعباد على الصراط ، فيتميز المطيع من العاصي.

الحقيقة الثالثة: هناك من لا يشملهم النهي عن النظر إلى مكانة فاطمة عليها السلام وجوازها على الصراط ، وهم والدها وبعلها وأولادها عليهم السلام، وهو واضح.

ولكن قولهم: «والطاهرون من أولادهم فإنهم من محارمها» يحتمل معنيين:

أحدهما: أن المراد هم الأئمة المعصومون عليهم السلام؛ لأنهم الموصوفون بالطهارة حقيقة، بناء على أن المراد من الطهارة هنا العصمة.

ثانيهما: أنهم السادة المنسوبون إلى آل البيت الشريف، فيشمل جميع ذرية الأئمة عليهم السلام، ووصفهم بالطاهرين للإشارة إلى طهارة المولد؛ بداهة أن الولد الحرام لا اعتداد برحمه، فيخرج عن دلالة التعليل الذي حدد جواز النظر بمن كان من محارمها عليها السلام.

وهذا الاحتمال أظهر من الأول؛ لقرينة الجمع في قوله عليه السلام: «والطاهرون

من أولادهم» وهذا لا يتوافق إلاّ على الاحتمال الثاني؛ إذ لا يستقيم اللفظ والمعنى إذا كان المراد الأئمة المعصومين عليهم السلام؛ لأن الأئمة من أولاد فاطمة هم من ذرية الحسين عليه السلام، فلا يتوافق مع صيغة الجمع.

وفي شمول الحكم المذكور للمحارم بالسبب كأزواج النساء الفاطميات احتمالان ناشئان من انتهاء التكليف في دار الدنيا، ولا يعلم بقاء ذات التكليف في الآخرة، بل الأصل عدمه، ومن أن المصاهرة نسبة حقيقية تنشأ منها الذرية والنسب، وهي باقية في النشأتين، وبهذا يتضح أن ذرية الأئمة عليهم السلام سيحضون بكرامة أخرى في الآخرة، وهي النظر إلى نور فاطمة ومكانتها.

الحقيقة الرابعة: المرط - بكسر الميم - كل ثوب غير مخيط يؤتزر به، وتتلفع به المرأة[١]، وقيل هو الثوب الأخضر[٢]، وحمل تعلق الناس به على المعنى الحقيقي مبتلى بالمانع العادي أو العقلي، فيحمل على المعنى المجازي، ولعل المراد منه أن الناس ينجون ببركتها وعنايتها، وهذا مستعمل عرفاً كثيراً؛ إذ يقول أحدهم لصاحب النفوذ والقدرة لدى توسيطه في حل مشكلة أو أزمة أنا معلق بذيل ثوبك، أو أنا داخل تحت عباءتك، وعليه فإن محبي فاطمة عليها السلام لهم مكانة وكرامة في الآخرة؛ إذ ينجون من أهوال الصراط ، ويدخلون الجنة ببركتها، وهذا يتوافق مع الأخبار الدالة على أنها عليها السلام فطمت شيعتها من النار، والتعبير بالفئام للإشارة إلى الكثرة كما تقتضي ذلك مناسبة الحكم والموضوع.

١ - لسان العرب: ج٧، ص٤٠٢، (مرط)؛ مجمع البحرين: ج٤، ص٢٧٣، (مرط)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٨٦٤، (مرط).
٢ - لسان العرب: ج٧، ص٤٠١، (مرط).

الموقف الرابع: المساءلة والحساب، أن المستفاد من مجموع الأخبار الواردة بشأن الصراط أنه يتضمن عقبات كل عقبة لها اسم يختص بواجب من الواجبات، ولعل أول عقبة اسمها الولاية؛ إذ يوقف جميع الخلائق فيسألون عندها عن ولاية أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام من بعده، فمن أتى بها نجا وصار على الصراط، وبعدها يسأل عن باقي الواجبات، ومن لم يأت بها هوى إلى النار، وذلك قول الله عز وجل: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[1] ورد هذا عن أنس بن مالك[2]، وأبي سعيد الخدري[3]، وابن عباس[4]، وأمير المؤمنين عليه السلام[5] بطرق مختلفة عن النبي صلى الله عليه وآله، والسؤال يدور عن موقف الأمة من علي عليه السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، كما في رواية أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وآله في قول الله عز وجل: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ قال: عن ولاية علي ما صنعوا في أمره، وقد أعلمهم الله عز وجل أنه الخليفة من بعد رسوله[6]، وتواتر هذا المضمون في أخبار الفريقين[7].

وفي رواية أبي برزة أن عمر سأل النبي صلى الله عليه وآله عن آية حب النبي وأهل البيت الذين يسألون عنه على الصراط، فوضع صلى الله عليه وآله يده على رأس عليّ عليه السلام فقال:

١ - سورة الصافات: الآية ٢٤.
٢ - انظر الأمالي (للطوسي): ص٢٩٠، ح٥٦٤.
٣ - انظر مجمع البيان: ج٨، ص٦٨٨؛ تفسير نور الثقلين: ج٦، ص١٩٧، ح٢٥؛ مائة منقبة: ص٣٦، ح١٦؛ المناقب (لابن شهر آشوب): ج٢، ص١٥٢- ١٥٣.
٤ - تأويل الآيات: ج٣، ص٤٩٢، ح١؛ تفسير البرهان: ج٦، ص٤١٣، ح٥.
٥ - انظر الخصال: ص٢٥٣، ح١٢٥.
٦ - معاني الأخبار: ص٦٧، ح٧؛ تفسير البرهان: ج٦، ص٤١٢، ح٢.
٧ - انظر عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص٢٨١، ح٨٦؛ مائة منقبة: ص٣٦، ح١٦.

«إن آية حبي من بعدي حب هذا، وطاعته طاعتي، ومخالفته مخالفتي»[١].

وقد عرفت أن السؤال عن الولاية يتضمن السؤال عن سائر أصول الدين؛ لأنها خلاصتها، فإن كان العبد موالياً مطيعاً لله ورسوله في أمر الإمامة يفتح له سجل الطاعات الأخرى، فيسأل عن صلاته وسائر عباداته، وهي عقبتها، وتسمى باسمها، فإن كان قد قصر فيها حبس عندها، وطولب بحق الله فيها، فإن خرج بعمل صالح قدمه، أو برحمة أو شفاعة تداركته نجا منها إلى عقبة أخرى، فلا يزال العبد يدفع من عقبة إلى عقبة، ويحبس عند كل عقبة فيسأل عما قصر فيه، فإن سلم من جميعها بالعمل أو بالفضل والعفو انتهى إلى دار الجنة ودار البقاء، وحينئذ لا يكون سؤال ولا حساب، بل نعيم دائم.

وهذا ما أشار إليه ابن عباس، واتفق عليه الفريقان[٢]، وقد مر عليك أنه قال: «إذا كان يوم القيامة أمر الله مالكاً أن يسعّر النيران السبع، وأمر رضوان أن يزخرف الجنان الثمانية، ويقول: يا ميكائيل مدّ الصراط على متن جهنم، ويقول: يا جبرئيل انصب الميزان العدل تحت العرش وناد: يا محمد! قرّب أمتك للحساب، ويأمر الله تعالى أن يعقد على الصراط سبع قناطر، طول كل قنطرة سبعة عشر ألف فرسخ، وعلى كل قنطرة سبعون ألف ملك قيام، فيسألون هذه الأمة نساءهم ورجالهم على القنطرة الأولى عن ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام وحب آل محمد عليهم السلام، فمن أتى به جاز على القنطرة الأولى كالبرق الخاطف، ومن لم يحب أهل بيت نبيه سقط على أم رأسه في قعر جهنم، ولو كان له من أعمال البر عمل سبعين صديقاً، وعلى القنطرة الثانية يسألون عن الصلاة، وعلى

١ – المناقب (للخوارزمي): ص٣٥؛ تفسير البرهان: ج٦، ص٤١٥، ح١٢.
٢ – انظر حق اليقين: ص٤٦١– ٤٦٢.

الثالثة يسألون عن الزكاة، وعلى القنطرة الرابعة عن الصيام، وعلى الخامسة عن الحج، وعلى السادسة عن الجهاد، وعلى السابعة عن العدل، فمن أتى بشيء من ذلك جاز على الصراط كالبرق الخاطف، ومن لم يأت عذب، وذلك قوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ يعني معاشر الملائكة، وقفوهم - يعني العباد - على القنطرة الأولى عن ولاية علي وحب أهل البيت»[1].

والظاهر أن المراد من العدل الذي يسأل عنه على القنطرة السابعة هو ما يتعلق بحقوق الناس ومعاشرتهم بالعدل، وبقرينة المقابلة يتضمن الصراط السؤال عن ثلاثة أمور هي:

١- الولاية حباً وطاعة.

٢- حقوق الله سبحانه المتلخصة بالعبادات الخاصة.

٣- حقوق الناس التي تنضوي تحت جامع واحد، وهو العدل.

ونلاحظ من هذا التقسيم أن حقوق الناس هو آخر ما يسأل عنه المرء، فلذا تبقى ذمته رهينة برضاهم، ومن هنا يدركه الأئمة عليهم السلام بالشفاعة وتعويض ذوي الحقوق في مقابل العفو عنه ليدخل الجنة، ويتوافق هذا المعنى مع مضامين الأخبار الدالة على أن الله سبحانه يتجاوز عن حقوقه إذا كان العبد مؤمناً موالياً للنبي وعترته عليهم السلام، وقد وعد عباده بالمغفرة والتوبة، فيفي لهم بوعده تبارك وتعالى، إلاّ أن الذنوب المتعلقة بحقوق الناس فهي لا تغتفر إلاّ بإرضاء أهلها، وهذا ما تضافر مضمونه في الأخبار الشريفة، ففي حديث

١ - انظر المناقب (لابن شهر أشوب): ج٢، ص٣؛ تفسير البرهان: ج٦، ص٤١٤، ح٦؛ معالم الزلفى: ج٢، ص٥٤٩، ح١١.

داود بن سليمان عن الإمام الرضاعليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنينعليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا كان يوم القيامة ولينا حساب شيعتنا، فمن كانت له مظلمة فيما بينه وبين الله عز وجل حكمنا فيها فأجابنا، ومن كانت مظلمته بينه وفيما بين الناس استوهبناها فوهبت لنا، ومن كانت مظلمته فيما بينه وبيننا كنا أحق من عفا وصفح»[١].

المشهد الخامس: الأعراف

الأعراف اسم علم لسور بين الجنة والنار[٢]، وهو جمع عرف بضم العين وفتح الراء أو تسكينها، وهو كل عال مرتفع، ولذا يقال للشعر على ناصية الفرس واللحمة في أعلى رأس الديك بالعرف[٣]، وورد في التنزيل: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾[٤] أي على أعراف السور رجال علت درجاتهم، وقد نصت الأخبار الواردة بطرق الفريقين[٥] على أنهم آل محمدعليهم السلام وخيار المؤمنين من اتباعهم يعرفون الناس، ويميزون أهل الجنة وأهل النار بعلامات ظاهرة لكل فئة منهم، وسبب تسمية السور بالأعراف يعود لوجوه:

أحدها: أنه شاخص يعرفه الجميع فلا ينكره، وهذه ميزة هامة في الآخرة

١ - بحار الأنوار: ج٨، ص٤٠، ح٢٤؛ ج٦٨، ص١١٤، ح٣٣.
٢ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٦٢، (عرف)؛ لسان العرب: ج٩، ص٢٤١، (عرف)؛ مجمع البيان: ج٤، ص٢٦٠.
٣ - انظر معجم مقاييس اللغة: ص٧٣٢، (عرف)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٩٣، (عرف).
٤ - سورة الأعراف: الآية ٤٦.
٥ - انظر مجمع البيان: ج٤، ص٢٦١؛ روح المعاني: ج٨، ص٥٠٧، تفسير الآية ٤٧ من سورة الأعراف.

تلفت الأنظار المخطوفة في المحشر إلى أصحاب الأعراف ومكانتهم عند الله، وبه تتم الحجة، ويظهر صدق الوعود الإلهية للمؤمنين.

ثانيها: أنه سبب للتعرف على أهل المحشر؛ لأن الواقف عليه يحيط بمشاهد المحشر والقيامة فيكون قريباً من الجميع، ومطلعاً على أحوالهم، ويسهل له مخاطبتهم، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ [1].

ثالثها: أنه طريق لتعريف الناس بأهله، فيزداد المؤمن بهم فرحاً وسروراً، ويزداد المنكر الجاحد عذاباً وشقاءً، وكيف كان فالأعراف من المشاهد التي يمر الناس بها في المحشر، ولا طريق لها سوى النص، وقد أخبر بها القرآن والأخبار الشريفة، ومن هنا اجمع المسلمون على وجوب الاعتقاد به على حسب ما ورد به النص تعبداً، وتفصيل الكلام فيه يتم في أمور:

الأمر الأول: في حقيقة الأعراف

فصّل القرآن الكريم حقيقة الأعراف في أكثر من آية؛ إذ قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ

---

١ – سورة الأعراف: الآية ٤٨.

﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾[1] وقد كشفت الآيات المباركة عن عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن الأعراف ليس هو من الجنة ولا من النار، بل هو موقف يتميز فيه الناس، ويصنفون إلى صنفين: أهل الجنة وأهل النار، ويقف كل صنف في مسافة عن الصنف الآخر، وهذا البعد بينهم أثر طبيعي للفاصلة التي كانت بينهم في المعتقدات والأعمال، استناداً إلى تجسيم الأعمال وتجسم الصفات والسجايا على ما عرفته مما تقدم، فلا مجال للاجتماع بين أهل الجنة وأهل النار؛ لأنهما أمتان لا أمة واحدة، كما كانوا في الدنيا كذلك، ومن هنا قال سبحانه: ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي يحجب هذه الأمة عن تلك، والمراد به الساتر[2] الذي يحجب الرؤية، أو يحجب الشعور بينهما، فلا أهل الجنة يشعرون بعذاب أهل النار، ولا أهل النار يشعرون بنعيم أهل الجنة .

الحقيقة الثانية: أن أهل الجنة لهم حرية الكلام في الآخرة، ولذا يقع النداء منهم لأهل النار، بينما أهل النار ممنوعون من الكلام؛ إذ قال سبحانه: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾[3] فالكلام في الآخرة بالإذن الخاص، فأهل النار لا يسمح لهم بكلام أبداً، إلاّ في موارد الإقرار بالحق والإذعان للحجة.

وأما أهل الجنة فيؤذن لهم بالكلام؛ لأن منطقهم في الدنيا كان صواباً،

١ – سورة الأعراف: الآيات: ٤٤– ٤٩.
٢ – انظر مجمع البيان: ج٤، ص٢٦٠.
٣ – سورة النبأ: الآية ٣٨.

وهو التوحيد وشؤونه، وحرية الكلام لأهل الجنة إما ترجع إلى كرامتهم على الله سبحانه، وهي في عين الحال تتضمن جزءاً من النعم الإلهية؛ لأن المؤمن إذا رأى صدق الوعد الإلهي معه وبلوغه مراده يجب أن يظهر أثر النعمة، أو يظهر حجيته على الذين خالفوه وأذوه في الدنيا من الجاحدين، لما في ذلك من الراحة النفسية والشعور بمكانته وصدق معتقده وعمله، ولعل هذا اللوم والتوبيخ من المؤمنين هو نوع من المقابلة بالمثل لما كان يفعله أهل النار بالمؤمنين من اللوم والتوبيخ على إيمانهم وصدقهم.

أو ترجع حرية الكلام إلى الأثر الطبيعي المسانخ للفرح والسرور؛ بداهة أن الإنسان إذا أصابه الفرح ينطلق لسانه ويتحرر من القيود بخلاف المحزون والمغموم أو الفاشل، فإن قيوده تعقل لسانه، وتمنعه من الكلام، ولا يخفى أن النداء عادة ما يكون للبعيد فيكشف هنا عن البعد المكاني بين الفريقين، أو البعد المقامي، أو كلاهما، وإطلاق النداء يشمل الجميع.

الحقيقة الثالثة: أن الوعود الإلهية تصدق في حق المؤمن والكافر، فلذا يقر الاثنان على تحقق الوعد بحقه، فالمؤمن يجد الجنة التي وعد بها جزاء الإيمان، والكافر يجد صدق الوعيد الإلهي بالنار والعذاب الذي حذر منه.

ويلاحظ أن الآية نصت على إضافتين للرب، إحداهما للمؤمنين إذ قال: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ والأخرى للكافرين فقال: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ مع أن الرب واحد، ولعل الوجه في التعدد مع أن الذات واحدة هو تعدد الصفة، فإنه سبحانه يتعامل مع المؤمن من جهة الرحمة، ويتعامل مع الكافر من جهة النقمة والغضب، والرب من الربوبية وهي صفة واحدة

تتولى تربية المؤمن بالنعم وتربية الكافر بالعذاب تطهيراً وتأديباً، فلا يتوهم متوهم أن رب المؤمن غير رب الكافر، بل هو واحد، ولكن حيثية التربية تختلف.

الحقيقة الرابعة: أن هناك شاهداً يشهد هذه المحاورة بين أهل الجنة وأهل النار، وقد وصفه الباري عز وجل بالمؤذن، وشهادته تكشف عن أنه ليس فقط ناظراً بل حراً في الكلام وحاكماً أيضاً، ولذا يلعن الظالمين، وقد نصت الأخبار الشريفة بطرق الفريقين على أنه مولانا أمير المؤمنين عليه السلام [١]، والمضمون في الجملة متواتر، وروى الحاكم الحسكاني بسنده عن ابن عباس أن لعلي عليه السلام أسماء لا يعرفها الناس منها قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ فهو المؤذن بينهم. ويقول عليه السلام: «ألاّ لعنة الله على الذين كذبوا بولايتي واستخفوا بحقي»[٢].

وقد مر عليك أن إنكار ولاية الأئمة عليهم السلام ومعاداتهم هو أعلى مصاديق الظلم والجور؛ لأنه يتضمن الظلم والعدوان على جميع أصول الدين وفروعه، وهل المراد من الأذان الحقيقة الشرعية أم الحقيقة اللغوية؟ ولعل اللفظ ينصرف إلى الأول، إلاّ أن مضمون الآية يدل على الثاني؛ إذ إن قوله: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يفيد أنه خطاب خاص يراد به الإعلام، ويعضد ما تقدم شواهد كثيرة:

١ - انظر مجمع البيان: ج٨، ص٢٥٩؛ روح المعاني: ج٨، ص٥٠٥؛ شواهد التنزيل: ج١، ص٢٠٢، ح٢٦٢؛ ينابيع المودة: ص١٠١؛ وانظر تفسير القمي: ج١، ص٢٣٥؛ الكافي: ج١، ص٣٥٢، ج٧٠.

٢ - شواهد التنزيل: ج١، ص٢٦٧، ح٢٦٢؛ وانظر مجمع البيان: ج٨، ص٢٥٩؛ ينابيع المودة: ص١٠١؛ غاية المرام: ج٤، ص٤٣.

منها: أنه أول مؤذن على الكعبة كما روى الشيخ قدس سره بسنده عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام [١].

ومنها: أنه عليه السلام كان الشاهد والمنادي في المشاهد الصعبة في الدنيا، ففي فتح مكة كلفه الباري عز وجل بواسطة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يتلو آيات الحج من سورة براءة على مسامع الناس في موسم الحج؛ إذ قال سبحانه: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [٢] وموقف التبري هذا يتسانخ مع التبري منهم في الآخرة أيضاً.

ومنها: أنه نادى في المشركين بعد الفتح: «اليوم يوم المرحمة، اليوم تحفظ فيه الحرمة» [٣]. وهذا يتسانخ مع موقفه عليه السلام مع المؤمنين الذين تولوه وأطاعوه، فإنه يوم تظهر فيه آثار ولايته وحمايته وشفاعته لشيعته ومواليه.

ومنها: ما دل على أنه الحجة وأنه الشاهد وأنه الميزان والصراط كما مرَّ تفصيله.

ومنها: ما دل على أنه عليه السلام ميزان الحق والباطل، وقد كان في الدنيا القطب الذي اختلف فيه المسلمون، وانقسموا إلى مؤمنين وجاحدين به، وقد نص الكتاب والسنّة على أنه مع الحق يدور معه حيثما دار [٤]، ومن خرج عليه فهو

---

١ - انظر الأمالي (للطوسي): ج٢، ص٣١٧؛ المناقب (لابن شهر آشوب): ج٢، ص١٧٤؛ تفسير البرهان: ج٥، ص٣٢٨، ح٩.

٢ - سورة التوبة: الآية ٣.

٣ - مبسوط (للسرخي): ج١٠، ص٣٩؛ وانظر شرح نهج البلاغة: ج١٧، ص٢٧٢؛ كنز العمال: ج١٠، ص٥١٣، ح٣٠٧٣.

٤ - الفصول المختارة: ص٩٧؛ التعجب: ص٦١.

ظالم، فلابد وأن يكون هو الشاهد والناظر على أتباعه وأعدائه في الآخرة، ويكون بيده حساب المخالفين والمعاندين.

الحقيقة الخامسة: تدل الآيات الشريفة على أن الحجاب الفاصل بين أهل الجنة وأهل النار يتصف بصفتين متضادتين؛ لأن باطنه رحمة، وظاهره عذاب، وهذا يدل على أن الحجاب حقيقة محسوسة على الصراط يصدر العذاب من جهة ظاهره، وتصدر الرحمة من باطنه، وأن لهذا السور باباً يدخل منه المؤمنون إلى الجنة؛ إذ قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾[1] ونلاحظ في هذه الآيات المباركة عدة ملاحظات:

الأولى: أنها حصرت الخطاب بين المؤمنين والمنافقين لا المشركين ولا الكفار، وفي هذا إشارة مهمة إلى أن الذين يمرون على الأعراف هم من أمة الإسلام؛ لأن باقي الأمم تقسم إلى صنفين: صنف آمن بالأنبياء والرسالات السماوية، وقسم عاند وكفر، بخلاف الأمة المسلمة فإنها صنفت على ثلاث فرق.

والثانية: أنها تدل على وجود ارتباطات وثيقة بين المؤمنين والمنافقين في الدنيا، وكانوا بحسب ظاهر الحال أمة واحدة، وربما عائلة واحدة، فأجسادهم مجتمعة إلاّ أن عقولهم وقلوبهم مختلفة، وهذا ما أقر به المنافقون

١ – سورة الحديد: الآية ١٢– ١٣.

والمؤمنون أنفسهم؛ إذ قال سبحانه في الآية التي تلتها: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[1].

ونلاحظ أن هذه الصفات الخمسة تنطبق على خصوم النبي وأهل بيته عليهم السلام الذين حاربوهم وآذوهم، مع أن بعضهم كان من أرحامهم كأبي جهل، وبعضهم كان من عشيرتهم كقريش، وبعضهم كان من نساء الأسرة كالنساء اللاتي قتلن الأئمة عليهم السلام، فكانوا يتظاهرون بالإسلام ويضمرون الكفر، وكانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وهذه الفتنة في النفس.

وكانوا يتربصون بالنبي وأهل بيته عليهم السلام الدوائر لأجل القضاء عليهم، أو مشاركتهم مقاماتهم الإلهية؛ إذ كان الكثير من عدائهم ناشئاً من الحسد أو الحقد، وكانوا مرتابين يشكون في أصول الدين وقواعده كما مر عليك تفصيله في بحث النبوة والإمامة، وفي عين الحال كانت نفوسهم ميالة إلى اللهو واللعب ونيل الأماني الدنيوية ولذاتها، وفوق كل ذلك كانوا حلفاء الشيطان؛ إذ أغرهم وأعماهم وجعلهم في صف المعادين للدين وأهله بعد أن هدوا إلى الإسلام.

هذه الصفات الخمسة الفتنة والتربص والشك والغرور والاغترار هي أبرز صفات النفاق والمنافقين، وهي أبعد ما تكون عن الإيمان والمؤمنين، فلذا تجعلهم في صفين متقابلين، وحيث إن صفات النفاق تسانخ النار والعذاب وصفات الإيمان تسانخ الجنة والنعيم فإن الحجاب المضروب بينهما يكون بالوجه الذي يسانخه.

---

١ – سورة الحديد: الآية ١٤.

الحقيقة السادسة: أن في أعلى هذا السور الحاجب يقف المؤذن الذي يشهد الحوار، ويفصل فيه، وهو مقام الأعراف، ومعه رجال وصفتهم الآية المباركة بأنهم يعرفون أهل الجنة وأهل النار بسيماهم، والسيماء هي العلامة، وهذه المعرفة لها رتبتان:

الأولى: معرفة عامة، وتتم بواسطة العلامات، فإن للمؤمن وللمنافق والكافر علامة يعرف بها، فأهل الجنة بيض الوجوه، نورهم يسعى من وجوههم، وبأيمانهم على حسب درجاتهم، فالمقربون منهم نورهم يصدر من وجوههم ويسعى أمامهم، وأصحاب اليمين نورهم يصدر من أيمانهم، وتكللهم جلالة الإيمان والرضوان الإلهي، وتزفهم الملائكة، وتسلم عليهم، وتحتف بهم، ووجوههم ضاحكة مستبشرة[1].

وأهل النار معلمون بعلامة على أنوفهم كما قال سبحانه: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾[2] وتعلو وجوههم غبرة وسواد ورعب؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾[3] وهي في ظلام دامس، والملائكة تعاملهم بغلظة وشدة.

ولعله خص الأنف بالسمة من جهة أنه أبرز موضع من الوجه، والأكثر ظهوراً، فيتناسب مع العلامة، أو لأنه من باب المسانخة بين الجزاء والعمل، فإن الجاحدين كانوا في الدنيا شامخين بأنوفهم على الحق، فلا يذعنون لآيات الله، ولا يخضعون لطاعته، فيرغم الله أنوفهم في الآخرة، أو لأن الأنف يكون

١ - انظر سورة عبس: الآيات ٣٩-٤٠.
٢ - سورة القلم: الآية ١٦.
٣ - سورة عبس: الآية ٤٠-٤١.

في مقابل العينين فترى ما فيه من العلامة ولا تفارقه، وبذلك يزداد الجاحد عذاباً وشعوراً بالذلة والوضاعة، ولا مانع من الجمع بين هذه المعاني وما قد يحتمل مما يتوافق مع الغاية من السمة والعذاب.

والثانية: معرفة خاصة، وهي معرفة شخصية ناشئة من خصوصية علاقتهم في الدنيا، كالأرحام وأعضاء الأسرة والأصدقاء الذين ينقسمون إلى مؤمنين وجاحدين. يشير إلى هذا النحو من المعرفة قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[١] فإنها تدل على أن الرجال الذين خاطبوهم كانوا يعرفونهم بذواتهم وبأوصافهم، كما يشهد له التنكير في (رجال) ولومهم وتوبيخهم بأوصافهم المعروفة لديهم، وهي أنهم كانوا يجمعون العدة والعدد لمواجهة أهل الحق استكباراً منهم وتعالياً، وقد خصصت الآية النداء بهم، وهؤلاء هم زعماء الشرك والنفاق الذين مر ذكرهم في الحقيقة الخامسة، فيرونهم كذب دعواهم وفشل أساليبهم بإدخال المؤمنين الذين كانوا يؤذونهم ويسخرون منهم في الدنيا إلى الجنة، بينما هم يبقون في ذلة وهوان وعذاب وخوف دائم.

وهو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[٢] وفي هذا دلالة على أن الحوار والمحاججة كلها تتم قبل الدخول إلى الجنة، وأن الأعراف موقف خارج الجنة وليس منها، وتؤكد ذلك آيتان:

---

١ - سورة الأعراف: الآية ٤٨.

٢ - سورة الأعراف: الآية ٤٩.

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾[١] فإن عدم الدخول يحتمل أن يكون وصفاً لأهل الأعراف كما قد يوحي به السياق، ويحتمل أن يكون وصفاً لأهل الجنة، وهو ما تعضده القرينة الحالية، والمعنى أن أهل الأعراف يسلمون على أهل الجنة قبل دخولهم الجنة مع شوقهم ورغبتهم للدخول فيها، كما تشهد له القرينة الداخلية؛ لأن الدخول إلى الجنة وصف لأهلها وليس لأهل الأعراف؛ لأنهم مهيؤون للدخول، بخلاف أهل الأعراف فإنهم واقفون في المحشر للشهادة والمحاسبة.

والثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٢] فإنه يحتمل أن يرجع إلى أهل الجنة كما يشهد له طلبهم أن لا يكونوا مع القوم الظالمين، ويحتمل أن يرجع إلى أهل الأعراف، إلاّ أن القرينة العقلية تشهد للأول؛ لأن صرف الأبصار إلى أهل النار يوحي بالإجبار على ذلك، وهذا لا يتناسب مع مقام أهل الأعراف؛ لما عرفت من أنهم سادة المحشر، والحاكمون فيه والجنة والنار طوع أمرهم، بخلاف أهل الجنة فإنهم إما لشدة طمعهم في الجنة أو لهول العذاب الذي فيه أهل النار لا يحبون النظر إليهم، فيجبرون على النظر إليهم لتحقيق غايتين:

الأولى: إشعارهم بمزيد الفضل الإلهي بحقهم؛ إذ هم في نعيم وأولئك في عذاب.

الثانية: إشعار أهل النار بمزيد العذاب حيث يبصرون الجماعة التي كانوا

---

١ – سورة الأعراف: الآية ٤٦.

٢ – سورة الأعراف: الآية ٤٧.

يستضعفونها في الدنيا ويستكبرون عليها صارت في النعيم، وهم في الجحيم، وقد ورد هذا المعنى في تفسير القمي عن الصادق عليه السلام [١].

ويتحصل: أن الأعراف سور حاجب بين أهل الجنة وأهل النار، وهو من مواقف المحشر وليس من الجزاء في الجنة أو النار. يتم فيه استعراض أهوال أهل النار وأئمتهم من قبل المؤمنين؛ لأجل محاجتهم وإظهار سوء مصير الكفر والنفاق وحسن مصير الإيمان والطاعة.

وأن للأعراف أهلاً ليس من أهل الجنة العاديين، بل لهم درجات عالية أعطتهم هذا المقام والمنزلة، وأن المحاجة تتم بين أئمة الإيمان وأئمة النفاق والشرك، وهذا ما سنتعرض إليه في الأمر الثاني.

الأمر الثاني: في أهل الأعراف

تضافرت النصوص الروائية الصحيحة في بيان المراد من أهل الأعراف، ونصت على أنهم محمد وآل محمد عليهم السلام، ومعهم شيعتهم الأخيار، ومضمون هذه الروايات يتعاضد مع ما تقدم في دلالة الآيات المباركة، وقد مر عليك أن الشيعة اصطلاحاً تطلق على المتمحضين في الولاية لا المحبين، والذين يكونون من أهل الأعراف مع الأئمة هم الشيعة الخلّص في الطاعة، وأما أهل الجنة فهم المذنبون منهم، وهذا ما قد يستفاد من رواية القمي في تفسيره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الأعراف كثبان بين الجنة والنار، والرجال الأئمة صلوات الله عليهم يقفون على الأعراف مع شيعتهم، وقد سيق المؤمنون إلى الجنة بلا حساب، فيقول الأئمة لشيعتهم من أصحاب الذنوب: انظروا إلى

١ - انظر تفسير القمي: ج١، ص٢٣٥.

أخوانكم في الجنة قد سيقوا إليها بلا حساب، وهو قول الله تبارك وتعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ ثم يقال لهم: انظروا إلى أعدائكم في النار، وهو قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ في النار: فـ ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ في الدنيا: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ثم يقولون لمن في النار من أعدائهم: أهؤلاء شيعتي وإخواني الذين كنتم أنتم تحلفون في الدنيا أن لا ينالهم الله برحمة، ثم يقول الأئمة لشيعتهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ثم: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾»[1].

وفي المجمع قال: قال أبو عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام: «الأعراف كثبان بين الجنة والنار، فيقف عليها كل نبي وكل خليفة نبي مع المذنبين من أهل زمانه كما يقف صاحب الجيش مع الضعفاء من جنده، وقد سيق المحسنون إلى الجنة، فيقول ذلك الخليفة للمذنبين الواقفين معه: انظروا أخوانكم المحسنين قد سيقوا إلى الجنة، فيسلم المذنبون عليهم، وذلك قوله: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ ثم أخبر سبحانه أنهم لم يدخلوها وهم يطمعون. يعني هؤلاء المذنبين لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون أن يدخلهم الله إياها بشفاعة النبي والإمام عليه السلام، وينظر هؤلاء المذنبون إلى أهل النار فيقولون: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، ثم ينادي أصحاب الأعراف وهم الأنبياء والخلفاء أهل النار مقرعين لهم: ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون، أهؤلاء الذين أقسمتم؟ يعني أهؤلاء المستضعفين الذين كنتم تحقرونهم وتستطيلون

١ - تفسير القمي: ج١، ص٢٣١- ٢٣٢.

بدنياكم عليهم؟ ثم يقولون لهؤلاء المستضعفين عن أمر من الله لهم بذلك: أدخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون»[١] وقريب من هذا المضمون ورد بطرق الجمهور عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم[٢].

ومنها: رواية سلمان قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعلي أكثر من عشر مرّات: «يا علي! إنك والأوصياء من بعدك أعراف بين الجنة والنار، لا يدخل الجنة إلاّ من عرفكم وعرفتموه، ولا يدخل النار إلاّ من أنكركم وأنكرتموه»[٣] والمراد من معرفتهم عليهم السلام أن يعرفهم بالمعرفة والولاية في دار الدنيا، فإن كل جيل يجب أن يوالي الإمام الذي يعاصره ويطيعه ويسلم إليه، كما أن كل إمام يعرف من عاصره من الناس، وهو ما ورد من خبر أبي بصير عن الصادق عليه السلام في معنى آية الأعراف قال: «الأئمة منا أهل البيت في باب من ياقوت أحمر على سور الجنة يعرف كل إمام منا ما يليه» قال: رجل ما معنى ما يليه؟ قال: «من القرن الذي هو فيه»[٤].

والمراد من الإنكار ما يشمل عدم المعرفة، والمعرفة مع النصب والجحود، وهذا ما ورد في رواية الأصبغ المروية بطرق الجمهور قال: كنت جالساً عند علي عليه السلام فأتاه ابن الكوا فسأله عن هذه الآية - أي آية الأعراف - فقال: «ويحك يا ابن الكوا ! نحن نقف يوم القيامة بين الجنة والنار، فمن ينصرنا عرفناه بسيماه فأدخلناه الجنة، ومن أبغضنا عرفناه بسيماه فأدخلناه النار»[٥].

١ - انظر مجمع البيان: ج٤، ص٢٦١- ٢٦٢.
٢ - انظر تفسير الطبري: ج٨، ص١٤٢- ١٤٣.
٣ - تفسير العياشي: ج٢، ص٢٢، ح٤٤.
٤ - انظر حق اليقين: ص٥٠٩.
٥ - انظر شواهد التنزيل: ج١، ص٢٦٣، ح٢٥٦؛ مجمع البيان: ج٤، ص٢٦٢؛ تفسير الفرات: ص١٤٣، ح١٧٤.

ومنها: رواية بريد العجلي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ قال: «أنزلت في هذه الأمة، والرجال هم الأئمة من آل محمد»، قلت: فما الأعراف؟ قال: «صراط بين الجنة والنار، فمن شفع له الأئمة منّا من المؤمنين المذنبين نجا، ومن لم يشفعوا له هوى»[١]. والروايات الواردة بهذا المضمون كثيرة[٢]، كما يتوافق هذا المضمون مع ما تقدم من أن أمير المؤمنين عليه السلام قسيم الجنة والنار[٣].

الأمر الثالث: الجمع بين الأقوال

اختلف المفسرون وبعض أهل الكلام في معنى الأعراف والرجال الذين يقفون عليه، والمشهور هو ما تقدم من معناهما، وذهب البعض إلى أن الأعراف هو الصراط[٤]، وتعضده رواية العجلي عن الباقر عليه السلام المتقدمة، وقيل هو حظائر بين الجنة والنار يكون فيها مؤمنو الجن وفساق الشيعة وفيه رواية[٥]، وأما الرجال فقيل إنهم أناس استوت حسناتهم وسيئاتهم، فحالت حسناتهم بينهم وبين النار، وحالت سيئاتهم بينهم وبين الجنة، فجعلوا هناك حتى يقضي الله فيهم ما شاء ثم يدخلهم الجنة.

حكي هذا القول عن ابن عباس وابن مسعود[٦]، وهو المروي؛ إذ ورد

---

١ - بصائر الدرجات: ص٥١٦، ح٥.

٢ - انظر تفسير العياشي: ج٢، ص٢١؛ تفسير الفرات: ص١٤٤؛ تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص١٤١- ١٤٢، ح١١٩.

٣ - الأمالي (للصدوق): ص١٧٩، ح٤؛ علل الشرائع: ج١، ص١٦٦، ح٦.

٤ - انظر مجمع البيان: ج٤، ص٢٦٠؛ حق اليقين: ص٥٠٦.

٥ - انظر حق اليقين: ص٥٠٩.

٦ - انظر روح المعاني: ج٨، ص٥٠٦- ٥٠٧.

أن الله تعالى يسكن الأعراف طائفة من الخلق لم يستحقوا بأعمالهم الحسنة الثواب من غير عقاب، ولا استحقوا الخلود في النار، وهم المرجون لأمر الله، ولهم الشفاعة، ولا يزالون على الأعراف حتى يؤذن لهم في دخول الجنة بشفاعة النبي وأمير المؤمنين والأئمة من بعده[١].

وقيل: الأعراف موضع عال على الصراط عليه العباس وحمزة وعلي بن أبي طالب وجعفر ذو الجناحين يعرفون محبيهم ببياض الوجوه، ومبغضيهم بسواد الوجوه، وقد روى هذا الثعلبي في تفسيره عن طرق الجمهور[٢].

وقيل: هم الملائكة في صورة الرجال يعرفون أهل الجنة والنار، ويكونون خزنة الجنة والنار جميعاً، أو يكونون حفظة الأعمال الشاهدين بها في الآخرة، وفيه نظر ظاهر؛ لأن الآية وصفت أهل الأعراف بالرجال، وهذا الوصف لا ينطبق على الملائكة بوجه من الوجوه؛ لأنه من أوصاف الملكة والعدم، والملائكة لا يتصفون برجولة ولا أنوثة، وإذا أريد أنهم ملائكة ولكن لهم شكل الرجال وليسوا ذكوراً فهو خلاف الظاهر، بل خلاف النصوص الصريحة.

وقيل: إنهم فضلاء المؤمنين، وقيل: إنهم الشهداء وهم عدول الآخرة[٣]، وقيل غير ذلك من الأقوال التي ترجع في مجملها إلى اجتهادات استحسانية

١ - انظر تفسير البرهان: ج٢، ص١٧؛ حق اليقين: ص٥٠٨.
٢ - تفسير الثعلبي: ج٤، ص٢٣٦؛ وانظر روح المعاني: ج٨، ص٥٠٧؛ حق اليقين: ص٥٠٦.
٣ - انظر مجمع البيان: ج٤، ص٢٦٠؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص٣٣- ٣٤؛ وانظر تفسير الطبري: ج٧، ص١٣٧- ١٣٨؛ تفسير الآيات المزبورة.

لا دليل عليها في النصوص الشريفة[١]، وربما يمكن أن يجمع بينها بنحوين:

الأول: أن نحمل الأعراف على أكثر من معنى، فيكون إطلاقه عليها بنحو الاشتراك اللفظي[٢]، وفيه ما لا يخفى.

الثاني: أن نحمل الأعراف على اختلاف المرتبة، فالحاكمون في الأعراف هم النبي والأئمة الطاهرون عليهم السلام، ولهم أنصار وأعوان جعلهم الله معهم كرامة لهم لمالهم من مقامات معنوية سامية، وهذا ما يؤكده قول الصادق عليه السلام. قال: «ليكونن على الأعراف بين الجنة والنار محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام والطيبون من آلهم، فنرى بعض شيعتنا في تلك العرصات، فمن كان منهم مقصراً في بعض شدائدها - أي القيامة - فنبعث عليهم خيار شيعتنا كسلمان والمقداد وأبي ذر وعمار ونظرائهم في العصر الذي يليهم وفي كل عصر إلى يوم القيامة، فينقضون عليهم كالبزاة والصقور، ويتناولونهم كما تتناول البزاة والصقور، صيدها، فيزفونهم إلى الجنة زفاً»[٣].

ويتضمن هذا الحديث الدلالة على عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن أهل الأعراف فيهم سادة وفيهم أتباع، والسادة هم محمد وآل محمد عليهم السلام، والأتباع هم شيعتهم الأخيار في كل عصر وزمان من هم على شاكلة سلمان وعمار في المعرفة والطاعة والتسليم، ويظهر من الحديث أن هذا الموقف من مختصات الشيعة، فلا يتدخل فيه الملائكة لا في الحكم ولا

١ - انظر روح المعاني: ج٨، ص٥٠٧؛ حق اليقين: ص٥٠٨.
٢ - انظر حق اليقين: ص٥٠٩.
٣ - تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص٢٤١- ٢٤٢، ح١١٩؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٤٤، ح٤٥.

في التنفيذ، وهذه كرامة أخرى ينالها الشيعة وأصحاب الأئمة عليهم السلام - يشهد لها جميع أهل المحشر- تمنحهم صلاحية واسعة للشفاعة وإنقاذ المذنبين بالتفضل والكرامة الإلهية.

الحقيقة الثانية: أن الشفاعة تنال الشيعة الذين قصّروا في أعمالهم، وأما القاصرون فهم داخلون في الجنة ببركة الولاية، وعلى هذا يظهر بأن الذين تنالهم الشفاعة هم المقصرون من الشيعة والموالين؛ لأن تقصيرهم لا يعذرهم من العقاب، سواء كان التقصير في تعمد فعل المعصية أو في الجهل بها عن تقصير في معرفتها.

فالولاية توفر في أهلها المقتضي التام للرحمة واستحقاق الجنة، إلاّ أن المعاصي تكون بمنزلة المانع، بخلاف الجهل القصوري فإنه عذر عقلاً وشرعاً، فلذا لا تمنع مخالفة القاصر من دخوله الجنة بالولاية نفسها.

الحقيقة الثالثة: أن قوله عليه السلام: «فينقضّون عليهم كالبزاة والصقور ويتناولونهم»، يدل على أمرين:

أحدهما: أن الإنقاذ يتم بمباشرة خيار الشيعة، فالأمر يصدر من الأئمة عليهم السلام، وينفذه خيار شيعتهم، وهذا يكشف عن المسانخة بين أعمالهم في الدنيا وفي الآخرة؛ إذ إن خيار الشيعة كانوا أعواناً لأئمتهم في دار الدنيا، وهم كذلك في الآخرة، وكما يدل أيضاً على أن موقف الأعراف من مختصات الأئمة عليهم السلام وشيعتهم ولا يشاركهم فيه أحد.

وثانيهما: أن الإنقاذ يتم بسرعة خاطفة، وعبر جهاز كبير يتشكل من خيار الشيعة في كل العصور، وأن جنود هذا الجهاز يتمتعون بقدرة على الطيران

كما يطير الصقر والبزاة، كما يتمتعون بقدرة عالية على تمييز الشيعي من غيره، فيلتقطونه من بين أهل المحشر، وهذا المعنى يتوافق مع ما تقدم من أن أهل الجنة يمتازون بعلامات خاصة، كما يتوافق مع الأحاديث الدالة على أن الصديقة الطاهرة عليها السلام تلتقط شيعتها ومحبيها في المحشر كما يلتقط الطائر الحَب الجيد من الحَب الرديء، ولإظهار مزيد اللطف والكرامة لهم يزفونهم إلى الجنة في محفل حاشد وبهيج، وهذا في نفسه يعد نوعاً من أنواع النعيم.

ومما تقدم: يظهر عدم وجود تناف بين الأقوال المتقدمة؛ لأنها جميعاً تتفق في الدلالة على ما ذكرنا، سوى أن بعضها أشار إلى الذين تنالهم الشفاعة من أهل الأعراف، وبعضها أشار إلى الذين يشفعون أو ينفذون الشفاعة فيهم.

والذين استوت حسناتهم وسيئاتهم ينطبق على فساق الشيعة، لأن الولاية في نفسها حسنة لا تضر معها سيئة، ولذا تنالهم الشفاعة، وفضلاء المؤمنين وعدول أهل الآخرة وحمزة وجعفر ينطبق عليهم عنوان خيار الشيعة، وعلى هذا تتوافق أقوال المفسرين والمتكلمين من الفريقين، وتتفق الكلمة على أن أهل الأعراف هم محمد وآل محمد وشيعتهم الأخيار.

كما أن الأعراف يقع على الصراط ، ومنه يتميز أهل النار وأهل الجنة، ويتحدد مصير كل جماعة منهم، فأهل الجنة قاصرون ومقصرون يدخلون الجنة بالولاية والطاعة، أو بالولاية والشفاعة، وأما أهل النار منهم بين مقصر وقاصر، والقاصر ربما تناله الرحمة، ومن مصاديقها إدراك الولاية والإذعان لها، فينال مرتبة تؤهله للشفاعة، وربما يمتحن هناك، والمقصرون يتعذبون حتى يتطهروا من خبائث المعاصي والموبقات فتنالهم رحمة من الله

وفضل، والذين ترسخت فيهم القبائح حتى صارت من ذاتياتهم يكونون من المخلدين في العذاب.

المشهد السادس: لواء الحمد

وهو لواء للنبي ﷺ يحمله أمير المؤمنين عليه السلام في الآخرة ينضوي تحته جميع الأنبياء والأولياء عليهم السلام والمؤمنين من سائر الأمم، فيمشي بهم إلى الجنة في استعراض إلهي كبير أمام أعين الكفار وأئمتهم[١]. دلت على ذلك الأخبار المتضافرة الواردة بطرق الفريقين[٢]، وقد مر عليك في مشهد الأعراف أن المؤمنين يزفون إلى الجنة زفاً.

فالاعتقاد به من الواجبات، بل الضروريات التي لا تقبل الشك والترديد لقيام النص عليها[٣]، فتعد من مصاديق الإيمان بالغيب الذي هو من أبرز خصوصيات المؤمنين، واللواء يحتمل معنيين:

الأول: حقيقي، وهو العَلم الكبير والراية سميا بذلك لالتوائهما بالريح[٤]، ولا يمسكها إلاّ صاحب الجيش[٥]؛ ليكون شعاراً لأهل الجنة، ويزيدهم سروراً وشعوراً بالفوز والسعادة في الوقت الذي يخيب آمال أهل النار، ويزيدهم شقاءً وشعوراً بالفشل والتعاسة، وعليه فهو كما يكون علامة على

١ – انظر بحار الأنوار: ج٨، ص١ – ٧، الأحاديث ١ – ١٢.
٢ – انظر مسند أحمد: ج١، ص٢٨١؛ ج٣، ص١٤٤.
٣ – بحار الأنوار: ج٨، ص٥–٦، ح٨.
٤ – مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٥٣، (لوى)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٨٤٨، (لوى).
٥ – لسان العرب: ج١٥، ص٢٦٦، (لوي).

تكريم أئمة الحق وأهله فإنه يكون من مراتب النعيم لأهله، ومن أصناف العذاب لأهله.

والثاني: مجازي، ويراد به كل ما يرمز إلى أهل الجنة ويظهر مكانتهم، فإن العرب تضع اللواء موضع الشهرة، وعليه حملوا قوله ﷺ: «لواء الحمد بيدي»[١] إذ حملوه على إرادة انفراده بالحمد يوم القيامة، وشهرته به على رؤوس الخلائق[٢]، فإطلاق اللواء على الشهرة من باب إطلاق لفظ السبب على المسبب، والأول هو المستفاد من النصوص، ولا داعي لحمل اللفظ على خلافه مادام المقتضي له موجود والمانع مفقود على ما حققناه غير مرة، وهو الأوفق بالقواعد الكلامية؛ لما تقدم من تجسم الأعمال والسجايا في الآخرة.

وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام حامل لواء النبي ﷺ في الدنيا، وقائد جنده والمجاهد الأكبر في سبيل الإسلام تنزيلاً وتأويلاً، فلا بد وأن يكون كذلك في الآخرة.

ومن هنا تضافرت الأخبار في ذلك، ونصت على أنه مكتوب على اللواء: «المفلحون هم الفائزون بالجنة»[٣] والمفلحون هم المؤمنون الذين أشار إليهم قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[٤] بضميمة الروايات الدالة على أنها نزلت في محمد وآل محمد عليهم السلام وشيعتهم[٥]، وفي رواية أخرى أنه من نور عموده من

١ - كنز العمال: ج١١، ص٤٣٣، ح٣٢٠٣٣.
٢ - انظر مجمع البحرين: ج١، ص٣٨١، (لوا)؛ لسان العرب: ج١٥، ص٢٦٦، (لوي).
٣ - عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص٣٣، ح٣٥.
٤ - سورة المؤمنون: الآية ١.
٥ - انظر تأويل الآيات: ج١، ص٣٥٢، ح١؛ تفسير البرهان: ج٥، ص٣٢٦، ح١، ص٣٣٠، ح٩؛ الأمالي (للطوسي): ج٢، ص٣١٧؛ المناقب (لابن شهر آشوب): ج٢، ص١٧٤.

ياقوت مكتوب عليه: «لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله، وآل محمد خير البرية»[١].

وفي تفسير العياشي بسنده عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إذا كان يوم القيامة نصب منبر عن يمين العرش له أربع وعشرون مرقاة، ويجيء علي بن أبي طالب عليه السلام وبيده لواء الحمد فيرتقيه ويركبه، ويعرض الخلائق عليه، فمن عرفه دخل الجنة، ومن أنكره دخل النار»[٢].

وقد ورد بطرق العامة أنه عليه السلام قسيم الجنة والنار، وأنه ورسول الله صلى الله عليه وآله يلقيا في جهنم كل كفار عنيد، وهو يتوافق مع هذا المضمون[٣].

وروى الصدوق قدس سره في العيون عن الرضا عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «قال رسول الله: يا علي أنت أول من يدخل الجنة وبيدك لوائي، وهو لواء الحمد»[٤].

وروي عن الصادق عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله ما يفصل في هذا المشهد قال: «... فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: فأقبل يومئذ - أي القيامة - مؤتزراً بربطة من نور عليَّ تاج الملك وإكليل الكرامة، وعلي بن أبي طالب أمامي وبيده لوائي، وهو لواء الحمد مكتوب عليه: لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله، المفلحون هم الفائزون بالله، فإذا مررنا بالنبيين قالوا: هذان ملكان لم نعرفهما ولم نرهما، وإذا مررنا بالملائكة قالوا: هذان نبيان مرسلان حتى أعلو الدرجة، وعلي يتبعني، فإذا صرت في أعلى الدرجة منها وعلي أسفل مني بيده لوائي فلا يبقى يومئذ نبي

---

١ - بحار الأنوار: ج٨، ص٥ - ٦، ح٨.
٢ - تفسير العياشي: ج٢، ص١١٠، ح١٢٧
٣ - ينابيع المودة: ج١، ص٢٥٣، ح١٠؛ حق اليقين: ص٤٤٣.
٤ - انظر عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٢٧٢، ح٦٣.

ولا مؤمن إلاّ رفعوا رؤوسهم إلي يقولون طوبى لهذين العبدين ما أكرمهما على الله! فينادي المنادي يسمع النبيين وجميع الخلائق: هذا حبيبي محمد، وهذا وليي علي بن أبي طالب، طوبى لمن أحبه، وويل لمن أبغضه وكذب عليه.

ثم قال رسول اللهﷺ: يا علي! فلا يبقى يومئذ في مشهد القيامة أحد يحبك إلاّ استروح إلى هذا الكلام، وأبيض وجهه، وفرح قلبه، ولا يبقى أحد ممن عاداك ونصب لك حرباً وجحد لك حقاً إلاّ أسود وجهه، واضطربت قدماه، فبينما أنا كذلك إذا ملكان قد أقبلا إلي، أما أحدهما فرضوان خازن الجنة، وأما الآخر فمالك خازن النار، فيدنو رضوان ويسلم عليّ ويقول: السلام عليك يا رسول الله، فأرد عليه وأقول: أيها الملك الطيب الريح الحسن الوجه الكريم على ربه من أنت؟ فيقول: أنا رضوان خازن الجنة أمرني ربي أن آتيك بمفاتيح الجنة فخذها يا محمد، فأقول: لقد قبلت ذلك من ربي، فله الحمد على ما أنعم به عليّ، أدفعها إلى أخي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فيدفعها ويرجع رضوان، ثم يدنو مالك خازن النار فيسلم ويقول: السلام عليك يا رسول الله يا حبيب الله، فأقول له: وعليك السلام أيها الملك ما أنكر رؤيتك وأقبح وجهك من أنت؟ فيقول: أنا مالك خازن النار أمرني ربي أن آتيك بمفاتيح النار، فأقول: قد قبلت ذلك من ربي فله الحمد على ما أنعم به عليّ وفضلني به، أدفعها إلى أخي علي بن أبي طالب فيدفعها إليه، ثم يرجع مالك، فيقبل عليّ ومعه مفاتيح الجنة ومقاليد النار حتى يقعد على عجزة جهنم أي مؤخرها، ويأخذ زمامها بيده، وقد علا زفيرها، وقد اشتد حرورها، وكثر شررها، فتنادي جهنم: يا علي! جزني قد أطفأ نورك لهبي، فيقول علي لها:

ذري هذا وليي وخذي هذا عدوي، فلجهنم يومئذ أشد مطاوعة لعلي من غلام أحدكم لصاحبه، فإن شاء يذهب بها يمنة وإن شاء يذهب بها يسرة، ولجهنم يومئذ أشد مطاوعة لعلي من جميع الخلائق، وذلك أن علياً يومئذ قسيم الجنة والنار»[١].

وتدل الأحاديث الشريفة على عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن قول النبيين: «هذان ملكان لم نعرفهما ولم نرهما» يحتمل معنيين:

الأول: تجلي صفاتهما وسجاياهما النفسية وملكاتهما الإلهية وتجسمها في ذاك الموقف، وهو ما تقتضيه المسانخة مع سلطتهما في الجنة وأهلها، وهذه الصفات لم تتجل من قبل للأنبياء، فلذا قالوا: «لم نعرفهما ولم نرهما» وهذا الاحتمال إن صح فإنه يدل على أن للنبي والإمام أكثر من صورة وتجل في الآخرة، وهذا ما قد تعضده رواية ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إذ كان يوم القيامة أعطى الله عليا من القوة مثل قوة جبرئيل، ومن الجمال مثل جمال يوسف، ومن الحلم مثل حلم رضوان، ومن الصوت ما يداني صوت داود»[٢] فإنها دالة على تغير الصفات والمظاهر.

الثاني: عدم معرفتهما بسبب ما عليهما من تاج وأكاليل الكرامة ولباس

---

١ - انظر الأمالي (للصدوق): ص١٧٩، ح٤؛ علل الشرائع: ج١، ص١٦٦، ح٦؛ بصائر الدرجات: ص٤٣٦- ٤٣٨، ح١١.

٢ - الأمالي (للصدوق): ص٧٥٦، ح١٠؛ الخصال: ص٥٨٣، ح٧؛ روضة الواعظين: ص١١٠.

أهل الجنة بما لم ير الأنبياء عليهم السلام هذه الحالة من قبل، ولا مانع من صحة كلا الاحتمالين؛ لأن المسألة ليست مانعة للجمع، ومثل ذلك يقال في قول الملائكة: «هذان نبيان مرسلان» وهذا يدل على أن في عالم الآخرة هناك نسبة من عدم المعرفة ونسبة من الغموض أو توهم الحواس يبتلى بها بعض الأصفياء والأولياء وبعض أهل الكرامة من الأنبياء والملائكة فما بالك بعموم أهل المحشر؟ ومن هنا يجتاز أهل الصراط على قدر نورهم، ويلتمس المنافقون منهم نوراً، وهذا شاهد آخر يدل على أن المعاد جسماني، وأن الإدراك والمعرفة فيه بعضها حسي وبعضها قلبي أو حدسي كما يوحي إليه قولهم: «هذان نبيان مرسلان» و: «هذان ملكان» فتأمل.

الحقيقة الثانية: قوله عليه السلام: «فإذا صرت في أعلى الدرجة منها وعلي أسفل مني بيده لوائي» يحتمل أن يكون هو موقف الأعراف المتقدم، ويحتمل أن يكون موقفاً آخر بعد الأعراف، وهو الأقرب إلى ظاهر النصوص المتقدمة، ولذا لا يبقى نبي ولا مؤمن إلاّ رفعوا رؤوسهم ينظرون إليهما، ويغبطانهما على ما لهما من الكرامة عند الله سبحانه، وهذا لا يتناسب مع مشهد الأعراف؛ لما عرفت من أن الأنبياء والمؤمنين يكونون معهم في الأعراف، والذين يشخصون لهم بأبصارهم هم عموم أهل الجنة وعموم أهل النار.

الحقيقة الثالثة: قوله: «فينادي المنادي يسمع النبيين وجميع الخلائق: هذا حبيبي، وهذا وليي علي» يدل على أن بعض مقامات النبي وأمير المؤمنين لا يعرفها حتى الأنبياء والملائكة وهذا ما يتوافق مع قوله صلى الله عليه وآله: «يا علي ما عرف

الله إلاّ أنا وأنت، وما عرفني إلاّ الله وأنت، وما عرفك إلاّ الله وأنا»[١] كما يدل على أن مقام النبي هو المحبوبيَّة، ومقام الإمام هو مقام الولاية، والنسبة إليه سبحانه تدل على حب خاص وولاية خاصة، وهو في الوقت الذي يدل على أن مقام الحب والولاية هما أعلى المقامات المعنوية التي يمكن أن ينالها بشر يدل أيضاً على الملازمة بين الحب والولاية، فمن بلغ رتبة الحب يكون قد بلغ رتبة الولاية، ومن هنا صارت محبة أمير المؤمنين وولايته مفتاح التوفيق في الدنيا، ومفتاح النجاة في الآخرة.

الحقيقة الرابعة: إن إفراد الضمير في قوله: «طوبى لمن أحبه وويل لمن أبغضه وكذب عليه» دون التثنية يدل على أن مدار الفوز والخسارة على حب علي أمير المؤمنين عليه السلام، فلا ينجو عبد يستغني بحب النبي صلى الله عليه وآله أو يكتفي بتوليه ما لم يحب علياً ويتولاه، كما يدل أيضاً على أن البغض الموجب للهلكة له مرتبتان:

الأولى: مجرد البغض القلبي.

والثانية: البغض اللساني، ويتحقق بالكذب عليه بإنكار إمامته وولايته، أو بتقديم غيره عليه، أو بالغلو فيه، فلا فرق في الكذب بين انتقاص حقه أو بخس حقه أو وضعه في غير الموضع الذي وضعه الله سبحانه فيه، وعلى هذا الأساس يظهر أن الغلو ملازم للبغض وإن كان في ظاهره حباً.

الحقيقة الخامسة: قوله صلى الله عليه وآله: «يا علي فلا يبقى ... احد يحبك إلاّ استروح إلى هذا الكلام .. وابيض وجهه، وفرح قلبه، ولا يبقى أحد ممن عاداك

١ – مختصر بصائر الدرجات: ص١٢٥؛ المحتضر: ص٣٨.

ونصب لك حرباً وجحد لك حقاً إلاّ أسود وجهه، واضطربت قدماه» يدل على أن السعادة والشقاء في الآخرة يدوران مدار حب أمير المؤمنين وعداوته، وإذا التفت العباد إلى هذه الحقيقة تمكنوا وهم في الدنيا من معرفة حالهم في المحشر، كما يمكنهم أن يتلاحقوا لأنفسهم وينظروا في درجات جهنم وتسليمهم لأئمتهم عليهم السلام، فإذا كان الإنسان محباً لإمامه مطيعاً مقدماً له على غيره فليعرف أنه من أهل الجنة، فما عليه إلاّ أن يتعهد طاعاته وأعماله في حقوق الله وحقوق الناس؛ ليكون من أخيار الشيعة الذين توظفهم الإرادة الإلهية في خدمة آل محمد في الآخرة، ويكونون من أعوانهم في الحساب، وإلاّ كان دونهم رتبة فيدخل الجنة بشفاعتهم، وأما إن كان مبغضاً معادياً فهو في شقاء في الدنيا وشقاء في الآخرة، حياته في ظلمة وسواد للوجه؛ لأنه متمرد على أولياء نعمته، وكذلك في الآخرة، ومن الواضح أن هذه الضابطة لا تنطبق على المسلمين فقط ، بل تنطبق على جميع الأمم مهما اختلفت أديانهم ومعتقداتهم كما عرفته.

الحقيقة السادسة: أن قوله صلى الله عليه وآله وسلم لرضوان: «من أنت؟» من باب سؤال العارف؛ بداهة أنه صلى الله عليه وآله وسلم ملك الآخرة والسلطان الحاكم فيها، وهو أعلم من خلق الله وأعرف، والغرض من السؤال هو إظهار المشهد للجاهلين أو الغافلين، وقوله: «فله الحمد على ما أنعم به عليّ» يكشف عن أن سبب تسمية هذا الموقف بلواء الحمد هو أن الله سبحانه أظهر للخلائق مقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فإن تفضيله على سائر الخلق بهذا المقام والرتبة هو حمد له، فإن الحمد في بعض

معانية الجزاء وقضاء الحق[1]، ولذا قالوا: إن العبد إذا حمد الله فقد ظفر بأربعة أشياء: قضى حق الله، وأدى شكر النعمة الماضية، وتقرب من استحقاق ثواب الله، واستحق المزيد من نعمائه[2]، كما أنه صلى الله عليه وآله اختص بالحمد بالآخرة، فحمد الله سبحانه، وأثنى عليه غاية الثناء على عطاياه التي وهبها له وفضله بها، وهذا مقام خاص لم يحض به نبي مرسل ولا ملك مقرب.

الحقيقية السابعة: أن النار الأخروية ليست كالنار الدنيوية؛ لأن لها حقيقة حية تنطق وتتكلم وتسمع وتفهم، وتعرف ولي الله وتطيعه، وتعرف عدو الله وتعذبه، وقد مر عليك أن من خصائص عالم الآخرة هو الحياة التامة الكاملة، فلا موت فيه ولا غفلة أو نسيان، كما أن كل شيء فيه يعقل ويتكلم ويسمع ويتحرك.

والوجه في خطاب النار لعلي عليه السلام بقولها كما في الخبر: «فتنادي جهنم يا علي جزني قد أطفأ نورك لهبي» يعود لأمرين:

أحدهما: أن النور الذي يكلل الإمام عليه السلام هو مقتضى الرحمة والسجايا النفسية الإلهية، بينما النار هو مقتضى العذاب والنقمة، وحيث لا تناسب بين الرحمة والنقمة تطلب الجواز سريعاً عليها؛ لأن بقاء لهبها وتعذيب المستحقين بها هو مقتضى ذاتها؛ بإعتبار أنه يحقق الغاية من وجودها تكويناً، أو لأنه يحقق غاية الإرادة الإلهية في معاقبة العصاة والمذنبين تشريعاً، أو لأنها تتسانخ مع أعمال العصاة والمذنبين بناء على تجسم الأعمال.

---

١ - انظر المعجم الوسيط: ج١، ص١٩٦، (حمد).

٢ - انظر مجمع البحرين: ج٣، ص٣٨، (حمد).

ثانيهما: أن شخصية الإمام عليه السلام وسجاياه النفسية نور كلها، وقد تواترت النصوص على أنه عليه السلام كرسول الله صلى الله عليه وآله مخلوق من نور الله، ولا شك في أن هذا يغلب النار؛ لأنه ناشئ من رحمة الله، بخلاف النار فإنها من غضبه، وصفات الرحمة تغلب صفات الغضب فتطفئها أو تغطي عليها.

وأخيراً نلفت النظر إلى حقيقة أخرى، وهي أن اللواء لا يختص بأهل الجنة فقط ، ويكون شعاراً لهم، وينضوي تحته جميع الأنبياء والأولياء والمؤمنين، فإن لأهل النار لواء أيضاً وهو شعارهم، وينضوون تحته، كما كان الحال في الدنيا، إذ لكل فريق راية وقائد وأنصار وشعار، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[١]، وقوله تعالى في آل فرعون الذين أتبعوه في الفكر والنهج: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾[٢] ومعنى يقدم قومه أن له علامة شاخصة، ويقودهم كما قادهم في الدنيا، وساقهم إلى المهالك، فكذلك يكون الحال في الآخرة.

فالآخرة كالدنيا لها أئمة ورايات وأتباع، وقائد أهل الجنة وحامل لوائهم أمير المؤمنين عليه السلام، وحامل لواء أهل النار من ناصبه العداء وحاربه، بل تؤكد الروايات أن أعداءه لهم أكثر من راية على عدد اتجاهاتهم، ففي رواية مالك بن ضمرة الرواسي عن أبي ذر أنهم يأتون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله على الحوض فيردهم، ويساقون إلى النار[٣].

---

١ – سورة الإسراء: الآية ٧١.

٢ – سورة هود: الآية ٩٨.

٣ – انظر تفصيل الرواية في بحار الأنوار: ج٨، ص١٤– ١٥، ح١٩.

المشهد السابع: حوض الكوثر

وهو من المشاهد العجيبة في المحشر الذي يميز المؤمن من الجاحد، ويجب الاعتقاد به لتضافر النصوص عليه، بل في الحديث النبوي أن عدم الإيمان به يمنع صاحبه من دخول الجنة[١]، وهو من مختصات النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام، وقد وصفته الأخبار بعدة خصائص:

الخصيصة الأولى: أنه الموضع الذي يلتقي فيه الكتاب والعترة، فإنهما يحضران عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويشكيان من هجران أمته لهما وإعراضها عنهما، وهو ما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث الثقلين المتواتر إذ قال: «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[٢].

الخصيصة الثانية: أن موقعه على طريق المحشر، ولعله الصراط ، وأن طوله ما بين أيلة وهي - بالفتح - مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام، وقيل: هي آخر الحجاز وأول الشام[٣]، وصنعاء وهي اليوم عاصمة اليمن، وصنعاء قرية بالغوطة من دمشق[٤]، يجتمع عنده الأولون والآخرون، كما ورد في حديث أبي الورد عن الباقر عليه السلام: «إذ كان يوم القيامة جمع الله الناس في صعيد واحد من الأولين والآخرين ... فيقوم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيتقدم أمام الناس كلهم حتى ينتهي إلى حوض طوله مابين أيلة وصنعاء، فيقف عليه، ثم

---

١ - انظر بحار الأنوار: ج٨، ص١٩، ح٤.

٢ - المعتبر: ج١، ص٢٣؛ مختصر بصائر الدرجات: ص٩٠.

٣ - انظر معجم البلدان: ج١، ص٢٩٢.

٤ - انظر معجم البلدان: ج٣، ص٤٢٦.

ينادي بصاحبكم فيقوم أمام الناس فيقف معه، ثم يؤذن للناس فيمرّون»[١].

والظاهر أن المساحة المذكورة تشبيهية وليست حقيقية كما يوحي إليه قوله: «طوله ما بين أيلة وصنعاء» من باب تشبيه غير المحسوس بالمحسوس، وهذا ما يعضده ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله في حجة الوداع؛ إذ حدد عرضه بما بين بصرى وصنعاء، وبصرى مدينة في الشام، ولا يمكن أن يلتقي الطول والعرض في مدينة واحدة، وعلى فرض حملها على المعنى الحقيقي فلا يبعد أن يكون موضع الحوض في باطن الدنيا هو المنطقة المذكورة؛ لما عرفت من تطابق الدنيا والآخرة ومسانختهما في الجوهر واختلافهما في المظهر، وبناء على حمل الطول والعرض على المعنى الحقيقي فإنه يوحي أن شكل الحوض مستطيل أو مربع.

الخصيصة الثالثة: أن ماءه من الجنة، وهو مملوء يصب فيه ميزابان من الجنة: أحدهما من تسنيم، والآخر من معين، على حافتيه الزعفران، وحصاه اللؤلؤ والياقوت، كما أخبر عنه أمير المؤمنين عليه السلام في حديث الأربعمائة[٢]، وفيه أقداح من فضة وذهب وجواهر بعدد النجوم يشرب بها أهله[٣]، والعدد المذكور يمكن أن يكون حقيقياً، نظراً لكثرة النجوم بما يكفي لشرب أهل الحوض، أو مجازياً كناية عن الكثرة.

والتسنيم عين في الجنة رفيعة القدر يشرب بها المقربون، كما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ

١ - انظر بحار الأنوار: ج٨، ص١٧-١٨، ح١.
٢ - انظر بحار الأنوار: ج٨، ص١٩، ح٩.
٣ - بحار الأنوار: ج٨، ص١٩، ح٧.

﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[١].

وتسميته بالتسنيم إما من باب الاصطلاح الخاص والعرفية الخاصة، أو من باب التناسب مع المعنى اللغوي، فالتسنيم مأخوذ من السنام، وهو المرتفع من ظهر الجمل. يقال سنمت العين تسنيماً إذا أجريتها عليهم من فوقهم، فالتسنيم عين ماء يجري من علو إلى أسفل يتسنم عليهم من الغرف[٢].

والمروي عن آل محمد عليهم السلام أنها تتسم بالرفعة المادية والمعنوية، ففي تفسير القمي في معنى قوله: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ قال: وهو مصدر سنمه إذا رفعه؛ لأنه أرفع شراب أهل الجنة، أو لأنه يأتيهم من فوق يتسنم عليهم في منازلهم، وهي من مختصات محمد وآل محمد عليهم السلام؛ لأنهم المقربون وشيعتهم[٣].

والمعين إما اسم للخمر الجارية في أنهار ظاهرة العيون[٤]، وإليه يشير قوله تعالى في وصف حياة أهل الجنة : ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾[٥] أو كناية عن غزارة الماء وسهولة جريه[٦]، وهذه الأوصاف تؤكد أن منبع ماء الكوثر من الجنة، إلاّ أنه خارجها؛ لأنه في المحشر كما عرفت.

الخصيصة الرابعة: أنه حقيقة حية تفهم وتشعر، ويذيق أهله من أنواع

---

١ – سورة المطففين: الآيات٢٢– ٢٨.

٢ – انظر مجمع البيان: ج ١٠، ص٢٩٦.

٣ – انظر تفسير القمي: ج ٢، ص٤١١؛ تفسير نور الثقلين: ج٨، ص١٤٦، ح٤٣.

٤ – انظر مجمع البيان: ج ٨، ص٣٠٥.

٥ – سورة الصافات: الآية ٤٥.

٦ – انظر معجم مقاييس اللغة: ص٩٥٣،(معن)؛ مجمع البحرين: ج٦، ص٣١٧،(معن).

الطعام، ولو شربه الشارب لا يظمأ بعده أبداً، وهو من مختصات الشيعة، وقد فصلت أوصافه رواية مسمع كردين عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن الكوثر ليفرح بمحبنا إذا ورد عليه حتى إنه ليذيقه من ضروب الطعام ما لا يشتهي أن يصدر عنه، يا مسمع! من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا، ولم يستق بعدها أبدا، وهو في برد الكافور وريح المسك وطعم الزنجبيل، أحلى من العسل، وألين من الزبد، وأصفى من الدمع، وأزكى من العنبر ... يوجد ريحه من مسيرة ألف عام ... يفوح في وجه الشارب منه كل فائحة حتى يقول الشارب منه: يا ليتني تركت ههنا لا أبغي بهذا بدلا، ولا عنه تحويلاً ... وما من عين بكت لنا إلاّ نعمت بالنظر إلى الكوثر، وسقي منه من أحبنا، وأن الشارب منه ليعطى من اللذة والمطعم والشهوة له أكثر مما يعطاه من هو دونه في حبنا»[١].

والكافور مادة نباتية شفافة بلورية الشكل يميل لونها إلى البياض طيب الرائحة، وطبعه بارد، وربما يكون اسم عين في الجنة ماؤها في بياض الكافور ورائحته وبرده كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾[٢] والأول أنسب بمقتضى الحال[٣]؛ لأنه في مقام تشبيه غير المحسوس بالمحسوس، فلابد وأن يكون المشبه به معروفاً حتى يصح التشبيه[٤].

والزنجبيل ضرب من القرفة طيب الطعم، يحذو اللسان، ويربى بالعسل،

---

١ - انظر كامل الزيارات: ص٢٠٤- ٢٠٥، ح٧.
٢ - سورة الإنسان: الآية ٥.
٣ - انظر المعجم الوسيط: ج٢، ص٧٩٢، (كفر).
٤ - انظر مجمع البحرين: ج٣، ص٤٧٦، (كفر).

ويستدفع به المضار، وإذا مزج به الشراب فاق في الإلذاذ، والعرب تستطيب الزنجبيل جداً[١]، ولذا ذكره في قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾[٢].

ومن الواضح أن مطعومات الجنة أطعم وألذ مما يعرفه الناس في الدنيا، إلاّ أنه يسميها بأسماء الطيبات في الدنيا لتقريب المعنى، وإلى هذا أشار قول ابن عباس: كل ما ذكره الله في القرآن مما في الجنة ومسماه ليس له مثل في الدنيا، ولكن سماه الله بالأسم الذي يعرف[٣].

الخصيصة الخامسة: أنه محل يكرم فيه الشيعة والموالون للنبي وأهل بيته عليهم السلام، وموضع إذلال أعدائهم وحرمانهم من النعم، وقد تضافرت الأخبار في هذا المضمون، منها ما في الأمالي عن الرضا عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «من أراد أن يتخلص من هول القيامة فليتول وليي، وليتبع وصيي وخليفتي من بعدي علي بن أبي طالب، فإنه صاحب حوضي، يذود عنه أعداءه، ويسقي أولياءه، فمن لم يسق منه لم يزل عطشان، ولم يرو أبداً، ومن سقي منه شربة لم يشق ولم يظمأ أبداً»[٤].

وفي الخصال عن أمير المؤمنين عليه السلام: «فتنافسوا في لقائنا على الحوض، فإنا نذود عنه أعداءنا، ونسقي منه أحباءنا وأولياءنا»[٥].

وفي رواية أبي أيوب الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وآله قال في وصف أهل الحوض:

١ - انظر مجمع البيان: ج١٠، ص٢٢٠.
٢ - سورة الإنسان: الآية ١٧.
٣ - مجمع البيان: ج١٠، ص٢٢٢، تفسير الآية١٧ من سورة الإنسان.
٤ - الأمالي: (للصدوق): ص٣٥٤، ح٩.
٥ - الخصال: ص٦٢٤، ح١٠.

«لا يرده أحد من أمتي إلاّ النقية قلوبهم، الصحيحة نياتهم، المسلمون للوصي من بعدي الذين يعطون ما عليهم في يسر، ولا يأخذون ما عليهم في عسر، يذود عنه يوم القيامة من ليس من شيعته كما يذود الرجل البعير الأجرب من إبله»[١].

وفي رواية ابن عباس التي رواها الصدوق‏قدس‌سره في الأمالي أنه قال‏صلى‌الله‌عليه‌وآله: «من أحب علياً وأطاعه في دار الدنيا ورد على حوضي غداً، وكان معي في درجتي في الجنة، ومن أبغض علياً في دار الدنيا وعصاه لم أره، ولم يرني يوم القيامة، واختلج دوني، وأخذ به ذات الشمال إلى النار»[٢].

ونلفت النظر إلى حقيقتين:

الحقيقة الأولى: أن المستفاد من بعض الأخبار أن هناك نهراً اسمه الكوثر أيضاً، وهو من مختصات النبي‏صلى‌الله‌عليه‌وآله وكراماته الإلهية، والظاهر أنه غير حوض الكوثر؛ لامتيازه بمزايا وخصوصيات تختلف عن مزايا حوض الكوثر وخصوصياته، وتؤكد هذه الحقيقة مجموعة شواهد:

الشاهد الأول: الأخبار الكثيرة الواردة بطرق الفريقين، فإنها دالة على أن الكوثر نهر في الجنة يجري من تحت عرش الله تعالى، فهو ليس في المحشر، وماؤه ليس من تسنيم ومعين، وأوصافه تختلف في الشكل.

منها: ما رواه أنس عن النبي‏صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: «رأيت نهراً في الجنة حافتاه قباب اللؤلؤ المجوّف، فضربت بيدي إلى مجرى الماء فإذا أنا بمسك أذفر، فقلت:

١ - الأمالي: (للطوسي): ص ٢٢٨، ح٥٠.
٢ - الأمالي (للصدوق): ص٣٧٤، ح١٢.

ما هذا؟ قيل: الكوثر الذي أعطاك الله ... اشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طيور خضر لها أعناق كأعناق البخت من أكل من ذلك الطير وشرب من ذلك الماء فاز بالرضوان»[١].

والمسك الأذفر أجود أنواع المسك طيباً[٢]، ووصفه بالبياض لعله ناشئ من نهاية رقته ولطافته النورية، فإن البياض إذا اشتد يصبح رقيقاً وشفيفاً ومشعاً، وقد احتمل بعض مفسري الجمهور أنه سمي بالكوثر لأنه أكثر أنهار الجنة ماءً وخيراً، أو لأنه انفجرت منه أنهار الجنة[٣].

وورد هذا المعنى بطرقنا عن عبد الله بن عباس قال: لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾[٤] قال له علي بن أبي طالب عليه السلام: «ما هو الكوثر يا رسول الله؟ قال: نهر أكرمني الله به، قال علي عليه السلام: إن هذا النهر شريف فانعته لنا يا رسول الله. قال: نعم يا علي، الكوثر نهر يجري تحت عرش الله تعالى، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزبد. حصاه الزبرجد والياقوت والمرجان، حشيشه الزعفران، ترابه المسك الأذفر، قواعده تحت عرش الله عز وجل، ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وآله يده في جنب علي أمير المؤمنين عليه السلام وقال: يا علي إن هذا النهر لي ولك ولمحبيك من بعدي»[٥].

---

١ - تفسير الرازي: ج٣٢، ص١٢٤.

٢ - انظر المعجم الوسيط: ج١، ص٣١٢، (ذفر).

٣ - تفسير الرازي: ج٣٢، ص١٢٤.

٤ - سورة الكوثر: الآية ١.

٥ - الأمالي (للمفيد): ص٢٩٤، ح٥؛ الأمالي (للطوسي): ص٦٩- ٧٠، ح١١.

وفي رواية انس أن عرضه وطوله ما بين المشرق والمغرب[١].

وفي رواية أخرى لابن عباس أن عمقه في الأرض سبعون ألف فرسخ ... خص الله به نبيه وأهل بيته عليهم السلام دون الأنبياء[٢].

وفي رواية أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن عليه مساكن النبي وذريته الأبرار، وهي قصور من اللؤلؤ والياقوت والدر، ولبناتها من ذهب وفضة[٣].

ونلاحظ من مجموع هذه الأوصاف والمزايا أن نهر الكوثر ليس حوض الكوثر. نعم يشتركان في أمرين وهما: أنهما من مختصات النبي أعطاهما الله لنبيه إكراماً وتفضيلاً على سائر الأنبياء والمرسلين، وأنهما لا يشرب أحد منهما فيظمأ. نعم في رواية أنس أضافت لنهر الكوثر أن لا يتوضأ أحد منه فيشعث، أي يغبر رأسه، وهو إما كناية عن النظافة التامة والأبدية أو كناية عن فوز صاحبه فلا يبتلى بمصير أهل النار الذين تغبر وجوههم كما مر عليك تفصيله.

والفارق العمدة بينهما هو أن نهر الكوثر يجري في الجنة يناله الناس جزاء بعد دخول الجنة، بينما حوض الكوثر في المحشر، ويكون عنده بعض الحساب أيضاً، كما عرفته من بعض الروايات المتقدمة، وفي روايات أخرى ما يؤكد هذه الحقيقة:

منها: ما عن أبي جعفر عليه السلام في معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ

١ - بحار الأنوار: ج٨، ص٢٤، ح٢٠.
٢ - انظر بحار الأنوار: ج٨، ص٢٥، ح٢٤.
٣ - انظر بحار الأنوار: ج٨، ص٢٦، ح٢٦.

وُجُوهٌ﴾[١] قال: «قال النبي ﷺ: تحشر أمتي يوم القيامة حتى يردوا عليّ الحوض، فترد راية إمام المتقين وسيد المسلمين وأمير المؤمنين وخير الوصيين وقائد الغر المحجلين وهو علي بن أبي طالب، فأقول: ما فعلتم بالثقلين بعدي؟ فيقولون: أما الأكبر فاتبعنا وصدقنا وأطعنا، وأما الآصغر فأحببنا ووالينا حتى هرقت دماؤنا، فأقول: روّوا رواء مرويين مبيضة وجوهكم الحوض»[٢].

ومنها: رواية أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «ما بال أقوام يقولون: إن رحم رسول الله ﷺ لا يشفع يوم القيامة؟ بلى بلى والله إن رحمي لموصولة في الدنيا والآخرة، وإني – أيها الناس – فرطكم يوم القيامة على الحوض، فإذا جئتم قال الرجل: يا رسول الله أنا فلان بن فلان، فأقول: أما النسب فقد عرفته، ولكنكم أخذتم بعدي ذات الشمال، وارتددتم على أعقابكم القهقري»[٣] وقد تضمن الحديث أكثر من دلالة:

الدلالة الأولى: أن المراد من الشفاعة هنا هو غايتها، أي النفع الحاصل منها، فكان بعض ضعاف الإيمان أو المنافقين الذين خاصموا آل محمد يشككون في جدوى الاعتقاد بهم والتسليم لطاعتهم، ويعللون ذلك بأن التوحيد وحده ينفع ولا نفع لغيره، وقد رد النبي ﷺ هذه الشبهة ونفى أن يكون ذلك كافياً، ووجهه ظاهر؛ بداهة أن الموحد لا يمكن أن يكون موحداً بالمفهوم الصحيح للتوحيد وهو في عين الحال يعصي رسول الله ﷺ، وينكر

---

١ – سورة آل عمران: الآية ١٠٦.

٢ – بحار الأنوار: ج٨، ص٢٤، ح١٨.

٣ – بحار الأنوار: ج٨، ص٢٠، ح١١.

فضل رحمه ومقاماتهم التي أعطاهم الله سبحانه إياهم، ولذا أكد رسول الله ﷺ الإثبات مرتين بقوله: «بلى بلى» وبالقسم وبأن التأكيدية ليثبت للناس أن رحم رسول الله ﷺ كما هي نافعة لهم في الدنيا -إذ هم أئمة الدين والدنيا، ومنهم تصدر جميع الخيرات، وإليهم تنزل جميع الفيوضات الإلهية، وهذا أمر يشهده ويقره له الجميع - فكذلك الحال في الآخرة.

الدلالة الثانية: الفرط - بفتح الفاء والراء - في قوله ﷺ: «وإني - أيها الناس - فرطكم يوم القيامة على الحوض» يحتمل معنيين:

أحدهما: أنه ﷺ ينحي بعض الناس عن الحوض ويدفعهم جانباً.

ثانيهما: أنه ﷺ يتقدم الناس إلى الورد، ويتركهم وراءه. يقال: فرط القوم يفرطهم أي يسبقهم إلى الماء، وكلاهما مأخوذ من اللغة[١]، ولا مانع من الجمع لعدم التنافي، بل الظاهر وجود الجامع المشترك بينهما؛ لوضوح أن التنحية ملازمة للترك والإهمال.

وقوله: «يا رسول الله أنا فلان بن فلان» يدل على أن الذين ينحيهم النبي عن الحوض من المعروفين لديه، ومن ذوي المكانة في الدنيا الذين يتوقع لهم الناس المكانة في الآخرة، إلاّ أن النبي ﷺ يفضحهم، ويكشف عن عدم لياقتهم لذلك، فينحيهم عن حوضه، ويتركهم عطاشى لم يرتووا من مائه، كما لم يرتووا من علومه وتقواه في الدنيا.

الدلالة الثالثة: أن الانحراف عن النبي ﷺ ومخالفته يوجب الارتداد

١ - انظر معجم مقاييس اللغة: ص٨١٢- ٨١٣، (فرط)؛ لسان العرب: ج٧، ص٣٦٦، (فرط).

والتقهقر عن الدين، وهذان اللفظان (الارتداد) و«التقهقر على الأعقاب» يشيران إلى أن هؤلاء كانوا في برهة على الجاهلية ثم أسلموا، وهذا الوصف لا ينطبق إلاّ على بعض الصحابة، وهذا ما تؤكده الروايات الأخرى لاسيما الواردة بطرق الجمهور، والدالة على انقسام أمة المصطفى ﷺ إلى فريقين في الدنيا: فريق أطاع النبي فيما قال وفعل، وفريق آخر عصاه، ولذا يحشرون في الآخرة كذلك فريقان، أحدهما يكون مع النبي ﷺ في كرامة الله، والثاني يذاد عن الحوض، ويترك في العذاب ... واكتفي منها بثلاث:

الرواية الأولى: ما رواه البخاري بسنده عن أبي وائل قال النبي ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض، وليرفعنّ رجال منكم ثم ليختلجن دوني، فأقول: ربي أصحابي. فيقال: أنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»[1].

وقوله: «رجال منكم» يشير إلى رجال معروفين يعدون من أهل المكانة كما يفيده التنكير في مقام البيان، ويدل الحديث في مجمله على أن هؤلاء يبلغون الحوض، ويذادون عنه؛ لأجل إذلالهم وإظهار سوء أعمالهم وفضحهم على رؤوس الأشهاد، فيزدادون عذاباً، والاختلاج الجذب والتنحية[2]، والسبب في ذلك يعود إلى الأحداث بعد النبي ﷺ، ولا يصدق ذلك إلاّ في تنحيهم عن الإمامة والخلافة الإلهية التي نصبها الله والرسول على الأمة؛ لأنها أول حدث أحدثه بعض الصحابة بعد النبي ﷺ، فيقابلون بمثل ما عملوا في الدنيا، كما عرفت من أن الجزاء الأخروي مسانخ لأعمال الدنيا.

---

١ – صحيح البخاري: ج٧، ص٢٠٦.

٢ – انظر المعجم الوسيط: ج١، ص٢٤٨، (خلج).

الرواية الثانية: ما رواه البخاري بإسناده عن أبي حازم قال: سمعت سهل بن سعد يقول: سمعت النبيﷺ يقول: «إني فرطكم على الحوض، من مرّ عليّ شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً، ليردن عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم» قال أبو حازم: فسمعني النعمان بن أبي عياش فقال: هكذا سمعت من سهل؟ فقلت: نعم. فقال: أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته وهو يزيد فيها. فأقول: إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: «سحقاً سحقاً لمن غيّر بعدي»[1].

ومضمونه يتوافق مع مضمون الرواية الأولى، وقوله «لا تدري ما أحدثوا بعدك» يفيد التغيير لما التزموا به، وهذا لا ينطبق إلاّ على الخلافة؛ إذ بدلوا خليفة الله ورسوله، ونصبوا غيره مكانه، ولذا استحقوا دعاء النبيﷺ عليهم بالسحق والهلكة.

الرواية الثالثة: ما رواه البخاري بإسناده عن ابن أبي مليكة قال: قالت أسماء عن النبيﷺ إنه قال: «أنا على حوضي أنتظر من يرد عليّ فيؤخذ بناس من دوني، فأقول: أمتي، فيقول: لا تدري مشوا على القهقرى»[2].

وقوله «لا تدري» لا يراد منه المعنى الظاهر؛ لوضوح أن النبي يعلم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة كما مر عليك في علم النبي والإمامعليه السلام، وإنما المراد منه المعنى المجازي، وفيه احتمالان:

أحدهما: الكناية عن عدم الحضور، أي إن أصحابه غيروا وبدلوا ما أسسه

---

١ - صحيح البخاري: ج٧، ص٢٠٧- ٢٠٨.

٢ - صحيح البخاري: ج٨، ص ٨٦.

النبيﷺ في حالة غيابه، ويطلق عدم الدراية على من غاب عن الحضور، أو الكناية عن عدم العلم الحسي، فإن الشاهد يحيط بتفاصيل الحوادث والوقائع عن حس عادة.

ثانيهما: إظهار سبب إبعادهم عن الحوض وحرمانهم من شربه والكشف عن استحقاقهم لذلك. وهو متداول في الاستعمالات العرفية؛ إذ يعبرون عن الأسباب التي تحتاج إلى توجيه بذلك من باب المبالغة في الاستحقاق[1]، وبذلك يظهر أن حوض الكوثر لا تشرب منه جميع الأمة ولا جميع الصحابة، بل المؤمنون المطيعون لله والرسولﷺ، ويكون شربهم منه علامة على فوزهم واستحقاقهم لدخول الجنة، كرامة من الله سبحانه لهم، والذود عنه علامة المهانة واستحقاق العذاب.

وفي هذا دلالة تامة على بطلان نظرية عدالة الصحابة طراً؛ لأن الأخبار المذكورة نصت على وجود فئة منهم سيعذبهم الله، ويذودهم النبيﷺ عن حوضه، وهذا ما لا يكون إلاّ على القول بارتدادهم وعصيانهم.

الحقيقة الثانية: أن المستفاد من مجموع الأدلة أن الشرب من الحوض من مختصات أمة النبيﷺ، وأما سائر الأمم فالمؤمنون منهم يلحقون بأمة النبي لإيمانهم بأنبيائهم وإطاعتهم لهم، فلو كانوا مع رسول اللهﷺ لآمنوا به، وعملوا بأحكامه.

والمعاندون الجاحدون منهم يلحقون بالمعاندين الجاحدين لرسول اللهﷺ،

---

١ - فإذا لوحظ أن أحداً يضرب ولده بسبب اعتدائه على الناس وسئل عن السبب يجيبهم «أنكم لا تدرون ماذا فعل» مع أنه اعتدى بحضورهم.

وأما المسلمون فلا يشربون منه إلاّ من كان مؤمناً بولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، ومسلّماً له في الإمامة والخلافة، ومن هنا صنفت الأخبار المتقدمة المسلمين على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: المؤمنون الموالون لمحمد وآل محمد عليهم السلام وهم الذين يصلون الحوض، ويشربون منه، فلا يظمؤون أبداً إكراماً لهم وإعداداً لدخول الجنة.

الصنف الثاني: الجاحدون المعاندون، وهم الذين نصبوا العداء لآل محمد عليهم السلام وحاربوهم وأزاحوهم عن مراتبهم ومقاماتهم علناً، وكانوا معروفين بذلك في الدنيا، وهؤلاء لا يردون الحوض، ولا يشربون منه، بل يهوون إلى نار جهنم.

الصنف الثالث: المنافقون، وهؤلاء يردون الحوض ويصلون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ولكنهم يطردون منه، جزاء لما عملوا، إذ إنهم كانوا يتظاهرون بالصلاح والدين وفي واقعهم كانوا جاحدين ومحاربين لله ورسوله وأوليائه، فلذا يسمح لهم ببلوغ الحوض، فيظن الناس بهم خيراً، ثم يذادون عنه لتخييب آمالهم وفضحهم وإذلالهم أمام أهل المحشر، وهذا ما تؤكده رواية مسمع كردين عن أبي عبد الله عليه السلام؛ إذ ورد فيها: «أن على الكوثر أمير المؤمنين عليه السلام، وفي يده عصا من عوسج يحطم بها أعداءنا، فيقول الرجل منهم: إني أشهد الشهادتين، فيقول: انطلق إلى إمامك فلان فاسأله أن يشفع لك، فيقول: يتبرأ مني إمامي الذي تذكره، فيقول: ارجع إلى ورائك فقل للذي كنت تتولاه وتقدمه على الخلق فاسأله إذا كان عندك خير الخلق أن يشفع لك!!» فإن خير الخلق حقيق أن لا يرد إذا شفع!! فيقول: إني أهلك عطشاً، فيقول له: زادك الله ظمأ، وزادك

الله عطشاً، قلت: جعلت فداك، وكيف يقدر على الدنو من الحوض ولم يقدر عليه غيره؟ فقال: ورع عن أشياء قبيحة، وكف عن شتمنا – أهل البيت – إذا ذكرنا، وترك أشياء أجترى عليها غيره، وليس ذلك لحبنا ولا لهوى منه لنا، ولكن ذلك لشدة اجتهاده في عبادته وتدينه، ولما قد شغل نفسه به عن ذكر الناس، فأما قلبه فمنافق، ودينه النصب باتباع أهل النصب وولاية الماضين [1].

وأما الجاهلون، فقد عرفت غير مرة أن القاصرين منهم وهم المستضعفون الذين لو وصلهم الحق قبلوه فهم ليسوا من أهل الجحود، ولا من أهل النفاق، فإما يمتحنون أو تناهم الشفاعة والمغفرة فيشربون من الحوض، وأما المقصرون فهم يستحقون العذاب، وربما عذبوا، وربما شملتهم المغفرة والشفاعة.

وعلى هذا فإن الشرب من الحوض يدور مدار الحب والبغض لآل محمدعليهم السلام، وهذا المعنى تواتر في الأخبار الشريفة ومنها قول رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم لعليعليه السلام: «ترد شيعتك يوم القيامة رواء غير عطاش، ويرد عدوّك عطاشاً يستسقون فلا يسقون»[2].

ومنها: رواية ابن عباس المتقدمة عن النبيصلى الله عليه وآله وسلم [3].

المشهد الثامن: الشفاعة

وهو من المشاهد التي خص الله سبحانه به محمداً وآل محمدعليهم السلام ومن بعدهم الأنبياء والأولياءعليهم السلام، ثم المؤمنين، وللشفاعة غايات عديدة:

١ – انظر كامل الزيارات: ص٢٠٥، ح٧.
٢ – عيون أخبار الرضاعليه السلام: ج١، ص٦٦، ح٢٣٨.
٣ – الأمالي (للصدوق): ص٢٤٥، ح١٢.

منها: إظهار كرامة الشفعاء.

ومنها: فتح أبواب الأمل والرجاء أمام العباد المذنبين لأجل التوبة وإصلاح النفوس.

ومنها: تقوية أواصر الارتباط والولاية بالأنبياء والأئمة عليهم السلام والصالحين من عباد الله في الدنيا.

ومنها: إظهار أثر الإيمان والعقيدة في الآخرة، فيكون من دواعي الفرح والسرور عند المستحقين لها، وهو يعد من مراتب النعيم الأخروي.

ومنها: إظهار صفة الكفر والكافرين بمعناهما الأعم، وسد أبواب الرجاء والأمل أمامهم؛ ليكون رتبة من مراتب عذابهم الأخروي.

ولا خلاف بين المسلمين في ثبوت الشفاعة من حيث الأصل؛ لأنه من الضروريات التي تواترت عليه النصوص من الآيات والروايات[1]، وإنما اختلفوا في تفاصيلها، لاسيما في مسألتين:

الأولى: في حدود الشفاعة، وأنها تختص بمحو السيئات أو بزيادة الدرجات، أو بشمولها للاثنين، أو لكل جذب مصلحة ودفع ضرر أخرويين.

والثانية: في أنها تختص بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم أم تشمل غيره.

وتحرير الحق في ذلك يستدعي البحث في أمور:

---

١ - انظر توضيح المراد: ص٨٣٧؛ القول السديد: ص٣٩٩.

الأمر الأول: في حقيقة الشفاعة

الشفاعة في اللغة والعرف تطلق على ضم شيء على مثله لأجل التقوية والإعانة[١]، وهي هنا: الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلًا عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى، ومنه الشفاعة في القيامة[٢]، ومنها ورد قوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾[٣] بناء على أن المراد من العهد هنا مطلق المقام المحبوب عنده، سواء كان ناشئاً من سلامة العقيدة أو سلامتها وسلامة بعض العمل مع اختلاطه بغيره ولعلها ظاهرة في أن مالك الشفاعة يملك عند الله عهداً فيدل على اختصاص الشفاعة بأصحاب المقام المحمود عند الله سبحانه وهم أولياؤه المقربون، وقد عرّفت في المصطلح بتعاريف عديدة:

منها: طلب النجاح أو الفلاح لأحد ممن بيده نفعه وضره[٤].

ومنها: سؤال فعل الخير وترك الضرر عن الغير لأجل الغير على سبيل التضرع[٥]، ويشير التعريفان بالدلالة التضمنية إلى وجود شافع ومشفوع إليه ومشفوع له وسبب للشفاعة، وفي التعريفين نظر وإن كان الثاني أنسب بالمعنى؛ لأنهما غير طاردين للأغيار، فهما تعريف بالأعم؛ لوضوح أن الشفاعة

١ – انظر معجم مقاييس اللغة: ص٥١٠، (شفع)؛ لسان العرب: ج٨، ص١٨٣، (شفع)؛ مجمع البحرين: ج٤، ص٣٥٤، (شفع)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٤٨٧، (شفع).
٢ – انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٥٧– ٤٥٨.
٣ – سورة مريم: الآية ٨٧.
٤ – توضيح المراد: ص٨٣٨.
٥ – انظر كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج١، ص١٠٣٤.

المقصودة بالبحث هنا هي الأخروية، وما ذكر يشمل الدنيوية أيضاً.

كما أنهما غير جامعين للأفراد؛ لعدم شمولهما للشفاعة الوهبية ولا التفويضية كما ستعرفه في مراتب الشفاعة، ولعل الصواب هو الاكتفاء بمعناها المتبادر إلى الأذهان عرفاً، وهو المركوز في نفوس المتشرعة، وهو توسط النبي وأهل بيته وذوي الكرامة عند الله سبحانه بين العبد وربه؛ ليغفر له ذنوبه، أو يخفف عنه العذاب فيدخله الجنة في الآخرة.

وعلى هذا فهي حقيقة شرعية وإن كانت في أصلها مأخوذة من المعنى اللغوي، فإن الغالب في المعاني الاصطلاحية أن تكون مقتبسة بوجه ما من المعاني اللغوية؛ لوضوح أن الأصل في الألفاظ والمصطلحات هي اللغة، ولابد من وجود علاقة مشابهة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي وإلاّ كان خروجاً عن الحكمة، وهنا تظهر أهمية اللغة في المصطلحات، وذلك لأنها تشكل النواة التي على أساسها تقوم المصطلحات العلمية، ومما تقدم يتضح أن الشفاعة موضوعاً تتقوم بأركان خمسة:

الأول: أن ينضم صاحب المكانة والرتبة إلى فاقدهما، ويحضرا معاً للشفاعة، ولا يصح العكس، فعلو رتبة الشفيع على المشفوع له شرط أساسي في تحقق الشفاعة، فلو كان أدنى أو مساوياً في الرتبة كان معيناً لا شفيعاً.

الثاني: أن يكون المشفوع عنده هو الباري عز وجل.

الثالث: أن يكون الأمر المشفوع فيه من أمور الآخرة، فإن كان من أمور الدنيا كانت واسطة.

الرابع: أن تكون الاستجابة فيها تكريماً للشافع وإظهاراً لمكانته عند الله سبحانه.

الخامس: أن يكون التنفيذ فورياً، فلو حضر النبيﷺ مع عبد مذنب وتقدم بالطلب من الله سبحانه في أن يعفو عنه ويمحي ذنوبه واستجاب الله سبحانه طلبه كانت شفاعة.

ولو كان الطلب في غياب العبد وأن المأمول يتحقق في المستقبل كان دعاءً، وعليه فالواسطة والدعاء غير الشفاعة فصلاً وإن اشتركا جنساً، كما أنها غير الوسيلة والقربة والوصلة لاختلاف الحيثية، فقول الطبرسيقدس سره في المجمع: إنها نظائر[1] غير دقيق، وبذلك يظهر أن الشفاعة المقصودة بالبحث هنا هي الشفاعة التشريعية وهي التي تتعلق بمعاصي العباد وتقصيراتهم بحقوق ربهم، أو بحقوق أنفسهم.

كما يظهر أيضاً خروج الشفاعة التكوينية عن موضوع البحث، بناء على انطباق عنوان الشفاعة عليها، وذلك لأنها تختص بالأسباب والعلل التكوينية بضم القوي إلى الضعيفين لتكتمل عناصر التأثير فيه، وهذه أجنبية عما نحن فيه.

وتوضيح ذلك: لقد وصف الباري سبحانه العلل والأسباب التي تؤثر في إيجاد الأشياء أو في فعلها بالشفيع؛ إذ قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ

١ - انظر مجمع البيان: ج١، ص٢٠٠.

إِذْنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[١] وقد قيل: إن المراد من الشفيع في الآية المباركة الأسباب والعلل المادية التي توجد الأشياء، وإنما سميت شفيعاً لأن تأثيرها متوقف على إذنه سبحانه، فلا بد وأن تكون مشفوعة به لكي تكون مؤثرة، ولولاه لم تؤثر[٢]، كما يظهر بطلان ثلاث دعاوى من الشفاعة توهم أصحابها أنها نافعة:

الدعوى الأولى: الشفاعة الجاهلية؛ إذ كان الوثنيون يعتقدون أن الأصنام التي يعبدونها شافعة لهم عند الله، وهي كفيلة بنجاتهم، وقد حكى القرآن مقالتهم هذه بقوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[٣] وفي آية أخرى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾[٤] والمراد نعبدهم ليشفعوا لنا عند الله ويقربونا إليه فلا نحاسب ولا نعاقب، ونكون أعزاء عنده[٥]، وقد أجاب الباري عز وجل عن زعمهم الباطل بجوابين:

الأول: بقوله سبحانه: ﴿**وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[٦] إذ نفى عن الأصنام الشفاعة لفقدان الصلاحية والتأهيل، فإن الإثبات بعد النفي يدل على أن الشفعاء صنفان: صنف فاقد

١ - سورة يونس: الآية ٣.

٢ - انظر الإلهيات: ج٤، ص٣٤٢؛ تفسير الأمثل: ج١، ص١٥٠، تفسير الآية ٤٨ من سورة البقرة.

٣ - سورة الزمر: الآية ٣.

٤ - سورة مريم: الآية ٨١.

٥ - انظر مجمع البيان: ج٨، ص٣٨٣، تفسير الآية المزبورة؛ المصدر نفسه: ج٦، ص٤٤٨، تفسير الآية المزبورة.

٦ - سورة الزخرف: الآية ٨٦.

لقابلية الشفاعة وهم الأصنام، وصنف واجد لها، وملاك الواجدية والفقدان هو الشهادة بالحق عن علم ومعرفة، والمراد من الحق هو الشهادة بالتوحيد والاعتقاد بها عن قلب، فتطابق أقوالهم قلوبهم.

ومن الواضح أن هذه الصفة من قبيل الملكة والعدم؛ لأنها تتوقف على وجود العقل والقلب والفهم والشعور، وهذه جميعاً غير متوفرة في الأصنام، ولذا لا تثبت الشفاعة لهؤلاء وتثبت لأولئك، وفي الآية دلالة صريحة على وجود شفعاء للخلق يحظون بالمنزلة والرتبة عند الله سبحانه، وأن مدار الشفاعة على الإيمان والمعرفة، فلا تقبل شفاعة من صنم ولا من مؤمن غير عالم، ولا من عالم غير مؤمن.

والثاني: بقوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾[1] فإن الإثبات بعد النفي يدل على وجود شفعاء للخلق، ولكن قبول الشفاعة منهم مشروطة بإذنه سبحانه، وإذنه لا يصدر إلاّ لمن ارتضاه سبحانه شفيعاً وقبل شفاعته، وهم الأنبياء والأئمة عليهم السلام والصالحون من عباده؛ لأنهم آمنوا به ووحدوه وعبدوه كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾[2].

ومن الواضح أن الأصنام لا تملك عهداً عند الله سبحانه، وهو الإيمان والإقرار بالتوحيد والنبوة والمعاد وولاية الأئمة عليهم السلام على ما وردت به الأخبار الشريفة[3]، أو هو أمر الله سبحانه بالشفاعة مأخوذاً من قولهم عهد

١ – سورة يونس: الآية ٣.
٢ – سورة مريم: ٨٧.
٣ – انظر الكافي: ج٧، ص٢، ح١؛ تهذيب الأحكام: ج٩، ص١٧٤، ح٧١١؛ الكافي: ج١، ص٤٣١، ح٩٠.

الأمير إلى فلان بكذا أي أمره به[١]، ولم يؤذن لها إذناً تكوينياً؛ لأنها لا تعقل ولا تنطق، والذي لا يملك إذناً تكوينياً لا يملك إذناً تشريعياً بالملازمة، وإنما الذين أذن لهم هم الأنبياء والشهداء والعلماء والمؤمنون والملائكة كما اشارت إليه الآيات، ونصت عليه الروايات[٢]، وفي الآية الشريفة دلالة صريحة على أن الشفاعة ترجع في جوهرها إلى الله سبحانه وقيوميته المطلقة على الوجود، وبهذا رد تام على من يزعم أن الشفاعة تتضمن الشرك؛ لأن ذلك مبني على توهم الاستقلالية في التأثير أو في المالكية والتدبير، وهو وهم باطل، إذ لا مالك ولا قيوم ولا مؤثر في الوجود إلاّ هو سبحانه، ولا يقع شيء إلاّ بعلمه وبإذنه تبارك وتعالى.

والخلاصة: أن شفاعة الأصنام خارجة موضوعاً عن الشفاعة؛ لأن الشفاعة تتوقف على وجود المحل القابل وهي فاقدة له، كما أن الشفاعة مشروطة بالإيمان والمعرفة وهي فاقدة لهما.

الدعوى الثانية: الشفاعة اليهودية، فإنهم يزعمون أنهم أولاد أنبياء وأن آباءهم يشفعون لهم[٣]، وبعضهم يزعمون أن أموالهم تشفع لهم فتنجيهم من المؤاخذة والعقاب، فأجابهم الباري عز وجل بقوله تعالى: **﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾**[٤] فدل على

---

١ - انظر تفسير كنز الدقائق: ج٨، ص٢٧٥.

٢ - انظر مجمع البيان: ج٦، ص٤٥٢.

٣ - انظر مجمع البيان: ج١، ص٢٠١، تفسير الآية٤٨ من سورة البقرة.

٤ - سورة البقرة: الآيات٤٧-٤٨.

أن الشفاعة المذكورة غير مقبولة لعدم صحة المدعى المذكور؛ لما عرفت من أن الشفاعة متوقفة على توفر الشروط ، وهي غير متوفرة، فنفي الشفاعة هنا ليس مطلقاً بل مقيداً بالإذن الإلهي كما عرفت؛ بناءً على أن منطوق الآية عام وأريد به الخاص؛ لأنه في مقام الرد على شبهة اليهود المتقدمة كما يشهد له النداء، أو لانصراف بني إسرائيل إليهم، أو للقرائن الخارجية التي تكشف عن معتقداتهم الباطلة .. فقد ذكر بعض المفسرين أن بعضهم في مناطق من مصر كانوا يدفعون مبلغاً من المال إلى الذي يتعهد تغسيل الميت منهم في مقابل انتقاله إلى الجنة[١]، وكان اليهود يقدمون القرابين لأجل التكفير عن ذنوبهم، فإن لم يجدوا قرباناً كبيراً كانوا يكتفون بتقديم زوج من الحمام[٢].

ومن الواضح أن المال لا يمكن أن يكون شفيعاً عند الله؛ لأنه لا قيمة له عنده سبحانه، ولأنه من شؤون الدنيا لا الآخرة، كما أن النسبة النسبية إلى الأنبياء وحدها لا تكفي لقبول الشفاعة ما لم يكن المشفوع له مستحقاً لها بالإيمان والمعرفة.

الدعوى الثالثة: الشفاعة الدنيوية، ويعبّر عنها بالواسطة، وهي التي يمارسها الناس في حياتهم الدنيا لأجل تحصيل المنافع الدنيوية، وذلك بتوسيط ذوي النفوذ والمكانة لدى المعنيين لأجل الوصول إلى مكسب مادي أو معنوي، أو لأجل دفع ضرر عنهم، فيتوسط بعض بطانة رئيس الدولة مثلاً لإطلاق بعض المذنبين من السجون، أو لأجل توزيع الأراضي أو الأموال

١ - انظر تفسير المنار: ج١، ص٣٠٦؛ تفسير الأمثل: ج١، ص١٤٧- ١٤٨.

٢ - انظر تفسير المنار: ج١، ص٣٠٦؛ تفسير الأمثل: ج١، ص١٤٧- ١٤٨؛ الميزان: ج١، ص١٥٦.

على المقربين، ونحو ذلك مما هو مألوف مشهود في الحياة الاجتماعية عادة.

ومن الواضح أن هذا النحو من الشفاعة لا يقوم على أساس الدين والكرامة الإلهية، بل على رابطة العلاقات الشخصية والمصالح المادية الضيقة عادة، فلذا تخرج موضوعاً عن الشفاعة الاصطلاحية، فضلاً عن عدم اعتبارها في الميزان الشرعي، بل وربما يحرمها الشرع في بعض الموارد، ولاسيما إذا قامت على أساس الفساد والحرمان وتضييع الحقوق.

الأمر الثاني: شروط الشفاعة

أن الشفاعة الأخروية لا تنال بنحو مطلق؛ لأنها مقام خاص لا يناله إلاّ المستحقون لها؛ بداهة أن الشفاعة عطاء إلهي، والعطاء الإلهي يتنزل على قدر الاستحقاق، وعلى هذا الأساس صرحت النصوص بأن الشفاعة لا تنال إلاّ بشروط ، وعمدتها أن يكون العبد مرضياً عند الله سبحانه؛ إذ قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[١] وإذا ضممنا إليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾[٢] تتضح خصوصية الذين ارتضاهم الله، فإن رضا الله بقول العبد لا يراد به الألفاظ ، بل المعتقدات الصحيحة، والمستثنى في الآية يحتمل معنيين:

أحدهما: المشفوع له، ويختص بالمؤمن؛ إذ غير المؤمن لا تناله شفاعة، ولو تشفع له شافع لا تنفعه في شيء[٣].

١ – سورة الأنبياء: الآية٢٨.

٢ – سورة طه: الآية ١٠٩.

٣ – انظر تفسير القرطبي: ج٦، ص٢٢٥؛ روح المعاني: ج١٦، ص٧٦٣؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٣، ص٥٠٨.

وثانيهما: الشافع، وليس إلاّ ذوي المكانة المعنوية عند الله سبحانه من الأنبياء والأولياء والصالحين والصديقين والشهداء[١].

والإطلاق يشمل الاثنين، ولا مانع من الجمع لوجود المقتضي وانعدام المانع، وهو ما يقضي به العقل والنقل؛ لوضوح أن القول كاشف عن المكنونات القلبية، والإيمان والكفر يدوران على حسب القلوب لا الألسنة.

ومن هنا لم يقبل الله سبحانه إيمان المنافقين؛ لأنهم اكتفوا بإظهار الإيمان على الألسنة ولم يؤمنوا بقلوبهم، وقد تضافرت النصوص على أن المعني بالآية من أدان الله بطاعة آل محمد عليهم السلام فرضي الله له قولاً وعملاً، فحيي على مودتهم، ومات عليها، فرضي الله قوله وعمله فيهم[٢].

وخلاصة الدلالة أن أمر الشفاعة منحصر بأولياء الله، فليس لغيرهم أن يشفع في أحد من الخلق أبداً، كما أن قبول الشفاعة منحصر بالمؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله، وخلطوا أعمالهم الصالحة بالمعاصي، وقد وعدهم الله سبحانه بالتوبة والمغفرة إذا أقروا بذنوبهم، وطلبوا التوبة؛ إذ قال سبحانه: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾[٣].

وعسى وإن كانت لترقب الوقوع إلاّ أنها إذا نسبت إلى الله سبحانه تكون حتمية الوقوع إذا تحقق شرطها؛ لتنزهه سبحانه عن حالة الترقب والانتظار،

١ - انظر التبيان: ج٧، ص٢٠٩-٢١٠؛ مجمع البيان: ج٧، ص٥٨؛ تفسير الصافي: ج٣، ص٣٢١.

٢ - انظر تأويل الآيات الباهرات: ج١، ص٣١٨، ح١٥؛ تفسير البرهان: ج٥، ص١٩٠، ح٤.

٣ - سورة التوبة: الآية١٠٢.

والشرط الاعتراف بالذنب والإقرار باستحقاق العقوبة، فإن الإقرار ملازم للندم والإذعان للعذاب الإلهي، وهذا من شأنه أن يوجد القابلية للمغفرة، فلذا تدركه الشفاعة، ويؤكد هذه الحقيقة ما رواه الصدوق‌قدس سره في العيون عن الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي، ومن لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، فأما المحسنون فما عليهم من سبيل» قال الراوي فقلت للرضا عليه السلام يا بن رسول الله! فما معنى قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ قال: «لا يشفعون إلاّ لمن ارتضى دينه»(١).

والمراد من المحسن هو المؤمن من أصحاب اليمين الذين عاشوا في طاعة الله، وماتوا على الطاعة، ولو بمثل التوبة من الذنوب والندم عليها، فإن هؤلاء مشمولون بغفران الله الذي وعد المؤمنين بالعفو والمغفرة، فلذا لا يحتاجون إلى الشفاعة في رفع العقاب وإن احتاجوا إلى الشفاعة بمعنى آخر كما سترى.

ومما تقدم: يظهر أن الشفاعة لا تنال جماعة من الناس بسبب فساد معتقداتهم:

الأول: المشركون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ (٢) وقريب منه ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (٣).

١ - عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص١٢٥.
٢ - سورة النساء: الآية٤٨.
٣ - انظر الخصال: ص٣٥٥، ح٣٦.

والثاني: المنافقون، وهذا ما تضافرت به الأخبار وبعضها وارد من طرق الجمهور، عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلاّ الله مخلصاً يصدق قلبه لسانه، ولسانه قلبه»[١].

الثالث: أهل النصب، وقد ورد عنهم عليهم السلام: «لو أن كل ملك مقرب وكل نبي مرسل شفعوا في ناصب ما شفعوا»[٢].

الرابع: الظالمون، والمراد بهم الذين لا يندمون على معاصيهم وذنوبهم، ولا يرجون من الله العفو والتوبة ولو بالرجاء القلبي كما أشار إليه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام، وحمل عليه قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[٣] وورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما يقرب منه[٤]، والآية تنفي الحكم بلسان نفي الموضوع، والوصف ﴿يُطَاعُ﴾ يقطع أمل غير التائبين؛ لأنهم حتى لو عولوا أمرهم على شفعائهم وشفعوا لهم فإنهم لا يطاعون في شفاعتهم، وهذا ما تؤكده رسالة الصادق عليه السلام إلى أصحابه يقول فيها: «من سره أن تنفعه شفاعة الشافعين عند الله فليطلب إلى الله أن يرضى عنه»[٥].

ومقتضى مفهوم الشرط هو النفي عند النفي، وهذا ما تؤكده صحيحة ابن أبي عمير عن موسى بن جعفر عليه السلام: «ما من مؤمن يرتكب ذنباً إلاّ ساءه

---

١ – انظر مسند أحمد: ج٢، ص٣٠٧؛ صحيح البخاري: ج١، ص٣٦.
٢ – انظر تفسير القمي: ج١، ص٤٦؛ تفسير كنز الدقائق: ص٣٧٨.
٣ – سورة غافر: الآية١٨.
٤ – انظر الخصال: ص٣٥٥، ح٣٦.
٥ – انظر الكافي: ج٨، ص١١، ح١.

ذلك وندم عليه» وقد قال النبي صلى الله عليه وآله: «كفى بالندم توبة» وقال عليه السلام: «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن، فمن لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن، ولم تجب له الشفاعة وكان ظالماً»[١].

ومن هنا وصفه القرآن بالمجرم؛ لأنه عاش مجرماً في خطاياه ومات عليها، فلذا نفى عنهم الشفاعة بقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [٢] ومن خلال ما تقدم تظهر ثلاث حقائق:

الحقيقة الأولى: أن الشفاعة مشروطة بصحة العقيدة والإيمان، فلا شفاعة مع فساد المعتقد مهما بلغ المشفوع له من الأعمال والطاعات .

الحقيقة الثانية: أن الشفاعة لصحيح العقيدة لا تنفع ما لم يكن طالباً للعفو، نادما على أفعاله؛ لأن غير النادم ظالم معاند، وهو الآخر يرجع إلى فساد المعتقد؛ إذ لا يمكن أن يتعمد العبد الذنب ويتعمد عدم التوبة إلاّ إذا كان جاحداً في جوهره وقلبه.

الحقيقة الثالثة: أن تعويل البعض على الشفاعة من دون السعي لتحصيلها مبني على فهم خاطئ للشفاعة، وبهذا يتم الجواب على من زعم أن الشفاعة تدعو إلى العصيان، أو تمادي العباد في الذنوب، بل يعرف من خلاله أهمية مبدأ الشفاعة في إصلاح النفوس، وفتح أبواب الأمل أمام العصاة ليظهروا ندمهم، ويعودوا إلى الطاعة، كما يعرف أهمية الارتباط بذوي المكانة والرتبة المعنوية في الدنيا من النبي والأئمة والعلماء والمؤمنين الصالحين؛ لأنهم

١ – تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٤٢٣– ٤٢٤، ح٥٠.

٢ – سورة المدثر: الآية٤٨.

الشفعاء في الآخرة، وبذلك يظهر أن الشفاعة محور أساسي يقوم عليه نظام التربية والهداية والقيادة الصالحة في الحياة.

والخلاصة: أن الشفاعة بمعناها الشرعي عنصر هام في إكمال رسالات الأنبياء وجهاد الأئمة وجهود العلماء والمؤمنين في إصلاح الناس وتربيتهم ضمن مناهج الدين وصراطه القويم، ولذا فهي لا تتحقق إلاّ بشروط يمكن تلخصيها في ثلاثة:

الشرط الأول: أن يكون العبد مرضياً عند الله سبحانه في إيمانه ومعتقده، وعنده رصيد من الأعمال الصالحة، وإن كان عاصياً فلا بد وأن يتوب ويندم على ذنوبه، وإلاّ كان غير لائق بمقام الشفاعة بوجه من الوجوه.

الشرط الثاني: أن يجتنب كل ما من شأنه أن يخل بمعتقده من الظلم والنفاق والشرك وما يؤدي به إلى النصب والعداوة لأولياء الله عليهم السلام، وهذا تكليف عقلي وشرعي يدعو المؤمن إلى مزيد التحري والفحص عن صدق إيمانه وطاعته.

الشرط الثالث: أن يعرف إمام زمانه ويرتبط به ارتباط الولاية والطاعة الصحيحين؛ لأن الشفاعة بيده في الآخرة، ولا تنال الشفاعة جاحداً بإمامه أو جاهلاً به.

الأمر الثالث: في مراتب الشفاعة

المستفاد من النصوص الشريفة أن الشفاعة في معناها العرفي والاصطلاحي تنطبق على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: الشفاعة الاستجابية، وتتحقق بطلب الشفيع من الله سبحانه والتماسه في أن يعفو عن ذنوب المشفوع له ، فيستجيب الباري عز وجل للطلب، ويرفع عنه العقاب كرامة للشافع، وعلى هذا الأساس تكون مقصورة على مورد الدعاء واستجابته لا أكثر، ومن هنا يعبر عنها بالشفاعة الخاصة، وهذا المعنى هو المتبادر أولاً إلى الأذهان من معنى الشفاعة، وعليه اتفقت كلمة المسلمين ووردت به الأخبار بطرقهم المختلفة، ففي الخصال عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لكل نبي دعوة قد دعا بها وقد سأل سؤالاً، وقد خبّأت دعوتي لشفاعتي لأمتي يوم القيامة»[١].

وفي الأمالي عن الصادق عليه السلام عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إذا قمت المقام المحمود تشفعت في أصحاب الكبائر من أمتي، فيشفعني الله فيهم، والله لا تشفعت فيمن آذى ذريتي»[٢] وفي هذا الحديث دلالة على خروج النواصب والمنافقين عن استحقاق الشفاعة.

وفي تفسير القمي بسند معتبر كالصحيح عن أبي جعفر عليه السلام: «ما من أحد من الأولين والآخرين إلاّ وهو محتاج إلى شفاعة محمد صلى الله عليه وآله يوم القيامة، ثم قال: إن لرسول الله صلى الله عليه وآله الشفاعة في أمته، ولنا الشفاعة في شيعتنا، ولشيعتنا الشفاعة في أهاليهم» ثم قال: «وإن المؤمن ليشفع في مثل ربيعة ومضر، وإن المؤمن ليشفع حتى لخادمه ويقول: يا رب حق خدمتي كان يقيني الحر والبرد»[٣] ونلاحظ أن الشفاعة هنا قائمة على أساس استجابة الدعاء رضا بالشفيع وكرامة.

---

١ - انظر الخصال: ص٢٩؛ ح١٠٣.
٢ - الأمالي: ص٣٧٠، ح٣.
٣ - تفسير القمي: ج٢، ص٢٠٢.

المرتبة الثانية: الشفاعة الوهبية، وهي أن يهب الله سبحانه لعباده المكرمين عنده صلاحية العفو والتجاوز عن العباد المذنبين التابعين لهم حباً وكرامة، وهذه أعلى رتبة من الأولى، وأكثر فضلاً، إلا أنها تبقى في حدود الصلاحية المعطاة لا أكثر، وربما يعبر عنها بالشفاعة العامة؛ لأنها تعم كثيرين، وتشهد لهذه الحقيقة رواية أبي بصير عن الصادق عليه السلام قال: «إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فتغشاهم ظلمة شديدة، فيضجون إلى ربهم ويقولون: يا رب اكشف عنا هذه الظلمة. قال: فيقبل قوم يمشي النور بين أيديهم قد أضاء أرض القيامة، فيقول أهل الجمع: هؤلاء أنبياء الله، فيجيئهم النداء من عند الله: ما هؤلاء بأنبياء، فيقول أهل الجمع: فهؤلاء ملائكة، فيجيئهم النداء من عند الله: ما هؤلاء بملائكة... فيقول أهل الجمع: من أنتم؟ فيقولون: نحن العلويون، نحن ذرية محمد رسول الله، نحن أولاد علي ولي الله، نحن المخصوصون بكرامة الله، نحن الآمنون المطمئنون، فيجيئهم النداء من عند الله عز وجل: اشفعوا في محبيكم وأهل مودتكم وشيعتكم، فيشفعون فيشفعون»[1] والقرائن الداخلية دالة على أن المراد بأولاد علي عليه السلام وذرية الرسول هم الأئمة الطاهرون عليهم السلام. وربما يحتمل أن يكونوا مطلق ذريتهم أو ذريتهم المعنوية أي الشيعة والاتباع إلاّ أن الأول أقوى.

وفي العلل عن الصادق عليه السلام قال: «إذا كان يوم القيامة بعث الله عزّ وجل العالم والعابد، فإذا وقفا بين يدي الله عز وجل قيل للعابد: انطلق إلى

١ - الأمالي (للصدوق): ص٣٥٨، ح١٩؛ حق اليقين: ص٤٥٣-٤٥٤.

الجنة، وقيل للعالم: قف تشفع للناس بحسن تأديبك لهم»[١] وفيه دلالة على حقيقتين:

الأولى: أن للعالم حق الشفاعة للذين علّمهم ورباهم.

الثانية: أن بعض الحقوق تثبت لأهلها حق الشفاعة، لاسيما الحقوق المعنوية كحق التعليم أو الإنسانية، نظير حق الخدمة الذي أكد وجوده قول أبي جعفرعليه السلام في قبول شفاعة المؤمن لخادمه في مقابل حق الخدمة، وحقي الجيرة والصداقة اللذين أكدا وجودهما قول أبي عبد اللهعليه السلام المروي في المحاسن[٢].

بل ورد في تفسير الإمام العسكري عن أمير المؤمنينعليه السلام: «إن الواحد ليجيء إلى مؤمن من الشيعة فيقول: اشفع لي، فيقول: وأي حق لك عليّ؟ فيقول: سقيتك يوماً ماء، فيذكر ذلك، فيشفع له فيشفع فيه، ويجيئه آخر فيقول: إن لي عليك حقاً فاشفع لي، فيقول: وما حقك علي؟ فيقول: استظللت بظل جداري ساعة في يوم حار، فيشفع له فيشفع فيه، ولا يزال يشفع حتى يشفع في جيرانه وخلطائه ومعارفه»[٣] وفيه دلالة صريحة على ارتباط الدنيا والآخرة، فلا ينسى الناس في الآخرة أعمالهم ومواقفهم في الدنيا حتى الأمور الصغيرة كشرب الماء والاستظلال بالجدار.

وفي تفسير فرات بن إبراهيم بإسناده عن جابر عن الصادقعليه السلام عن

١ – علل الشرائع: ج٢، ص٣٩٤، ح١١.
٢ – انظر المحاسن: ص١٨٤، ح١٩٠؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٤٢، ح٣٥.
٣ – تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص٣٧، ح١٣؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٤٤، ح٤٤.

أبي جعفر عليه السلام – في حديث طويل– عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إذا كان يوم القيامة نصب للأنبياء والرسل منابر من نور، فيكون منبري أعلى منابرهم يوم القيامة ... ثم ينادي المنادي وهو جبرئيل: أين فاطمة بنت محمد؟... فيقول الله تبارك وتعالى يا أهل الجمع لمن الكرم اليوم؟ فيقول محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين: لله الواحد القهار، فيقول الله تعالى: يا أهل الجمع إني قد جعلت الكرم لمحمد وعلي والحسن والحسين وفاطمة، يا أهل الجمع طأطئوا الرؤوس وغضوا الأبصار فإن هذه فاطمة تسير إلى الجنة ... فإذا صارت عند باب الجنة تلتفت، فيقول الله: يا بنت حبيبي ما التفاتك وقد أمرت بك إلى جنتي؟ فتقول: يا رب أحببت أن يعرف قدري في مثل هذا اليوم، فيقول الله تعالى: يا بنت حبيبي ارجعي فانظري من كان في قلبه حب لكِ أو لأحد من ذريتكِ خذي بيده فادخليه الجنة. قال أبو جعفر عليه السلام: والله يا جابر إنها ذلك اليوم لتلتقط شيعتها ومحبيها كما يلتقط الطير الحب الجيد من الحب الرديء، فإذا صار شيعتها معها عند باب الجنة يلقي الله في قلوبهم أن يلتفتوا، فإذا التفتوا يقول الله: يا أحبائي ما التفاتكم وقد شفعت فيكم فاطمة بنت حبيبي؟ فيقولون: يا رب أحببنا أن يعرف قدرنا في مثل هذا اليوم، فيقول الله: يا أحبائي أرجعوا وانظروا من أحبكم لحب فاطمة، انظروا من أطعمكم لحب فاطمة، انظروا من كساكم لحب فاطمة، انظروا من سقاكم شربة في حب فاطمة، انظروا من رد عنكم غيبة في حب فاطمة فخذوا بيده وأدخلوه الجنة. قال أبو جعفر عليه السلام: والله لا يبقى في الناس إلاّ شاك أو كافر أو منافق، فإذا صاروا بين الطبقات نادوا كما قال الله تعالى:

﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] قال أبو جعفر عليه السلام: هيهات هيهات منعوا ما طلبوا ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون»[2].

ويدل الحديث على عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن قولها عليها السلام: «أحببت أن يعرف قدري» يشير إلى طلب معرفة مقامها الإلهي لا المعرفة الشخصية، وهو واضح؛ لأن معرفتها بالرتبة الإلهية هو الذي يعطى صفة الإيمان والعقيدة، وقد مر عليك أن الشفاعة تقوم على صحة العقيدة، وهذا ما يؤكده قوله للمؤمنين: «أرجعوا وانظروا من أحبكم لحب فاطمة» فإن حسابات الآخرة في السعادة والشقاء تدور على معرفة محمد وآل محمد عليهم السلام وولايتهم، فلا يقبل عمل ولا ينجو ناج من العذاب إلاّ بمحبتهم وولايتهم، فالشاك بهم أو الكافر بمقاماتهم أو المنافق الذي يظهر الحب ويخفي العداء فلا رجاء في نجاتهم ولا أمل، والسر في ذلك هو ما عرفت من أن معرفتهم وولايتهم عليهم السلام تجمع كل صفات الإيمان والاعتقاد بأصول الدين وفروعه.

الحقيقة الثانية: أن أو في قوله: «من كان في قلبه حب لكِ أو لأحد من ذريتكِ خذي بيده» عاطفة يراد بها الجمع؛ لوضوح أن الاعتقاد بمحمد وآل محمد عليهم السلام مطلوب على نحو العموم المجموعي، فلا يتم الإيمان بالاعتقاد بهم إلاّ بشرط الانضمام، فلا يكفي الاعتقاد ببعضهم دون بعض أو إطاعة

---

١ - سورة الشعراء: الآيات ١٠٠-١٠٢.

٢ - تفسير الفرات: ص٢٩٨- ٢٩٩، ح١٣.

بعضهم دون بعض كما حققناه في بحث الإمامة.

الحقيقة الثالثة: أن الواو في قوله: «إنها ذلك اليوم لتلتقط شيعتها ومحبيها» يحتمل معنيين:

الأول: أن يكون من باب عطف التفسير، بدعوى أن المحب هو نفس الشيعي سوى أن الحب ناظر إلى جهة الولاية بينما التشيع ناظر إلى جهة الانقياد والاتباع، وحيث إن النسبة بينهما العموم من وجه تعين ذكرهما للإشارة إلى أن الإتباع الناشئ من الحب هو المجدي في الشفاعة.

الثاني: أن يكون من باب عطف المغايرة بناء على أن الشيعي غير المحب بحسب المصطلح الروائي وإن أطلق العرف كل واحد منهما على الآخر، فيسمي المحب شيعياً، والشيعي محباً، وقد مر عليك أن التشيع مصطلح خاص في الأخبار لا يطلق إلاّ على خواص الموالين لمحمد وآل محمد عليهم السلام، ويتبعونهم في القول والعمل، بينما المحب يطلق على غير المعادي أو الذي يكتفي بالاحترام والتبجيل، وعلى الأول تكون الشفاعة مختصة بالشيعة الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وأما غير الشيعة من عموم المسلمين فلا تنالهم شفاعتها.

وأما على الثاني فالشفاعة تشمل عموم المسلمين بشرط أن لا يكونوا معادين لهم عليهم السلام، فيستثنى من الشفاعة الناصبي، وهو ما أكدته بعض الأخبار المتقدمة، وفي الخبر عن الصادق عليه السلام: «أن المؤمن ليشفع لحميمه إلاّ أن يكون ناصباً»[1].

---

١ - المحاسن: ج١، ص ١٨٦، ح١٩٨؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٤١، ح٢٧؛ ج٢٧، ص٢٣٦، ح٥٣.

والاحتمال الثاني هو الأقرب، وذلك لأن قوله: «فإذا صارت شيعتها معها عند باب الجنة» يصلح أن يكون قرينة على المباينة، وذلك لأنه خصص الشفاعة من بعدهاعليها السلام بشيعتها ولم يثبتها للمحبين، وهذا يتوافق مع الأدلة التي نصت على أن الشفاعة تثبت للمؤمنين، والمؤمن في اصطلاح الأخبار الشريفة هو الشيعي لا المحب.

ولعل وجه قبول الشفاعة في المحب مع عدم اتباعه في القول والعمل يعود إلى عدم صدق المخالفة، أو قصوره عن بلوغ رتبة التشيع أو اهتدائه في آخر مطافه إلى الحق ولو في ساعات الاحتضار أو البرزخ، أو في مشاهد الآخرة، أو أن الحب في نفسه له قيمة تكريمية خاصة تؤهل صاحبه للمنة والفضل بالشفاعة.

الحقيقة الرابعة: أن قولهعليه السلام: «يلقي الله في قلوبهم» يشير إلى الشفاعة الوهبية التي تتحقق بعطاء الله سبحانه وفضله؛ إكراماً للمؤمنين، وإظهاراً لمقام الإيمان والولاية فيهم.

الحقيقة الخامسة: قولهعليه السلام: «انظروا من أحبكم لحب فاطمة، وانظروا من أطعمكم لحب فاطمة ... » يشير إلى أن الحب لأولياء الله سبحانه يثبت للمحب قابلية للشفاعة، وأنه من الصفات التي يرتضيها الباري عز وجل، وهو يؤكد الأحاديث الشريفة التي نصت على أن حب علي وآله حسنة لا تضر معها سيئة[1]، والأخرى الدالة على أن الجنة والنار يدوران مدار الحب

١ - عوالي الآلئ: ج٤، ص٨٦، ح١٠٣.

والبغض[1]، باعتبار أن الشفاعة تنال المحبين، والتفاوت بينهم يكون في العطاء الإلهي في الجنة لا في العذاب، وأما النار فمخصوصة بأعدائهم.

الحقيقة السادسة: أن تعذيب الشاك والكافر والمنافق مختص بمن مات منهم على هذه الصفة ولم يتب إلى الله ويصحح معتقده وعمله، والظاهر أن المراد من الشاك فيهم الذي يدعوه شكه إلى الكفر والجحود، أو الذي يدعوه شكه إلى مخالفتهم وعدم تسليمه لهم عليهم السلام، وحيث إن مثل هؤلاء يكون الشك والكفر والنفاق مطبوعاً في ذواتهم يبقون في العذاب، ولا تنالهم شفاعة، وهذا ما يؤكده قوله عليه السلام: «ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون».

ويعضد هذا دلالة الأخبار على أن المستضعفين وهم القاصرون تنالهم الشفاعة إذا ارتضى الله سبحانه دينهم[2]، وإن في الجنة باب يدخل منه سائر المسلمين ممن يشهد أن لا إله إلاّ الله ولم يكن في قلبه مقدار ذرة من بغضنا أهل البيت عليهم السلام [3]، ولا ينطبق هذا إلّا على القاصر.

ونلاحظ من مجموع هذه الأخبار أنها تشترك في مضمون واحد وهو أن بعض مراتب الشفاعة تكون بالهبة والعطاء الإلهي لعباده المكرمين؛ لإظهار فضلهم ومكانتهم بين أهل المحشر، فيكون جزءاً من ثوابهم ونعيمهم في المقابل يكون جزءاً من تعذيب أعدائهم وخصومهم.

المرتبة الثالثة: الشفاعة التفويضية، وتتحقق بتفويض الباري عز وجل

١ - الخصال: ص٤٠٧، ح٦؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٣٩، ح١٩.
٢ - بحار الأنوار: ج٨، ص٤٠، ح٢٢
٣ - انظر الخصال: ص٤٠٧، ح٦؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٣٩، ح١٩.

أمر الحساب والعقاب والثواب إلى عباده المكرمين، فيحاكمون المذنبين ويحاسبونهم بحسب ما تقتضيه الحكمة الإلهية والموازين الربانية، فينظرون في مدى حب العباد وطاعتهم وتسليمهم لله ولأوليائه في الدنيا، وعلى ضوئها يعفون عن الذنوب، ويعطون الدرجات، كما أنها أوسع منها، ولذا قد يعبر عنها بالشفاعة المطلقة، وهذه أعلى رتبة من الثانية؛ لأنها لم تتحدد بمورد الدعاء، أو تتحدد بصلاحية خاصة، بل هي صلاحية مطلقة يعطيها الله سبحانه لأوليائه، ولعل قوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾[٤] يشير إليه؛ بناء على أن المراد من العهد هو معناه الخاص، أي العهد الإلهي الذي أعطاه لأنبيائه وعصمهم من الذنوب وهو الإمامة[٥]؛ إذ قال سبحانه: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٦] فإن ملكية الشفاعة لا تصح إلّا بنحو التفويض، وقد تضافرت النصوص بطرق الفريقين بهذا المضمون:

منها: ما في تفسير القمي عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[٧] قال: «لا يشفع أحد من أنبياء الله ورسله يوم القيامة حتى يأذن الله له، إلاّ رسول الله ﷺ فإن الله قد أذن له في الشفاعة من قبل يوم القيامة»[٨] وهذه شفاعة المقام وعلو الرتبة، أي إن مقامه العالي يمنحه هذا المقام لا بنحو الدعاء والاستجابة، ولا الموهبة المحدودة، بل المنحة اللامحدودة بالتفويض،

---

٤ – سورة مريم: الآية٨٧.

٥ – انظر مجمع البيان: ج١، ص٣٧٧؛ روح المعاني: ج١، ص٥١٢، تفسير الآية١٢٤ من سورة البقرة.

٦ – سورة البقرة: الآية ١٢٤.

٧ – سورة سبأ: الآية ٢٣.

٨ – أنظر تفسير القمي: ج٢، ص٢٠١؛ تفسير الآية ٢٣ من سورة سبأ.

وفي الحديث دلالة على أن سعة الشفاعة وضيقها ترجع إلى حدود المقام والرتبة.

ومنها: رواية أبي ذر قال: صلى رسول الله ﷺ ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1] فلما أصبح قلت: يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها؟ قال ﷺ: «إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله عز وجل شيئاً»[2]. وإعطاء الشفاعة له من دون تحديد الصلاحية ظاهر في التفويض.

واستثناء المشرك من الشفاعة يشمل الناصبي والمنافق أيضاً؛ لانطباق عنوان الشرك بمعناه العام أو الخاص عليهما.

ومنها: حديث داود بن سليمان عن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام الذي مر عليك نصه[3]، وحديث الإمام العسكري عليه السلام عن النبي ﷺ الذي فصل الكثير من مشاهد الشفاعة التفويضية[4]، وحديثه الآخر الذي فصل في أسلوب إنقاذ الشيعة من عرصات القيامة عبر خيار أصحابهم، وقد تقدم بعض منه[5].

ومنها: حديث صفوان الجمال قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت:

---

١ - سورة المائدة: الآية ١١٨.

٢ - انظر مسند أحمد: ج٥، ص١٤٩، (وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال).

٣ - بحار الأنوار: ج٨، ص٤٠، ح٢٤.

٤ - انظر بحار الأنوار: ج٨، ص٥٩-٨١، ح٨٢.

٥ - بحار الأنوار: ج٨، ص٤٤-٤٥، ح٤٥.

جعلت فداك سمعتك تقول: شيعتنا في الجنة، وفيهم أقوام مذنبون يرتكبون الفواحش، ويأكلون أموال الناس، ويشربون الخمور، ويتمتعون في دنياهم، فقال عليه السلام: «هم في الجنة. أعلم أن المؤمن من شيعتنا لا يخرج من الدنيا حتى يبتلى بدين أو بسقم أو بفقر، فإن عفي عن هذا كله شدّد الله عليه في النزع عند خروج روحه حتى يخرج من الدنيا ولا ذنب عليه» قلت: فداك أبي وأمي فمن يرّد المظالم؟ قال: «الله عز وجل يجعل حساب الخلق إلى محمد وعلي عليهما السلام، فكل ما كان على شيعتنا حاسبناهم مما كان لنا من الحق في أموالهم، وكل ما بينه وبين خالقه استوهبناه منه، ولم نزل به حتى ندخله الجنة برحمة من الله وشفاعة من محمد وعلي عليهما السلام»[1].

وهذا المضمون متوافق مع ما مر عليك من أن الله سبحانه جعل محمداً وآل محمد عليهم السلام أولياء على الخلق تكويناً، وتشريعاً، كما جعلهم أولياء على الحساب والجزاء. فهم الذين يحاسبون الخلق وهم الذين يعاقبون ويثيبون؛ لأنهم خلفاء الله وحججه، وهم مظاهر قدرته وأوعية مشيئته، كما أن في الحديث المذكور تفسيراً لشدة الابتلاء الذي يقع فيه الشيعة في حياتهم في الجوانب الشخصية أو السياسية والاقتصادية العامة.

الأمر الرابع: حدود الشفاعة

اتفق المسلمون على ثبوت الشفاعة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وللأخيار من المؤمنين بلا خلاف لأحد منهم، بل قد عرفت أن الاعتقاد بالشفاعة من الحقائق المتفق عليها بين الناس منذ قديم الأزمان من حيث الأصل وإن أخطأوا

١ - بحار الأنوار: ج٦٨، ص١١٤، ح٣٣.

في تفسيرها، وفي تحديد كيفيتها، وقد نص جماعة من علماء الفريقين على تواتر الأخبار فيها، أما علماء الإمامية فأمرهم ظاهر معروف، بل هو من الضروريات عندهم[١]، وأما الجمهور فمنهم القاضي عياض إذ نص على أن مذهب أهل السنّة جواز الشفاعة عقلاً، ووجوبها سمعاً، وأن النصوص فيها متواترة، ونسب القول بها إلى إجماع السلف[٢].

بل حتى من أمثال ابن تيمية والحزب الوهابي الذين أنكروا الكثير من حقائق الإيمان والإسلام بمزاعم باطلة لا يوافقها عقل ولا نقل أقروا بتواترها[٣].

وفي فتح المجيد نقل عن ابن القيم قوله: بشفاعته صلى الله عليه وآله وسلم في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم؛ لتواتر الأخبار عنه صلى الله عليه وآله وسلم بها، مدعياً إجماع الصحابة وأهل السنة قاطبة عليها، بل ونسبوا من أنكر ذلك إلى البدعة، وصاحوا به من كل جانب، ونادوا عليه بالضلال[٤]، وغيره[٥]، وقريب منه

١ - حق اليقين: ص٤٥٠؛ القول السديد: ص٣٩٩.
٢ - انظر شرح مسلم (للنووي): ج٢، ص٥٨؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٦٢؛ ج٣، ص٣٠٧.
٣ - انظر مجموعة الرسائل الكبرى: ج١، ص٤٠٣؛ تفسير الأمثل: ج١، ص١٥٤، تفسير الآية ٤٧ - ٤٨ من سورة البقرة.
٤ - فتح المجيد: ص٢١١، (وهو كتاب دراسي متداول بين الوهابية) للشيخ عبد الرحمن بن حسن؛ وانظر تفسير الأمثل: ج١، ص١٥٤.
٥ - انظر شرح العقائد النسفية (لأبي حفص النسفي): ص١٤٨؛ أنوار التنزيل (للبيضاوي): ج١، ص١٥٢؛ تفسير ابن كثير: ج١، ص٣٠٩.

ورد عن ابن تيمية[١]، ومنهم الفخر الرازي حيث نص على التواتر المعنوي فيها[٢].

فثبوت الشفاعة للنبيﷺ وللمؤمنين الأخيار مما لا خلاف فيه، وإنما الاختلاف في حدود الشفاعة الثابتة لهﷺ، فذهب قوم إلى أن الشفاعة لا ترفع العقاب وإنما تزيد في الثواب فقط ، وذهب آخرون إلى الأول لا الثاني، وذهب جماعة إلى أنها تشمل الاثنين معاً، وتحرير الحق في المسألة يستدعي الوقوف عند هذه الأقوال:

القول الأول: ذهب إلى أن الشفاعة لا ترفع العقاب بل تزيد في الثواب، وهو قول المعتزلة والخوارج، وعلى هذا فإن الشفاعة تختص بالمؤمنين المطيعين، وأما العصاة فلا شفاعة لهم مطلقاً، واستدلوا لهذا القول بوجوه عمدتها ثلاثة:

الوجه الأول: مبني على مسلكهم في أن مرتكب الكبيرة من المخلدين في النار، وعليه فإن العاصي إن تاب قبل موته فإن التوبة تمحي ذنبه، وإن مات من غير توبة كان خالداً في النار، وفي كلا الحالين لا يبقى موضوع للشفاعة، وعلى هذا تختص الشفاعة بزيادة المنافع والدرجات للمؤمنين المطيعين والتائبين[٣].

١ - انظر الاستغاثة (لابن تيمية) في ضمن مجموعة الرسائل الكبرى: ج١، ص٤٨١.
٢ - انظر التفسير الكبير: ج٣، ص٥٩.
٣ - انظر توضيح المراد: ص٨٣٩؛ التفسير الكبير: ج٣، ص٥٢؛ مجمع البيان: ج١، ص٢٣٠، تفسير الآية ٤٨ من سورة البقرة.

وأول ما يلاحظ على هذا الوجه أنه قائم على أساس تقديم الاجتهاد والظنون الاستحسانية على النصوص الصريحة؛ إذ عرفت أن الأخبار فضلاً عن الآيات متواترة في اثبات أن شفاعته ﷺ مدخرة لأهل الكبائر من أمته، وهي تشمل العصاة والمذنبين، إلاّ أنهم حيث وجدوا تعارضاً بين الشفاعة وبين قولهم بالمغفرة لصاحب الكبيرة أنكروا الشفاعة، ولم يغيروا منهجهم ويخطئوا أنفسهم في المسلك، وبهذا الصنيع وقعوا في التشريع، وخالفوا النصوص والضرورة والإجماع.

الوجه الثاني: مبني على استحسان عقلي، وقد لخصه القاضي عبد الجبار بقوله: إن شفاعة الفساق الذين ماتوا على الفسوق ولم يتوبوا تتنزل منزلة الشفاعة لمن قتل ولد الغير، وترصد للآخر حتى يقتله، فكما أن ذلك يقبح فكذلك ها هنا[1]، ولم يتضح وجه القبح فيه إلّا أنه ربما يمكن توجيهه بنحوين:

أحدهما: أن الشفاعة توجد الدافع لدى الفاسق للاستمرار في الفسق؛ لأنه يوكل أمره وجزاءه في الآخرة إلى الشفاعة، وهو قبيح، بل تشجيع على الحرام.

ثانيهما: أن الفسق عمل مبغوض، والشفاعة رحمة إلهية وفضل، والتفضل على الفاسق يكون تفضيلاً على غير المستحق، وهو خلاف الحكمة، فيكون قبيحاً.

وفي كلا التوجيهين نظر ظاهر من جهتين:

---

١ - شرح الأصول الخمسة: ص٦٨٨.

الأولى: أنه أخذ بالظن في مقابل النصوص الكثيرة من الآيات والروايات الدالة على أن الشفاعة في الآخرة تشمل الفاسق كما عرفت بعضها مما تقدم.

والثانية: الخروج الموضوعي؛ لأن من الثابت في علم المعقول أن الحقائق الغيبية تؤخذ من الشرع لا من العقل، وطريق إثباتها سماعي لا برهاني؛ إذ لا مجال للعقل في إدراك الحقائق الغيبية لقصوره عن الإحاطة بها، فالاستدلال على تحديد الشفاعة بزيادة الدرجات فقط من مصاديق القول بغير علم، والرجم بالغيب.

وأما دعوى القباحة فيما ذكر فهي مما لا يساعد عليها حكم عقلي، ولا دليل نقلي، بل الأدلة على خلافها؛ لما عرفت من أن فوائد الشفاعة وآثارها على حياة الإنسان الدينية والدنيوية كبيرة، وهي من شأنها أن تفتح باب الرجاء بعفو الله وتجاوزه لا التمادي في المعصية، لاسيما وأن العبد لا يضمن حصول الشفاعة له في الآخرة؛ لأن شمولها له تفضل منه سبحانه لا استحقاق، كما أن نيل الشفاعة لغير المستحق على فرض صحة الدعوى هو مقتضى الرحمة والعفو، وهما صفتا كمال لا نقص.

الوجه الثالث: طائفة من الآيات الشريفة النافية للشفاعة عن العصاة والمذنبين.

منها: قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [1] فإنها دالة على نفي الشفاعة من ثلاث نواح:

١ – سورة البقرة: الآية٤٨.

الأولى: قوله: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ فإن إطلاق النفي يدل على عدم تحقق الشفاعة؛ إذ لا تجزي نفس عن نفس أخرى، ولا تنفعها في شيء.

الثانية: قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ﴾ فإن النكرة في سياق النفي يفيد نفي الشفاعة بسائر أنواعها وأصنافها.

الثالثة: قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ فإن إطلاق نفي النصرة يشمل نصرة الشفيع أيضاً.

والخلاصة: أن النفي المؤكد للجزاء والشفاعة والنصرة يؤكد عدم وجود الشفاعة في الآخرة، فالقول بوجودها اجتهاد مقابل النص.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[١] إذ أخبر سبحانه أن ملائكته لا يشفعون لأحد ما لم يرتضه سبحانه، وبضميمة أن الفاسق ليس بمرضي عنده فلا تشمله شفاعة الملائكة، ومن كان كذلك لا تشمله شفاعة النبي ﷺ أيضاً لوحدة السبب.

ومنها: قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ﴾[٢] ونفي النفع مطلقاً عن الشفاعة دليل على عدم وجودها، فإن الآية واردة لنفي الموضوع بلسان نفي أثره، كما يقال لا حرارة في الغرفة للإشارة إلى عدم وجود النار، وكذلك مفاد الآية فإنها تنفي النفع عن الشفاعة لإثبات عدم وجودها.

ويمكن الجواب عنه بثلاثة أجوبة:

---

١ - سورة الأنبياء: الآية ٢٨.

٢ - سورة المدثر: ٤٨.

الجواب الأول: أن دلالة مثل هذه الآيات أجنبية عن موضوع البحث؛ لأنها تنفي الشفاعة عن الكفار ونحوهم، ولا علاقة لها بالشفاعة للمؤمنين المذنبين كما يشهد لها سياقها، فتخرج خروجاً تخصصياً[١].

الجواب الثاني: سلّمنا، إلاّ أن هذا الوجه ينتهي إلى التناقض، وذلك لأن الآيات المباركة لا تثبت مدعاهم؛ لأنها تنفي وجود الشفاعة مطلقاً، وهم سلموا بوجود الشفاعة ولكن خصصوها بزيادة الثواب.

الجواب الثالث: لو افترضنا جدلاً صحة الاستدلال المذكور فهو يثبت عموم النفي، فإذا لوحظ وجود أدلة نقلية مكافئة له تعارضه في المدلول وتثبت وجود الشفاعة للمذنبين والعصاة بالخصوص فتكون خاصة بالقياس إلى مدلول الآيات المذكورة، فلابد وأن يخصص العام كما تقتضيه القاعدة الأصولية والعرفية، والنصوص المثبتة لوجود الشفاعة للمذنبين بشكل خاص كثيرة:

منها: ما ورد بطرق الفريقين عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن شفاعتي يوم القيامة لأهل الكبائر من أمتي»[٢] وأهل الكبائر هم الفساق باتفاق الكلمة.

ومنها: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتي الجنة

---

١ - انظر التبيان: ج١، ص٢١٤؛ كشف المراد: ص٤٤٤؛ ويؤكد هذا الفهم ما ورد عن جابر بن عبد الله في حمل الآيات النافية على الكافر لا غير؛ انظر مفاهيم القرآن: ج٤، ص٢٩٧، ح٥٠.

٢ - التبيان: ج١، ص٢١٣؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص٣٥- ٣٦، ح٣٥؛ الأمالي (للصدوق): ص١٦، ح٤؛ المستدرك: ج٢، ص٣٨٢.

فاخترت الشفاعة؛ لأنها أعم وأكفى، أترونها للمتقين؟ لا، ولكنها للمذنبين الخطائين المتلوثين»[١].

ومنها: قوله ﷺ: «ليخرجن قوم من أمتي من النار بشفاعتي يسمون الجهنميين»[٢].

ومنها: قوله ﷺ: «إذا قمت المقام المحمود تشفعت في أصحاب الكبائر من أمتي فيشفعني الله فيهم»[٣].

وقد مرت عليك طائفة كثيرة من الأخبار الدالة على أن الشفاعة لا تنال كافراً ولا مشركاً ولا منافقاً ولا ناصبياً، وإنما تنال المؤمن المذنب، فإذا لوحظت بالقياس إلى عموم النفي في الآيات التي تمسكوا بها تكون مخصصة لها.

والقول بأن هذه الأخبار لا تصلح للتخصيص لأنها أخبار آحاد، والخبر الواحد المخالف للقرآن يجب رده، أو أن خبر الواحد يفيد الظن، ولا يصح التمسك بالظن في أصول الدين. هذا القول ضعيف من جوانب عديدة:

الأول: أن الكبرى المزعومة غير صحيحة؛ لأن الخبر الواحد إذا كان معتبراً يصلح لتخصيص الدلالة القرآنية، ولا يجوز رده؛ لأن التعارض لا يقع بين السندين، بل بين الدلالتين، والدلالة القرآنية ظهورية لا قطعية، وهي ظنية كما حقق في الأصول.

١ - انظر سنن ابن ماجة: ج٢، ص١٤٤١، ح٤٣١١؛ مسند أحمد: ج٢، ص٧٥.
٢ - سنن ابن ماجة: ج٢، ص١٤٤٣، ح٤٣١٥؛ سنن الترمذي: ج٤، ص١٤٤؛ وانظر مسند أحمد: ج٤، ص٤٣٤؛ الجامع الصغير: ج٢، ص٤٤٨، ح٧٥٥٢.
٣ - الأمالي (للصدوق): ص٣٧٠، ح٣.

الثاني: سلّمنا، إلاّ أن الأخبار المخصصة قطعية الصدور؛ لأنها متواترة كما عرفت من تصريح علماء الفريقين، ولا خلاف بين المسلمين في أن الخبر المتواتر يخصص العموم القرآني ويقيد إطلاقه.

الثالث: أن دعوى وجوب رد الخبر المخالف للقرآن وإن كانت في نفسها صحيحة من حيث الكبرى إلاّ أنها لا تنطبق هنا؛ لأن مرادهم من الخبر المخالف ما كان منافياً للدلالة القرآنية على نحو التناقض بحيث يؤدي إلى التكذيب، لا ما كان مخصصاً أو مقيداً، وفيما نحن فيه من قبيل الثاني لا الأول.

وأما دعوى أن الاستدلال بخبر الواحد في المسألة من مصاديق الاستدلال بالظن في أصول الدين فهي الأخرى ضعيفة أيضاً، لما عرفت أن الأخبار ليست آحاد بل متواترة، أو أن المضمون الوارد فيها متواتر، والتواتر بنحويه يفيد العلم واليقين، فيبطل الإشكال في صغراه.

والحاصل: أن حصر الشفاعة بالمؤمنين المطيعين والعصاة التائبين فقط لأجل زيادة ثوابهم مما لم يقم عليه دليل نقلي أو عقلي، بل الدليلان على خلافه، وسيأتيك مزيد توضيح لذلك لدى استعراض القول الثاني.

القول الثاني: ذهب إلى أن الشفاعة تختص برفع العقاب والعذاب عن المؤمنين المذنبين، وهو قول الأكثر من الفريقين، بل لعله متفق عليه بينهم، كما يستفاد من كلماتهم.

قال الشيخ الطوسي‏‏‏قدس سره: إن الشفاعة عندنا أن يكون في إسقاط المضار دون زيادة المنافع، والمؤمنون عندنا يشفع لهم النبي صلى الله عليه وآله فيشفعه الله تعالى،

ويسقط بها العقاب عن المستحقين من أهل الصلاة[١]، ومثلها وردت عبارة الطبرسي قدس سره في المجمع[٢].

وقوله (عندنا) مشعر بالاتفاق بين أصحابنا، وقريب منه ذكره الرازي في تفسيره[٣]، ونسبه القاضي عياض إلى أهل السنّة[٤]، وكذا الأشعري في مقالات الإسلاميين والتفتزاني في شرح المواقف[٥]، وغيرهم[٦]، واستدلوا له بالنصوص الكثيرة الدالة على أنه صلى الله عليه وآله وسلم ادخر شفاعته للمذنبين وأهل الكبائر من أمته كما مر عليك، ويقتصر في دلالتها على رفع العقاب فقط؛ إذ لا شفاعة في زيادة الثواب، وذلك لوجود المانع؛ إذ لو قلنا بأنها تجري في زيادة الثواب لامكن أن يكون المسلم العادي شافعاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أن يرفع درجاته، ويزيد كراماته، والتالي باطل بالإجماع؛ لأن الشافع يجب أن يكون أعلى رتبة من المشفوع فيه، فالمقدم مثله[٧].

وفي الاستدلال المذكور نظر؛ لأن النصوص المثبتة للشفاعة في رفع المضار مثبتة لزيادة المنافع أيضاً، والتعبد في الاثنين لازم، وهو مما يقضي به العقل، وتقتضيه الحكمة والفضل الإلهي؛ لأن دنو الدرجة في الآخرة بالقياس إلى

١ - التبيان: ج١، ص٢١٣.
٢ - انظر مجمع البيان: ج١، ص٢٠١، تفسير الآية ٤٨ من سورة البقرة.
٣ - التفسير الكبير: ج٣، ص٥٩.
٤ - انظر شرح مسلم (للنووي): ج٢، ص٥٨.
٥ - انظر توضيح المراد: ص٨٤٤.
٦ - انظر اليواقيت والجواهر: ص٦١١؛ مجموعة الرسائل الكبرى: ج١، ص٤٠٣.
٧ - انظر التبيان: ج١، ص٢١٣؛ كشف المراد: ص٤٤٣، المسألة العاشرة؛ حق اليقين: ص٤٥١.

عاليها نقص كبير يمكن رفعه بواسطة الشفاعة، **هذا أولاً**.

وثانياً: سلّمنا، إلاّ أن غاية الشفاعة كما تنطبق على رفع العقاب تنطبق على رفع الدرجات وزيادة الثواب معاً، فتكون عامة.

وتوضيح ذلك: أن المعصية التي يرتكبها العبد يحصل معها أثران ملازمان.

الأول: استحقاق العقاب، وهو جزاء للتمرد والظلم الذي يسببه العبد لمولاه، وانتهاك حقوقه.

الثاني: الهبوط المعنوي والتسافل في الرتبة، وهذا يبعده عن مقام القرب من ربه، فيمنعه من الفيوضات الإلهية والخيرات الربانية، نظير رد دعواته، وعدم قبول عباداته، وزيادة ابتلاءاته، ونحو ذلك من آثار وضعية تترتب على المعصية، وهذا كله منصوص عليه في الآيات والروايات، فإن الخير والبركة والرفعة في حياة الإنسان الشخصية والنوعية يدور مدار التقوى والعمل الصالح، والشر والتعاسة ملازمة للمعصية والذنب، والتوبة والندم على الذنب قد تمحي العذاب والعقوبة الأخروية؛ لأن الله سبحانه وعد التائبين بالعفو، إلاّ أنها لا ترفع الدرجة المنحطة إلى الدرجة العالية؛ لأن رفع العقوبة فضل من الله سبحانه وعفو، فلا يتوقف على الاستحقاق، بخلاف رفع الدرجة وتحصيل القرب منه سبحانه، فإنه يتوقف على استعداد وقابلية في العبد؛ لضرورة وجود المسانخة بين سمو النفس وسمو الدرجة، فإذا قصر العبد في نفسه عن بلوغ الدرجة العالية بعد التوبة من الذنب فإنه يمكن أن يبلغ بعضها بواسطة الشفاعة، لا من جهة استحقاقه لذلك، بل لجهة استحقاق الشفيع أن يكرم بقبول شفاعته فيه.

ومن المسلم أن هذه الشفاعة مما لا خلاف في حاجة الجميع إليها، ولا يحتاجها النبيﷺ لعصمته وعلو مقامه، فيبطل الاستدلال المذكور، كما يظهر بطلان دعوى المعتزلة عدم الحاجة إلى الشفاعة؛ لأن التوبة تمحي الذنب، وذلك لأن التوبة تمحي العقاب ولا تمحي أثر الذنب المعنوي وضرره الوضعي، وهذا ما يشهد له القرآن في آيات عديدة، حيث تشفّع التائبون من ذنوبهم بالنبيﷺ؛ لأنهم ما كانوا يريدون محو عقوبة الذنب فقط ، بل سمو الرتبة؛ إذ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[1].

ولعل ذكر صفة الرحمة بعد التوبة يشير إلى جهة الإفاضة الإلهية بعد محو الذنب، وهي تتحقق بعلو الدرجة أيضاً؛ بداهة أن الإفاضة الإلهية تتوقف على الاستعداد والذنب مانع.

فمثل التوبة بالقياس إلى الذنب مثل الدواء بالقياس إلى المرض، فإنه قد يرفع أثر المرض ولكنه لا يعطي العافية التامة؛ لأنها تتوقف على شروط أخرى كالنقاهة والحمية والتغذية المناسبة لتكون سببيّته للمعافاة تامة، وهكذا تفعل الشفاعة في الآخرة للمذنبين التائبين وللمطيعين المقصرين في طاعاتهم أو القاصرين.

وبذلك يظهر أن هبوط الدرجة معنوياً لا يلازم الذنب فقط ، بل التقصير في الطاعة، بل والقصور فيها، فعلو الدرجة لا تتحقق للعبد بمجرد التوبة أو الطاعة، بل لابد من توسيط أصحاب الوجوه الكريمة وذوي المكانة عند الله

١ - سورة النساء: الآية ٦٤.

سبحانه ليعطيهم ذلك، وهذا نحو من أنحاء الشفاعة.

وثالثاً: أن المانع الذي ذكروه لنفي هذا النحو من الشفاعة لا يصلح للمنع، وذلك لأن المانع العقلي - وهو قولهم بأن تجويز هذا النحو من الشفاعة يستلزم أن يكون شفعاء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في زيادة درجاته - ليس بمانع من ناحيتين:

الناحية الأولى: الخروج الموضوعي؛ لأنك عرفت في تعريف الشفاعة أنها تتقوم باركان ومنها علو الشافع رتبة، فإذا كان مساوياً أو أدنى كان دعاءً لا شفاعة، ولا إشكال في جواز الدعاء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والصلاة عليه باتفاق الكلمة؛ إذ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾[1] والصلاة عليه من الملائكة والمؤمنين هي الدعاء له[2]، بل ومن المستحبات في تشهد الصلاة أن يدعو المصلي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ويقول: «تقبل شفاعته وارفع درجته» وهو مما يقره العقل؛ لأن المعنويات لا حد لها، لاسيما إذا كانت راجعة إلى الفيض الإلهي اللامتناهي، فما من عبد من عباد الله إلاّ ويطلب المزيد من الكرامات والقربات المعنوية بما فيهم أنبياء الله الصالحون.

وهناك جهة أخرى للخروج الموضوعي، وهي أن الشفاعة المقصودة بالبحث هي شفاعة الحساب في الآخرة، وهي من مختصات النبي وأهل بيته عليهم السلام، بل قد عرفت أنها بمراتبها الثلاث ثابتة لهم، وهم الحاكمون فيها المفوضون في مراتبها، فلا معنى لشفاعة غيره في حقه.

---

١ - سورة الأحزاب: الآية ٥٦.

٢ - انظر مجمع البيان: ج٨، ص١٧٩، تفسير الآية المزبورة.

الناحية الثانية: أن الإجماع المدعى على عدم صحة طلب زيادة الدرجة لرسول الله صلى الله عليه وآله مخدوش في الصغرى وفي الكبرى. أما الصغرى فلوجود جمع أجازوا ذلك كما عرفته وستعرف في القول الثالث، وأما الكبرى فلأن مثل هذا الإجماع مبني على مقدمة عقلية، فيخرج عن كونه إجماعاً تعبدياً ليكون حجة، بل إن الإجماع في المسائل الاعتقادية خارج موضوعاً عن الإجماع المصطلح، وعلى فرض تحققه فهو مستند إلى مقدمات اجتهادية لا تكون حجة على الغير.

والحاصل: أن تحديد الشفاعة برفع العقاب دون زيادة الثواب مما لا يساعد عليه دليل من عقل أو نقل، فالحق هو القول الثالث.

القول الثالث: ذهب إلى أن الشفاعة عامة تشمل رفع العقاب وزيادة الثواب معاً على حسب ما تقتضيه الحكمة. اختاره جمع من أصحابنا على ما يظهر من كلماتهم، منهم الخاجة نصير الدين والعلامة الحلي وغيرهما قدس سرهما[1]؛ لوجود المقتضي وانعدام المانع وإطلاقات النصوص الكثيرة.

منها: ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «ما من أحد من الأولين والآخرين إلاّ وهو محتاج إلى شفاعة محمد صلى الله عليه وآله يوم القيامة»[2] والإطلاق يشمل الشفاعة العقابية والشفاعة الثوابية، ولا دليل على التقييد أو التخصيص:

١ - انظر كشف المراد: ص٤٤٤؛ توضيح المراد: ص٨٣٩؛ القول السديد: ص٤٠٠؛ تفسير الأمثل: ج١، ص١٥٥.

٢ - تفسير القمي: ج٢، ص٢٠٢؛ المحاسن: ص١٨٣، ح١٨٥؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٣٨، ح١٦.

ومنها: قوله‌صلى الله عليه وآله: «أخبأت دعوتي لشفاعتي لأمتي يوم القيامة»[١].

ومنها: قوله‌صلى الله عليه وآله: «لو قمت المقام المحمود لشفعت لأبي وأمي وعمي وأخ كان لي مواخياً في الجاهلية»[٢] وبناء على أن المراد من الأب والأم والعم المعنى الحقيقي، فإنهم من أهل الطاعة، ولا معنى لشفاعته لهم في الآخرة سوى علو الدرجات، ومثل أبي لهب خارج تخصصاً عن الشفاعة؛ لأنه مات مشركاً، وقوله: «وأخ كان لي مواخياً في الجاهلية» يراد به الأخ الموحد في الجاهلية ومات قبل الإسلام جمعاً بين الأدلة؛ لوضوح أنه‌صلى الله عليه وآله لا يصف الكافر والمشرك بالأخ، ويشهد له كان التامة فإنها دالة على معنى الزمان، ووصفه في رواية العياشي بالأخ الموافي، فإن المنصرف من قوله: «وأخ كان لي في الجاهلية» هو الموافي في الحقوق والواجبات، أو يراد به الذي اسلم وحسن إسلامه، وكيف كان فالحديث يتضمن الإشارة إلى نحوي الشفاعة، فإن شفاعته لذويه بعلو الدرجات، ولأخيه في الجاهلية برفع العقاب.

ومنها: ما في أمالي الطوسي‌قدس سره بإسناده عن أبي الحسن العسكري عن آبائه‌عليهم السلام قال: «قال أمير المؤمنين‌عليه السلام: سمعت النبي‌صلى الله عليه وآله يقول: إذا حشر الناس يوم القيامة ناداني مناد: يا رسول الله إن الله جل اسمه قد أمكنك من مجازاة محبيك ومحبي أهل بيتك الموالين لهم فيك، والمعادين لهم فيك، فكافئهم

١ - الخصال: ص٢٩، ح١٠٣.

٢ - تفسير القمي: ج١، ص٣٨٠؛ بحار الأنوار: ج١٥، ص١١٠، ح٥٤؛ وانظر تفسير العياشي: ج٢، ص٣١٣، ١٤٦.

بما شئت، فأقول: يا رب الجنة، فأنادى: فولهم منها حيث شئت، فذلك المقام المحمود الذي وعدت به»[١].

وفي الحديث الشريف دلالة على الشفاعة التفويضية ودلالة أخرى على أن الشفاعة تشمل زيادة الثواب وعلو الدرجات؛ لوضوح أن محبيه ومحبي أهل بيته فيهم المحسنون الذين لا ذنب عليهم ولا عقوبة.

ومنها: ما ورد عن الرضا عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذريتي، والقاضي لهم حوائجهم، والساعي في أمورهم ما اضطروا إليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه»[٢] وإطلاقه يشمل المطيع وغيره، ومفهوم الوصف فيه يعني الشفاعة عمن يتصف بالأوصاف المخالفة.

ومنها: ما ورد في رواية سماعة بن مهران عن أبي الحسن عليه السلام في شأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام يقول: «إذا كان يوم القيامة لم يبق ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا مؤمن ممتحن إلاّ وهو يحتاج إليهما في ذلك اليوم»[٣] ولا معنى للحاجة هنا إلاّ للشفاعة في الدرجات العالية.

ومن الواضح أن هذه الروايات التي تمسك بها أصحاب القول الثاني مثبتة للشفاعة في المذنبين وليست نافية لغيرها، وهذه الروايات مثبتة لها في المطيعين أيضاً وليست نافية لغيرها، ومقتضى القاعدة إثبات مدلوليهما معاً؛

---

١ - الأمالي (للطوسي): ص٢٩٨، ح٣٣؛ وانظر بحار الأنوار: ج٨، ص٤٠، ح٢٠.
٢ - بشارة المصطفى لشيعة المرتضى: ص٣٦، ح٢؛ وانظر بحار الأنوار: ج٨، ص٤٩، ح٥٣.
٣ - دعوات الراوندي: ص٥١، ح١٢٧؛ وانظر بحار الأنوار: ج٨، ص٥٩، ح٨١.

لعدم التنافي بين المثبتين كما قرر في الأصول.

والخلاصة: أن الشفاعة الثابتة لسيد الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله في أمته وفي سائر الأمم ومن بعده لأهل بيته عليهم السلام ثم الأنبياء والأولياء والمؤمنين والملائكة لا تختص بزيادة الثواب، ولا تختص برفع العقاب، بل تشمل الاثنين معاً، وعلى هذا الأساس لا يبقى عبد لا تناله شفاعة النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، وشفاعتهم له تختلف بحسب اختلاف مراتب العباد وأعمالهم، وهذا أحد معاني وصفه صلى الله عليه وآله بكونه رحمة للعالمين، وأنه سيد الأنبياء والرسل، ويمكن تلخيص أهم الجماعات التي ينجيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته بالشفاعة في عشر:

الأولى: عموم الخلق؛ إذ يشفع لهم في تخفيف أهوال المحشر ومخاوفه عليهم.

الثانية: عموم الخلق بتخفيف العذاب الذي يواجهونه في ساحات المحشر وعرصات القيامة، سواء في موقف الحساب أو موقف الميزان أو الصراط أو غيرها من مواقف صعبة.

الثالثة: جماعة غلبت معاصيهم فيشفع لهم بتعجيل الحساب عليهم؛ لما عرفت من أن طول الحساب من أشق الحالات التي يمر بها الناس في الحشر، فيكون التعجيل به تخفيفاً من عذابه، وربما يكون التعجيل بواسطة تقصير مدة الحساب أو باختصار الحساب على بعض الأعمال لا جميعها، وهذه شفاعة كبيرة تشمل خلقاً كثيراً، وقد ذهب البعض إلى أن هذا أقل مراتب الشفاعة، وروي أن المصطفى صلى الله عليه وآله يشفع عند الله في ذلك، ويخلص الناس من هول هذا الموقف[1].

---

١ - انظر توضيح المراد: ص٨٣٧؛ كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج١، ص١٠٣٤.

الرابعة: جماعة من المؤمنين تساوت حسناتهم وسيئاتهم فيدخلهم إلى الجنة.

الخامسة: جماعة من المذنبين ممن يستحقون النار بذنوبهم فيدخلهم إلى الجنة.

السادسة: جماعة من أهل النار فيشفع لهم بتخفيف العذاب عنهم.

السابعة: جماعة من أهل النار يشفع لهم، وينقذهم من النار، ويدخلهم إلى الجنة.

الثامنة: جماعة من المذنبين يشفع لهم فيدخلهم الجنة بغير حساب.

التاسعة: جماعة من القاصرين والمستضعفين فيشفع لهم فيدخلهم الجنة بلا اختبار.

العاشرة: عموم أهل الجنة يشفع لهم فيزيد من درجاتهم، ويعلي من مراتبهم ومقاماتهم على حسب مقتضى الرحمة والحكمة، وفي كل ذلك وردت أخبار كثيرة بطرق الفريقين[1] عرفت بعضها مما مر.

ومما تقدم تتحصل حقائق:

الحقيقة الأولى: أن الذين يخلدون في النار هم المعاندون من المشركين والمنافقين والنواصب والظالمين الذين يموتون على عنادهم وتماديهم في الظلم والطغيان من أمثال الطغاة وقتلة النفوس البريئة ونحوهم، ووجه خلودهم في النار هو مسانختهم لها؛ لما عرفت من أن صحة العقيدة شرط

١ - انظر تفسير العياشي: ج٢، ص٣٣٦، ح١٤٧؛ ص٣٣٧- ٣٣٨، ح١٥٠، ح١٥١؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٤٧- ٤٩، ح٤٨، ح٥١، ح٥٢؛ صحيح البخاري: ص٣٣٤، ح٣٣٤؛ شرح النووي لمسلم: ج٣، ص٣٣- ٣٥.

أساس في الشفاعة، وهؤلاء الجاحدون المتكبرون لا يحظون بهذا الشرط، ولا جزاء لهم إلاّ النار ما لم يتوبوا ويصححوا معتقدهم وعملهم، وقد مرت عليك بعض الروايات الدالة على هذه الحقيقة، وقد أكدها أمير المؤمنين عليه السلام في قوله الوارد في دعاء كميل بن زياد: «أقسمت أن تملأها من الكافرين من الجِنة والناس أجمعين، وأن تخلد فيها المعاندين»[١] ومعنى القسم هو القضاء الحتمي الذي لا يتغير ولا يتبدل، ولذا لا تناله شفاعة.

وبهذا يتضح معنى الأحاديث الشريفة التي تنص على أن شفاعتهم عليهم السلام لا تنال مستخفاً بصلاته[٢] ونحوها[٣]، فإن المراد من الاستخفاف ليس العملي أي التقصير في أدائها، بل العقيدي أي جحودها وإنكارها.

كما يتضح وجه الخلود للقاتل العمدي الذي نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[٤] فقد ورد عن الصادق عليه السلام: «أنه يقتله على دينه» وهو ما يؤكده وصف الإيمان الذي أخذ في المقتول[٥]، أو يحمل على الذي لم يتب حتى يموت جمعاً بين الأدلة كما ذهب إليه بعض المفسرين[٦].

١ - مصباح المجتهد: ص٨٤٨؛ إقبال الأعمال: ج٣، ص٣٣٦.
٢ - عوالي الآلئ: ج٣، ص٦٥، ح٦.
٣ - مستدرك الوسائل: ج١٢، الباب ٧٧ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ص٩٩، ح٦.
٤ - سورة النساء: الآية ٩٣.
٥ - انظر مجمع البيان: ج٣، ص١٥٩، تفسير الآية المزبورة.
٦ - انظر مجمع البيان: ج٣، ص١٥٩، تفسير الآية المزبورة.

الحقيقة الثانية: أن الروايات التي دلت على أن المحسنين من العباد وهم أصحاب اليمين والمطيعون والعصاة الذين تابوا وندموا على ما فعلوا يدخلون الجنة بلا شفاعة ناظرة إلى نفي شفاعة العقاب لا شفاعة الدرجات والكرامات؛ لأن دخولهم الجنة بالوعد الإلهي لا بالاستحقاق ولا بالشفاعة، إلاّ أن علو مقاماتهم وزيادة درجاتهم يكون بالشفاعة لا محالة.

الحقيقة الثالثة: أن الشفاعة لا تختص بمشهد واحد من مشاهد القيامة، بل تواكب جميع المشاهد منذ أول الحشر، وتحضر مع العباد في جميع المواقف والأحوال حتى تدخلهم الجنة، ثم تتواصل معهم بعدها أيضاً، وهذا المعنى تؤكده رواية جابر بن عبد الله الانصاري عن علي أمير المؤمنين عليه السلام قال: «قالت فاطمة عليها السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله: يا أبتاه أين ألقاك يوم الموقف الأعظم ويوم الأهوال ويوم الفزع الأكبر؟ قال: يا فاطمة عند باب الجنة، ومعي لواء الحمد، وأنا الشفيع لأمتي إلى ربي. قالت: يا أبتاه فإن لم ألقك هناك؟ قال: القيني على الحوض وأنا أسقي أمتي. قالت: يا أبتاه فإن لم ألقك هناك؟ قال: القيني على الصراط وأنا قائم أقول: ربي سلّم أمتي. قالت: فإن لم ألقك هناك؟ قال: القيني وأنا عند الميزان أقول: رب سلّم أمتي. قالت: فإن لم ألقك هناك؟ قال: القيني عند شفير جهنم أمنع شررها ولهبها عن أمتي، فاستبشرت فاطمة سلام الله عليها بذلك»[1].

ولا يبعد أن تكون الشفاعة مستمرة مع العباد حتى في الجنة، فليس لها وقت أو انتهاء، لاسيما وأن نعيم الجنة ودرجاتها غير متناهية، ولا يوجد

١ - الأمالي (للصدوق): ص٣٥٠، ح١٤؛ وانظر بحار الأنوار: ج٨، ص٣٥، ح٦.

دليل نقلي أو عقلي يمنع من بقائها في الحياة الأخروية الخالدة، بل المقتضي لها موجود أيضاً؛ لأن بقاءها هو مقتضى اللطف والرحمة الإلهية، وهما لا ينتهيان.

ولعل هذا أحد معاني قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1] لأن البشر ينتظر المزيد دائماً، وحيث إنه بمفرده قاصر عن استحقاق ذلك يمكنه أن ينال ذلك بالشفاعة.

وتدلنا هذه الحقيقة على حقيقتين أخريين:

الأولى: أن حكومة الآخرة كلها بيد محمد وآل محمد عليهم السلام، وأن هذه الحكومة لا تنتهي بل هي مستمرة خالدة بخلود تلك الحياة.

والثانية: ظهور خلافتهم لله سبحانه وعلو مقامهم في النشأتين، ومن هنا صار تحصيل الدرجات العالية في الآخرة متوقفاً على مدى معرفتهم وطاعتهم والتسليم إليهم؛ لأنهم حجج الله ومظاهر قدرته وإرادته في الآخرة، كما هم كذلك في الدنيا، كما تثبت عموم بعثته صلى الله عليه وآله وعموم شريعته كعموم شفاعته على سائر الخلق أجمعين، ومن هنا صار خاتم الأنبياء وشريعته خاتمة الرسالات السماوية، فلا مجال لأمة من الأمم أو لأهل دين أو عقيدة في النجاة في الآخرة إلاّ بالدخول في الإسلام واتباع الرسول وأهل بيته عليهم السلام.

الأمر الخامس: في مراتب الشفعاء

المستفاد من الأخبار الشريفة الواردة بطرق الفريقين أن الشفاعة تثبت لعباد الله الصالحين، بل وتثبت لبعض ما قدسه الله وكرمه كالقرآن الكريم،

١ – سورة الزخرف: الآية ٧١.

ومن هنا فهي تختلف سعة وضيقاً بحسب مستوى العطاء والإذن الإلهي، ويمكن تصنيف مراتب الشفعاء على حسب درجات الشفاعة وسعتها إلى مراتب:

المرتبة الأولى: شفاعة النبي المصطفى ﷺ

فإنه صلوات الله عليه أكرم شفيع عند الله سبحانه، وشفاعته غير محدودة، بل تشمل جميع الأمم وفي جميع حالات القيامة، وهذه الشفاعة نوع من العطاء الإلهي الخاص له ﷺ لم يعط لأحد غيره، أعطي ذلك لأجل رضاه ومحبوبيته وإظهار وجاهته الكبرى عند الله سبحانه كما ورد في الأخبار(١) في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾(٢) حيث فسرت بالشفاعة.

منها: ما رواه الجمهور بأكثر من طريق عن أبي جعفر الباقر عليه السلام عن علي أمير المؤمنين عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: «أشفع لأمتي حتى يناديني ربي أرضيت يا محمد؟ فأقول: نعم يا ربّ رضيت»(٣).

ومنها: ما ورد عن الصادق عليه السلام قال: «رضا جدي أن لا يبقى في النار موحد»(٤) وإطلاقه يشمل الموحدين من أتباع الأنبياء أيضاً، ومن هنا وصف أئمة أهل البيت عليهم السلام هذه الآية بأنها أرجى آية في كتاب الله سبحانه في أخبار

---

١ - انظر تفسير العياشي: ج٣، ص٧٨، تفسير الآية ٧٩ من سورة الإسراء؛ الدر المنثور: ج٥، ص٣٢٥- ٣٢٦.

٢ - سورة الضحى: الآية ٥.

٣ - الدر المنثور: ج٨، ص٥٤٣؛ التفسير الكبير: ج٣١، ص١٩٢.

٤ - مجمع البيان: ج١٠، ص٣٨٢، تفسير الآية ٥ من سورة الضحى؛ تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٥٩٥، ح١١.

عديدة[١]؛ لما فيها من سعة الشفاعة والرحمة النبوية في الآخرة.

كما نصت الأخبار الواردة بطرق الفريقين على أن المقام المحمود الذي سيعطيه الله سبحانه لنبيه في الآخرة؛ إذ قال سبحانه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[٢] هو مقام الشفاعة الكبرى والعامة في الخلق، وعليه أجمع المفسرون. قال الطبرسي قدس سره: وقد أجمع المفسرون على أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة، وهو المقام الذي يشفع فيه للناس، وهو المقام الذي يعطى فيه لواء الحمد فيوضع في كفه وتجتمع تحته الأنبياء والملائكة، فيكون صلى الله عليه وآله أول شافع وأول مشفع[٣]، وقد مر عليك جملة من الروايات الدالة على عموم شفاعته لجميع الخلق بما يغني عن مزيد البيان[٤].

المرتبة الثانية: شفاعة آل محمد عليهم السلام

تواترت الروايات الواردة في إثبات الشفاعة لأهل البيت عليهم السلام في الآخرة، وخصوصاً شفاعة أمير المؤمنين والصديقة الطاهرة الزهراء عليهما السلام، وظاهر جملة من الأخبار أن شفاعتهم لا تختص بشيعتهم وهم خواص المؤمنين، بل تشمل المحبين[٥] ومن ليس في قلوبهم أدنى بغض لهم[٦] عليهم السلام، وعنوان (المحبين) (وعدم البغض لهم) يشمل سائر الأمم والأديان، وقد مرت عليك

١ - انظر تفسير الصافي: ج٥، ص٣٤١؛ تفسير الميزان: ج١، ص١٧٦.
٢ - سورة الإسراء: الآية ٧٩.
٣ - مجمع البيان: ج٤، ص٨٨؛ تفسير الرازي: ج٢١، ص٢٦.
٤ - انظر تفسير القمي: ج٢، ص٢٠٢؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٣٩، ح٢٠.
٥ - انظر: بحار الأنوار: ج٨، ص٣٦، ح١٠؛ ص٤١، ح٢٨.
٦ - انظر الخصال: ص٤٠٨، ح٦.

بعض هذه الأخبار، ونكتفي هنا برواية محمد بن مسلم قال: سمعت الإمام الباقر عليه السلام يقول: «لفاطمة عليها السلام وقفة على باب جهنم، فإذا كان يوم القيامة كتب بين عيني كل رجل: مؤمن أو كافر، فيؤمر بمحب قد كثرت ذنوبه إلى النار، فتقرأ فاطمة بين عينيه محباً فتقول: إلهي وسيدي سميتني فاطمة وفطمت بي من تولاني وتولى ذريتي من النار، ووعدك الحق وأنت لا تخلف الميعاد، فيقول الله عز وجل: صدقت يا فاطمة، إني سميتك فاطمة وفطمت بك من أحبك وتولاك وأحب ذريتك وتولاهم من النار، ووعدي الحق وأنا لا أخلف الميعاد، وإنما أمرت بعبدي هذا إلى النار لتشفعي فيه فأشفعك، وليتبين لملائكتي وأنبيائي ورسلي وأهل الموقف موقفك مني ومكانتك عندي، فمن قرأت بين عينيه مؤمناً فخذي بيده وأدخليه الجنة»[١] وقوله عليه السلام: «سميتني فاطمة وفطمت بي» يتوافق مع الروايات العديدة الواردة عنهم عليهم السلام في سر تسميتها بفاطمة:

منها: ما عن الرضا عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إني سميت فاطمة لأنها فطمت وذريتها من النار، من لقي الله منهم بالتوحيد والإيمان بما جئت به»[٢].

كما أن قوله: «فأشفعك وليتبين لملائكتي وأنبيائي ورسلي وأهل الموقف موقفك مني ومكانتك عندي» يحتمل معنيين:

أحدهما: أن الملائكة والأنبياء والرسل لم يعرفوا فاطمة حق معرفتها،

١ - علل الشرائع: ج١، ص١٧٩، ح٦.

٢ - الأمالي (للطوسي): ص٥٧٠، ح٥؛ بحار الأنوار: ج٤٣، ص١٩، ح١٨.

وهذا لا يضر بمكانتهم وعصمتهم؛ لأن العلم مراتب، وأعلى مراتبه عند محمد وآل محمد عليهم السلام لا عند غيرهم، وهذه إحدى جهات تفاوت الرتبة بينهم وبين غيرهم، أو أنهم يعرفون ذلك ولكن لم يظهر لهم ذلك في الخارج؛ بناء على أن المراد من لفظ (التبين) هو معناه اللغوي.

ثانيهما: أن المقصود هو المعنى المجازي، والمراد إظهار فضلها ومقامها عند أهل المحشر من باب الاحتفاء والتكريم، وقد مر عليك في مشهد الصراط والأعراف أنها عليها السلام تزف إلى الجنة مع أمير المؤمنين عليه السلام بأسلوب ملائكي يخطف أبصار أهل المحشر، وهذا الحديث ظاهر في اختصاص شفاعتها عليها السلام بشيعتها ومحبيها، إلاّ أن الأخبار الأخرى فضلاً عن البراهين العقلية أثبتت أن كل ما لرسول الله صلى الله عليه وآله من المقامات والمراتب هي ثابتة لهم عليهم السلام، إلاّ ما أخرجه الدليل يثبت عموم شفاعتها لجميع الخلائق وفي جميع الأدوار والمواقف، وكذا سائر الأئمة الطاهرين عليهم السلام.

المرتبة الثالثة: شفاعة القرآن الكريم

تضافرت الأخبار الشريفة بطرق الفريقين على أن للقرآن مقام الشفاعة في الآخرة، حيث يشفع لقارئيه ومتعلميه والذين حفظوه واحترموا مكانته، وهي شفاعة خاصة بهم:

منها: ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصف القرآن وفيها: «واعلموا أنه شافع مشفع، وقائل مصدق، وأنه من شفع له القرآن يوم القيامة شفع فيه»[1] وقوله: «قائل مصدق» يشير إلى الشهادة أيضاً، وقد دلت الأخبار على

١ - انظر نهج البلاغة: ج٢، ص٩٢، الخطبة١٧٦.

أن القرآن يكون شاهداً على أهله أيضاً.

ومنها: ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الشفعاء خمسة: القرآن والرحم والأمانة ونبيكم وأهل بيت نبيكم»[١]

وشفاعة الرحم تتحقق بشرط الإيمان ونحوه، وأما شفاعة الأمانة فتحتمل معاني عديدة منها: صدق الإيمان، ومنها: الأمانة في المعاملة، فإن شفاعتها تكون بنحو الشهادة على الوفاء والالتزام بالحدود الشرعية، فتكشف عن إيمان العبد وحسن تدينه.

ومنها: ما ورد بطرق الجمهور عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «تعلموا القرآن فإنه شافع لأصحابه يوم القيامة»[٢] وغير ذلك من الأخبار[٣].

والأصل هو حمل الكلام على معناه الحقيقي لا المجازي ما دام لا يمنع منه مانع، ومن هنا نقول لا ينبغي الكلام في أن الشفاعة الثابتة للقرآن هنا بمعناها الحقيقي، وإنما الكلام في توجيه كيفيتها، وقد وردت روايات عديدة في ذلك يستفاد منها أن شفاعته تكون على ثلاثة أنحاء:

النحو الأول: أن القرآن يكون سبباً لرقي العبد في الدرجات، وهذا ما يستفاد من قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المروي في الكافي عن الصادق عليه السلام قال: «تعلموا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة صاحبه في صورة شاب جميل شاحب اللون فيقول له القرآن: له أنا الذي كنت أسهرت ليلك، وأظمأت هواجرك،

١ - بحار الأنوار: ج٨، ص٤٣، ح٣٩.
٢ - مسند أحمد: ج٥، ص٢٥١.
٣ - انظر مسند أحمد: ج٢، ص١٧٤.

وأجففت ريقك، وأسلت دمعتك، أؤول معك حيثما ألت، وكل تاجر من وراء تجارته، وأنا اليوم لك من وراء تجارة كل تاجر، وسيأتيك كرامة من الله عز وجل فأبشر، فيؤتى بتاج فيوضع على رأسه، ويعطى الأمان بيمينه والخلد في الجنان بيساره، ويكسى حلتين، ثم يقال له أقرأ وارقه، فكلما قرأ آية صعد درجة، ويكسى أبواه حلتين إن كانا مؤمنين، ثم يقال لهما: هذا لما علمتماه القرآن»[1].

والحديث دال على تجسم الأعمال والحقائق، ووجه الشفاعة هنا هي أن قراءة القرآن تكون سبباً لرقي درجات العبد في الجنة فيتوافق مع عمل سائر الشفعاء.

النحو الثاني: أن يكون القرآن شاهداً على العبد عند الله سبحانه، وهذا ما يستفاد من رواية سعد الخفاف عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «يا سعد تعلموا القرآن، فإن القرآن يأتي يوم القيامة في أحسن صورة نظر إليها الخلق والناس صفوف ... فيقول: يا رب منهم من صانني وحافظ علي ولم يضيع شيئاً، ومنهم من ضيعني واستخف بحقي وكذب بي وأنا حجتك على جميع خلقك، فيقول الله تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لأثيبن عليك اليوم أحسن الثواب، ولأعاقبن عليك اليوم أليم العقاب»[2] فيجازي الباري عز وجل من صان القرآن بالجنة، ويكسيه حلة من حللها، ويتوجه بتاج منها[3].

النحو الثالث: الدعاء للعبد، وهو ما يستفاد من بعض الروايات الدالة على أن القرآن يدعو لأهله بمزيد الفضل والعناية، فيستجيب الله سبحانه

١ - الكافي: ج٢، ص٦٠٣، ح٣.
٢ - الكافي: ج٢، ص٥٩٦، ح١.
٣ - الكافي: ج٢، ص٥٩٦، ح١.

دعاءه فيهم[١]، ومن الواضح أن توجيه شفاعة القرآن بالمعانى المذكورة ينسجم مع نظرية تجسم الأعمال والحقائق التي تقدم البحث فيها.

المرتبة الرابعة: شفاعة الأنبياء والملائكة عليهم السلام

وشفاعتهم في أممهم مسلّمة، وفي شمول شفاعتهم لغير أممهم احتمالان والأقوى الشمول، ودليله إطلاق النصوص. منها ما ورد عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ثلاثة يشفعون إلى الله عز وجل فيشفعون» وعد منهم الأنبياء[٢].

وفي رواية أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لكل نبي شفاعة»[٣]. وفي رواية أخرى أنهم يخرجون من النار من كان في قلبه ما يزن ذرة من إيمان[٤]، وللملائكة شفاعة أيضاً بحسب ما تقتضيه الحكمة الإلهية، وهي محدودة بحسب مواردها كما يستفاد من النصوص[٥].

المرتبة الخامسة: شفاعة العباد الصالحين

فقد دلت الأخبار على أن هناك جماعة من عباد الله يحظون بمقام الشفاعة في الآخرة فيشفعون للناس إلاّ أن شفاعتهم محدودة بمكانتهم.

منهم: العلماء الربانيون، فإنهم يشفعون لمن تعلموا منهم وتربوا على

١ - الكافي: ج٢، ص٥٩٦، ح١.
٢ - انظر بحار الأنوار: ج٨، ص٣٤، ح٢.
٣ - انظر بحار الأنوار: ج٨، ص٤٠، ح٢١.
٤ - انظر سنن النسائي: ج٢، ص١٨١.
٥ - انظر المحاسن: ص١٨٤، ح١٩٠؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٤٢، ح٣٥؛ ص٥٨، ح٧٥.

أيديهم، وهذا ما ورد عن الإمام الصادقعليه السلام: «إذ كان يوم القيامة بعث الله العالم والعابد، فإذا وقفا بين يدي الله عز وجل قيل للعابد: انطلق إلى الجنة، وقيل للعالم: قف تشفع للناس بحسن تأديبك لهم»[١] والوجه في عدم ثبوت الشفاعة للعابد هو أن عبادته لنفسه، بخلاف العالم فإن علمه ينفع غيره، فيثبت له حق عليه، وقد مر عليك أن حق الشفاعة تثبت بالحقوق الإنسانية، وهذا نوع تكريم للعالم يتوافق مع مبدأ مسانخة الجزاء والعمل، وقوله: «بحسن تأديبك» يدل على أن حق الشفاعة يثبت للعالم المربي على الموازين الشرعية لا مطلق العالم، فتأمل.

ومنهم: الشهداء، فإنهم يشفعون في جماعة من أهلهم، كما ورد عن النبيصلى الله عليه وآله وسلم[٢] وأمير المؤمنينعليه السلام[٣]، والمراد من الشهداء من استشهدوا طبقاً للموازين الشرعية، سواء في الجهاد الهجومي أو الدفاعي، ولعل وجه شفاعته في أهله دون غيرهم هو في مقابل المصيبة التي نزلت بهم جراء فقده ومفارقته، أو في مقابل حقوق النسب أو حقوق التربية، فإن الولد الصالح يشترك أهله في تربيته ، ومن هنا ورد في بعض الأخبار[٤] أن متعلم القرآن والعامل به يشفع في أهله أيضاً، وذلك للاشتراك في السبب.

ومنهم: المؤمنون فإنهم يشفعون في الآخرة، وربما يستفاد من بعض الأخبار أن سعة شفاعتهم ترجع إلى درجة إيمانهم ومعرفتهم، فبعض المؤمنين

١ - انظر بحار الأنوار: ج٨، ص٥٦، ح٦٦.
٢ - انظر مفاهيم القرآن: ج٤، ص٢٩٣؛ سنن أبي داود: ج٢، ص١٥.
٣ - الخصال: ص١٥٦، ح١٩٧.
٤ - انظر مفاهيم القرآن: ج٤، ص٢٩٣؛ سنن الترمذي: ج٤، ص٢٤٥.

يشفعون في ثلاثين إنساناً، وهم أدناهم شفاعة كما ورد عن الباقر عليه السلام[١]، وورد عن الصادق عليه السلام أنه يشفع في أهل بيته بما فيهم خادمه[٢]، وأما المؤمن الموالي الملتزم بأحكامه وطاعاته فيشفع في خلق مثل ربيعة ومضر كناية عن الكثرة لكرامته على الله عز وجل[٣]، والملتزم بدرجة أعلى يشفع فيما هو أعظم من ذلك فعن الصادق عليه السلام قال: «المؤمن مؤمنان، مؤمن وفى لله بشروطه التي اشترطها عليه، فذلك مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا، وذلك ممن يشفع ولا يشفع له، وذلك ممن لا تصيبه أهوال الدنيا ولا أهوال الآخرة، ومؤمن زلت به قدم فذلك كخامة الزرع كيفما كفأته الريح انكفأ، وذلك ممن تصيبه أهوال الدنيا والآخرة، ويشفع له وهو على خير»[٤].

والخامة هي الغضة الرطبة من النبات، أو كل شيء جديد لم يعالج ولم يهذب بعد[٥]، وكفأت فلان فانكفأ أي أملته عن وجهه فمال[٦]، كناية عن ضعف الإيمان أو غلبة الهوى والشيطان عليه، أو قصور العقل والتفكير. هذه أهم مراتب الشفعاء في الآخرة حسب ما ورد في الأخبار، والسؤال هو كيف يتم فعل الشفيع في شفاعته؟ وما هي الطرق التي يتبعها في ذلك؟ والجواب يعرف في الأمر السادس.

---

١ - الكافي: ج٨، ص١٠١، ح٧٢.
٢ - انظر بحار الأنوار: ج٨، ص٦١، ح٨٦.
٣ - انظر صفات الشيعة: ص١٦٤، ح٥.
٤ - الكافي: ج٢، ص٢٤٨، ح٢.
٥ - انظر المعجم الوسيط: ج١، ص٢٦٣، (خام).
٦ - معجم مقاييس اللغة: ص٨٩٦، (كفأ).

الأمر السادس: في طرق الشفاعة

قد عرفت من البحث السابق أن الشفاعة مقام معنوي خاص يعطيه الله سبحانه لبعض عباده المكرمين أكراماً لهم، وإظهاراً لمكانتهم عنده، ولذا قيدت الشفاعة بالإذن الإلهي؛ إذ ليس كل أحد يحق له الشفاعة، وهنا نلفت النظر إلى حقيقتين:

الحقيقة الأولى: أن هذا المقام - أي الشفاعة - في الوقت الذي يكشف عن كرامة الشفيع عند الله سبحانه فإن أعمال الشفاعة واستخدامها في إنقاذ العباد لا يكون جزافاً، بل لا بد وأن تخضع لموازين تتناسب مع مقام الشفيع والمشفوع عنه، وذلك لأن هذا المقام من مراتب عالمي العبودية والربوبية، فلا يصح أن يعمل العبد ما يخرجه عن هذا المقام، ولا يصح أن يشفع بشيء يتنافى مع مقام الربوبية أو آداب العبودية.

والحقيقة الثانية: أن هذا المقام تفضلي إرفاقي بالشافع وبالمشفوع له، وليس استحقاقياً، وعلى هذا الأساس فإن الشفيع إذا أراد الشفاعة لابد وأن يطرق باب الفضل والامتنان لا باب العدل والاستحقاق، ولهذا الباب جهتان: جهة الربوبية ومقتضياتها، وجهة العبودية ومقتضياتها، ولكل واحدة من الجهتين طريقان:

وبيان ذلك: أن الشفيع لدى شفاعته للعباد يمكنه أن يطرق أبواب الكمالات الربوبية ويتخذها وسيلة لقبول شفاعته، ولهذه الأبواب طريقان:

الطريق الأول: الدعاء والتضرع بالصفات الجمالية التي تناسب الشفاعة كالعفو والرحمة والصفح والكرم ونحوها، فيطلب من الله سبحانه أن يعفو عن عباده المذنبين أو القاصرين ليعفو عنهم ويرفع عنهم العقاب، أو يرفع

لهم الدرجات، وحيث إن من مقتضيات مقام الربوبية الاستجابة لاتصافه بصفات الكمال بتمامها وكمالها فلا بد وأن يستجيب لوجود المقتضي وانعدام المانع، وبه وردت الأخبار(١):

منها: ما رواه سلمان وأبو ذر قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الله أعطاني مسألة فاخرت مسألتي لشفاعة المؤمنين من أمتي يوم القيامة»(٢) وقريب منه ورد عن أنس بن مالك(٣).

ومنها: ما ورد في المحاسن بسنده عن معاوية بن وهب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾(٤) قال: «نحن والله المأذون لهم في ذلك اليوم والقائلون صوابا». قلت: جعلت فداك وما تقولون؟ قال: «نمجد ربنا، ونصلي على نبينا، ونشفع لشيعتنا فلا يردنا ربنا»(٥) وقريب منه ورد عن الكاظم عليه السلام أيضاً(٦).

ومنها: رواية عيص بن القاسم عن أبي عبد الله عليه السلام في رفع بني هاشم والأنبياء الشفاعة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث طويل فصل فيه كيفية الشفاعة للنبي صلى الله عليه وآله، وقد ورد فيه أنه يخر ساجداً يمجد ربه بالعظمة فيأتيه

١ - انظر الخصال: ص٤٠٧-٤٠٨، ح٦؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٦٢-٦٣، ح٢١٣؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٣٩، ح١٩.

٢ - الأمالي (للطوسي): ص٥٦، ح٢.

٣ - الخصال: ص٢٩، ح١٠٣.

٤ - سورة النبأ: الآية ٣٨.

٥ - المحاسن: ص١٨٣، ح١٨٣.

٦ - انظر تأويل الآيات الظاهرة: ص٧٦٠، ح٨، تفسير الآية المزبورة من سورة النبأ.

ملك فيقول: ارفع رأسك، وسل تعط واشفع تشفع[1].

وقريب منه ورد في رواية خيثمة الجعفي عنه عليه السلام[2]، ورواية عبيد بن زرارة عنه[3] عليه السلام، ورواية سماعة عن أبي إبراهيم[4] عليه السلام، وقد اتخذ الأئمة عليهم السلام هذا الأسلوب طريقاً للقرب ونيل المقامات العالية عبر أدعيتهم ومناجاتهم، والذي هو رتبة من مراتب الشفاعة، ويمكن أن نمثل له بمناجاة الإمام زين العابدين عليه السلام المسماة بدعاء أبي حمزة الثمالي؛ إذ ورد فيه فقرات عديدة تدل على هذه الحقيقة منها قوله عليه السلام: «يا محسن يا مجمل يا منعم يا مفضل لسنا نتكل في النجاة من عقابك على أعمالنا، بل بفضلك علينا؛ لأنك أهل التقوى وأهل المغفرة تبدئ بالإحسان نعماً، وتعفو عن الذنب كرماً، فما ندري ما نشكر! أجميل ما تنشر؟ أم قبيح ما تستر؟»[5] واشتهر القول بينهم: «اللهم عاملنا بفضلك ولا تعاملنا بعدلك»[6] وهذا الأسلوب من مفاتيح الشفاعة الإلهية التي إذا سلكها الشفيع يضمن الاستجابة؛ لأن المولى واسع كريم يقبل اليسير ويعفو عن الكثير.

---

١ – انظر تفسير العياشي: ج٢، ص٣٣٦، تفسير سورة الإسراء، ح١٤٧؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٤٨، ح٤٨.

٢ – انظر تفسير العياشي: ج٢، ص٣٣٣، تفسير سورة الإسراء، ح١٤٥؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٤٦، ح٤٦.

٣ – انظر تفسير العياشي: ج٢، ص٣٣٧، تفسير سورة الإسراء، ح١٥٠؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٤٨، ح٥١.

٤ – انظر تفسير العياشي: ج٢، ص٣٣٧–٣٣٨، تفسير سورة الإسراء، ح١٥١؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٤٩، ح٥٢.

٥ – الصحيفة السجادية: ص٢١٨.

٦ – شرح أصول الكافي: ج١٠، ص٢١٤، ح٢٠.

الطريق الثاني: القرب والمكانة، فإن الشفيع بما له من مقام وكرامة عند الله سبحانه يمكنه أن يجعل كرامته ومقامه واسطة بين المولى وبين عبده، ويشفع له عند ربه ليعفو ويتجاوز عنه، أو يعطيه من الفضل ما يريد، وهذا الطريق أيضاً مضمون الاستجابة؛ لوجود المقتضي وانعدام المانع، ولاسيما وأن الباري عز وجل يحب أن يظهر فضل أوليائه ومكانتهم بين الخلق حباً لهم، أو إكراماً لهم، أو مكافأة لحسن طاعتهم، أو جزاء وفاقاً لأعمالهم، بناء على أن الجزاء مسانخ للعمل، أو هو نماء له وثمرة، وقد تضافرت الروايات في بيان هذا الطريق بعضها تقدم ذكره في مراتب الشفعاء، ونكتفي هنا ببعض آخر:

منها: ما ورد عن الصادق عليه السلام قال: «إذا حشر الله الناس في صعيد واحد أجل الله أشياعنا أن يناقشهم في الحساب، فنقول: إلهنا هؤلاء شيعتنا، فيقول الله تعالى: قد جعلت أمرهم إليكم، وقد شفعتكم فيهم، وغفرت لمسيئهم، أدخلوهم للجنة بغير حساب»[٧] وقد وردت بهذا المضمون روايات عديدة[٨].

ومنها: رواية الصدوق قدس سره بإسناده عن أبي الحسن عليه السلام قال: «شيعتنا الذين يقيمون الصلاة، ويأتون الزكاة، ويحجون البيت الحرام، ويصومون شهر رمضان، ويوالون أهل البيت عليهم السلام، ويتبرؤون من أعدائهم- وساق الحديث إلى أن قال -: وإن أحدهم يشفع في مثل ربيعة ومضر، فيشفعه الله فيهم لكرامته على الله عز وجل»[٩].

٧ - تأويل الآيات الطاهرات: ج٢، ص٧٨٨، ح٦؛ وانظر بحار الأنوار: ج٨، ص٥٠، ح٥٦.
٨ - انظر بحار الأنوار: ج٨، ص٥٠، ح٥٤، ح٥٥، ح٥٧.
٩ - صفات الشيعة: ص٨٢-٨٣، ح٥؛ وانظر بحار الأنوار: ج٨، ص٥٩، ح٧٩.

ومنها: ما رواه الصدوق قدس سره في الأمالي بإسناده عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «كأني أنظر إلى ابنتي فاطمة وقد أقبلت يوم القيامة على نجيب من نور عن يمينها سبعون ألف ملك، وعن يسارها سبعون ألف ملك، وخلفها سبعون ألف ملك، تقود مؤمنات أمتي إلى الجنة، فأيما امرأة صلت في اليوم والليلة خمس صلوات، وصامت شهر رمضان، وحجت بيت الله الحرام، وزكت مالها، وأطاعت زوجها، ووالت علياً بعدي دخلت الجنة بشفاعة ابنتي»(١).

والشفاعة هنا تحمل إما على زيادة درجات النساء لأنهن كن مطيعات، أو إنهن من قبيل اللواتي يخلطن عملاً صالحاً بآخر سيئا جمعاً بين الأدلة، وقد فصلت بعض الأخبار الأخرى مشاهد هذا الطريق، وكشفت عن بعض غوامضه لا مجال لذكرها هنا(٢).

وفي أدعية الأئمة عليهم السلام ما يشير إلى سلوكهم لهذا الطريق لبلوغ الغايات والمرامي، ففي دعاء أيام شهر رمضان ورد: «اللهم رب الفجر والليالي العشر والشفع والوتر، ورب شهر رمضان وما أنزلت فيه من القرآن، ورب جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وجميع الملائكة المقربين، ورب إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ورب موسى وعيسى، وربّ جميع النبيين والمرسلين، ورب محمد خاتم النبيين صلواتك عليه وعليهم أجمعين، أسألك بحقهم

١ - انظر الأمالي (للصدوق): ص٣٩٣، ح١٨.

٢ - انظر تفسير الفرات: ص٤٤٤-٤٤٦، ح٥٨٧؛ ص٢٩٨-٢٩٩، ح٤٠٣؛ تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص١٢٧-١٢٩، ح٤؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٥١-٦٢،ح٥٩، ح٦٢، ح٨٢.

عليك، وبحقك العظيم لما صليت عليه وآله وعليهم أجمعين ونظرت، إلي نظرة رحيمة ترضى بها عني رضا لا سخط عليّ بعده أبداً، وأعطني جميع سؤلي ورغبتي وأمنيتي وإرادتي، وصرفت عني ما أكره وأحذر وأخاف على نفسي وما لا أخاف، وعن أهلي ومالي وأخواني وذريتي»[١].

وأما الجهة العبودية فيمكن للشفيع أن يأخذ بنهج العبودية وآدابها، ويتخذه وسيلة للشفاعة أيضاً، ولهذا النهج طريقان:

الطريق الأول: إظهار العجز والفقر والحاجة إلى المولى عز وجل، والإقرار بالذنب والمعصية والتقصير في حقه، فإن هذا الموقف يجعله متواضعاً أمام ربه، خاضعاً مستكيناً متوسلاً برأفته ورحمته وحنانه في أن يرفع عنه الحاجة والفقر، ويعفو عن ذنبه، وبذلك يكون قد أوجد المقتضي لنزول الرحمة الإلهية والعفو؛ لأن الإقرار بالذنب والاعتراف بالتقصير يوجد مقتضيات الاستجابة عند المولى، ومقتضيات الاستحقاق عند العبد، فلذا يقبل منه دعاءه، ويحقق له ما يريد؛ لأن رده والحال هذه لا يتناسب مع كمال المولى وجماله، كما يتنافى مع قدسه وجلاله؛ لأنه وعد بالقبول والاستجابة.

والعمدة في هذا طريق ليس إظهار الشفيع فقره وحاجته هو؛ لأن هذا أمر معروف منه جبلت عليه أطباعه وأخلاقه، ولذا بلغ الدرجات العالية، ونال مقام الشفاعة، وإنما إظهار حاجة المشفوع له وفقره وعجزه لولا أن يشمله عطف ربه ورحمته، فيكون قول الشفيع واسطة الدعاء والاستجابة معاً.

---

١ - تهذيب الأحكام: ج٣، ص١١٣، ح٣٨؛ المقنعة: ص٣٣٦؛ وانظر الصحيفة السجادية: ص٢٣٧.

وقد اتبع الأئمة عليهم السلام هذا الطريق في ادعيتهم ومناجاتهم، واتخذوه طريقاً للقربة واستنزال الفيوضات الإلهية، فمن باب المثال نذكر بعض ما ورد في دعاء أبي حمزة الثمالي حيث يقول عليه السلام: «إلهي لا تؤدبني بعقوبتك، ولا تمكر بي في حيلتك، من أين لي الخير يا ربّ ولا يوجد إلاّ من عندك؟ ومن أين لي النجاة ولا تستطاع إلاّ بك؟ لا الذي أحسن استغنى عن عونك ورحمتك، ولا الذي أساء وأجترأ عليك ولم يرضك خرج عن قدرتك»[1] «أدعوك يا سيدي بلسان قد أخرسه ذنبه، رب أناجيك بقلب قد أوبقه جرمه، أدعوك يا رب راهباً راغباً راجياً خائفاً، إذا رأيت مولاي ذنوبي فزعت، وإذا رأيت عفوك طمعت، فإن غفرت فخير راحم، وإن عذبت فغير ظالم، حجتي يا الله في جرأتي على مسألتك مع اتياني ما تكره جودك وكرمك، وعدّتي في شدتي مع قلة حيائي منك رأفتك ورحمتك، وقد رجوت أن لا تخيب بين ذين وذين منيتي، فصل على محمد وآل محمد، وحقق رجائي، واسمع ندائي يا خير من دعاه داع، وأفضل من رجاه راج. عظم يا سيدي أملي، وساء عملي، فأعطني من عفوك بمقدار أملي، ولا تؤاخذني بأسوأ عملي، فإن كرمك يجل عن مجازاة المذنبين، وحلمك يكبر عن مكافاة المقصرين، وأنا سيدي عائذ بفضلك، هارب منك إليك، متنجز ما وعدت من الصفح عمن أحسن بك ظناً، وما أنا يا رب وما خطري؟ هبني بفضلك، وتصدق عليّ بعفوك»[2].

ونلاحظ أن هذا النحو من التواضع والتأدب أمام المولى العظيم الرؤوف الرحيم يحقق للعبد غاياته، ويوفر له الدواعي الكاملة لاستجابة دعائه،

١ - الصحيفة السجادية: ص٢١٤؛ مصباح المتهجد: ص٥٨٢.

٢ - بحار الأنوار: ج٩٥، ص٨٣، ح٢.

وتحقيق أمنياته، سواء كانت لنفسه أو كانت لغيره.

ولعل مما يقوي احتمال أن يتبع الشفعاء هذا الطريق في الآخرة أيضاً هو وحدة الصفات والأخلاق والمقامات المعنوية التي يتمتع بها أولياء الله سبحانه في تعاملهم مع ربهم، ولذا جعلهم عباده المقربين، وأعطاهم من الفضل ما لم يعط أحداً من العالمين.

الطريق الثاني: التوبة والندم على الذنوب والمعاصي، فقد نصت الأخبار الشريفة أن «لا شفيع أنجح من التوبة»[1] كما نصت على أن فرصة التوبة مفتوحة إلى آخر لحظة من حياة العبد، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من تاب قبل أن يعاين قبل الله توبته»[2] أي يعاين عالم الآخرة في ساعة الاحتضار، وعن الباقر عليه السلام قال: «من تاب إذا بلغت نفسه إلى هذه - وأشار بيده إلى حلقه - تاب الله عليه جل وعز»[3] وأدنى مراتب التوبة هو الإقرار بالذنب، فإن العبد يضمن به الغفران والعفو، فقد ورد عن الباقر عليه السلام قال: «لا والله ما أراد الله من الناس إلاّ خصلتين: أن يقروا له بالنعيم وبالذنوب فيغفرها لهم»[4].

والسر في ذلك هو أن الإقرار بالذنب يخرج العبد من حيطة غضب الله إلى حبه ورضاه سبحانه، وإذا رضي الله على عبد تجاوز عنه، وإليه يشير قوله تعالى:

١ - انظر بحار الأنوار: ج٨، ص٥٨، ح٧٥؛ شرح مئة كلمة: ص١٩٩؛ المناقب (للخوارزمي): ص٣٧٥.

٢ - الكافي: ج٢، ص٤٤٠، ح٢؛ مشكاة الأنوار: ص٢٠٠، ح٥٢٢.

٣ - من لا يحضره الفقيه: ج١، ص١٣٣، ح٣٥١؛ مشكاة الأنوار: ص٢٠٠، ح٥٢٣.

٤ - الكافي: ج٢، ص٤٢٦، ح٢.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾[١] وقد ورد عن الصادق عليه السلام في معناها: «من أحبه الله لم يعذبه»[٢] وهنا نلفت النظر إلى حقيقة وهي: أن التوبة من الذنوب ولو في أدنى مراتبها أي الإقرار بالذنب يوفر أثرين هامين في الشفاعة:

الأول: يوفر قابلية ولياقة في العبد لقبول الشفاعة في حقه، وقد مر عليك أن العبد حتى يكون لائقاً بمقام الشفاعة لابد وأن يوجد المقتضيات في نفسه، ويزيل الموانع، ولولا ذلك يكون قد حرم نفسه من نعمة العفو والرحمة، وهو ما نصت عليه بعض الأخبار أيضاً[٣]، ويتحقق المقتضي عنده بصحة معتقده ليكون مرضياً عند الله سبحانه، ويرفع المانع بالإذعان والإقرار بالعبودية لله سبحانه والإقرار بذنوبه.

والثاني: يوفر فرصة للشفيع في أن يتصدى ليشفع له، بمعنى أن يجعل العبد في حال يجد الشفيع أن طلب الشفاعة له لا يتنافى مع حكمة الله ولا سننه؛ إذ كتب سبحانه وتعالى أن لا يقبل شفاعة في فاسد العقيدة والمعاند، وعدم التوبة ولو في أدنى مراتبها يجعل العبد في مصاف المعاندين المطرودين عن الرحمة، فلو لم يفعل العبد ما يوجب استحقاق الشفاعة في نفسه يكون قد أعان على نفسه بدخول النار؛ إذ لا يشفع له شافع، ولو شفع لم تقبل شفاعته، وذلك لا لقصور في فاعليه الفاعل والعطاء الإلهي والرحمة الربانية، بل لعدم قابلية القابل.

١ - سورة البقرة: الآية ٢٢٢.
٢ - الكافي: ج٢، ص٤٣٢، ح٥؛ مشكاة الأنوار: ص٢٠٠، ح٥٢١.
٣ - انظر الكافي: ج٢، ص٤٢٦، ح١؛ مشكاة الأنوار: ص٢٠١، ح٥٢٧.

ويؤكد هذا النهج وأهميته في تحصيل الفيض الإلهي ودخول العبد في ظل الرحمة الإلهية أدب الأئمة عليهم السلام في أدعيتهم ومناجاتهم، منها: ما ورد في مناجاة التائبين عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «إلهي إن كان الندم على الذنب توبة فإني وعزتك من النادمين، وإن كان الاستغفار من الخطيئة حطة فإني لك من المستغفرين، لك العتبى حتى ترضى»[1].

ونلاحظ أن الإمام عليه السلام يطرق باب الوعد بالوفاء الإلهي لتحصيل الرحمة، وهو وعده للنادمين والمستغفرين بالإجابة والقبول، وهذا الطريق ذاته يمكن طرقه في الشفاعة إذا حشر العبد المشفوع له مقراً مذعناً بذنوبه، وهنا نؤكد حقيقتين:

الحقيقة الأولى: أن هذه الطرق الأربعة للشفاعة ليست حصرية؛ لأنها غير مأخوذة من القواعد العقلية ولا من الاستقراء التام، بل ناشئة من المستفاد من النصوص والأدعية والمناجاة، وربما تكون هناك طرق أخرى يسلكها الشفعاء بحسب المقتضيات والدواعي.

الحقيقة الثانية: أن المستفاد من الأخبار الشريفة أن الطريق الغالب اتباعه في الشفاعة هو طريق القرب والمكانة؛ لأنه أنسب بغايات الشفاعة من إظهار كرامة أولياء الله ومقاماتهم في المحشر، أو مجازاة لهم على عبوديتهم المطلقة لله سبحانه، إلاّ أنه لا مانع من اتباع سائر الطرق الأخرى معه دفعة واحدة؛ لتداخل المقامات المعنوية مع بعضها، فالقضية في هذا التقسيم ليست مانعة الجمع، لاسيما وأن الشفاعة تتضمن الدعاء والتضرع.

١ - الصحيفة السجادية: ص٤٠٢؛ وانظر بحار الأنوار: ج٩١، ص١٤٢، ح٢١.

ومقتضى الأدب في هذا المقام أن يطرق العبد أبواب الجمال والكمال الإلهي أولاً؛ ليكون ذا مكانة يليق بسماع دعواه ومناجاته، ثم يقر بعبوديته وضعفه وحاجته، ويعترف بتقصيره أو قصوره عن بلوغ غاياته؛ ليوفر في نفسه المقتضي التام للاستجابة، ويزيل عنها الموانع، وهذا ما نلحظه جلياً في أسلوب الأئمة الطاهرين عليهم السلام في أدعيتهم ومناجاتهم مع الله عز وجل، وهو في الوقت الذي يكشف عن حقيقة العبودية يعلم طريق الدعاء والمناجاة، ويرشد إلى نهج الشفاعة في الآخرة. رزقنا الله سبحانه شفاعتهم عليهم السلام في الدنيا والآخرة إنه سميع مجيب.

الفصل الرابع

في الجنة والنار والحياة الأبدية

وفيه تمهيد ومباحث:

المبحث الأول: في الحقائق المشتركة بين الجنة والنار.

المبحث الثاني: في أوصاف الجنة وأهلها.

المبحث الثالث: في أوصاف النار وأهلها.

تمهيد:

الجنة والنار هما آخر محطة تصل إليها مسيرة الإنسان في حياته، وبها تختتم رحلته الدنيوية، ويصفى حسابه الأخروي بالكامل، ويحكم عليه بدخول الجنة أو بالعذاب في النار، وهنا نلفت النظر إلى حقيقتين:

الحقيقة الأولى: أن الإنسان إذا دخل الجنة فلا خروج له منها أبداً. نعم له أن يطلع على العوالم الأخرى، كعالم أهل النار وعالم الأعراف إن قيل بوجوده بعد انقضاء الحساب، إلاّ أنه إذا كوفئ بدخول الجنة فإنه لا يتعذب بعد ذلك أبداً؛ لأن الجنة مظهر رحمة الله ورضوانه، فنعيمها أبدي، أكلها دائم وظلها، ولذا يخلد أهل الجنة بنعيمها، بخلاف أهل النار فإنهم على أصناف ودرجات، فبعضهم يقضون فترة فيها يتعذبون ويحرقون حتى ينالوا جزاءهم العادل، ثم يخرجون منها ويدخلون الجنة برحمة الله وفضله، وبعضهم يقضون مدة ثم تنالهم شفاعة الشافعين، فيعفى عنهم، ثم يدخلون الجنة، وبعضهم يبقون فيها خالدين في العذاب، وهم أصول الشرك والنفاق والنصب والعداوة لآل محمد عليهم السلام على ما عرفت تفصيله، فإنهم يكونون حطباً لجهنم بهم تشتعل وتتوقد[1].

---

١ - انظر مجمع البيان: ج١٠، ص١٥٠، تفسير الآية ١٥ من سورة الجن.

إذ قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[١] وورودها بشأن الجن لا يضر بالدلالة. إما من جهة أن القانون في أصل التكليف وفي الجزاء عليه واحد بين الجن والإنس، أو بناء على أن المورد لا يخصص الوارد، أو إطلاق المنطوق، وأصرح منها قوله سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[٢] إذ دل على أن المشركين المعاندين وأصنامهم جميعاً يكونون حطباً لجهنم. أما المشركون فجزاء لأعمالهم، وأما الأصنام فلأن إحراقها يكون تعذيباً للمشركين وزيادة في حسرتهم وغمهم، وتسخيفاً لأفكارهم؛ إذ كانوا يقدسونها ويتقربون إليها زلفاً[٣].

الحقيقة الثانية: أن كل ما يتعلق بنعيم الجنة وصفاتها وأحوالها فهو من تشبيه المعاني غير المحسوسة بالحس؛ لأجل التقريب إلى الأذهان، وأما الوصول إلى حقيقة الجنة وواقع خصوصياتها وصفاتها فهذا أمر مما يدرك في أوانه ولا يوصف؛ لقصور اللغة عن بيان معانيها الحقيقية، وقصور العقول عن بلوغ حقائقها الواقعية، فكلما يقال عن طعامها وشرابها ولذاتها فهو للتشبيه والتقريب، وكلما تتحدث عنه الآيات والأخبار فهو على قدر فهمنا لا على قدر واقعها.

ومن هنا اختصر الباري عز وجل البيان عن هذه الحقيقة بقوله: ﴿وَفِيهَا

١ - سورة الجن: الآية ١٥.

٢ - سورة الأنبياء: الآية ٩٨.

٣ - انظر مجمع البيان: ج٧، ص١١٥؛ تفسير الأمثل: ج١٠، ص١٧١؛ تفسير الآية ٩٨ من سورة الأنبياء.

مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[١] وفي آية أخرى وسّع في الدلالة؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾[٢] لأن كل ما يقال أو يتحدث عن الجنة ونعيمها فهو أقل من غيض من فيض، فلذا لا يملك الباحث في هذه الحقيقة سوى التسليم لما ورد به النص، ويتعبد بما دل عليه من حيث الكبرى والاكتفاء بالمعنى الإجمالي من حيث الصغرى، وأما الخوض في مزيد التفصيل فيه سيكون خروجاً عن النهج العلمي، بل ولا يأمن فيه من الرجم بالغيب؛ لأن الموضوع أكبر من مدارك العقل والشعور، وأعمق مما يتصوره الإنسان، وهذه الحقيقة لا تختص بالجنة فقط ، بل تشمل النار أيضاً؛ لأنهما من هذه الجهة في وزان واحد.

ومن هنا قال الطبرسي رحمه الله في المجمع: قد جمع الله سبحانه بقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ ما لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يصفوا ما في الجنة من أنواع النعيم لم يزيدوا على ما انتظمته هاتان الصفتان[٣]، ونلفت النظر هنا إلى دلالتين أخريين:

الأولى: أن الآية أضافت الشهوة إلى الضمير؛ إذ قالت: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ ولم تقل: تَلَذُّه الأَعْيُنُ، وفي ذلك إشارة إلى أن لذة العين أوسع من لذة النفس؛ لأن عود الضمير إلى الموصول يحدده في بعض الأشياء، وفي الآية إشارة أيضاً إلى أن لذة العين أرقى من لذة النفس؛ لأنها تجمع أكثر من لذة،

١ - سور الزخرف: الآية ٧١.

٢ - سورة فصلت: الآية ٣١.

٣ - مجمع البيان: ج٩، ص٩٤، تفسير الآية المزبورة.

وهي ما يحس وما يوصف وما يدرك ولا يوصف، بخلاف لذة النفس فإنها تقتصر على ما يحس فقط.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ يحتمل معنيين:

احدهما: ما تطلبون مأخوذ من الادعاء، أي لكم ما تطلبونه وتتمنونه، و (لكم) وعد يتضمن حتمية التحقق.

ثانيهما: ما تسألون مأخوذ من الدعاء كما في قوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] والمعنى الأول هو الأوفق بقواعد اللغة وبالظهور العرفي، كما أنه أنسب بمقتضى الحال في الجنة، ودلالته أوسع من الثاني؛ لأن الثاني يتوقف على الدعاء والاستجابة.

والخلاصة: أن كل ما يقال عن الجنة والنار في هذه الأبحاث فهو لتقريب المعنى، وأما المعنى الحقيقي فهو مما لا يمكن الوصول إليه عبر الكلمات والصور، وتكفينا هنا دلالة الخبر الصحيح بطرق الفريقين عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يقول أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[2].

وكيف كان، فالبحث في حقيقة الجنة والنار وأحوالهما يقع في مباحث:

---

١ - سورة الأنعام: الآية ٤٠.

٢ - انظر مجمع البيان: ج٨، ص١٠٨، تفسير الآية المزبورة.

المبحث الأول
في الحقائق المشتركة بين الجنة والنار

وفيه مطالب:

المطلب الأول: في حقيقة الجنة والنار

الجنة – بفتح الجيم – في اللغة كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض[١]، وفي ذلك ورد قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾[٢] إذ كان من كثرة النعم أن المرأة كانت تمشي والمكتل على رأسها فيمتلئ بالفواكه من غير أن تمس بيدها شيئاً[٣]، وقيل لا تكون الجنة إلاّ وفيها نخل وعنب، فإن لم يكن فيها ذلك كانت حديقة، ومن هنا ذكر القرآن وجود النخل والعنب في جنة الله[٤].

وأصلها الجن – بفتح الجيم – وهو ستر الشيء عن الحاسة. يقال: جن

١ – مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٠٤ (جن)؛ مجمع البحرين: ج٦، ص٢٢٧، (جن).
٢ – سورة سبأ: الآية ١٥.
٣ – انظر مجمع البيان: ج٨، ص٢٠٩، تفسير الآية المزبورة.
٤ – انظر لسان العرب: ج١٣، ص١٠٠، (جنن).

عليه الليل أي ستره، ويقال للقلب الجنان؛ لأنه مستور عن الحاسة[١]، والجن سموا بذلك لأنهم مستترون عن أعين الخلق، وفيه قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[٢] وسميت دار جزاء المؤمنين في الآخرة جنة إما تشبيهاً بالجنة في الأرض وإن كان بينهما بون من باب تقريب غير المحسوس بالمحسوس، وفيه ورد ما رواه الصدوق رحمه الله بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه سئل لم سميت الجنة جنة؟ قال: «لأنها جنينة خيرة نقية، وعند الله تعالى ذكره مرضية».[٣]

وإما لأن نعمها مستورة عن أهل الدنيا، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٤] ويشهد لكل ذلك ما ورد عنهم عليهم السلام: «كل شيء من الدنيا سماعه أعظم من عيانه، وكل شيء في الآخرة عيانه أعظم من سماعه»[٥].

والنار يقال للهيب الذي يبدو للحاسة[٦]. قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾[٧] أي تظهرون النار بالقدح والإشعال[٨]، وتطلق على الحرارة

---

١ - مجمع مقاييس اللغة: ص١٨٤، (جن)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٠٣، (جن).
٢ - سورة الأعراف: الآية ٢٧.
٣ - علل الشرائع: ج٢، ص٤٧٢، ح٣٣؛ وانظر بحار الأنوار: ج٨، ص١٨٨، ح١٥٧.
٤ - سورة السجدة: الآية ١٧.
٥ - عدة الداعي ونجاة الساعي: ص١٠٩؛ بحار الأنوار: ج٨، ص١٩١، ح١٦٨.
٦ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٢٨، (نور).
٧ - سورة الواقعة: الآية ٧١.
٨ - انظر مجمع البيان: ج٩، ص٣٧٠.

المحرقة أيضاً[1]، واختلاف الإطلاق ناشئ من اختلاف الرتبة لا الحقيقة على ما حققناه في الأصول.

وأما في المصطلح فإن الجنة هي دار النعيم المعدة للمؤمنين في الآخرة، وليس هذا من باب التعريف بالحد أو بالرسم، بل الإشارة إلى مجمل المعنى. إما للقصور عن إيجاد تعريف جامع مانع لها نظراً لقصور الإطلاع عليها، أو لعدم الحاجة إليه نظراً لمعروفية معناها ووضوحه، وتمتاز بخصوصيات كثيرة نكتفي بثلاث منها:

الأولى: أنها ظرف للجزاء وليست ذات الجزاء؛ لأنها دار إقامة محفوفة بالنعيم المادي والمعنوي، ومن النعيم المعنوي رضوان الله، وهو أكبر، وذلك الفوز العظيم كما نصت عليه الآية الشريفة، ومنه المقامات المعنوية التي ينالها المؤمن في الجنة نظير مقعد الصدق عند مليك مقتدر، ومرافقة الأنبياء والأولياء والشهداء والصالحين، إلى غير ذلك من نعم عظيمة هي أكبر من الجنة بمعناها المادي المحسوس.

الثانية: أن أُكلُها دائم وظلُها، فلا حرمان فيها ولا نقصان، ولا كسل ولا هم ولا غم.

الثالثة: أنها حية خالدة فلا موت فيها ولا ضعف ولا مرض، وكل ما فيها حي مدرك وناطق في أرقى ما تكون الحياة والإدراك والشعور، وهذه من خصوصيات عالم الآخرة كما مر عليك، وسنأتي ببعض تفاصيل أحوالها.

وعلى هذا يظهر أن إطلاق لفظ الجنة على هذه الحقيقة العظيمة من باب

---

١ - المعجم الوسيط: ج٢، ص٩٦٢، (النار).

الحقيقة الشرعية؛ لاشتراك جنة الدنيا بجنة الآخرة في اللفظ دون الحقيقة والآثار والخصوصيات، وربما يكون من باب الحقيقة اللغوية من باب أن دار النعيم هو المصداق الأكمل للجنة، والأول أقوى، وما يقال في الجنة يقال في النار أيضاً في جهة العذاب.

وكيف كان، فيجب الاعتقاد بوجود الجنة والنار وبالتفاصيل التي وردت عنهما في الآيات والأخبار المعتبرة تعبداً؛ لأنها من الحقائق الغيبية التي لا طريق لإثباتها سوى النقل، وقد اتفقت على ذلك كلمة المسلمين، بل هو من الضروريات التي لا يمكن الشك فيها أو إنكارها، واتفقت أيضاً على أن إنكارها مساوق للكفر[1].

١ - انظر بحار الأنوار: ج٨، ص٢٠٥، (فذلكة).

المطلب الثاني: الآراء في الجنة والنار

اختلفت آراء الإلهيين في أن الجنة والنار هل هما من الحقائق الجسمانية المحسوسة أم من الحقائق العقلية أم المثالية على أقوال ثلاثة في مقابل الملاحدة الذين أنكروا وجودها بالكامل استناداً إلى نظريتهم المادية المبنية على الإيمان بالمحسوسات لا غير، وقد عرفت أن هذا المعتقد لا يستند إلى ميزان عقلي ولا قاعدة علمية، بل مخالف للبداهة والوجدان[1]؛ لذا ينحصر البحث في أقوال الإلهيين:

القول الأول: أنهما من الحقائق الجسمانية. ذهب إلى هذا القول عموم المسلمين استناداً إلى الأدلة النقلية من الآيات والأخبار المتواترة الظاهرة أو الصريحة في أن نعيم الجنة وعذاب النار من الحقائق المحسوسة الجسمانية، وليست متوهمة أو متصورة، وحكموا على المنكر لذلك بأنه مجتهد في مقابل

---

١ - الملاحدة هم المنكرون للغيب سموا بذلك من اللحد، وهو الميل عن الحق. انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٣٧، (لحد)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص١٤١،(لحد)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٨١٧،(لحد)؛ ويسمون بالماديين إذا دار البحث معهم عن الوجود، ويسمون بالحسيين أو التجربيين إذا دار البحث معهم عن المعرفة في مقابل العقليين، وهم الذين يقرون بأن الوجود يشمل ما وراء المادة والماديات، وهم صنفان طبيعيون وإلهيون، والإلهيون هم الذين يقرون بوجود خالق للكون.

النصوص، ومدخل في الدين ما ليس فيه، فلذا صرح بعضهم بعدم الريب في كفره[١] في صورة علمه وتعمده مع التفاته إلى لوازم قوله كما قرره الفقهاء في كفر منكر الضروري.

وهذه المسألة ترجع إلى مسألة المعاد الجسماني أيضاً؛ بداهة أن القائل بالمعاد الجسماني لابد وأن يلتزم بأن العذاب والنعيم كذلك، والمنكر لذلك منكر لهذا أيضاً، وقد مر عليك غير مرة أن الغيبيات ينبغي أن يتوقف فيها على ما جاء به الشرع، وقد نص الشرع على أن المعاد جسماني وأن الثواب والعقاب فيه بعضه جسماني محسوس وبعضه نفسي، بناء على أن النفس ليست جسمانية، وسنمر من خلال البحث على جملة من النصوص الصريحة في هذا المضمون.

القول الثاني: للحكماء المشائين؛ إذ ذهبوا إلى أن الجنة والنار وعموم الثواب والعقاب ليس جسمانياً، بل عقلياً يرجع إلى اللذات والآلام العقلية، نظير شعور الجاهل بالجهل، فإنه يتضمن ألماً عقلياً في مقابل شعور العالم بالعلم فإنه لذة عقلية، ويستند هذا القول على ثلاث دعاوى:

الأولى: أن النفس الإنسانية حقيقة مجردة وليست جسمانية.

الثانية: أن النفس البشرية أبدية[٢] لا تفنى بخراب البدن؛ لاستحالة إعادة المعدوم[٣]، فجميع اللذات والآلام تعود إليها.

---

١ - انظر حق اليقين: ص٤١٣.

٢ - وقد اختلفوا في أنها من حيث الحدوث أزلية أم لا على قولين، وحكي الأول عن أفلاطون، والثاني عن ارسطوا؛ انظر حق اليقين: ص٤٦٤؛ درر الفوائد، ص٣٤٢-٣٤٣.

٣ - انظر كشف المراد: ص٢٠١.

الثالثة: أن الحشر والمعاد يكون لهذه النفس، وأما الجسد فلا يعاد ولا يحشر؛ لأنه ليس إلاّ مركباً تمتطيه الروح في الدنيا، فإذا انتقلت إلى النشأة الأخرى تتركه في هذه النشأة، وبما أن الثواب والعقاب يتعلقان بالنفس، وحيث إنها مجردة فلابد وأن تكون لذتها بثوابها وألمها بعقابها كذلك، وليس إلاّ اللذة العقلية؛ لأن الحقائق العقلية مجردة، ولعدم وجود ضد ثالث بين اللذتين الجسمية والعقلية[١]، ووجهوا اللذة العقلية بالكمال والنقص، فعرّفوا اللذة بإدراك النفس للملائم من حيث هو كذلك، والألم بإدراك المنافر من حيث هو كذلك[٢]، وعلى هذا الأساس يكون كل كمال تدركه النفس هو لذتها وجنتها؛ لأنه ملائمها، وكل فقد للكمال هو نقص يكون ألمها ونارها.

وهذه اللذة والألم إنما تدركهما النفوس في الآخرة دون الدنيا؛ لأنها في ذلك العالم تكون منفصلة عن البدن، فتتمحض في لذاتها وآلامها هي، بخلاف الدنيا فإنها منغمسة في تدبير البدن، مقيدة بالكدورات المادية والشؤون العنصرية للبدن، وهذا مانع من إدراكها لآلامها ولذاتها، أو لأن الناس بسبب انغمارهم في اللذات الحسية يعقلون ما يليق بالنفس الإنسانية ويلائمها، فلذا لا يدركون اللذات العقلية[٣].

والنتيجة المترتبة على هذا القول هو لزوم تأويل سائر الآيات والروايات الدالة على أن الجنة والنار حقائق جسمانية، وحملها على خلاف ظهورها، وقد تقدم الكلام مفصلاً عن ذلك في باب المعاد الجسماني، ويكفينا في جواب

١ – كشف المراد: ص٢٧٢.

٢ – انظر توضيح المراد: ص٣٦٢.

٣ – انظر توضيح المراد: ص٣٦٧؛ كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج٢، ص١٤٠٤.

ما ذكر هو النصوص الصريحة الدالة على أن الجنة والنار والنعيم والعذاب حقائق محسوسة وليست مجرد صور عقلية، والقول المذكور لا يخلو من تخرصات وظنون لا يستند إلى دليل أو برهان، بل قد عرفت أن الحقائق الغيبية خارجة عن حيطة العقل والقواعد العقلية، فلا بد من التوقف على ما جاء به النص، وحمل النص على خلاف معناه من دون دليل هو تقول وتفسير بالرأي أبطله العقل، وحرمه الشرع.

القول الثالث: للحكماء الإشراقيين، حيث ذهبوا إلى أن الجنة والنار وسائر ما ورد به الشرع من تفاصيل في شأن الآخرة ليس من قبيل الأجسام والجسمانيات، وليس من عالم العقل والمجردات أيضاً، بل هو من عالم ثالث متوسط بينهما عبروا عنه بعالم المثال، وبعالم النفوس أيضاً، وبعالم الملكوت، وقالوا هو عالم فوق عالم الشهادة وأدنى من عالم الأرواح، وعالم الشهادة هو ظل لعالم المثال الذي هو الآخر ظل لعالم الأرواح، وكل ما هو في عالم الشهادة فهو موجود في عالم المثال[1].

فعالم المثال كالصورة والمرآة لهذا العالم بكل جزئياته وكلياته، وهناك ترابط بين العالمين، بل ما يحدث في عالم المثال هو انعكاس عن عالم الشهادة، ويمكن أن يكون ما يراه النائم من رؤى صورة من عالم المثال، وبهذا فسروا الثواب والعقاب؛ إذ قالوا: إن الثواب نظير الرؤيا الحسنة، والعقاب كالرؤيا القبيحة، وبغض النظر عن الإشكالات العديدة التي قد ترد على القول نفسه والذي

١ - انظر كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج٢، ص١٤٤٨، ولعل وجه تسميتها بالمثال لأن كل عالم أدنى له مثال في العالم الأعلى، فعالم الحشر والشهادة له مثال في عالم النفوس، وهو الآخر له مثال في عالم الأرواح. انظر درر الفوائد: ص١٠٣.

يخرج تفصيله عن غاية هذا البحث[١]، فإن هذا القول تخرص من القول، ولم يقم عليه شاهد من عقل أو نقل، بل مخالف لصريح القرآن والسنّة، فلا ينجو من محذور الاجتهاد مقابل النص، وتفسير للنصوص بالرأي.

نعم إذا أريد منه عالم المعنى الباطن أو عالم الروحانيات فهو وجيه، وعليه أدلة[٢] ولا يخفى أن البدن المثالي الذي تعيش به الأرواح في عالم البرزخ ليس من هذا العالم، ولا علاقة له به بوجه من الوجوه سوى المشاركة في الاسم؛ بداهة أن الجسم المثالي هو جسم محسوس مادي سوى أنه شفاف، نظير الجسم المصنوع من الشمع الشفاف أو الزجاج تتعلق به الأرواح، وعدم رؤية الشفاف أمر معقول، نظير الملائكة والجن حيث لا نراهم لعدم القدرة على الإحساس بهم مع أنهم حقائق مادية محسوسة.

ومن هنا شدد العلامة المجلسي رحمه الله وغيره من أعلام المسلمين النكير على هذا القول والقول السابق عليه؛ لمخالفتهما لصريح الشرع[٣]، وحيث إن المسألة شرعية لا عقلية لا نطيل الكلام فيها نقضاً أو إبراماً، ونفصل في المضامين التي ورد بها الشرع لكي لا نجانب النهج العلمي، ولا نخوض فيما ليس للعقل والحكمة دخل فيه.

---

١ - حق اليقين: ص٤٦٣.

٢ - انظر مواهب الرحمن: ج٦، ص٣٤٢، تفسير الآية ١٣٣ من سورة آل عمران.

٣ - انظر بحار الأنوار: ج٨، ص٣٢٦- ٣٢٩، ح١٠٢.

المطلب الثالث: في خلق الجنة والنار وعدمه

اختلف علماء الكلام في أن الجنة والنار هل هما مخلوقتان موجودتان مع الخلق في الدنيا أم سيخلقان في القيامة على قولين:

فذهب الإمامية والأشاعرة وهم أكثر العامة إلى أنهما مخلوقتان موجودتان إلاّ أننا لا نحس بوجودهما لوجود المانع، وذهب أكثر المعتزلة والخوارج وطائفة من الزيدية إلى الثاني(١)، ونسب إلى السيد الشريف الرضي رحمه الله من أصحابنا القول به أيضاً(٢).

وعمدة أدلة هذا القول بعض الوجوه العقلية المبنية على مقدمات ناقصة أو استحسانات لا تنهض لتكوين البرهان؛ نظير قولهم بأن خلق الجنة والنار قبل يوم الجزاء عبث، لعدم وجود فائدة فيه، وهو يتنافى مع كمال الخالق وحكمته، وقولهم إن القول بوجودهما يستلزم القول بإهلاكهما قبل يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾(٣) وحيث إن التالي باطل، لاستلزامه لغوية الوجود فالمقدم مثله(٤)، وضعفهما ظاهر؛ لأن الأول مبني

---

١ - انظر حقائق التأويل: ص٢٤٥.

٢ - حقائق التأويل: ص٢٤٥- ٢٤٦.

٣ - سورة القصص: الآية٨٨.

٤ - انظر شرح المقاصد: ج٢، ص٢١٩؛ الإلهيات: ج٤، ص٤٢٢.

على الظن بعدم الفائدة من وجودهما, وأنى لهم بذلك؟ هذا مضافاً إلى ما ستعرفه من قيام الأدلة على وجود الفائدة، لاسيما على القول بتجسم الأعمال، والثاني مبني على أن الهلاك في الآية هو الموت، وليس كذلك؛ لأن المراد من وجه الله سبحانه ذاته المقدسة؛ للجزم بأن غير الجسم والجسماني لا يكون له وجه بالمعنى المتعارف أي الجارحة، فلابد من حمله على المعنى اللغوي، وهو ما يواجه به، وهو بالنسبة له سبحانه ذاته المقدسة، وعلى هذا يكون معنى الهلاك هو الفناء والعدم لا الموت، وحينئذ يكون معنى الآية أن كل الأشياء بلحاظ ذاتها فانية معدومة إلاّ ذاته سبحانه، وهذا لا يمنع أن تكون الأشياء باقية بإرادته وقدرته.

والخلاصة: أن الوجه له معنيان عرفي ولغوي، والثاني هنا أقوى؛ لوجود قرينة عقلية توجب حمل الكلام عليه، وهو أجنبي عن مقصودهم، وعلى فرض أن المعنى العرفي هو المقصود فإنها لا تدل على مطلوبهم؛ لأنها ناظرة إلى الدنيا وشؤونها؛ إذ كل شيء هالك فيها، وأما الجنة والنار فهما من شؤون الآخرة؛ نظير الملائكة والحور، وهي لا تهلك، وأضعف من كل ذلك استدلالهم على مسألة أصولية بنحو من القياس؛ إذ عللوا إنكار خلقهما بأنهما دار جزاء بالثواب والعقاب، فالقول بخلقهما يستلزم اجتماع دار التكليف والجزاء في الدنيا، وهو غير وجيه؛ لعدم صحة اجتماعهما، كما لا يجتمعان في الآخرة، وعمدة دليل القول الأول ظواهر الآيات والروايات.

قال الشيخ المفيد رحمه الله: إن الجنة والنار في هذا الوقت مخلوقتان، وبذلك

جاءت الأخبار، وعليه أجمع أهل الشرع والآثار[١].

وقال التفتازاني: جمهور المسلمين على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن خلافاً لأبي هاشم والقاضي عبد الجبار ومن يجري مجراهما من المعتزلة حيث زعموا أنهما يخلقان يوم الجزاء[٢].

وبنى الشيخ الصدوق رحمه الله على المسألة ثلاثة معتقدات فقال: اعتقادنا في الجنة والنار أنهما مخلوقتان، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد دخل الجنة، ورأى النار حين عرج به، واعتقادنا أنه لا يخرج أحد من الدنيا حتى يرى مكانه من الجنة أو من النار، وأن المؤمن لا يخرج من الدنيا حتى ترفع له الدنيا كأحسن ما رآها، ويرى مكانه في الآخرة، ثم يخير فيختار الآخرة، فحينئذ تقبض روحه[٣]، وقد مر عليك أن العقيدة الثالثة تختص بالمؤمن إكراماً وإعظاماً له، وهنا نلفت النظر إلى ثلاث حقائق:

الحقيقة الأولى: أن البحث في كون الجنة والنار مخلوقتان أم لا يصح على نظرية الجزاء الاعتباري، وأن الثواب والعقاب قضايا يجعلها الباري عز وجل جزاء للأعمال، نظير المكافآت والمعاقبات الدنيوية، وأما على القول بتجسم الأعمال وأن جزاء العمل هو ظهور صورته الواقعية إذ إن الجزاء هو نماء العمل وامتداده أو أنه من قبيل خلق المشابه أو المسانخ كما مر عليك تفصيله، فلا ينبغي الخلاف في وجود الجنة والنار، لأنهما يلازمان وجود

١ – أوائل المقالات: ص١٠٢؛ وانظر كشف المراد: ص٤٥٣؛ الحكمة المتعالية: ج٩، ص١٦٢؛ حق اليقين: ص٤٦٥.
٢ – شرح المقاصد: ج٢، ص٢١٨؛ وانظر شرح التجريد(للقوشجي): ص٥٠٧.
٣ – الاعتقادات (للصدوق): ص٧٩.

العمل ولا ينفكان عنه، وعلى هذا ينبغي على المنكرين لخلق الجنة والنار أن يلتزموا بثلاثة التزامات ليصح قولهم:

الأول: أن يقتصروا في الثواب والعقاب على نظرية الجزاء الاعتباري.

الثاني: أن يؤولوا سائر النصوص الكثيرة الظاهرة أو الصريحة الدالة على أن الجنة والنار موجودتان الآن.

الثالث: أن يؤولوا سائر النصوص الكثيرة الظاهرة أو الصريحة الدالة على تجسم الأعمال والصفات.

الحقيقة الثانية: إن صحة هذا القول - أي إنكار خلق الجنة والنار - يتوقف على الإخلال بدلالة سائر الأدلة النقلية لصالح الوجوه العقلية التي تمسك بها المنكرون، ولو تعذر ذلك في بعض الأدلة، أو قبلوا بأن الجزاء في بعض الأعمال يتجسم فإنه يكفي لبطلانه؛ لأن الموجبة الجزئية تكفي لنقض السالبة الكلية.

الحقيقة الثالثة: أن القول بخلق الجنة والنار لا يعني تحديدهما في مساحة خاصة لا تقبل النماء أو الزيادة، كما لا يعني تحديدهما من حيث النعيم أو العذاب، بمعنى أن الله سبحانه خلقهما وخلق ما بينهما وانتهى الأمر؛ لأن هذا يتنافى مع السعة في الخلق ودوام الفيض الإلهي، كما يتنافى مع نظرية تجسم الأعمال التي تستدعي استمرار النماء والسعة في الجنة وفي النار حسب أعمال بني آدم، بل المراد أنه سبحانه خلقهما قابلين للزيادة والنماء، وربما للنقيصة في بعض الأحوال، والأمر يرجع إلى دوام الفيض والفضل الإلهيين، أو على حسب نماء أعمال الإنسان واستمرارها، وإلى حرمان العبد نفسه منهما. وعلى

هذا فإن قولهم بأن الجنة مخلوقة الآن يراد به معنيان:

أحدهما: أن الجنة من حيث أصلها موجودة مخلوقة، وهي في زيادة ونماء مستمر بحسب ما تقتضيه الحكمة الإلهية، كما هو الحال في سائر الخلق، كما يستفاد من مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[١] وقوله سبحانه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

ثانيهما: أن الجنة بالقياس إلى نوع البشر مخلوقة، وهي مقدرة، وقد أعدها الباري عز وجل مأوى لجميع عباده الصالحين، إلاّ أنها بالقياس إلى أشخاصهم نامية ومتزايدة؛ لأن لكل إنسان جنته الخاصة أيضاً، وثبات الأولى راجع إلى قدرة الله سبحانه وحكمته؛ إذ إنه يخلق كل ما يقتضي الوجود ولا يمنع من وجوده مانع.

إن قيل بأن الوجودات النوعية ثابتة لا تنمو ولا تتكامل؛ لأنها مخلوقة على أحسن وجه في التمام والكمال، بينما الثانية تكون جزاء لأعمال الإنسان، وحيث إن الأعمال حادثة متغيرة تكون هي كذلك أيضاً، فخلق الجنة لا يعني محدوديتها وثباتها، بل هي دائماً في خلق وتجدد من حيث إنها جزاء للأعمال، وهذا يتوافق مع النصوص الكثيرة الدالة على أن من قال: لا إله إلاّ الله غرست له شجرة في الجنة وغيرها، كما في صحيحة جميل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لما أسري بي إلى السماء دخلت الجنة فرأيت فيها ملائكة يبنون لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وربما أمسكوا، فقلت لهم ما لكم ربما بنيتم وربما أمسكتم؟ فقالوا: حتى تجيئنا النفقة، فقلت لهم: وما نفقتكم؟

١ - سورة الذاريات: الآية٤٧.
٢ - سورة النحل: الآية٨.

فقالوا: قول المؤمن في الدنيا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر، فإذا قال بنينا، وإذا أمسك أمسكنا»[١].

ومثلها ما ورد أنه صلى الله عليه وآله وسلم في المعراج عرض عليه جبرائيل قصور الجنة. قال: «فرأيتها من الذهب والفضة، بلاطها المسك والعنبر، غير أني رأيت لبعضها شرفاً عالية ولم أر لبعضها، فقلت يا جبرئيل ما بال هذه بلا شرف كما لسائر تلك القصور؟ فقال: يا محمد! هذه قصور المصلين فرائضهم الذين يكسلون عن الصلاة عليك وعلى آلك بعدها، فإن بعث مادة لبناء الشرف من الصلاة على محمد وآل محمد الطيبين بنيت له الشرف، وإلاّ بقيت هكذا»[٢] وقوله: «كسلوا» يدل على أن عدم الصلاة ليس للإنكار، وإلاّ لم يكن لهم قصور وإن صلوا، وما يقال في الجنة يقال في النار أيضاً من الجهة المخالفة.

ومن هنا وجه الفيض الكاشاني رحمه الله معنى خلق الجنة بخلق المحيط أولاً، ثم أعمال الإنسان وصفاته هي التي تحدد نوع النعيم الذي يعيشه فيها، ومثل لها برجل يبني داراً فأقام حيطانها كلها وتركها فضاء واسعاً لكي ينشأ غرفها ومسالكها ومخازنها ومرافقها على حسب أغراض الساكنين ومستوياتهم[٣]، والرواية المتقدمة تشهد لهذا التوجيه كما تشهد له رواية أبي أيوب الأنصاري

---

١ - انظر تفسير القمي: ج١، ص٣٣؛ ورواية أخرى في الأمالي (للصدوق): ص٤٨٦، ح١٤؛ بحار الأنوار: ج٨، ص١٢٣، ح١٩.

٢ - مستدرك الوسائل: ج٥، الباب ١٠ من أبواب التشهد، ص١٩، ح٣؛ مصابيح الأنوار: ج٢، ص٩٣.

٣ - انظر علم اليقين: ج٢، ص١٠١٠؛ مجمع البحرين: ج٦، ص٢٢٨-٢٢٩،(جنن)، وفيه شواهد أخرى لهذه الحقيقة.

عن النبيﷺ قال: «ليلة أسري بي مر بي إبراهيمعليه السلام فقال: مر أمتك أن يكثروا من غرس الجنة، فإن أرضها واسعة، وتربتها طيبة. قلت: وما غرس الجنة؟ قال: لا حول ولا قوة إلاّ بالله»[1].

وهنا ربما يقال بإمكان الجمع بين القولين بأحد طريقين:

الطريق الأول: أن يقال بأن الجنة الأخروية التي هي دار الإقامة بعد انتهاء الحساب، وتكون مجمعاً للمؤمنين غير مخلوقة بتمامها وكمالها الآن؛ لأنها دار الجزاء الأبدي والجزاء لم يكتمل بعد، وإنما الموجود منها محيطها العام، وأما الجنة الشخصية لكل عبد من العباد فهي مخلوقة معه؛ لأنها نتائج عمله، وربما يعضد هذا الوجه ما رواه العياشي عن ثوير عن علي بن الحسينعليه السلام قال: «إذا صار أهل الجنة في الجنة، ودخل ولي الله إلى جناته ومساكنه واتكأ كل مؤمن منهم على أريكته حفته خدامه، وتهدلت عليه الثمار، وتفجرت حوله العيون، وجرت من تحته الأنهار، وبسطت له الزرابي، وصففت له النمارق، وأتته الخدام بما شاءت شهوته من قبل أن يسألهم ذلك»[2] فإن قوله: «جناته ومساكنه» ظاهر في جنته الخاصة.

إن قلت: لماذا لم يخلق الله سبحانه تلك الجنة بتمامها؛ لأنه عالم بأهلها وبمن يستحقها ممن لا يستحقها، فعدم الخلق مناف لسعة العلم وعموم القدرة.

فإنه يمكن أن يقال: إن عدم الخلق ناشئ من عدم وجود المقتضي بخلاف الجنة الخاصة، وعليه فلعل القائلين بخلق الجنة والنار ناظرون إلى الجهة

---

١ - بحار الأنوار: ج٨، ص١٤٩، ح٨٣.

٢ - تفسير العياشي: ج٢، ص٩٦، ح٨٨؛ وانظر بحار الأنوار: ج٨، ص١٤١، ح٥٧.

الخاصة فيهما، والقائلين بعدم خلقهما ناظرون إلى الجهة العامة، فتأمل.

الطريق الثاني: أن يقال بأن المنكرين للخلق نظروا إلى الجزاء الاعتباري والمثبتين نظروا إلى الجزاء الحقيقي، لكنك عرفت في الخصيصة السابعة من خصائص عالم الآخرة أن الجزاء ليس على شكل واحد، بل له مراتب متعددة، فبعضه حقيقي، وبعضه اعتباري، وعلى هذا الأساس تكون الجنة بالنسبة للأعمال المتجسمة مخلوقة بالتبع لتبعية الجزاء للعمل، وبالنسبة للأعمال الأخرى ستخلق في الآخرة، لكن الحق أن كلا الجنتين يمكن أن تكونا مخلوقتين؛ لأن الجنة العامة مشتملة على الجنة الخاصة؛ لأنها عبارة عن مجموع الجنان الخاصة للعباد الصالحين، فإذا قلنا بأن الخاصة مخلوقة كانت العامة مخلوقة بالتبع أيضاً.

وكيف كان، فتحرير الحق في المسألة يستدعي استعراض ما جاء به الكتاب والسنّة في هذا المجال، فنقول: استدل القائلون بخلق الجنة والنار بوجوه نقلية عديدة دل بعضها على المطلوب بالدلالة المطابقية، وبعضها الآخر بالدلالة التضمنية والتلازمية.

الوجه الأول: بعض الآيات الشريفة الدالة على أن الجنة مخلوقة معدة سلفاً لحشر الناس وجزائهم، وكذلك النار، نظير قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[2] وقوله تعالى في النار وأهلها: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾[4].

١ - سورة آل عمران: الآية١٣٣.

٢ - سورة الشعراء: الآية٩٠.

٣ - سورة آل عمران: الآية١٣١.

٤ - سورة الشعراء: الآية٩١.

فإن الإعداد والإزلاف والإبراز لا يصدق إلاّ على الشيء الموجود المهيأ من قبل، ويزيد الإزلاف عليه إن كان بعيداً فقرب، والإبراز إنه كان مخفياً فأظهر كما تفيده مادة كل واحد من هذه الألفاظ[١]، ولا يتصور ذلك إلّا فيما كان بعيداً عن الحس. هذا ما تقتضيه الدلالة اللفظية بأصنافها الثلاثة بحسب اللغة والظهور العرفي، وحملها على خلاف هذا الظهور يستدعي وجود سبب يمنع من القول بالخلق، ووجود قرينة تمنع من الظهور، وحيث إن التالي باطل فالمقدم مثله، وتعضده رواية داود بن فرقد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن العمل الصالح ليذهب إلى الجنة فيمهد لصاحبه كما يبعث الرجل غلاماً فيفرش له، ثم قرأ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[٢]»[٣].

الوجه الثاني: آيات المعراج النبوي الشريف فإنها دالة على أنه صلى الله عليه وآله وسلم وصل الجنة ورآها ودخلها واستطعم منها؛ إذ قال سبحانه: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾[٤] وقد ذهب الأكثر إلى أن الرؤية هنا بصرية لا قلبية.

وفي المجمع قال الأكثرون وهو الظاهر من مذهب أصحابنا والمشهور في أخبارهم: إن الله تعالى صعد بجسمه إلى السماء حياً سليماً حتى رأى ما رأى من ملكوت السماوات بعينه، ولم يكن ذلك في المنام[٥]، وجنة المأوى هي جنة

١ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٥٠، (عد)؛ ص١١٨،(برز)؛ص٧٥،(أزف).
٢ - سورة الروم: الآية٤٤.
٣ - الأمالي (للمفيد): ص١٩٥، ح٢٦؛ بحار الأنوار: ج٨، ص١٩٧، ح١٨٩.
٤ - سورة النجم: الآيات١١-١٥.
٥ - مجمع البيان: ج٩، ص٢٩١، تفسير الآية المزبورة.

الخلد، وهي في السماء السابعة[١]، وقيل هي جنة البرزخ[٢]، ولا تنافي بين القولين إذا قلنا إن جنة البرزخ هي الجنة الخاصة، أو هي رتبة من مراتب جنة المأوى، وقد مر عليك في بحث علم الإمام عليه السلام الجمع بين الرؤيتين البصرية والقلبية، وهو يعضد المطلوب هنا.

الوجه الثالث: الآيات الشريفة الواردة في بيان حالة الاحتضار والموت وما يراه الميت بعد ذلك، فإنها دالة بالدلالات اللفظية الثلاث على حقيقتين:

الأولى: أن عالم الآخرة وكل ما يرتبط به من خصوصيات خصوصاً النار والجنة ملازم لعالم الدنيا وموجود معه.

والثانية: أن الإنسان بمجرد موته ومفارقة روحه لجسده يرى الجنة، ويتنعم فيها إن كان من أهلها، وإن كان من أهل النار يتعذب بها.

ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[٣] فإن قوله: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ يدل على أن حقائق الآخرة موجودة معه، ومحتفة بحياته الدنيوية، لكنه غافل عنها، والغفلة لا تصدق إلاّ في عدم الالتفات أو عدم الانتباه إلى الشيء الموجود بالفعل.

وقوله تعالى في المحتضر: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ

١ - مجمع البيان: ج٩، ص٢٩٢.
٢ - انظر تفسير الأمثل: ج١٧، ص١٦٤-١٦٥، تفسير الآية المزبورة.
٣ - سورة قَ: الآية ١٩- ٢٢.

﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾
تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ
﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ
مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ
ٱلْيَقِينِ﴾[1].

فإن (فاء) التفريع في قوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ تدل على أن انتقال الميت من عالم الدنيا إلى الجنة إنه من المقربين وأصحاب اليمين، وأما إن كان من المكذبين الضالين فتأتيه نزل من حميم يتعذب فيها، ومن الواضح أن المراد من الجنة والنار هنا البرزخيتان، وهما رتبتان من جنة الآخرة ونارها على ما عرفته في بحث البرزخ جمعاً بين الأدلة.

ونلاحظ أن الطائفتين من الآيات تؤكدان على وجود الجنة والنار وحضورهما في الدنيا إلاّ أن الناس غافلون عنهما، ويمكن توجيه هذه الغفلة بأحد أمرين:

الأول: أن الغفلة ناشئة من العجز عن الإدراك بسبب فقدان الحس المناسب لإدراك حقيقتهما؛ بداهة أن الإدراك يتوقف على وجود المدرك وقابليته للإدراك وآلة الإدراك وسلامتها وقابلية المدرك للإدراك، فلو اختل أحد هذه العناصر الخمسة تعذر الإدراك، والحقائق الماورائية يعجز الناس عادة عن إدراكها لا بسبب قصورهم عنها ولا لعدم قابليتها للإدراك بدليل أن الأولياء يدركونها، وإنما الخلل في آلة الإدراك فإنها معدومة، والروح وإن كانت هي الدراكة إلاّ أنها

١ – سورة الواقعة: الآية ٨٣– ٩٥.

مقيدة بالبدن، ومادامت محصورة فيه فإن طريق إدراكها هو الحواس البدنية، وهذه الحواس عاجزة عن إدراك الحقائق الغيبية، ومن هنا يتحقق الإدراك والرؤية عند انفصال الروح عن البدن.

ولهذه الحقيقة أمثله تقريبية عديدة، فمثلاً قد يزكم انف الإنسان فتتعطل عنده حاسة الشم، وهذا العطل ليس في الروح، ولا من قابلية المشموم، وإنما في الآلة، وقد تشل لامسة الإنسان أو تخدر فلا يحس بالملموسات، وهكذا الأمر في السمع والبصر، ولذا قال سبحانه في المحتضر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾[1].

ومن هنا إذا تألقت الروح وتخلصت من قيود الجسد وحواجزه فإنها تتصل بذاك العالم وتدرك حقائقه وإن كانت في الدنيا كما بالنسبة للأنبياء والأولياء عليهم السلام.

الثاني: أن تكون الغفلة ناشئة من قصور الإنسان عن إدراك هذه الحقيقة، وذلك بسبب انصرافه إلى الدنيا وشهواتها وانشغاله بتحصيل لذاته ودفع آلامه، فإنه يحجب اهتمامه عن التوجه إلى ذاك العالم فيغفل عنه، وهذا كثيراً ما يحصل للإنسان في حياته اليومية، فنرى مثلاً أن الحزين المغموم إذا شغله الحزن والغم قد ينسى نفسه ولا يحس بألم الجوع والعطش والسهر، وربما يمر بساعات جميلة ولحظات ينتشي فيها نفسياً فينسى الوقت، وينسى همومه وغمومه، ويغفل عن الكثير من الأشياء الهامة الآخرى.

ومن الواضح أن عالم الآخرة وما يتعلق به من حقائق وأحوال يتوقف على

---

١ – سورة الواقعة: الآية ٨٥.

صفاء في الذهن وسكون في القلب وسمو في النفس، وهذا عادة لا يحصل مع الانشغال بالدنيا والتوجه إلى لذاتها وشهواتها أو غمومها وهمومها، وحيث إن لذات الجسد وآلامه آنية وسريعة ومحسوسة تغفله عن الحقائق المعنوية.

فالغفلة على هذا التوجيه لم تنشأ من قصور آلة الإدراك، بل من قصور المدرك نفسه بسبب حبه للدنيا وانشغاله بها، فإذا تجرد عنها سيرى هذه الحقائق ويدركها، ولذا يسمى من أصحاب اليقين، وهذا ما يؤكده قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾[١] أي ترونها في الدنيا لا في الآخرة، ولولا وجودها فإنه لا يمكن رؤيتها كما هو واضح، وسيأتي في المطلب القادم ما يزيدك توضيحاً.

والخلاصة: أن الآيات الشريفة المذكورة دلت على أن الناس يغفلون عن الجنة والنار، وهذه الغفلة وعدم الالتفات عنهما دليل على وجودهما؛ لأن الغفلة عن الشيء لا تتحقق ما لم يكن موجوداً.

الوجه الرابع: الروايات وهي كثيرة ومعتبرة في سندها، بل المضمون المستفاد منها متواتر، وبعضها دال بالدلالة المطابقية على خلقهما فضلاً عما دل منها بالدلالة التضمنية والتلازمية.

منها: أحاديث المعراج المروية بطرق الفريقين، وهي صريحة في الدلالة على أن النبي المصطفى ﷺ رأى الجنة والنار، ودخل الجنة وأكل منها[٢]. نكتفي هنا بثلاث منها:

١ - سورة التكاثر: الآية ٥-٦.

٢ - انظر حق اليقين: ص٤٦٥.

الرواية الأولى: رواية الهروي قال: قلت للرضاعليه السلام: يا بن رسول الله أخبرني عن الجنة والنار أهما اليوم مخلوقتان؟ فقالعليه السلام: «نعم، إن رسول اللهصلى الله عليه وآله قد دخل الجنة ورأى النار لما عرج به إلى السماء» قال: فقلت له: فإن قوماً يقولون: إنهما اليوم مقدرتان غير مخلوقتين، فقالعليه السلام: «ما أولئك منا ولا نحن منهم، من أنكر خلق الجنة والنار فقد كذب النبيصلى الله عليه وآله وكذبنا، وليس من ولايتنا على شيء، وخلد في نار جهنم. قال الله عز وجل: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾[1] وقال النبيصلى الله عليه وآله: لما عرج بي إلى السماء أخذ بيدي جبرئيل فأدخلني الجنة، فناولني من رطبها فأكلته، فتحول ذلك نطفة في صلبي، فلما هبطت إلى الأرض واقعت خديجة فحملت بفاطمة، ففاطمة حوراء إنسية، فكلما اشتقت إلى رائحة الجنة شممت رائحة ابنتي فاطمة»[2].

وجدير أن يلتفت هنا إلى الإشارة اللطيفة في قوله: «قد دخل الجنة ورأى النار» فإنه دال على أنهصلى الله عليه وآله لم يدخل النار، بل رآها من الخارج، واطلع على أسرارها، بخلاف الجنة فإنه دخلها وأكل من ثمرها.

والظاهر أن المراد من قوله: «فناولني من رطبها فأكلته» المعنى اللغوي، وهو كل ما أكل من النبات غضاً طرياً[3]، وانطباقه على البسر قبل أن يتمر

١ - سورة الرحمن: الآية ٤٣-٤٤.

٢ - عيون أخبار الرضاعليه السلام: ج١، ص١٠٦- ١٠٧؛ التوحيد: ص١١٨، ح٢١.

٣ - المعجم الوسيط: ج١، ص٣٥١، (رطب)؛ وانظر معجم مقاييس اللغة: ص٣٨٧، (رطب)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٥٦، (رطب)؛ لسان العرب: ج١، ص٤١٩، (رطب).

من باب المصداق لا الحصر، وعلى هذا يتضح وجه الجمع بين دلالة هذه الرواية وبين ما دل على أنه صلى الله عليه وآله أكل تفاحة من الجنة وواقع خديجة فأنجبت فاطمة عليها السلام.

ولعل السر - الذي يجعل الإيمان بخلق الجنة والنار من علامات الشيعة المقبولين عند الأئمة عليهم السلام، بخلاف المنكر، حيث قال: «ما أولئك منا ولا نحن منهم» مع أن المسألة قد تعد في بادئ النظر من الفروع غير المهمة في العقيدة يعود إلى أن الاعتقاد بخلق الجنة والنار تتفرع منه جملة من العقائد الأساسية التي لو أخل بها المؤمن خرج عن الإيمان، مثل الاعتقاد بالبرزخ وعذاب القبر، والاعتقاد بتجسم الأعمال الذي لا يصح إلاّ على القول بخلق الجنة والنار، وكذلك الاعتقاد بالمعراج وصدق النبي صلى الله عليه وآله بما أخبر عنه، إلى غير ذلك من الحقائق التي لا يمكن إنكارها، ولو أنكرها أحد كان مكذباً لله والرسول اللذين أخبرا بوجود ذلك، ولذا يكون مصيره الخلود في النار.

الرواية الثانية: ما في المحاسن من أن النبي صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: «يا علي! إنه لما أسري بي رأيت في الجنة نهراً أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وأشد استقامة من السهم، فيه أباريق عدد النجوم، على شاطئه قباب الياقوت الأحمر والدر الأبيض ... ثم قال: والذي نفس محمد بيده إن في الجنة لشجراً يتصفق بالتسبيح بصوت لم يسمع الأولون والآخرون بمثله، يثمر ثمراً كالرمان، يلقي الثمرة إلى الرجل فيشقها عن سبعين حلة، والمؤمنون على كراسي من نور، وهم الغر المحجلون، أنت إمامهم يوم القيامة»[1].

---

١ - المحاسن: ص١٨٠، ح١٧٢.

والظاهر أن قوله: «والمؤمنون على كراسي من نور» يتعلق بجنة البرزخ بقرينة قوله: «أنت إمامهم يوم القيامة» وربما يتعلق بجنة الآخرة، فيدل على أن جماعة من المؤمنين يدخلون جنة الآخرة بعد مفارقتهم الدنيا، وهم من محضوا الإيمان كالأنبياء والأولياء، وهو ما تؤكده الأخبار الدالة على أن المؤمن إذا مات قامت قيامته[١]، بل في رواية محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: «والله ما خلت الجنة من أرواح المؤمنين منذ خلقها، ولا خلت النار من أرواح الكفار العصاه منذ خلقها عز وجل»[٢].

الرواية الثالثة: وهي رواية عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لما أسري بي إلى السماء قال لي جبرئيل عليه السلام: قد أمرت الجنة والنار أن تعرض عليك. قال: فرأيت الجنة وما فيها من النعيم، ورأيت النار وما فيها من العذاب، والجنة فيها ثمانية أبوب .... ورأيت على أبواب النار مكتوباً على الباب الأول ثلاث كلمات ...»[٣].

ومنها: ما دل على أن الله سبحانه خلق الجنة والنار بالدلالة المطابقية، وأن هذه الحقيقة من العقائد الحقة التي يجب الاعتقاد بها، ولا يجوز مخالفتها؛ لأنها من خصوصيات عقائد شيعة آل محمد عليهم السلام، فقد روى الصدوق رحمه الله بإسناده عن الصادق عليه السلام قال: «ليس من شيعتنا من أنكر أربعة أشياء: المعراج،

١ - انظر عوالي اللآلئ: ج١، ص١٤٥، هامش٢؛ بحار الأنوار: ج٥٨، ص٧، السادس.
٢ - الخصال: ص٣٥٨- ٣٥٩، ح٤٥.
٣ - بحار الأنوار: ج٨، ص١٤٤- ١٤٥، ح٦٧؛ وانظر الأمالي (للصدوق): ص٤٨٠- ٤٨١، ح٦.

والمسألة في القبر، وخلق الجنة والنار، والشفاعة»[١].

وفي رواية أخرى عن الرضا عليه السلام: «أن المقر بذلك هو مؤمن حقاً، وأنه من شيعة أهل البيت عليهم السلام»[٢].

وروي عن الأئمة عليهم السلام عن علي أمير المؤمنين عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله عز وجل لما خلق الجنة خلقها من لبنتين: لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وجعل حيطانها الياقوت، وسقفها الزبرجد، وحصباءها اللؤلؤ، وترابها الزعفران والمسك الأذفر، فقال لها: تكلمي، فقالت: لا إله إلاّ أنت الحي القيوم، قد سعد من يدخلني، فقال عز وجل بعزتي وعظمتي وجلالي وارتفاعي لا يدخلها مدمن خمر، ولا سكير، ولا قتات وهو النمام»[٣] إلى آخره.

والسكير مدمن على سائر المسكرات خمراً كان أو غيره، وقريب من هذا المضمون ورد عن محمد بن قيس عن أبي جعفر[٤] عليه السلام.

وروى الصدوق رحمه الله في الخصال بسنده عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن علي عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أدخلت الجنة فرأيت على بابها مكتوباً بالذهب: لا إله إلاّ الله، محمد حبيب الله، علي ولي الله، فاطمة أمة الله، الحسن والحسين صفوة الله، على مبغضيهم لعنة الله»[٥].

---

١ – انظر فضائل الشيعة: ص١٢٩، ح٦٩.

٢ – صفات الشيعة: ص١٢٩، ح٧١.

٣ – الخصال: ص٤٣٥– ٤٣٦، ح٢٢.

٤ – المحاسن: ص١١٥، ح١١٨.

٥ – الخصال: ص٣٢٣، ح١٠.

وقريب من هذا المضمون رواه جابر عنه صلى الله عليه وآله وسلم[١]، والسر في كتابة هذه الأسماء المباركة على باب الجنة يعود إلى وجوه عديدة:

منها: أنه إعلان لأهل الجنة بأسماء ملوك أهل الجنة والحكام فيها كما هو متداول عند الناس أنهم يذكرون أسماء الملوك والحكام ليكون دليلاً للجميع.

ومنها: أن هذه الأسماء المباركة منشأ الفيوضات على أهل الجنة بما أنهم الأسماء الحسنى والصفات العليا، وأن فيض الله سبحانه يصل إلى الخلق عبر أسمائه.

ومنها: إظهار مكانتهم وقربهم عند الله لمزيد التوبيخ لمعانديهم ومحاربيهم في الدنيا.

ومنها: أن هذه الكتابة بيان لمراتبهم ودرجاتهم في الجنة.

ومنها: لأجل مجازاتهم بما عملوا، حيث خلدوا اسم الله سبحانه، ودعوا الناس إلى طاعته، وأبقوا ذكره في الدنيا، فيبقي الله أسماءهم، فيكون هذا التخليد لأسمائهم جزاء وفاقاً لتخليد اسمه سبحانه، وهناك وجوه أخرى لا يسعها المجال هنا.

ونلاحظ أن هذه الروايات تتفق على معنى واحد، وهو أن الجنة مخلوقة موجودة لها صفاتها وخصوصياتها الآن، وليست أنها تخلق فيما بعد، وهذه الدلالة نصية أو ظهورية مستنده إلى إحدى الدلالات اللفظية الثلاث فرفع اليد عنها يتوقف على وجود دليل قطعي، وهو مفقود، بل قد عرفت أن إنكار

١ - من لا يحضره الفقيه: ج٣، ص٤٠١، ح٤٤٠٢؛ بحار الأنوار: ج٨، ص١٩١، ص١٦٦.

الخلق مساوق للخروج عن الإيمان الصحيح بالأئمة عليهم السلام ومعتقدهم، وربما يقال بأن للقول الثاني ما يثبت العدم، وهو ما سنتعرف عليه.

ويمكن أن نستنتج من هذه الوجوه عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن الجنة عامة وخاصة. الجنة العامة هي دار الإقامة والخلد لجميع عباد الله الصالحين، وهي التي أعدها الله سبحانه لهم، والجنة الخاصة هي ما يتعلق بكل مؤمن بنحو خاص، ويوجدها بنفسه من خلال عمله ومعتقده، وهذا التصنيف يصلح أن يكون علاجاً توفيقياً للاختلاف الحاصل في خلق الجنة والنار.

الحقيقة الثانية: أن هذا التوجيه يصلح أن يكون جواباً لمن أشكل على القول بخلق الجنة والنار من جهة الخلق.

وتوضيحه: أن البعض أشكل على القول بخلق الجنة والنار والقول بتجسم الأعمال معاً، من جهة أنه لا ينطبق على الناس الذين لم يخلقوا بعد في الدنيا، وبالتالي لم يعملوا ما يوجب تجسم أعمالهم لتشكل أعمالهم جنتهم أو نارهم، ولازم ذلك إبطال أحد الالتزامين إما إبطال الالتزام بخلق الجنة والنار في مقابل التمسك بتجسم الأعمال، أو إبطال الالتزام بتجسم الأعمال في مقابل التمسك بخلق الجنة والنار.

ووجه الجواب هو إمكان الالتزام بالاثنين معاً مع التفصيل بين الجنة العامة - وهي مخلوقة بأمر الله وقدرته سبحانه - وبين الجنة الخاصة التي يوجدها الإنسان بأعماله ومعتقداته، فالذين لم يخلقوا بعد لم تخلق جنتهم الخاصة، وأما الجنة العامة فهي لا تتعلق بأعمالهم ولا بإرادتهم، بل بإرادة الله سبحانه وفعله.

ولعل مما يعضد هذا التصنيف للجنة والنار بين فعل الله سبحانه في خلق الجنة والنار وفعل العبد في إيجاد جنته الخاصة رواية الصدوق رحمه الله بسنده عن الصادق عليه السلام قال: «ما خلق الله خلقاً إلاّ جعل له في الجنة منزلاً وفي النار منزلاً، فإذا سكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد: يا أهل الجنة أشرفوا، فيشرفون على النار، وترفع لهم منازلها في النار، ثم يقال لهم: هذه منازلكم التي لو عصيتم ربكم دخلتموها. قال: فلو أن أحداً مات فرحاً لمات أهل الجنة في ذلك اليوم فرحاً؛ لما صرف عنهم من العذاب، ثم ينادون يا محشر أهل النار ارفعوا رؤوسكم فانظروا إلى منازلكم في الجنة، فيرفعون رؤوسهم فينظرون إلى منازلهم في الجنة وما فيها من النعيم، فيقال لهم: هذه منازلكم التي لو أطعتم ربّكم دخلتموها. قال: فلو أن أحداً مات حزناً لمات أهل النار ذلك اليوم حزناً، فيورث هؤلاء منازل هؤلاء وهؤلاء منازل هؤلاء، وذلك قول الله عز وجل: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1]»[2].

الحقيقة الثالثة: أن لأعمال الإنسان ومعتقداته تأثيراً كبيراً في صناعة جنته الخاصة أولاً، ثم جنته العامة بالتبع، كما أن لهما تأثيراً كبيراً في صناعة النار بصنفيها، فالطاعات والأعمال الصالحة تصبح جنته ورضوانه وحوره وقصوره، كما أن معاصيه وقبائحه تصبح ناره وتعذيبه وزقومه، وهذا ما أشار إليه الحديث الشريف: «الدنيا مزرعة الآخرة»[3].

١ - سورة المؤمنون: الآية ١٠-١١.
٢ - ثواب الأعمال وعقاب الأعمال: ص٣٠٥.
٣ - غنائم الأيام: ج٣، ص٥٢١؛ عوالي اللآلئ: ج١، ص٢٧، ح٩، الحاشية.

ومن هنا يظهر وجوب اهتمام العبد بمعتقداته وتقويمها وتصحيح الفاسد منها وترسيخ الصحيح وتوسعته، ووجوب اهتمامه باعماله كذلك وتقويمها على مناهج الطاعة والعبودية، فإن كل ما يعمله هو غرسه، وهو نتاجه الذي سيلازمه في الآخرة، كما يظهر وجوب بذل الوسع لأجل تنزيه أعماله الصالحة من الرياء والشبهة وكل ما يمكن أن يتسافل بالعمل إلى الدرجات الدانية؛ لأن مستوى العمل يؤثر على مستوى الجنة الخاصة التي سيعيشها في الآخرة، فكلما كانت رتبة العمل عالية كانت ثماره عالية المستوى، وكذا العكس.

ويظهر أيضاً أن اهتمام الإنسان لابد وأن ينصب إلى نوع العمل وكيفيته لا كميته فقط ، فيختار الأهم على المهم، والأفضل على الفاضل، والأحسن على الحسن، وهو ما أشارت إليه الرواية المأثورة: (إذا رأيت الناس يعملون الحسن فخذ أنت بالأحسن)؛ لأن العمل الأحسن نتائجه تكون مثله.

كما يتضح بعض الوجه للأدلة الكثيرة التي نصت على أن حب النبي وأهل بيته عليهم السلام وتوليهم والتبري من أعدائهم هو مفتاح الطاعات وسر قبولها، كما هو روح الإيمان وجوهره، فلا يقبل عمل ولا طاعة إلاّ معها، وذلك لأن العمل لا يمكن أن يتلون باللون الحسن ولا يكتسب صفة الطاعة إلاّ بالإيمان بالله سبحانه وبالرسول صلى الله عليه وآله وبالإمام عليه السلام؛ لأن هذه السلسلة متصلة مع بعضها، فلا يعقل أن يكتمل الإيمان بالإخلال بواحدة، وهو ما يستفاد من جملة من الأخبار:

منها: حديث السلسلة الذهبية الذي رواه الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عن النبي عن جبرئيل عن ميكائيل عن إسرافيل عليهم السلام عن اللوح عن القلم قال:

«يقول الله عز وجل ولاية علي بن أبي طالب حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي» قال الرضاعليه السلام: «بشروطها وأنا من شروطها»[١].

ووجهه ظاهر؛ لأن التوحيد لا يمكن أن يكون توحيداً حقيقياً من دون اكتسابه من الإمامعليه السلام؛ لأن التوحيد المأخوذ من غير طريق الإمام لا يعدو أن يكون تخرصاً ورجماً بالغيب، كما أنه لا يمكن أن يكون توحيداً خالصاً في الوقت الذي يعصي العبد ربه في حجته التي نصبها على الخلق، فحقيقة التوحيد والإخلاص فيه لا يعقل تحققهما مع إنكار الإمام أو مخالفته في إمامته.

ومنها: رواية جابر بن عبد الله الأنصاري قال: جاء أعرابي إلى النبيصلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله هل للجنة من ثمن؟ قال: «نعم» قال: ما ثمنها؟ قال: «لا إله إلاّ الله، يقولها العبد الصالح مخلصاً بها» قال: وما أخلاصها؟ قال: «العمل بما بعثت به في حقه، وحب أهل بيتي» قال: وحب أهل بيتك لمن حقها؟ قال: «أجل إن حبهم لأعظم حقها»[٢].

ونلاحظ هنا أن الإخلاص لم يلحظ فيه النية فقط ، بل العمل الصحيح بفروع الدين، وهو قوله: «العمل بما بعثت به في حقه» أي العمل بشريعتهصلى الله عليه وآله، والركن الثاني له هو حب أهل بيتهعليهم السلام وقد مر عليك مفصلاً أن المراد ليس مجرد الحب دون التولي والتبري، ولذا قال: إن حبهم أعظم حق في مقابل الجنة، أو في مقابل كلمة التوحيد.

---

١ - عيون أخبار الرضاعليه السلام: ج١، ص١٤٥- ١٤٦؛ المناقب (لابن شهر آشوب): ج٢، ص٢٩٦.

٢ - الأمالي (للطوسي): ص٥٨٣، ح١٢.

فالتوحيد المجرد عن ولايتهم هو صورة التوحيد لا حقيقته وجوهره، وعليه فلو اظهر العبد كلمة التوحيد وهو مؤمن بها ومسلم لإمامه وحجته تكون نتيجتها جنة عظيمة، ومن أظهرها دون إيمان بل نفاقاً كانت وبالاً عليه؛ لأنها صورة التوحيد، وأما الجوهر والحقيقة فهو نفاق، ونتيجة النفاق النار، ولا يخفى لطف هذه الحقيقة في إلزام العبد دائماً بتعهد معتقداته وأعماله وتجديد النظر في سلوكه وتصرفاته.

الحقيقة الرابعة: أن تفاوت الناس في درجاتهم في الجنة لم ينشأ جزافاً، بل هو تابع لإرادتهم واختيارهم، وكذلك الأمر في النار؛ لأن كل ما يزرعه العبد في دنياه يحصده في آخرته، ويلازمه في تلك الدار، فالعبد وهو في الدنيا يمكنه أن يحدد مصيره في الآخرة، كما يحدد درجته في الجنة أو دركه الذي يتعذب به في النار.

الحقيقة الخامسة: أن تعدد الجنان ناشئ من تعدد مراتب الناس ومستوى أعمالهم، ولذا وردت الأخبار في تصنيف الناس أو تصنيف حالاتهم، فأحياناً يكونون في جنة عدن، وأحياناً الفردوس، وثالثة في جنة نعيم وهكذا، فإن دخول هذه الأنواع والمراتب من الجنان يتوقف على نوع الأعمال ومستويات العاملين، ونوع العمل الذي يقوم به الإنسان والحالات النفسية والاعتقادية التي يكون عليها تحدد نوع الجنة التي يدخلها ويعيش فيها.

وقد ورد عن الباقر عليه السلام: «أما الجنان المذكورة في الكتاب فإنهن جنة عدن وجنة الفردوس وجنة نعيم وجنة المأوى .... وإن لله عز وجل جناناً محفوفة بهذه الجنان، وإن المؤمن ليكون له في الجنان ما أحب واشتهى يتنعم فيهن كيف يشاء»[1].

---

١ - انظر الكافي: ج٨، ص٥٩، ح٦٩.

وبذلك يتضح وجه الفرق بين نعيم هذه الجنان وأسباب هذا التمييز والاختلاف، فبعض الجنان تقطنها الحور، وبعضها الخيرات الحسان، وبعضها الأزواج المطهرة وهكذا، كما يتضح معنى بعض الأحاديث التي وصفت الولاية بالجنة، أو وصفت بعض الأعمال بذلك، كما ورد عن الصادق عليه السلام: «فإن ولايتنا هي الجنة»[١].

كما فسر النعيم في قوله تعالى: ﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[٢] بولايتهم عليهم السلام في روايات عديدة[٣]؛ لأن كل عمل من الأعمال وعقيدة من المعتقدات هو رتبة من مراتب الجنة، أو سبب لوجودها؛ لأن الجنة هي ناتج أعمال الخير، والنار ناتج أعمال الشر.

ويتحصل من كل ما تقدم: أن الكتاب والسنة دالان على أن الجنة والنار حقيقتان مخلوقتان ملازمتان لحياة البشر؛ لأنهما عبارة عن نتائج أعمالهم ومعتقداتهم، غاية الأمر قد لا يحس بهما الناس في عالم الدنيا بسبب قصور المدرك، أو آلة الإدراك، أو بسبب وجود المانع تطبيقاً لسنّة الاختبار والامتحان، ويتفرع على هذه النتيجة سؤال هام مفاده: أنهما إذا كانتا مخلوقتين فأين مكانهما من هذا العالم؟ وهذا ما سنتولى الإجابة عليه في المطلب القادم.

---

١ - المحاسن: ج١، ص٢٦٢.

٢ - سورة التكاثر: الآية ٨.

٣ - الكافي: ج٦، ص٢٨٠، ح٣؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج٨، ص٣٠٥- ٣٠٧، ح١١؛ ص١٢، ح١٣، ح١٤، ح١٥.

المطلب الرابع: في مكان الجنة والنار وسعتهما

ذهب أكثر المسلمين إلى أن الجنة فوق السماوات السبع، ومكان النار في الأرض السابعة(١)، ومستند هذا القول بعض الأخبار، فقد روى الصدوق رحمه الله مسنداً عن ابن عباس قال: قدم يهوديان فسألا أمير المؤمنين عليه السلام، فقال أحدهما: أين تكون الجنة وأين تكون النار؟ قال عليه السلام: «أما الجنة ففي السماء، وأما النار ففي الأرض» قال: فما السبعة؟ قال: «سبعة أبواب النار متطابقات» قال: فما الثمانية؟ قال: «ثمانية أبواب الجنة»(٢).

وفي تفسير القمي في معنى قوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾(٣) أنها في السماء السابعة(٤).

وفي مصابيح الأنوار: أكثر الأخبار تدل على أن الجنة فوق السماوات السبع، والنار في الأرض السابعة(٥)، ونسب إلى السيد الجزائري رحمه الله أن

---

١ - بحار الأنوار: ج٨، ص٢٠٥، فذلكة.
٢ - الخصال: ص٥٩٧، ح١.
٣ - سورة النجم: الآية ١٥.
٤ - انظر تفسير القمي: ج٢، ص٢٤٣.
٥ - مصابيح الأنوار: ج٢، ص٩٠.

المروي عن الرضا عليه السلام بأن الجنة فوق السماوات، وسقفها العرش[١]، وأقر هذا القول جماعة، ورووا عن أنس القول به[٢].

وأما النار فهي في السماء، وأدعي استفاضة الأخبار على ذلك، ومكانها تحت الجنة في السماء الرابعة[٣]، وقرب العلامة المجلسي رحمه الله هذا القول بقوله: الذي يظهر لي من الآيات والأخبار هو أن الله تعالى بعد خرق السماوات وطيها ينزل الجنة والعرش قريباً من الأرض، فيكون سقف الجنة العرش، ولا يبعد أن يكون هذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٤]»[٥] واكتفى البعض كالعلامة المجلسي والسيد شبر رحمه الله[٦] بالإيمان الإجمالي على قدر ما وردت به الأخبار، وإيكال العلم بالتفاصيل إلى الله وأوليائه عليهم السلام.

وهناك أقوال أخرى ذكرت تفتقر إلى الأدلة[٧]، وربما يقال بأن لازم قول المنكرين لخلق الجنة والنار القول بأن مكانهما في الآخرة هو مكان السماوات والأرض بعد إفنائهما، فالجنة تكون مكان السماوات، والنار مكان الأرض؛ لمناسبة الجنة للسمو والنار للسفل.

---

١ - انظر حق اليقين: ص٤٦٧.

٢ - مجمع البيان: ج٢، ص٣٩١؛ التفسير الكبير: ج٣، ص٧؛ روح المعاني: ج٤، ٣٧٠، تفسير الآية ١٣٣ من سورة آل عمران.

٣ - انظر حق اليقين: ص٤٦٧.

٤ - سورة قَ: الآية ٣١.

٥ - بحار الأنوار: ج٨، ص٣٣٤، أقول.

٦ - انظر حق اليقين: ص٤٦٩.

٧ - انظر مجمع البيان: ج٢، ص٣٩١؛ تفسير الكبير: ج٣، ص٧؛ روح المعاني: ج٤، ص٣٧٠؛ تفسير الآية ١٣٣ من سورة آل عمران.

وربما يمكن القول بأن مكانهما هو العالم بجميع ما له من سموات وأرضين، بل هو الأوفق بالقواعد الكلامية، والأقرب إلى دلالة الآيات والروايات، وبه يمكن أن نجمع بين الأقوال المتقدمة، وتوضيح ذلك يتم ببيان أمور:

الأمر الأول: أن القرآن الكريم أشار إلى مساحة الجنة في آيتين متقاربتين في الصورة:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[1].

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾[2] ونلاحظ أن مضمون الآيتين واحد، وإنما يختلفان في ثلاث مفردات:

الأولى: متعلق الأمر فإنه في الآية الأولى المسارعة، إذ قال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ وفي الثانية المسابقة؛ إذ قال: ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ وهما من باب واحد وهو المفاعلة، وذلك لوجود نكتة سنتعرف عليها فيما يأتي.

الثانية: وقوع التشبيه بقوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ﴾ في الآية الأولى دون الثانية.

والثالثة: الغاية، فإنها في الآية الأولى الإعداد للمتقين بينما في الآية الثانية الإعداد للمؤمنين، وفهم دلالة الآيتين يتوقف على معرفة معنى العرض، وقد اختلف المفسرون فيها على أقوال عديدة، وما يتعلق بمحل البحث قولان:

القول الأول: حمل العرض على معناه الحقيقي، والمراد به المساحة المكانية،

---

١ - سورة آل عمران: الآية ١٣٣.

٢ - سورة الحديد: الآية ٢١.

فيكون عرض الجنة هو عرض السماوات والأرض حقيقة، ولا يعلم طولها إلاّ الله سبحانه، ورويت فيه بعض الأخبار[١]، وإنما خصصت العرض بالذكر مجاراة لأسلوب العقلاء، فإنهم غالباً ما يعبرون عن سعة المساحة بالعرض؛ لأن سعة العرض ملازمة لسعة الطول أيضاً عادة، وليس كذلك الأمر في الطول[٢].

والقول الثاني: حمل العرض على المعنى المجازي، والمراد به الكناية عن سعة المساحة وعظمها؛ لإفهام الناس بما يفهمون، والعرب إذا وصفت الشيء بالسعة وصفته بالعرض. يقال: بلاد عريضة، ودار عريضة وهكذا[٣]، وحذف أداة التشبيه في الآية الأولى يدل على زيادة المبالغة، ولا تنافي بين المعنيين من حيث النتيجة؛ لأن كليهما يدلان على سعة المساحة وعظمها. نعم الفرق في دلالة الآيتين يظهر في مكان الجنة، فإن الآية الأولى تدل على أن مكان الجنة في السماوات والأرض تمتد على عرضهما. يستفاد هذا المعنى من الجملة الوصفية، فإن وصف عرض الجنة بعرض السماوات والأرض ظاهر في هذا المعنى، بينما الآية الثانية تدل على أن الجنة واسعة عريضة، وليس بالضرورة أن يكون مكانها في السماوات والأرض. يستفاد هذا من كاف التشبيه.

ولا مانع من حمل كل آية على مدلولها الخاص من دون حاجة إلى الجمع بينهما، ولا توحيد الدلالة كما صنع أكثر المفسرين، وذلك لأن اختلاف متعلق الأمر

١ - انظر تفسير القرطبي: ج٤، ص٥٥٧، تفسير الآية ١٣٣ من سورة آل عمران.
٢ - انظر مجمع البيان: ج٢، ص٣٩٠؛ تفسير القرطبي: ج٤، ص٥٥٦؛ روح المعاني: ج٤، ص٣٧٠، تفسير الآية ١٣٣ من سورة آل عمران.
٣ - مجمع البيان: ج٢، ص٣٩٠؛ تفسير القرطبي: ج٤، ص٥٥٦؛ روح المعاني: ج٤، ص٣٧٠، تفسير الآية المزبورة.

والغاية بين الآيتين يدل على أن كل واحدة من الآيتين ناظرة إلى معنى يغاير ما نظرت إليه الأخرى، وذلك لأن الآية الأولى ناظرة إلى مساحة الجنة التي أعدت للمتقين، وحيث إن درجتهم عالية جداً فلا بد وأن تكون مساحة جنتهم أوسع وأشرف؛ لوضوح أن السموات والأرض هما مصدر الخيرات والبركات.

بينما الآية الثانية ناظرة إلى الجنة التي أعدت للمؤمنين بالله ورسله، ومن الواضح أن المؤمنين على درجات وليسوا جميعهم من المتقين، فلذا قد تكون جنتهم اضيق مساحة من السماوات والأرض، ولذا شبه عرضها بعرض السماوات والأرض، والتشبيه يقرب المعنى إلى المشبه به، ولا يدل على المطابقة معه بالضرورة، ولذا كان متعلق الأمر في الآية الأولى المسارعة، بينما في الثانية المسابقة؛ لأن المتقين أشوق من المؤمنين إلى العبادة والطاعة، فتأمل.

وهذه النتيجة تتوافق مع ما تقدم من أن الجنة قابلة للزيادة والنقيصة بحسب مستويات الناس وحالاتهم وأوصافهم؛ لأنها في حقيقتها ليست إلاّ تجسم تلك الحالات والأحوال، والناس لم يخرجوا من هذا المحيط .

والخلاصة: أن الآيتين دالتان على عرض الجنة الحقيقي، سوى أن الآية الأولى دلت على مساحة جنة المتقين، بينما الثانية دلت على مساحة جنة المؤمنين، وعلى هذا فإن مساحة الجنة تكون مساحة العالم كله بناء على عدم وجود عالم آخر غير السماوات والأرض، ويبقى هنا سؤال يفرض نفسه وهو أنه إذا كانت مساحة الجنة مساحة السماوات والأرض فأين تكون النار؟ وستعرف الجواب عن هذا السؤال فيما يأتي؟

الأمر الثاني: أن هذه النتيجة التي انتهينا إليها في مكان الجنة لا تتنافى مع

دلالة النصوص التي حددت مكان الجنة كما عرفته مما تقدم، وذلك لأن رواية ابن عباس عن أمير المؤمنين عليه السلام حددت السماوات مكاناً للجنة، ولم تحدد أنها السماء السابعة، وبالتالي فإن كون الجنة في السماء يشمل جميع السماوات بناء على أن المراد من السماء المعنى الحقيقي.

وأما بناء على المعنى اللغوي للسماء وهو السمو فتوافق الدلالة أجلى وأظهر، كما أن ما ورد في تفسير القمي في تحديد جنة المأوى بالسماء السابعة هو الآخر لا ينافي ما ذكرنا؛ لإمكان أن تكون السماء السابعة مكاناً لجنة المأوى، وهي جنة خاصة، وليست لعموم الجنة، والأمر واضح.

كما أن ما روي عن الرضا عليه السلام من تحديد مكانها بقوله: «فوق السماوات وسقفها العرش» يتوافق مع هذا المضمون إن حملنا «الفوق» على بيان الغاية لا الظرف المكاني، وربما يمكن توفيق هذه النتيجة مع قول الأكثر بحمل لفظ الفوق في قولهم «الجنة فوق السماوات السبع» على بيان الغاية لا الظرف المكاني، والمعنى أن مساحة الجنة تفوق مساحة السماوات السبع، وعلى هذا يكون قولهم: «ومكان النار في الأرض السابعة» أي ما يخرج عن الأراضي السبعة، إلاّ أن هذا التوفيق مخالف للظهور جداً.

نعم ربما يصلح ما روي عن الرضا عليه السلام من تحديد الجنة بما فوق السماوات وسقفها العرش قرينة على أن سعة الجنة تشمل كل ما سوى شأن الخالق تبارك وتعالى الذي هو العرش، بناء على أن المراد منه الكناية عن القدرة، وذلك لأن عالم الآخرة منحصر بين الرب وعباده، فكل ما ليس من مقام الرب فهو داخل في عوالم العبد فيكون مشمولاً بالجنة، فتأمل.

الأمر الثالث: يتفرع على هذه النتيجة التي انتهينا إليها سؤالان:

السؤال الأول: إذا كانت مساحة الجنة السماوات والأرض فأين تكون النار؟

السؤال الثاني: إذا كانت الجنة والنار مخلوقتين موجودتين فكيف يجتمعان مع وجود السماوات والأرض؟

أشار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الجواب في الخبر المروي بطرق الفريقين، إذ سئل صلى الله عليه وآله وسلم: إذا كانت الجنة عرضها السماوات والأرض فأين تكون النار؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «سبحان الله إذا جاء النهار فأين الليل؟»[1].

ولا يخفى أن الجواب إقناعي لا تحليلي، أو هو من قبيل تشبيه غير المحسوس بالمحسوس؛ لقصور عقل السائل عن فهم الجواب التحليلي، أو هو إشارة إلى أن المسألة ترجع إلى علم الله وعموم قدرته؛ لأن القادر على إذهاب الليل عند مجيء النهار أو القادر على دمج أحدهما بالآخر بناء على أن الليل هو انحجاب ضوء الشمس وليس حقيقة قائمة بنفسه كما قد يستفاد من بعض الأخبار، والنهار عبارة عن طلوع ضوء الشمس، فإنه قادر على إيجاد النار في أي مكان شاء، أو يدمج الجنة والنار، ويعطي لأهل الجنة ما يمنع من الإحساس بالنار، كما يعطي لأهل النار ما يمنعهم من الإحساس بنعيم الجنة.

ولعل هذا ما يشير إليه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في جواب بعض اليهود إذ سأله أحدهم فقال: إن في كتابكم جنة عرضها السماوات والأرض، إذا كانت سعة جنة واحدة كسبع سماوات وسبع أرضين فالجنات كلها يوم القيامة أين تكون؟

---

١ - انظر مجمع البيان: ج٢، ص٣٩١؛ روح المعاني: ج٤، ص٣٧١.

فقال‌عليه‌السلام: «خبروني إن النهار إذا أقبل الليل أين يكون؟ والليل إذا أقبل النهار أين يكون؟»، قالوا له: في علم الله يكون، فقال‌عليه‌السلام: «كذلك الجنان تكون في علم الله تعالى»[1].

ويمكن توجيه الجواب المذكور بأحد توجيهات ثلاثة:

التوجيه الأول: أن الجنة والنار ليستا من النشأة الدنيوية، بل هما من النشأة الأخروية، ولذا لا تحكمهما القوانين الدنيوية المحكومة بالحس؛ بداهة أن عالم الدنيا عالم الشهادة، فكل شيء فيه لابد وأن يكون مشهوداً إما مباشرة بواحدة من أدوات الشهود، وهي الحواس الخمسة، أو غير مباشرة؛ وذلك بالاستعانة بالحواس كالنتائج العقلية الحدسية التي لا يمكن للإنسان أن يدركها إلاّ بالاستعانة ببعض المقدمات الحسية، وعالم الآخرة عالم الغيب والملكوت، وهو في الدنيا لا يدرك بواسطة الحواس ولا بالعقول، بل لابد له من أدوات ملكوتية خاصة لدركه وهي الروح، ومن هنا لا يتصل بهذا العالم ولا يدرك حقائقه في الدنيا إلاّ الأنبياء والأولياء‌عليهم‌السلام في بعض الموارد، وبحسب درجاتهم وسمو ذواتهم؛ لزهدهم في الدنيا وانقطاع علائقهم بها وتجردهم عن الأبدان، وكذلك يتصل به عموم الناس بعد انفصال ارواحهم عن أبدانهم.

فالحقائق الملكوتية من ذلك العالم هي موجودة كسائر الأشياء الجسمانية المادية، إلاّ أن آلة الارتباط والاتصال بها قاصرة، كما هو الحال في الملائكة

١ - انظر المناقب (لابن شهر آشوب): ج٢، ص ٣٥٢؛ تفسير البرهان: ج٢، ص١٠٤-١٠٥، ح٢، (بتصرف).

والجن وأرواح الأموات. هذه كلها حقائق واقعية موجودة في الدنيا، وملازمة لحياة الإنسان، إلاّ أنه لا يدركها ولا يعرف مكانها بسبب قصوره عن معرفتها والاتصال بها، إلاّ أنه إذا انفصلت روحه عن جسده وتحررت من قيود المادة أو ترفع الإنسان روحاً بالرياضات الروحية فإنه سيتصل بها ويشاهدها ويتعامل معها.

ومثل ذلك الجنة والنار فإنهما موجودتان، وقد ملأتا الكون كله، إلاّ أننا نعجز عن إدراكهما لقصور في طريقنا إليهما، وقد مثل النبيﷺ بالنهار والليل، من باب تشبيه غير المحسوس بالمحسوس؛ لوضوح أن الليل يندمج بالنهار فيكون مخفياً عند تجلي النور، كما أن النور يخفى عند تجلي ظلام الليل، وذلك لأن ملاك الإدراك والمعرفة هو الحس، وكل ما يظهر لدى الحس يكون مشهوداً فيخفى الآخر، ولكن لو أمكن للإنسان أن يتوصل إلى عدسة يمكنها أن تلتقط النهار والليل معاً لرأى وجودهما في آن واحد ومكان واحد، وحيث إن الحقائق البسيطة أو الخفيفة لا تتضايق يمكن اجتماعهما نظير اجتماع أنوار مئات الشموع ومئات الأصوات في وقت ومكان واحد، فتدبر.

التوجيه الثاني: أن حقائق الأشياء لها ظاهر ولها باطن، والذي يظهر للحواس منها ظاهرها، إلاّ أن باطنها لا يدرك إلاّ بإعمال النظر واستخدام الأدوات المجردة عن الحس كالعقل والشرع، فمثلاً: الإنسان يكون من جسم وروح، والذي يدرك بالبصر - مثلاً- من حقيقته هو عنصره الظاهر، وهو الجسم، وأما الروح فلا يمكن إدراكها إلاّ عبر رؤية القلب، ولذا يقال إن الروح باطن الإنسان، وإليها تنسب جميع أفعاله وتصرفاته وأفكاره ومعتقداته، بينما ظاهره الجسم الذي تلبست فيه الروح مع أنهما موجودان في

آن واحد، والعقل أيضاً كذلك، فإن عنصره الظاهر هو المخ مثلاً أو الدماغ إن قلنا إنهما محلان للعقل، إلاّ أن التعقل والتفكير والاستنتاجات العقلية فلا تدرك، وهي تشكل باطن العقل فلا تدرك إلاّ عبر آلات مناسبة لها.

وهكذا أعمال الإنسان فإنها في ظاهرها عبارة عن أفعال وحركات يقوم بها الناس، وتدرك بالحواس الظاهرة؛ إلاّ أن باطنها عبارة عن صور وأجسام مناسبة لهذه الأعمال كما عرفته في بحث تجسم الأعمال، وقد كشف الشرع عن هذه الحقيقة؛ لأن العقل يعجز عن إدراكها، وعلى هذا فإن الجنة والنار ليست إلاّ بواطن الأعمال، فالجنة باطن الأعمال الصالحة، والنار باطن الأعمال القبيحة، وهما موجودان في وقت واحد ومكان واحد، إلاّ أن أحدهما ظاهر والآخر باطن، والظاهر منها يدرك بالحواس، إلاّ أن الباطن لا تدركه الحواس؛ لأنه من عالم آخر يختلف عن عالم الظاهر في القوانين والأحكام.

فالحقائق الباطنية موجودة مع الحقائق الظاهرية إلاّ أنها لا تدرك بالحس، وهذا ما نجده كثيراً في أصحاب البصائر من الناس، فإنهم يدركون الكثير من الحقائق الموجودة في هذا العالم، ويتفطنون إليها، بينما لا يدركها أصحاب البصر لتشوش بصائرهم وعمى قلوبهم، مع أن هذه الحقائق موجودة في آن واحد، وعلى هذا فأن الجنة والنار موجودان في جميع السماوات والأرض؛ لأنهما من عالم الباطن، والباطن لا يدرك بالحواس الظاهرة، بل بالقلب والبصيرة المجردين عن الحس، وهذه الضابطة تنطبق على المثال الذي ذكره النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تقريب وجود الجنة والنار، فإن الليل والنهار موجودان معاً، سوى أنه إذا حان وقت الليل وتجلى للحس يكون النهار باطنه، وإذا حان

وقت النهار وتجلى للحس يكون الليل باطنه[١].

التوجيه الثالث: أن الجنة محيطة بجميع عوالم الدنيا من السموات والأرض كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[٢] بضميمة قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[٣] أي إن السماء في سعة دائمة ومستمرة، وقد ثبت في علم الفلك أن الكون في توسع دائم، وأن النجوم تبتعد عن مركز مجراتها بمسافات شاسعة وبسرعة هائلة قدرت في بعض المصادر بـ(٦٦) ألف كيلو متر في الثانية، كما أن الفاصلة بين المجرات هي الأخرى تتسع بشكل هائل[٤].

ولعل من هنا وصف التوسعة بالبناء؛ إذ قال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ ونسب التوسعة فيها إلى اليد التي تطلق على القدرة والقوة[٥]، ولعل أحد وجوه التوسعة فيها هو تجسم أعمال الإنسان التي تزيد في الجنة وتوسع في أشجارها وأنهارها وحورها وقصورها إلاّ أنها لا تدرك بالحواس الظاهرة.

وربما يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾[٦] وهي الآية التي تليها في السياق أن الأرض في حالة توسعة مستمرة ودائما أيضاً؛ لأن فرش الأرض وتمهيدها بصيغة اسم الفاعل يشيران إلى بسطها وتسهيلها

---

١ – ويؤيد ذلك أن النجوم والقمر موجودان في النهار ولكن يتعذر إبصارهما لعدم ظهورهما.
٢ – سورة آل عمران: الآية ١٣٣.
٣ – سورة الذاريات: الآية ٤٧.
٤ – انظر بداية العالم ونهايته: ص٧٤–٧٧؛ تفسير الأمثل: ج١٧، ص٩٣–٩٤، تفسير الآية المزبورة.
٥ – انظر مجمع البيان: ج٩، ص٢٦٧.
٦ – سورة الذاريات: الآية ٤٨.

لأجل الاستقرار عليها والانتفاع بمنافعها[١].

ومن الواضح أن الفرش والتبسيط ملازم للتوسعة، وعدم إدراك هذه الحقيقة بالحس لا يمنع من وجودها، فما أكثر الحقائق المحتفة بحياة الإنسان، وهي تعيش معه في زمان واحد ومكان واحد، لكن لا يدركها ولا يشعر بوجودها؛ لقصور فيه أو في أدوات العلم، أو لوجود المانع الذي تفرضه الحكمة الإلهية، وهذا ما ينطبق أيضاً على جواب النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ إذ لعل خفاء النهار في الليل ناشئ من تمدد الليل وسعته بحيث يستوعب النهار، ومثله يقال في خفاء الليل في النهار، ولذا وجه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام خفاءه بأنه يذهب في علم الله، أي ليس في علم الإنسان؛ لما عرفت من أن علم الإنسان يقتصر على الحس أو المقدمات الحسية، بخلاف علمه سبحانه فإنه محيط بحقائق الأشياء ظاهرها وباطنها.

والخلاصة: أن الجنة تحيط بالسماوات والأرض كما تفيدها الجملة الحملية الوصفية في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ وكلما اتسعت السماوات والأرض تتسع الجنة، وما ينطبق على الجنة ينطبق على النار أيضاً، فإن النار أيضاً حقيقة باطنة لهذا العالم، ويمكن أن تكون محيطة بالسماوات والأرض، غاية الأمر أن الجنة قد تكون أوسع من النار نظراً لكثرة أهل الجنة وغلبتهم على أهل النار؛ إذ لا يخلد في النار إلاّ المعاندون.

ومن هذه الوجوه الثلاثة يتضح أن وجود الجنة والنار مساوق لوجود

١- انظر معجم مقاييس اللغة: ص٩٣٢، (مهد)؛ القاموس: ص٣٠٣، (مهد)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٨٠، (مهد)؛ لسان العرب: ج٣، ص٤١٠، (مهد).

العالم، وملازم له، ومتحقق في كل انحائه واطرافه؛ لأنها ليست إلاّ أعمال الناس ومعتقداتهم، لكنهم لا يشعرون بهما؛ لأنهما من عالم آخر لا يمكن إدراكه بواسطة الحواس الظاهرة، ومتى ما دخل الإنسان في ذاك العالم وانتقل من الدنيا سيرى ذلك ماثلاً أمام عينيه.

المطلب الخامس: في معنى الخلود في الجنة والنار

اتفق المسلمون على أن الحياة الأخروية خالدة فلا زوال لها ولا فناء، سواء كانت في الجنة أو في النار، كما اتفقوا على أن الجنة والنار من الحقائق الخالدة، وأهل الجنة خالدون فيها، وأهل النار خالدون فيها، وهو من الضرورات لدى كل مسلم، وقد نصت عليه الآيات الكثيرة من القرآن؛ إذ قال سبحانه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1] وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[2] كما اتفقوا أيضاً على أن خلود الجنة دائم؛ لأن الداخل فيها لا يخرج منها أبداً إما من جهة التفضل واللطف، أو من جهة العدل؛ لأن من يرد النعيم لا يخرج منه من دون ذنب، والجنة خالية من الذنوب؛ لعدم وجود التكليف فيها، أو من جهة اقتضاء حكمة الخالق؛ لأن الدخول في الجنة من الوعد، أو من مقتضيات الرحمة، والله سبحانه لا يخلف الوعد، ولا يمنع من الرحمة بلا سبب.

وأما الخلود في النار فهو بالنسبة للبعض دائم، وهو أصول جهنم

---

١ – سورة المائدة: الآية ١١٩.

٢ – سورة الأحزاب: الآية ٦٤–٦٥.

وحطبها، وقد عرفت أنهم الجاحدون المعاندون للحق كفاراً كانوا أو منافقين أو نواصب ونحوهم.

وأما بالنسبة لغيرهم فليس بدائم؛ لأنهم ينقذون من النار بأحد ثلاثة طرق:

الأول: انقضاء أمد عصيانهم وأثره ومدة العقاب التي قررها الخالق لهم، فإذا انتهت المدة يخرجون منها.

والثاني: شمول العفو والرحمة الإلهية لهم.

والثالث: شمول الشفاعة لهم.

والخلاصة: أن خلود أهل الجنة دائم وخلود أهل النار نسبي، فبالنسبة للبعض دائم وبالنسبة لغيره محدود، وإنما اختلفوا في ثلاثة أمور:

الأمر الأول: في معنى الخلود وحقيقته

فإن معنى الخلود في اللغة والعرف ظاهر، وهو الدوام والبقاء على الحالة التي هو عليها من دون تغير أو فساد، وبهذا اللحاظ أطلق على الخلود في الجنة[1]، والمتبادر إلى الأذهان من معناه ولعله المستفاد من نصوص الأدلة أنه يطلق في الغالب على الذوات بلحاظ أوصافها الذاتية والعرضية، فقولهم المؤمنون خالدون أي باقون بذواتهم وبأوصافهم كذلك، وإذا قيل خالدون في الجنة أي يبقون في نعيمها فلا يزول عنهم أو يتغير.

١ - انظر معجم مقاييس اللغة: ص٣٠٨، (خلد)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٩١-٢٩٢، (خلد)؛ القاموس: ص٢٦٧، (خلد)؛ لسان العرب: ج٣، ص١٦٤، (خلد).

وهو بحسب المصطلح حقيقة شرعية يراد به الدوام والبقاء في الجنة لأهل الجنة، وفي النار للمعاندين من أهلها لا مطلقاً وإن كان هذا المعنى مستفاداً من اللغة؛ لما عرفت من أن المصطلحات غالباً ما يكون لها منشأ لغوي أو عرفي، ولكنه لا يمنع من تحقيق الحقيقة العرفية الخاصة فيه.

والملحوظ أن إطلاق الخلود في الآيات والروايات يقع في الغالب في مقابل الموت، ففي رواية أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، جيء بالموت فيذبح، ثم يقال: خلود فلا موت أبداً»[١] وقريب من هذا المضمون ورد في رواية أخرى عنهما[٢]، وفي رواية أخرى: «ما خلقتكم للفناء بل خلقتكم للبقاء»[٣].

والرواية الأولى صريحة الدلالة على أن الموت حقيقة وجودية جسمانية له حس وشعور، ولذا يذبح، ولعل مما يعضده تعلق الخلق به، وقوله سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٤] وقرينة المقابلة مع الحياة التي تقتضي الاشتراك في الصفة، فالموت حقيقة وجودية مخلوقة وليس أمراً عدمياً، كما أنه يدخل الأحياء فيميتهم بمعنى يذهب عنهم الحياة الظاهرة، ولذا يذبح في الآخرة لكي يبتدأ الخلود.

ويشهد له رواية مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: «..... إن الإنسان طغى، وقال: من أشد مني قوة فخلق الله له

١ - انظر تفسير القمي: ج٢، ص٩٦.
٢ - انظر بحار الأنوار: ج٨، ص٣٤٥، ح٢.
٣ - الاعتقادات (للمفيد): ص٤٧؛ بحار الأنوار: ج٦، ص٢٤٨، ح٨٧.
٤ - سورة الملك: الآية ٢.

الموت وقهره وذل الإنسان، ثم إن الموت فخر في نفسه، فقال الله عز وجل: لا تفخر فإني ذابحك بين الفريقين أهل الجنة وأهل النار، ثم لا أحييك أبداً فترجى أو تخاف»[1].

وهو ظاهر بل صريح في أن الموت حقيقة حساسة تدرك وتفهم وتتكلم، وليس هذا بالمستغرب؛ لما عرفت من أن جميع الأشياء لها نسبة من الفهم والشعور والحياة، وعدم إدراكنا لها لا ينفي وجودها؛ بداهة أن قصور العالم لا ينفي الحقيقة الثابتة، وقد مر عليك أن القوانين التي تحكم عالم ما وراء المادة تختلف تماماً عن قوانين الدنيا.

وكيف كان، فإنه إذا أطلق لفظ الخلود على الشيء ينصرف إلى الذي لا يموت، وإذا أريد منه بقاء النعمة أو العذاب فيفتقر إلى القرينة، فيقال: (خالد في الجنة) و(خالد في النار) وهنا نلفت النظر إلى حقيقتين:

الحقيقة الأولى: أن الخلود في الجنة والنار من الحقائق الحسية، فإن أهل الجنة يخلدون فيها بأجسامهم؛ لما عرفت من أن المعاد جسماني وأن الجنة والنار كذلك، وهذا هو المستفاد من الآيات والروايات كما عرفته وستعرفه.

ولازم قول الحكماء بالمعاد الروحاني، وأن اللذات والآلام في الجنة والنار عقلية أو مثالية كما عرفته من مسلك المشائين والاشراقيين هو الالتزام بأن الخلود كذلك؛ لضرورة وجود التسانخ بين الشيء ولازمه أو أوصافه وحالاته، لكنك عرفت ضعفه، بل مخالفته للنصوص الصريحة.

الحقيقة الثانية: أن الخالدين في النار يبقون في عذابهم لا يخفف عنهم ولا

١ - انظر الكافي: ج٨، ص١٤٩، ح١٢٩؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٣٤٩- ٣٥٠، ح١٢.

ينقذون منه، وهذا الخلود ناشئ من استحقاقهم واختيارهم؛ لأن العذاب هو نتاج العمل كما يستفاد من الأدلة، وقد خالف ذلك بعض المنسوبين إلى الحكمة والعرفان أو التصوف، حيث فككوا في معنى الخلود في النار بين بقاء الحياة وبين ملازمة العذاب، فقالوا: إن خلود الكفار في النار معناه بقاؤهم فيها إلى ما لا نهاية، إلاّ أن عذابهم فيها منقطع وزائل، ووجهوا ذلك بأن النار بعد مدة من عذابهم تكون عليهم برداً وسلاماً، بل ترقى بعضهم فقال: إن أهل النار مآلهم إلى النعيم ولكن نعيمهم في النار، ونظّر له بنعيم خليل الله إبراهيم عليه السلام في النار التي ألقي فيها، واستدل لهذا المدعى بوجوه استحسانية:

أحدها: أن رفع العذاب عن الخالدين في النار هو مقتضى العفو والتجاوز[1]، ومخالفة الوعيد ليس بقبيح عليه، فالمقتضي للعفو موجود والمانع مفقود، وفيه أن المقتضي غير موجود؛ لما عرفت من أن الخالدين في النار هم المعاندون، وهؤلاء ذاتيهم العناد والجحود، فذاتهم مقتضى العذاب لا الرحمة على أن مخالفة الوعيد قد يكون قبيحاً أحياناً، وذلك إذا استلزم مخالفة الوعد أو الكذب. أما الأول فلأنه سبحانه وعد الأنبياء والمؤمنين بتعذيب أعدائهم والظالمين لهم في الدنيا، وأنه يخلدهم في النار، فإذا صدق على هذا عنوان الوعد فإنه يقبح مخالفته. نعم إلاّ إذا قيل بأنه سبحانه يرضي عباده المؤمنين ويعوضهم إذا أراد مخالفة وعيده، كما أن مخالفة الوعيد إذا انطبق عليه عنوان الكذب فإنه يكون قبيحاً يتنزه عنه الباري، وعليه فإن صحة هذا الوجه متوقفة على ثبوت حسن مخالفة الوعيد، وهو هنا غير محرز لاحتمال انطباق

١ - انظر الفصوص: الفص الإسماعيلي الفتوحات المكية: الباب ٥٨.

عنوان مخالفة الوعد أو الكذب عليه، والوجوه العقلية لا تترجح بالاحتمال؛ لأنه ملازم للترجيح بلا مرجح أو ترجيح المرجوح، فتأمل.

ثانيها: أن طبيعة الساكنين في وطن أن يألفوه ويكونوا مسرورين به، ومن هنا نلحظ أن هجرة الوطن والاغتراب عنه توجب العذاب والشقاوة للمهاجرين، وأهل النار بعد خلودهم في النار تكون موطنهم ودار سكناهم، فلذا يكونون منعمين فيها، بل لو أخرجوا منها كانوا معذبين ... ومن هنا فإن أهل النار وعمارها وخزنتها من الملائكة، والحشرات والحيات وغيرها من الحيوانات فيها لا تكون النار عليهم عذاباً؛ لأن الله سبحانه خلقهم على نحو يألف النار ويعيش فيها من دون أن يتعذب[١].

ولا يخفى ما فيه من تخرصات لا تساعد عليها فطرة ولا عقل ولا نص من الكتاب والسنّة، بل تضافرت الآيات على أن الخلود في النار ملازم للعذاب المهين والحياة السيئة والمصير الأسود، لاسيما في العذاب النفسي، منها قوله تعلى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾[٢] ومنها قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾[٣] ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾[٤] ومنها قوله تعالى:

١ – انظر الفتوحات المكية: الباب ٣٠٥.
٢ – سورة البقرة: الآية ١٦١– ١٦٢.
٣ – سورة آل عمران: الآية ١٢.
٤ – سورة النساء: الآية ١٤.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[١] ومنها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[٢] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الظاهرة في بقاء العذاب.

ثالثها: أننا نجد أن بعض الرحماء من عباد الله إذا حكمّهم الله سبحانه في خلقه رحموا جميع الخلق، وأزالوا صفة العذاب من العالم، فلابد وأن يكون الخالق أولى منهم بذلك؛ لأنه أرحم الراحمين، وهذه الرحمة الواسعة تتنافى مع خلود العذاب، لاسيما وأن الخلق العصاة كانوا مجبورين في اختيارهم للمعصية؛ لأن الله سبحانه خلقهم مختارين؛ لأن كل شيء يجري بقضائه وقدره، وفي عين الحال فإن عصيانهم لم يضر الله سبحانه شيئاً.

والخلاصة: أن كون الله سبحانه أرحم الراحمين وأن معصية العبد لم تضره شيئاً خصوصاً وأن الله سبحانه قدر أن يكون العبد مختاراً في أفعاله وأعطاه الشهوة حتى يميل إلى المعصية، فإن مقتضيات الرحمة فيه أكثر من مقتضيات الغضب، وحيث إنه سبحانه سبقت رحمته غضبه فلابد وأن يرحمه، ويرفع عنه العذاب، وأيدوا هذه الوجوه برواية وردت بطرق العامة عن ابن مسعود من أن جهنم تخلو من ساكنيها في زمان ما بعد أن يلبثوا فيها أحقاباً[٣].

وفيه أنه منقوض بأصل العذاب أيضاً، فإن الوجوه التي ذكرت لعدم الخلود في العذاب منطبقة على أصله أيضاً، فلماذا لم يلتزموا برفعه عنهم؟ **هذا أولاً**.

---

١ – سورة المائدة: الآية ٣٧.

٢ – سورة يونس: الآية ٥٢.

٣ – انظر فيض القدير: ج١، ص٥٥؛ فتح القدير: ص٥٢٧؛ إبطال أدلة فناء النار: ص٨٢.

وثانياً: أن هذا ذوق واستحسان لا يستند إلى حكم عقلي ولا دليل نقلي، بل الدليل على خلافه؛ لأن الرحمة الإلهية وإن كانت شاملة إلاّ أنها لا تنزل إلاّ بمقتضى الحكمة، فحتى يصح الوجه المذكور لابد وأن يثبت أن رفع العذاب عنهم هو مقتضى الحكمة، وأنّى لهم بإثباته؟ بل تضافرت النصوص على أن بقاءهم في العذاب هو مقتضى الحكمة؛ إذ اخبر سبحانه بأنه لا يخفف عنهم العذاب، ولا ينظرون، وقولهم بأن اختيار العبد أمر مجبور عليه تام في نفسه، إلاّ أن العذاب ليس على اختياره، بل على اختيار المعصية، فالعذاب يكون على ما اختاره العبد لا ما اختاره الباري عز وجل.

وأما الرواية التي استشهدوا بها فهي ضعيفة سنداً، ومعارضة دلالة بما هو أقوى منها، بل فاقدة لشرائط الخبر؛ لاحتمال أن يكون قولاً لابن مسعود، بل هو كذلك كما يظهر من لسانها[1]. هذا فضلًا عن مخالفتها لصريح الكتاب، وتواتر الروايات الدالة على الخلاف، فلابد وأن يعرض عنها ويضرب بها عرض الجدار.

وتواترت الأخبار أيضاً في الدلالة على أن عذاب أهل النار دائم، ولا يرفع عنهم أبداً، ففي أمالي الصدوق رحمه الله بإسناده عن الباقر عليه السلام قال: «إن أهل النار يتعاوون فيها كما يتعاوى الكلاب والذئاب مما يلقون من أليم العذاب، ما ظنك - يا عمرو - بقوم لا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها، عطاشى فيها جياع، كليلة أبصارهم، صم بكم عمي مسودة وجوههم، خاسئين فيها نادمين، مغضوب عليهم فلا يرحمون، ومن

١ - انظر فيض القدير: ج١، ص٥٥؛ فتح القدير: ص٥٢٧؛ إبطال أدلة فناء النار: ص٨٢.

العذاب لا يخفف عنهم وفي النار يسجرون، ومن الحميم يشربون، ومن الزقزم يأكلون، وبكلاليب النار يخطمون، وبالمقامع يضربون ... فهم في النار يسحبون على وجوههم، ومع الشياطين يقرنون، وفي الأنكال والأغلال يصفدون، إن دعوا لم يستجب لهم، وإن سألوا حاجة لم تقض لهم؟»[١].

هذا كله مضافاً إلى مخالفته الصريحة لما عرفت من تجسم الأعمال، وأن الجنة نتائج الأعمال الصالحة، والنار نتائج الأعمال القبيحة، وأن هذه النتائج لازم قهري مترتب على الأعمال، وبه تبطل الوجوه المذكورة؛ لأنها مبنية على أساس أن الثواب والعقاب أمران اعتباريان ناشئان من مقتضيات الرحمة والغضب.

هذا وقد فصل في بيان هذه الحقيقة بعض الأعلام، وفصل في جوابها بما يغني عن مزيد البيان[٢]، ولا يخفى أن رفع العذاب عن أهل النار أمر ممكن من حيث الإمكان العقلي، والوجوه التي ذكرت ربما تكون ناظرة إلى هذه الجهة، إلاّ أنه ممتنع من حيث الإمكان الوقوعي، إما من جهة إخبار الخالق تعالى بعدم رفعه ويجب تصديقه فيما أخبر، أو من جهة أن رفعه مخالف للحكمة لاستلزامه مخالفة الوعد للأنبياء والمؤمنين، أو من جهة ملازمة العمل لجزائه بما يأبى معه الرفع.

نعم دعواهم بأن النار تكون لهم نعيماً فهو تخرص من القول لا يساعد عليه عقل أو نقل.

١ - الأمالي (للصدوق): ص٦٥١، ح١٤.

٢ - انظر مصابيح الأنوار: ج١، ص٢٢٤- ٢٥٤، ح ٣٤.

الأمر الثاني: في المخلدين في الجنة والنار

اتفق المسلمون على أن المخلدين في الجنة هم المؤمنون، وأن المخلدين في النار هم الكفار المعاندون الذين أنكروا ضرورياً من ضروريات الإسلام، وهو ما صرح به علماؤهم؛ لتواتر النصوص عليه، وإنما اختلفوا في ثلاث فئات:

الفئة الأولى: العصاة من المسلمين بالمعاصي الكبيرة إذا ماتوا بلا توبة، فذهب الإمامية طراً وأكثر الأشاعرة والمعتزلة إلى أنهم يعذبون ولا يخلدون في النار؛ لأن عذابهم منقطع، وذهبت الخوارج وجماعة من المعتزلة إلى أنهم يخلدون في النار[١].

والفئة الثانية: الكفار المستضعفون، وهم ناقصو العقول، أو الذين لم تتم الحجة عليهم ولم يقصروا في الفحص عنها، ويعبر عنهم بالقاصرين، فرجح بعضهم أن يكونوا من المرجين لأمر الله، فإما يعذبهم وإما يتوب عليهم، ورجح بعضهم العفو والمغفرة للبراءة العقلية والشرعية المتفقتين على أنه سبحانه لا يعاقب الجاهل القاصر.

ورجح البعض امتحانهم من جديد في الآخرة، فالمطيع يدخله الجنة، والعاصي يدخله النار على ما عرفته سابقاً، والظاهر اتفاق الكلمة على أنهم لا يخلدون في العذاب لعدم وجود المقتضي، بل ولوجود المانع؛ لأن القصور عذر عقلاً وشرعاً.

١ - انظر شرح عقائد الصدوق: ص٥٥؛ أوائل المقالات: ص١٤؛ كشف المراد: ص٢٦١؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٣٥٠.

والفئة الثالثة: المخالفون لولاية أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة من بعده عليهم السلام، والمعاندون منهم، وهم الذين تمت عليهم الحجة وعاندوا تعصباً وعداءً، فهم ملحقون بالكفار حكماً، ويخلدون في النار، وأما المستضعفون منهم فترد فيهم الأقوال الثلاثة في الكافر المستضعف[١].

ويتحصل: أن عمدة الخلاف الحاصل في الفئة الأولى لاتفاق الكلمة على أن عذاب المستضعفين من الكفار والمخالفين منقطع فلا يخلدون في النار، ومقتضى القواعد العقلية هو عدم خلود فاعل الكبيرة في النار أيضاً، إلاّ أن القائلين بخلوده استدلوا عليه بأدلة سمعية[٢] عمدتها آيتان من الكتاب العزيز:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[٣] بتقريب: أن إطلاق عنوان العاصي يشمل المسلم الفاسق والكافر، واخراج الأول من عموم الحكم يفتقد إلى دليل.

وفيه نقضاً بفاعل الصغيرة، فإن عموم الآية يشمله، ولازمه أن يكون خالداً في النار أيضاً، إلاّ أنهم لم يلتزموا به، فما يقال في توجيه خروج فاعل الصغيرة عن العموم يمكن أن يقال لفاعل الكبيرة أيضاً.

وحلاً من ثلاثة وجوه:

---

١ - انظر بحار الأنوار: ج٨، ص٣٦٣، تذييل.

٢ - انظر شرح الأصول الخمسة(للقاضي): ص٦٥٩ وما بعدها.

٣ - سورة النساء: الآية ١٤.

الأول: أن عموم الآية مخصص بالأدلة الكثيرة الدالة على عدم خلود جملة من العصاة:

منها: العاصي التائب فإن أدلة التوبة تشمله.

ومنها: العاصي القاصر وتشمله أدلة رفع العقاب عنه.

ومنها: العاصي الموالي لآل محمد عليهم السلام غير التائب، وتشمله أدلة الشفاعة، ولا شك في أن فاعل الكبيرة مشمول بواحد من هذه الاستثناءات، فلم يبق تحت عموم الآية إلاّ العاصي المعاند، وهو الكافر موضوعاً أو حكماً؛ لما عرفت من أن المراد من المعاند الذي يجحد الحق عناداً.

الثاني: أن دلالة هذه الآية معارض بدلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[١] فإنها دالة على غفران جميع الذنوب ما عدا الشرك، فيقع التعارض بين مدلوليهما، ومدلول الثانية أقوى ظهوراً من جهة المنطوق لتضمنه لأكثر من أداة للتأكيد، كما أنه أقوى مضموناً لأن نسبتها بالقياس إلى الأولى نسبة الخاص إلى العام فتخصصها، ونتيجة التخصيص هو غفران جميع المعاصي إلاّ ما كان من قبيل الشرك فإنه لا يغفر، ولازم الغفران هو عدم الخلود في النار.

الثالث: أن الآية المباركة تتضمن قرينة داخلية توجب انصرافها إلى المعصية العنادية لا غير، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾[٢] فإن عطف هذه الجملة على قوله ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يدل على أن المعصية

١ - سورة النساء: الآية ٤٨.

٢ - سورة النساء: الآية ١٤.

التي توجب الخلود في النار معصية خاصة وليست كسائر المعاصي، وهي المعصية التي يتجاوز فيها حدود الله سبحانه، فإن هذا المعنى لا يتحقق إلاّ في العاصي الجاحد المعاند، أي الذي يستحل المحرمات، أو يتعد جميع حدود الله سبحانه كما ذهب إليه جمع من المفسرين[١].

والمعنى لا يستقيم إلاّ بهذا الحمل، وذلك لأنه إن أريد منه مطلق المعصية كان ذكر تعدي الحدود لغوياً؛ إذ يكفي في الدلالة على المطلوب أن يقول: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا﴾[٢] إلاّ أن عطف تعدي الحدود على المعصية يستدعي وجود معنى إضافي لا تدل عليه كلمة (المعصية) فيتداركه بالذكر، وهذا ما يعضده اتفاق أصحاب هذا القول على أن فاعل الصغيرة خارج عن دلالة الآية مع أنه أيضاً متعد على حدود الله من جهة العصيان.

والخلاصة: أن الاستدلال بالآية الشريفة على أن فاعل الكبيرة مخلد في النار غير وجيه من جهة الخروج الموضوعي؛ لأن دلالة الآية أجنبية عن مدعاهم، وعلى فرض صحة الدلالة فإنها عامة وهي مخصصة بالأدلة الكثيرة الدالة على غفران معصيته وعدم خلوده في النار.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾[٣]

١ - انظر مجمع البيان: ج٣، ص٣٩، تفسير الآية المزبورة.
٢ - سورة النساء: الآية ١٤.
٣ - سورة النساء: الآية ٩٣.

ومنطوقها صريح الدلالة على خلود القاتل في النار، وهو من المعاصي الكبيرة بلا إشكال.

وفيه:

أولاً: على فرض صحة الدلالة فإنها مختصة بالقتل فتعميم الحكم إلى كل الكبائر يفتقر إلى الدليل، فالدليل أخص من المدعى.

ثانياً: أن الآية مخصصة ومقيدة بالأدلة الأخرى التي نصت على قبول توبة القاتل التائب وقبول الشفاعة في حقه إن كان موالياً، وما دل على أن القاتل الكافر أو المشرك إذا أسلم لا يؤخذ بعقوبته أيام كفره وشركه بقانون الجب وهكذا.

وإذا لوحظت هذه الأدلة المخصصة يبقى تحت عموم الآية القاتل المستحل لدم المؤمن من أجل دينه، وليس ذلك إلاّ الكافر، وهذا ما يعضده شأن النزول، ففي المجمع أنها نزلت في رجل قتل مؤمناً ورجع إلى الكفر وعبادة الأوثان[1]، بل الروايات الواردة عن أئمة الهدى عليهم السلام فسرت القتل هنا بالقتل لأجل الدين كما في تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام [2]، ومثله ورد في تفسير القمي[3]، وفي رواية سماعة قال سألته عن قول الله عز وجل: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ قال: «من قتل مؤمناً على دينه، فذلك المتعمد الذي قال الله عز وجل: ﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾» قلت: فالرجل يقع بينه وبين الرجل شيء فيضربه بسيفه فيقتله؟ قال: «ليس

١ - انظر مجمع البيان: ج٣، ص١٥٩، تفسير الآية المزبورة.
٢ - انظر مجمع البيان: ج٣، ص١٥٩، تفسير الآية المزبورة.
٣ - تفسير القمي: ج١، ص١٥٥.

ذلك المتعمد الذي قال الله عز وجل»[١].

ثالثاً: أن دلالتها معارضة بالآية الدالة على غفران جميع الذنوب ما عدا الشرك، ولازمه التخصيص كما عرفته في الآية الأولى.

والحاصل: أن دلالة الآية الشريفة أجنبية عن المطلوب فلا تصلح دليلاً لمدعاهم، وبذلك يظهر أن المخلدين في نار جهنم هم الجاحدون المعاندون، وهي ذات النتيجة التي توصلنا إليها في المباحث السابقة.

الأمر الثالث: الخلود في النار والعدل الإلهي

من القواعد المسلمة في علم الكلام أن الجزاء الإلهي في الثواب يمكن أن يكون مكافئاً للعمل، ويمكن أن يكون أكثر؛ لأن الأول مقتضى العدل، والثاني مقتضى الرحمة، ولا يمكن أن يكون أقل؛ لأنه ظلم ناشئ من الانتقام أو البخل أو الفقر، والكل مناف لكمال الخالق وحكمته.

وأما العقاب فيمكن أن يكون أقل من العمل إذا اقتضته الحكمة؛ لأن ذلك مقتضى الرحمة، ولا يمكن أن يكون أكثر من العمل؛ لأنه ظلم، ومقتضى العدل أن يكون مكافئاً للعمل ووفقاً له، وفي القرآن وصفه بالجزاء الوفاق؛ إذ قال سبحانه: ﴿جَزَآءَ وِفَاقًا﴾[٢] أي جاريا على مقدار الأعمال في الاستحقاق، فيعذب الله سبحانه المشركين والكفار بالنار؛ لأنها وفقه إذ

١ - الكافي: ج٧، ص٢٧٥- ٢٧٦، ح١؛ تهذيب الأحكام: ج١٠، ص١٦٤- ١٦٥، ح٣٥؛ معاني الأخبار: ص٣٨٠، ح٤؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج٢، ص١٢٧، ح٤٩٥.

٢ - سورة النبأ: الآية ٢٦.

لا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم من النار[١]، وفي السيئات قال سبحانه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَا﴾[٢] وقال سبحانه: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾[٣] وسماها سيئة ووصفها بالمثلية لأن الجزاء يسوء صاحبه، أو من باب مجاز المقابلة؛ بداهة أن معاقبة المسيء لا يكون سيئة بل حسنة، فهو نظير قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾[٤] مع أن رد الاعتداء دفاع عن النفس وهو حسن وليس بعدوان.

وأما في الحسنات قال سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾[٥] وهذا ما تقتضيه الرحمة والفضل لا العدل.

ومما تقدم يتضح: أن الخلود في الجنة إن كان في مقابل الأعمال الصالحة التي يؤديها العباد فهو متوافق مع مقتضى العدل الإلهي، وإن كان بالتفضل فهو مقتضى الرحمة الإلهية، وهذا مما لا كلام فيه ولا نزاع، وإنما الكلام في الخلود في النار فإنه لا يتناسب مع العمل مهما بلغ من السوء والقباحة؛ لأن العمل محدود من حيث قبحه ومن حيث آثاره؛ إذ كل عمل لابد وأن ينتهي فكيف يكون الجزاء غير منته.

وعليه فإن القول بالخلود في النار لا يتوافق مع قواعد العقل والحكمة الإلهية؛ لأن لازمه أن يكون الجزاء أكبر من العمل، وهذا لا يتوافق مع العدل

١ - انظر مجمع البيان: ج١٠، ص٢٤٤، تفسير الآية المزبورة.
٢ - سورة الشورى: الآية ٤٠.
٣ - سورة غافر: الآية ٤٠.
٤ - سورة البقرة: الآية ١٩٤.
٥ - سورة الأنعام: الآية ١٦٠.

الإلهي. قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾[١] والنتيجة أننا نكون أمام خيارين لا ثالث لهما، إما أن نلتزم بوجود الخلود في النار وحينئذ علينا أن نثبت أن المعاصي والأعمال القبيحة التي يقوم بها الإنسان دائمة وخالدة؛ لتكون وفقاً لجزائها، أو نلتزم بأن المعاصي منقطعة ومنتهية ولازمها أن يكون العذاب منقطعاً ومنتهياً أيضاً، فيبطل الخلود في النار، وللإجابة عن هذا الإشكال لابد من تقديم مقدمة.

وخلاصتها: أن الحكم على بقاء الأعمال وانقطاعها يخضع لاعتبارات عديدة عمدتها ثلاثة:

الاعتبار الأول: شكل العمل وصورته، وهو ما يعبر عنه بظاهر العمل، فالصلاة مثلاً ظاهرها مجموعة حركات وسكنات، وظاهر الصيام هو الكف عن المفطرات وهكذا، ولا شك في أن ظاهر العمل حقيقة عرضية منقضية في وقتها وليس لها دوام ولا بقاء.

الاعتبار الثاني: نية العمل وجوهره، فإن النية هي التي تلون العمل وتعطيه جوهره وحقيقته، فالكف عن المفطرات بنية الصيام تكون صوماً وعبادة يتقرب بها إلى الله سبحانه، وبنية ترويض النفس على تحمل ألم الجوع والعطش تكون رياضة لا أكثر.

ومن خصوصيات النية أنها قد تكون على قدر العمل، وقد تكون أكبر من العمل؛ لان العمل من حيث ظاهره مقيد بزمانه ومكانه وسائر قيوده التي تحدده وتجعله منقطعاً؛ لأنه من أعمال الجوارح، والجوارح محدودة، بخلاف

١ - سورة النساء: الآية ٤٠.

النية فإنها من أعمال الجوانح، ويمكن للنية أن تبقى وإن انقضى العمل وانتهى أمده، فلذا يمكن للإنسان أن يعقد نيته على أداء العمل في المستقبل، ويحسب له خيراً، ويكافأ عليها، بل في الأخبار الشريفة: «أن نية المؤمن خير من عمله»[١] مع أن العمل قد لا يتحقق بسبب وجود المانع منه، أو يتحقق في المستقبل. وحيث إن الأعمال تتلون بلون نيتها فإنه يحسب العبد الذي ينوي الطاعة ولم يتمكن منها مطيعاً منقاداً، ويؤجر عليها ويثاب، وهذا ما يؤكده قول الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة أوقف المؤمن بين يديه، فيكون هو الذي يتولى حسابه، فيعرض عليه عمله، فينظر في صحيفته، فأول ما يرى سيئاته فيتغير لذلك لونه، وترتعش فرائصه، وتفزع نفسه، ثم يرى حسناته فتقر عينه، وتسر نفسه، وتفرح روحه، ثم ينظر إلى ما أعطاه الله من الثواب فيشتد فرحه، ثم يقول الله عز وجل للملائكة: هلموا بالصحف التي فيها الأعمال التي لم يعملوها. قال: فيقرؤونها، ثم يقولون: وعزتك أنك لتعلم أنا لم نعمل منها شيئاً، فيقول: صدقتم نويتموها فكتبناها لكم، ثم يثابون عليها»[٢].

وكذا الأمر في المعصية، فإن الذي ينوي المعصية تحسب له خطيئة وإن لم يرتكب المعصية بعد، لكن لا تحسب عليه عقوبة ذات المعصية، بل عقوبة نية المعصية؛ لأن نية المعصية في نفسها تتضمن معنى التجرؤ والتمرد على المولى، ولذا أفتى جمع من الفقهاء بحرمة التجري، وقالوا بعصيان العبد المتجري وإن لم يقع منه العصيان المقصود.

١ - الكافي: ج٢، ص٨٤، ح٢؛ علل الشرائع: ج٢، ص٥٢٤، ح١؛ وسائل الشيعة: ج١، الباب ٦ من أبواب مقدمات العبادات، ص٥٠، ح٣.

٢ - تفسير القمي: ج٢، ص٢٦؛ تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٢١٤ - ٢١٥، ح٤٢١.

الاعتبار الثالث: تأثير العمل، بمعنى أن لا ينظر إلى ظاهر العمل ولا إلى نيته، بل إلى مستوى تأثيره، ومن الواضح أن الأعمال قد تكون منتهية بحسب ظاهرها، وربما تكون منقطعة بحسب نيتها، إلاّ أن أثرها يبقى أمداً طويلاً، ومن هنا نلاحظ أن كلمة طيبة واحدة يقولها نبي أو إمام أو عبد صالح ينتهي أمدها في ثوان لكن أثرها يبقى قروناً طويلة، وربما مدى الزمان، ولذا وصفها القرآن بالشجرة المثمرة في كل حين؛ إذ قال سبحانه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1] ورب كلمة سيئة تصدر من شخص تؤجج حروباً فتبقى آثارها زماناً طويلاً.

فالأعمال قد تلحظ باعتبار مظاهرها، وقد تلحظ باعتبار دوافعها، وقد تلحظ باعتبار آثارها، والجزاء الذي يترتب على كل عمل لا يأخذ بنظر الاعتبار ظاهر العمل وحده، بل يلحظ نيته وأثره أيضاً.

وعلى هذا الأساس يكون الخلود في النار جزاء للأعمال الطالحة؛ لأن تلك الأعمال وإن كانت منقطعة بحسب ظاهرها إلاّ أنها باقية بحسب النوايا والآثار، وذلك لأن النوايا ترجع في جوهرها إلى الملكات النفسية، وهي من الصفات الملازمة لنفس الإنسان، وتكون معها في جميع الأحوال ولا تفارقها، وأما الآثار فهي أيضاً تبقى نتائجها في الخارج، كما تنعكس على نفس الإنسان وقلبه، فترسخ فيها الملكات والصفات، ومن هنا يؤكد علماء الأخلاق على

١ - سورة إبراهيم: الآية ٢٤- ٢٥.

أن تقوية الملكات الفاضلة يتم بالمواصلة على عمل الخير، وتقوية الملكات السيئة بخلافها[١].

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٢] فإن وصف الخطيئة بأنها محيطة بصاحبها يشير إلى أن العصيان يكون كالسور الذي يطوق صاحبه، بحيث يحدق به من كل جانب، فتتحول حياته برمتها إلى معاص وخطايا فلا يوجد فيها خير أبداً[٣].

ومن الواضح أن من تكون هذه حياته فإن المعصية لا تفارقه، ولابد وأن يكون من الخالدين في النار؛ لأن الشخص الذي يواصل المعاصي ولا يتوب عنها ولا يعمل صالحاً فإنه يكون من الجاحدين المعاندين، وقد عرفت أن الخلود في النار مختص بالمعاندين.

ونلاحظ أن هذه الآية المباركة أشارت إلى حقيقة هامة هنا مستفادة من قوله سبحانه: ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ وهي أن الكسب والاكتساب لا يتحقق إلاّ عن عمد واختيار، والإحاطة تعني انغماس الفرد في سيئاته وخطاياه، بحيث يصبح سجين ذنبه، ولا يمكن أن يكون العبد كذلك إلاّ إذا قطع المراحل الثلاث للملكات؛ لأن العاصي يبتدئ عصيانه بالفعل مرة أو مرتين مثلاً، ثم يواصله فيتحول إلى حالة فيه، ثم يتمادى أكثر ويستمر عليه حتى يتحول إلى ملكة، وإذا استمر عليها أكثر يكون منغمساً في

١ - انظر جامع السعادات: ج١، ص١٥.
٢ - سورة البقرة: الآية ٨١.
٣ - انظر مجمع البيان: ج١، ص٢٨٢ تفسير الآية المزبورة.

العصيان بحيث يشكل كل وجوده وجوهره حتى لا يمكنه أن يتخلى عنه، وقد بين القرآن هذه الحقيقة بقوله تعالى في بعض المكذبين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[1] والسر في عودتهم إلى ما نهوا عنه هو أن الجحود والعناد صار طبيعتهم وسجيتهم التي لا تفارقهم أبداً، وعلى هذا الأساس يخلدون في النار.

ونلاحظ مما تقدم: أن الخلود في النار لم يستند إلى ظاهر العمل حتى يقال بأن العمل منقطع فلابد وأن يكون جزاؤه كذلك، بل يستند إلى الملكات النفسية، وهي حقائق باقية تشكل جوهر العاصي فلا تفارقه، فلذا تخلده في النار، وهو ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في جواب من سأل عن سبب الخلود في الجنة والنار. قال عليه السلام: «إنما خلد أهل النار في النار لأن نياتهم كانت في الدنيا لو خلدوا فيها أن يعصوا الله أبداً، وإنما خلد أهل الجنة في الجنة لأن نياتهم كانت في الدنيا لو بقوا أن يطيعوا الله أبداً ما بقوا، فالنيات تخلد هؤلاء وهؤلاء، ثم تلا قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[2]»[3] أي على نيته[4]، وبهذا يتضح أن الخلود في النار هو مقتضى العدل والاستحقاق، ويمكن الإجابة عن الإشكال من جهة باطن العمل وتجسمه أيضاً.

بالقول: أن جزاء العمل ليس مغايراً للعمل ولا مفارقا له، بل هو باطنه

---

١ – سورة الأنعام: الآية ٢٧– ٢٨

٢ – سورة الإسراء: الآية ٨٤.

٣ – أصول الكافي: ج٢، ص٨٥، ح٥.

٤ – أصول الكافي: ج٢، ص١٦، ح٤؛ وانظر علل الشرائع: ص٥٢٣، ح١.

وجوهره الذي يلازمه أبداً؛ لأنه أثره ونتاجه، كما أن هذا الأثر يلازم الإنسان في جميع الأحوال والنشآت ابتداء من عالم الدنيا ثم البرزخ ثم الحشر ثم الجنة أو النار، وبه يحاسب، وبه يثاب ويعاقب، سوى أنه في عالم الدنيا يكون باطن العمل وغيبه إلاّ أنه في النشأة الآخرة يكون مظهره وشهادته.

وعلى هذا فإن الإشكال المذكور يبطل موضوعاً؛ لأنه مبتن على أن العمل حقيقة منقضية ومحدودة، والحال أنه ليس كذلك؛ لأن العمل حقيقة باقية وملازمة للإنسان في جميع أحواله ونشآته، وبه يكون خلوده، فإن كان عمله صالحاً خلده في الجنة، وإلاّ خلده في النار، وهذا هو مقتضى العدل، بقي أن نلفت النظر إلى حقائق:

الحقيقة الأولى: قد يخطر في الأذهان سؤال عن بعض الخالدين في النار، فإن جماعة منهم من عباقرة البشر الذين قدموا خدمات إنسانية كبيرة في البعد الصناعي أو العلمي أو السياسي أو الإنساني ونحو ذلك فكيف يكون جزاؤهم؟

والجواب أن هؤلاء يحاسبون على حسب معتقداتهم أولاً كما عرفت، وعليه فإنهم إن كانوا كفاراً بعلمهم وعمدهم فإنهم يخلدون في النار، وأما خدماتهم التي أسدوها فهي لا تستحق عند الله سبحانه شيئاً بميزان العدل؛ لأنهم فعلوها لأجل الدنيا وخدمة أهلها، ولم يفعلوها لله سبحانه، فيكفيهم منها ما يحصلون عليه من ذكر ومدح وتبجيل بين الناس. نعم ربما يخفف عنهم الباري بعض العذاب من باب التفضل لقاء ما قدموه، بناء على أن وعده جل وعلا في مجازاة الحسنة بالأضعاف المضاعفة ناظر إلى مطلق

الحسنات وإن لم تكن بقصد القربة له عز وجل، ولكن هذا لا ينجيهم من الخلود في النار، ولعل مما يشهد لهذا رواية علي بن يقطين. قال: قال لي أبو الحسن عليه السلام: «إنه كان في بني إسرائيل رجل مؤمن وكان له جار كافر، فكان الكافر يرفق بالمؤمن ويوليه المعروف في الدنيا، فلما أن مات الكافر بنى الله له بيتاً في النار من طين يقيه من حرها، ويأتيه رزقه من غيرها، وقيل له هذا لما كنت تدخل على المؤمن من جارك فلان بن فلان من الرفق وتوليه من المعروف في الدنيا»[1] ولعل وجه التخفيف أنه كان يرفق بالمؤمن لأجل إيمانه أو حباً بإيمانه، لكنه لم ينجه من النار، وذلك لما عرفت من أن قيمة العمل عند الله سبحانه هو أن يكون عن معتقد صحيح، كما عرفت أن أعمال المشركين ونحوهم محبطة ولا تصل إلى نتيجة أبداً، وأما إن كانوا قاصرين فيجري عليهم حكم القاصرين على ما مر عليك.

الحقيقة الثانية: أن الرواية الشريفة أكدت أن الموت يحشر في القيامة في صورة كبش ثم يذبح بين الجنة والنار أمام أهل المحشر؛ ليكون بمنزلة الإعلان عن البدء بالحياة الباقية التي لا موت فيها ولا فناء، منها ما ورد في تفسير القمي عن أبي عبد الله عليه السلام حيث سئل عن قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾[2] قال: «ينادي مناد من عند الله وذلك بعد ما صار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار: يا أهل الجنة ويا أهل النار هل تعرفون الموت في صورة من الصور؟ فيقولون: لا، فيؤتى بالموت في صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، ثم ينادون جميعاً أشرفوا وانظروا إلى الموت فيشرفون، ثم يأمر

---

١ – انظر ثواب الأعمال: ص٢٠٣– ٢٠٤؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٣٤٩، ح١١.

٢ – سورة مريم: الآية ٣٩.

الله به فيذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت أبداً، ويا أهل النار خلود فلا موت أبداً، وهو قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي قضي على أهل الجنة بالخلود فيها وقضي على أهل النار بالخلود فيها»[١] وقد وردت بهذا المضمون روايات عديدة[٢]، وربما يمكن توجيه مفادها بوجوه:

أحدها: أن المراد من الموت هو عزرائيل، وسمي بالكبش لأن الكبش في اللغة هو قائد القوم وسيدهم[٣]، وفيه قولهم كبش الكتيبة أي عظيمها ورئيسها[٤]، وعزرائيل ملك الموت، وله جيش من الجنود، وإنما يصور بصورة كبش أملح لأن الملك مخلوق من نور، وهو مما لا يقبل الذبح، وإنما الاطفاء، والخالق سبحانه لا يذبحه لعجز في المقدور، أو لقصور البشر عن إدراك ذبح الملائكة، ولعل لونه الأملح لتمييزه عن أهل الجنة؛ لأن ألوانهم بيضاء، وأهل النار لأن ألوانهم سود، فتأمل.

ثانيها: أن الكبش هو صورة الموت الحقيقية التي يحشر بها؛ لما عرفت من أن الأشياء تحشر في الآخرة على حقائقها الواقعية، فيكون نظير الصدق والكذب لكل واحد منهما صورته التي هي في الدنيا ألفاظ وكلمات لكنها في الآخرة بصورة جميلة أو قبيحة.

ثالثها: أن المراد من الكبش معناه اللغوي، يقال كبش الشيء كبشاً أي تناوله بجمع يده[٥]، وعليه فإن الموت يكون على صورته الحقيقية، ويحشر

١ – تفسير القمي: ج٢، ص٢٤– ٢٥.
٢ – انظر معاني الأخبار: ص١٥٦، ح١؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٣٤٦، الأحاديث ١–٤.
٣ – القاموس: ص٥٥٨، (كبش)؛ لسان العرب: ج٦، ص٣٣٨، (كبش).
٤ – انظر معجم مقاييس اللغة: ص٨٨٣، (كبش).
٥ – المعجم الوسيط: ج٢، ص٧٧٤، (كبش).

مجموعاً بجمع يده لأجل أن يذبح، كما تجمع يد الحيوان الذي يعد للذبح، ولعل الحكمة من كل ذلك تعود إلى أن بذبح الموت يزداد المؤمن فرحاً وسروراً بالخلود، ويزداد الكافر عذاباً، وهذا ما أشار إليه حديث مسعدة بن صدقة عن النبي ﷺ إذ علل ذبح الموت وعدم إحيائه أبداً لكي لا يرتجى من قبل الكافر تخلصاً من العذاب، ولا يخافه المؤمن فيحرم من النعيم[١]، أو لأن ذبحه يتضمن الإعلان عن بدء مرحلة الحياة الأبدية، وإنما ختام مشاهد المحشر، وهذه مجرد احتمالات، والله وأولياؤه أعلم بحقيقة الحال.

الحقيقة الثالثة: ماذا بعد استقرار أهل الجنة في جنتهم وأهل النار في نارهم، هل تكون هناك دنيا أخرى لأناس آخرين أم لا؟

والجواب: أن المستفاد من بعض الأخبار الشريفة أن الله سبحانه يخلق خلقاً آخر ليسوا من البشر، ولعلهم من الملائكة، وميزتهم أنهم ظاهرون على الأرض وليسوا مخفيين، وفي السماء، أو أنهم خلق آخر يعبدونه ويوحدونه، ولعل الحكمة في ذلك ترجع إلى قصور الأرض عن البقاء من دون عبادة على ظهرها، أو لزيادة المعرفة والترقي في مراتبها، فإن العبادة طريق المعرفة، أو لأجل أن تتحقق غاية الخلق؛ إذ ورد في الحديث القدسي: «خلقت الخلق لكي أعرف»[٢] وفي قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٣] بناء على أن ذكر الجن والإنس من باب أنهم أكمل المخلوقات أو أنها المكلفة.

وكيف كان، فقد روى الصدوق رحمه الله في الخصال بسنده عن جابر بن يزيد

---

١ - انظر الكافي: ج٨، ص١٤٩، ح١٢٩؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٣٤٩، ح١٣.

٢ - عوالي اللآلئ: ج١، ص٥٥، ح٧٩؛ شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٣٧.

٣ - سورة الذاريات: الآية ٥٦.

قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(١) فقال: «يا جابر! تأويل ذلك أن الله عز وجل إذا أفنى هذا الخلق وهذا العالم وأسكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار جدد الله عز وجل عالماً غير هذا العالم، وجدد عالماً من غير فحولة ولا إناث يعبدونه ويوحدونه، وخلق لهم أرضاً غير هذه الأرض تحملهم، وسماء غير هذه السماء تظلهم، لعلك ترى أن الله عز وجل إنما خلق هذا العالم الواحد، وترى أن الله عز وجل لم يخلق بشراً غيركم، بلى والله لقد خلق الله تبارك وتعالى ألف ألف عالم وألف ألف آدم أنت في آخر تلك العوالم وأولئك الأدميين»(٢).

والظاهر أن قوله: «وجدد عالماً من غير فحولة ولا إناث» ناظر إلى أصل التكوين، وأنه يخلق هذا العالم من دون تزاوج بين الذكر والأنثى، ولازم ذلك أن تكون صفة هذا الخلق مجردة عن الذكورة والأنوثة، ومن الواضح أن هذا بحسب ما نعلم هي صفات الملائكة.

إلاّ أن ذيل الحديث الذي ينص فيه على أن الله سبحانه خلق عوالم عديدة وأن هذه السنّة الإلهية مستمرة قد يفيد أن هؤلاء خلق آخر ليس من الملائكة، وليس من البشر، يتصفون بالصفة المذكورة، ويعضد ذلك هو أنه لو كان ملكاً لسماه الإمام، لأن الملك معلوم الوجود لدى الناس، وقريب من هذا المضمون ورد في رواية أخرى(٣)، ولعل عدم خلق البشر ثانية راجع إلى تحقق الغاية وهو الاختبار

١ - سورة قَ: الآية ١٥.
٢ - الخصال: ص٦٥٢، ح٥٤؛ وانظر بحار الأنوار: ج٨، ص٣٧٥، ح٢.
٣ - انظر الخصال: ص٣٥٨- ٣٥٩، ح٤٥.

والامتحان، وتعيين مصير أهل النعيم وأهل الجحيم، وعدم وجود المقتضي لخلق غيرهم وامتحانهم من جديد.

هذا ويظهر من روايتين عن الصادق عليه السلام أن هذا الخلق ليس على نحو الحتم بل الإمكان، ففي رواية أبي خالد القماط قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام ويقال لأبي جعفر عليه السلام: إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فمه؟ قال فقال أبو جعفر عليه السلام: «إن أراد أن يخلق الله خلقاً ويخلق لهم دنيا يردهم إليها فعل، ولا أقول لك إنه يفعل»[١] وفي رواية أبي بصير عنه عليه السلام ما يفيد أنه سبحانه إذا أراد أن يخلقهم فلأجل أن يعبدوه[٢].

ونلاحظ في مضمون هذين الخبرين أن الإمام عليه السلام أشار إلى الإمكان العقلي، ولكن في الحديث السابق أكد الإمام عليه السلام وقوع الخلق الجديد والعالم الجديد مما قد يشير إلى أنه عليه السلام لم يصرح فيهما بالخلق تقية خوفاً من التشنيع لقصور العقول عن درك المطلب، أو لتعذر تفصيل الأمر إليهم، أو لغير ذلك من المصالح، وقد صرح العلامة المجلسي رحمه الله أن ما تضمنته هذه الأخبار لم أرَ أحداً من المتكلمين تعرض له بنفي ولا إثبات، وأدلة العقل لا تنفيه، بل تعضده، لكن الأخبار الواردة في ذلك لم تصل إلى حد يوجب القطع به والله تعالى يعلم[٣].

١ - بحار الأنوار: ج٨، ص٣٧٥، ح٣.
٢ - انظر بحار الأنوار: ج٨، ص٣٧٥، ح٤.
٣ - انظر بحار الأنوار: ج٨، ص٣٧٦، بيان.

المبحث الثاني
في أوصاف الجنة وأهلها

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: في أوصاف الجنة

وصفت الآيات والروايات الكثيرة الجنة، وفصلت في بعض نعمها ونظامها وأسلوب المعيشة فيها، وحيث إن هذه كلها من الحقائق الغيبية ولا يمكن إدراكها عبر الحس أو العقل يجب التعبد فيها بما جاء به النص، على أن كل ما تذكر من أوصاف فهي على قدر عقول البشر مجاراة لفهمهم، وإلاّ فإن ما في الجنة موصوف بأنه أكثر بكثير مما يتصوره ابن آدم، بل ولا يخطر على قلبه. نعم ينبغي أن نلفت النظر هنا إلى أن لكل نعم الجنة لذات لا تقاس بها لذات الدنيا إلاّ بنحو التقريب، وتصنف حسب تصنيف النعم إلى صنفين:

الأول: اللذات المادية، وهي تتعلق باللذات الجسدية التي تدرك عبر الحواس الظاهرة للجسد من مثل المناظر الجميلة والصور الحسنة التي تدرك بالبصر، والمأكولات والمشروبات الطيبة التي تدرك بالذائقة، وهكذا المسموعات والأصوات الجميلة التي تدرك بالسامعة، وهكذا المشمومات والملموسات، وقسم كبير من نعم الجنة يدركها أهل الجنة عبر هذه الحواس، ولا يخفى أن لازم انكار المعاد الجسماني هو إنكار هذا النحو من اللذات

وحصرها باللذات العقلية، لكنك عرفت ما فيه من الخلل عقلاً ونقلاً.

والثاني: اللذات المعنوية وتتعلق بالجانب المعنوي من النعم، نظير لذات العلم والمعرفة والعبادة والشعور بالرضا والفرح والسرور بالمعاشرة مع الأطياب الأخيار من أهل الجنة.

وهذا النحو من اللذات أعظم من الأول وأكبر بها لا يمكن إدراك حقيقته في الدنيا، ولذا وصفه الباري عز وجل بأنه أكبر، وأنه فوز عظيم في قوله سبحانه: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[١] وقد أكد القرآن الكريم وجود هذين النوعين من اللذات في آيات كثيرة:

منها: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[٢] فقد تضمنت أهم ما يستطيبه الإنسان من لذات جسدية ونفسية؛ لوضوح أن غاية اللذة وتمامها لا تكون إلاّ بأربع هي أن تكون نافعة مادياً ومعنوياً، ومقرونة بالاحترام والتكريم، وخالية من الآلام السابقة أو المقارنة أو اللاحقة، وأن تكون دائمة وخالدة فلا تزول أو تضعف. أشار إلى الأولى قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ وإنّ والجمع والظرفية تؤكد حتمية بلوغ النعمة وشمولها من دون استثناء، كما أن أضافتها إلى المتقين يشير إلى أن هذا المقام العظيم خاص بالمتقين من عباد الله، وأما غيرهم فلهم درجات أخرى ولذات مغايرة.

---

١ – سورة التوبة: الآية ٧٢.

٢ – سورة الحجر: الآية ٤٥–٤٨.

وأشار إلى الثانية بقوله: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ فإن الخطاب يستدعي وجود مخاطب وهم الملائكة أو محمد وآل محمد عليهم السلام الذين يملكون الحكم والأمر في الجنة، ويكرمون العبد بهذا الاستقبال الرائع الذي يزيده أنساً ولذة، ومن الواضح أن السلام والأمن هما عنصرا التنعيم والاستلذاذ بأي نعمة، والظاهر أنه إخبار محض أو إخبار بقصد الإنشاء، وذلك لبيان حتمية الوقوع المشفوع بالدعاء والطلب مما يزيد العبد وثوقاً وشعوراً بالرضا والقبول.

وأشار إلى الثالثة بقوله: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا﴾ فإن النزع يدل على حتمية النزع من دون أن يكون للعبد فيه اختيار وإرادة، وذلك لأن الجنة مقام السمو والرفعة، فلا يتناسب مع الغل الذي يتضمن الصفات الرذيلة السافلة كالحقد والحسد والعداوة والخيانة، ووجود الأخ الصافي في وده ومحبته والكامل في أخلاقه وصفاته يكمل لذة العبد؛ لأن الإنسان اجتماعي بطبعه، فلا يمكنه أن يتنعم بما لديه من العطايا والهبات من دون أنيس يشاركه المعيشة والحديث والمجالسة، ولا شك في أن الرذائل المذكورة من أكبر المنغصات على البشر مهما كانت نعمته ولذتها.

وأشار إلى الرابعة بقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾ والأولى تشير إلى دفع الآلام الجسدية، والثانية تشير إلى دفع الآلام المعنوية؛ لوضوح أن التعب يذهب بلذات الجسد، كما أن الشعور بالانقطاع أو الحرمان ونحو ذلك ينغّص عليه الراحة والاستقرار، ونلاحظ من مفردات الآية المباركة أن الجنة تتضمن نوعين من اللذات: لذات مادية وأخرى معنوية، وهي الأكبر والأهم؛ لأنه لولا النعم المعنوية لا يكون للنعم المادية أثر أو نفع.

ومنها: قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ

وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾[١] ودلالتها على المطلوب ظاهرة.

ومن الواضح: أن جميع اللذات في نهايتها ترجع إلى الروح؛ لأنها مصدر الحياة والعلم والإدراك، إلاّ إن الروح قد تعجز عن إدراك بعض اللذات إلاّ من خلال الحواس الجسدية، فسمي هذا النحو من اللذات بالمادية أو الجسدية باعتبار أن الجسد صار طريقاً لإدراكها.

وتدرك بعض اللذات الأخرى بالمباشرة من دون وساطة الجسد، بل الجسد في نفسه قد يعجز عن تحقيق هذه اللذة نظير لذة العلم والمعرفة والحب والرضا ونحوها من قيم ولذات لا يمكن إدراكها إلاّ بواسطة الروح نفسها، وبهذا يتضح وجه تصنيف اللذات إلى مادية ومعنوية، كما يتضح أن هاتين اللذتين متلازمتان في الجنة فلا تفارق أحداهما الأخرى؛ إذ إن كل نعمة في الجنة تجتمع فيها اللذتان معاً، وهذا ما ستراه من خلال استعراض بعض أوصاف الجنة وخصوصياتها ضمن العناوين التالية:

١ - عدد الجنان ومراتبها

نص القرآن الكريم في آيات عديدة على أن الجنة ليست واحدة، بل هناك جنات عديدة، فلفظ الجنة الظاهر في الوحدة يراد به الإشارة إلى الطبيعة التي تنطبق على مصاديقها الكثيرة، أو يراد به المعنى العام للجنة، أي الجنس بغض النظر عن أصنافها ومراتبها.

---

١ - سورة الصافات: الآية ٤١ - ٤٩.

والسر في تعدد الجنان هو اختلاف مستويات الناس واختلاف أعمالهم، وقد عرفت مما تقدم أن الجزاء نتاج العمل، وأن بين العمل والجزاء مسانخة وتناسب، وحيث إن الأعمال مختلفة ومستويات الناس كذلك كان لابد من اختلاف الجزاء، وهذا أحد أسباب تعدد الجنان، ويمكن فهم هذه الحقيقة من بعض الآيات الشريفة.

فمثلاً: قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[1] ونلاحظ أن الآية وعدت عموم المؤمنين بأن لهم أكثر من جنة، بينما في آية أخرى أضاف إلى الإيمان صفة التقوى، وأشار إلى خصوصيتين وهما الخلود وطهارة الأزواج؛ إذ قال سبحانه: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾[2] والأزواج المطهرة يشمل الرجال والنساء بناء على المعنى اللغوي لا العرفي.

وفي آية أخرى أضاف صفة الطاعة، ووعد صاحبها بدخول الجنة، فتصاعد من مقام الوصف إلى مقام الوعد؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[3] وفي آية رابعة تجاوز مرحلة الوعد إلى الوفاء به، فأكد تحقق الدخول حتماً؛ إذ قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[4] وهنا نلاحظ أنه أضاف العيون أيضاً إلى الأنهار.

١ – سورة البقرة: الآية ٢٥.
٢ – سورة آل عمران: الآية ١٥.
٣ – سورة النساء: الآية ١٣.
٤ – سورة الحجر: الآية ٤٥.

ومن مجموع الآيات الشريفة يتضح أن الجنة ليست واحدة، بل متعددة، ولذا وردت بصيغة الجمع، وأن هذه الجنان تختلف بحسب مراتب الناس من حيث الإيمان والتقوى والطاعة الخاصة لله والرسول، وقد فصلت بعض الأخبار أسماء بعض الجنان، ففي الكافي عن الباقر عليه السلام قال: «... أما الجنان المذكورة في الكتاب فإنهن جنة عدن وجنة الفردوس وجنة نعيم وجنة المأوى ... وأن لله عز وجل جناناً محفوفة بهذه الجنان، وأن المؤمن ليكون له في الجنان ما أحب واشتهى يتنعم فيهن كيف يشاء»[1].

وتتمايز هذه الجنان من حيث المعيشة واللذات التي فيها، بل ومن حيث سكانها أيضاً، فالجنان درجات، كما أن الناس درجات أيضاً؛ إذ قال سبحانه: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[2] وقد فصلت بعض الآيات الدرجات؛ إذ قسمت أهل الجنة إلى مقربين وأصحاب اليمين، وبين أصحاب اليمين درجات ومراتب وهكذا، ومنشأ الاختلاف في الدرجات هو مستوى المعرفة ومستوى العمل، ومن هنا ورد عن الصادق عليه السلام: «لا تقولوا جنة واحدة. إن الله عز وجل يقول: درجات بعضها فوق بعض»[3].

ويستفاد من مثل هذه الروايات أن الجنة ليست طبقة واحدة بل طبقات ومراتب محسوسة في الشكل والمظهر، أو طبقات ومراتب في المقام والرتبة، وفي رواية جابر عن الباقر عليه السلام في معنى قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ

١ - الكافي: ج٨،ص ٥٩، ح٦٩.
٢ - سورة الأنفال: الآية ٤.
٣ - انظر بحار الأنوار: ج٨، ص١٩٨، ح١٩٥.

جَنَّتَانِ﴾[١] إنهما مخصصتان لمن تعرض عليه الشهوة والمعصية في الدنيا فلا يفعلها طاعة لله سبحانه، وخوفاً منه، وأما قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾[٢] فهما دونهما في الفضل وليس من دونهما في القرب. قال عليه السلام: «وهما لأصحاب اليمين، وهي جنة النعيم وجنة المأوى»[٣].

وفي تفسير القمي عن السجاد عليه السلام قال: «عليك بالقرآن، فإن الله خلق الجنة بيده لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وجعل ملاطها المسك، وترابها الزعفران، وحصاها اللؤلؤ، وجعل درجاتها على قدر آيات القرآن، فمن قرأ القرآن قال له: اقرأ وارق، ومن دخل منهم الجنة لم يكن في الجنة أعلى درجة منه ما خلا النبيون والصديقون»[٤] والملاط - بكسر الميم - طين يجعل بين كل لبنتين أو آجرتين أو حجرتين في البناء، أو يطلى به الحائط[٥].

وقد وصف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مراتب الجنة كما في نهج البلاغة فقال: «درجات متفاضلات، ومنازل متفاوتات، لا ينقطع نعيمها، ولا يظعن مقيمها، ولا يهرم خالدها، ولا ييأس ساكنها»[٦] وفصل في بعض نعمها فقال: «فلو رميت ببصر قلبك نحو ما يوصف لك فيها لعزفت نفسك عن بدائع ما أخرج إلى الدنيا من شهواتها ولذاتها وزخارف مناظرها،

١ - سورة الرحمن: الآية ٤٦.
٢ - سورة الرحمن: الآية ٦٢.
٣ - انظر الاختصاص (للمفيد): ص٣٥٦.
٤ - تفسير القمي: ج٢، ص٢٣١؛ بحار الأنوار: ج٨، ص١٣٣، ح٣٩.
٥ - انظر المعجم الوسيط: ج٢، ص٨٨٥، (ملط).
٦ - نهج البلاغة: ج١، ص١٤٩، خطبة ٨٥.

ولذهلت بالفكر في اصطفاق أشجار غيبت عروقها في كثبان المسك على سواحل أنهارها، وفي تعليق كبائس اللؤلؤ الرطب في عساليجها وأفنانها، وطلوع تلك الثمار مختلفة في غلف أكمامها، تجنى من غير تكلف، فتأتي على منية مجتنيها، ويطاف على نزالها في أفنية قصورها بالأعسال المصفقة والخمور المروقة، قوم لم تزل الكرامة تتمادى بهم حتى حلوا دار القرار، وأمنوا نقلة الأسفار، فلو شغلت قلبك أيها المستمع بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونقة لزهقت نفسك شوقاً إليها، ولتحملت من مجلسي هذا إلى مجاورة أهل القبور استعمالاً بها، جعلنا الله وإياكم ممن سعى بقلبه إلى منازل الأبرار برحمته»[1].

٢- أرض الجنة وسررها

ورد عن الباقر عليه السلام ما يشير إلى أرض الجنة قال عليه السلام: «إن أرض الجنة رخامها فضة، وترابها الورس والزعفران، وكنسها المسك، ورضراضها الدر والياقوت»[2] وإن أسرتها يعني سررها من در وياقوت، وذلك قول الله عز وجل: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾[3] يعني أوساط السرر من قضبان الدر والياقوت مضروبة عليها الحجال، والحجال من در وياقوت أخف من الريش وألين من الحرير»[4].

١ - نهج البلاغة: ج٢، ص٧٥- ٧٦، الخطبة ١٦٥.
٢ - الاختصاص (للمفيد): ص٣٥٧؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٢١٨، ح٢٠٩.
٣ - سورة الواقعة: الآية ١٥.
٤ - الاختصاص (للمفيد): ص٣٥٧؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٢١٨، ح٢١٠؛ انظر حق اليقين: ص٤٨٦.

والورس نبات ناعم أصفر وأخضر يبقى طويلاً، لطبيعته وللونه أثر كبير في تلوين الثياب وزيادة قوة الباه. يقال: ثوب ورس أي مصبوغ بالورس، وأصفر وارس أي شديد الصفرة[1]، والزعفران نبات معمر زهره أحمر إلى الأصفر، فوائده كثيرة لإبهاج القلب وإذهاب الهم والغم وتنقية الوجه، ويستخدم للصبغ والتطيب أيضاً[2]، والكنس يطلق على كسح القمامة. يقال: كنس البيت أي كسحه بالمكنسة[3]، ومعناه أن ما يكنس على أرض الجنة ليس الزبالة كما في أرض الدنيا بل المسك.

الرضراض الحصى الصغار في مجاري الماء، ويطلق على الحجارة تتحرك على وجه الأرض وتتدحرج[4]، والحجال جمع حجلة وهي ساتر كالقبة يزين بالثياب والستور للعروس[5]، ولعل وجه تكوينه من الدر والياقوت يعود إلى شرافتهما وألوانهما النقية المتنوعة.

٣- أبواب الجنة

ورد عن الباقر عليه السلام أن جدار الجنة محيط بها مكون من لبنات لبنة من فضة ولبنة من ذهب ولبنة من در ولبنة من ياقوت، وملاطة - أي ما تبنى به اللبنات - المسك والزعفران، وشرفه نور يتلالأ يرى الرجل وجهه في الحائط، وفي الحائط ثمانية أبواب[6].

---

١ - انظر لسان العرب: ج٦، ص٢٥٤، (ورس).

٢ - انظر المعجم الوسيط: ج١، ص٣٩٤، (الزعفران).

٣ - انظر المعجم الوسيط: ج٢، ص٨٠٠، (كنس).

٤ - انظر المعجم الوسيط: ج١، ص٣٥٠، (رضرض).

٥ - انظر المعجم الوسيط: ج١، ص١٥٨، (حجل).

٦ - انظر الاختصاص (للمفيد): ص٣٥٧؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٢١٣، ح٢٠٥؛ حق اليقين: ص٤٨٦.

وروى الصدوق رحمه الله في الأمالي بطرق العامة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أن حلقة باب الجنة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، فإذا دقت الحلقة على الصفحة طنت وقالت: يا علي»[١] ويحتمل أن المنادى هو الله سبحانه باسمه المبارك يا علي، كما يحتمل أنه أمير المؤمنين عليه السلام، والثاني هو المتبادر في العرف العام وفي عرف المتشرعة، بل هو مقتضى الجمع بينهما؛ لوضوح أنه عليه السلام مظهر اسم الله سبحانه ووعاء مشيئته.

ولعل في ذكر اسمه عليه السلام أسراراً عديدة:

أحدها: أن ولايته عليه السلام مفتاح الفلاح، فلا يدخل الجنة إلاّ من والاه وشايعه.

وثانيها: أنه عليه السلام ميزان الأعمال وقسيم الجنة والنار، وأنه لا يجوز أحد الصراط إلاّ بصك منه، وهو الذي يميز شيعته من غيرهم، فلا تفتح أبواب الجنة إلاّ بإذن منه.

وثالثها: أنه نوع تكريم وتعظيم وإظهار لفضله ومقامه بين أهل الجنة.

ورابعها: أن هذا هو الجزاء الوفاق لمكانته عليه السلام ومقامه في الدنيا؛ إذ كان باب مدينة علم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهو واجهته ونفسه، فكذلك يكون في الآخرة، ومن الواضح أن الجنة هي مدينة محمد وآل محمد عليهم السلام.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أن تعدد أبواب الجنة ناشئ من تعدد مستويات الناس ومقاماتهم. قال: «إن للجنة ثمانية أبواب: باب يدخل منه

---

١ – انظر الأمالي (للصدوق): ص٦٨٥، ح١٣؛ بحار الأنوار: ج٨، ص١٢٣، ح١٣.

النبيون والصديقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبونا، فلا أزال واقفاً على الصراط أدعو وأقول: ربّ سلِّم شيعتي ومحبيّ وأنصاري ومن تولّاني في دار الدنيا، فإذا النداء من بطنان العرش: قد أجيبت دعوتك، وشفعت في شيعتك، ويشفع كل رجل من شيعتي ومن تولاّني ونصرني وحارب من حاربني بفعل أو قول في سبعين ألفاً من جيرانه وأقربائه، وباب يدخل منه سائر المسلمين ممن يشهد أن لا إله إلاّ الله، ولم يكن في قلبه مقدار ذرة من بغضنا أهل البيت»[١].

وبطنان العرش محل القدرة الإلهية الخاص بصدور الأمر والتدبير مأخوذ من بطن الشيء أي وسطه[٢]، أو خاصته التي تكون موضع السر، ومنه قولهم: بطانة الرجل أي التي تطلع على أسراره، وتكون ألصق به، ومناسبته بإجابة الدعاء وقبول الشفاعة جلية.

ومقتضى الجمع بين الأدلة يفيد دخول سائر المسلمين الجنة من غير ولاية بشرط قصورهم عنها، كما أن شيعتهم المطيعين المتقين لهم في القول والعمل يدخلون مع الصديقين والصالحين من الأبواب الخمسة المذكورة لهم وهي تشمل العصاة التائبين، أو الذين نالتهم الشفاعة، ولعل كثرة الأبواب يشير إلى كثرتهم، وهو متوافق مع واقع الحال.

نعم، ربما يؤكد ذلك ما ورد عنه عليه السلام: «إن للجنة أحدى وسبعين باباً يدخل من سبعين منها شيعتي وأهل بيتي، ومن باب واحد سائر الناس»[٣] هذا بناء

١ - الخصال (للصدوق): ص٤٠٧، ح٦؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٣٩، ح١٩.
٢ - انظر المعجم الوسيط: ج١، ص٦٢، (بطن).
٣ - مناقب آل أبي طالب: ج٢، ص١٧٧.

على أن العدد المذكور محمول على الحقيقة لا المبالغة فإن مقتضى الجمع بينه وبين ما تقدم هو اختلاف الدرجة، فإن الأبواب الثمانية هي أصول أبواب الجنة، وأما هذه الأبواب الواحد والسبعون فتحمل على تفاوت أصحاب كل باب في الدرجات والرتب أيضاً؛ لوضوح أن الأنبياء والصديقين درجات، كما أن الشهداء والصالحين هكذا.

ولعل هذه الرواية ناظرة إلى الأبواب الفرعية لا الأصلية، والمستفاد من الأخبار الشريفة وهو الذي يقضي به العقل أن السر في اختلاف الأبواب هو أنه نوع من الجزاء ومكافأة الناس بأعمالهم ودرجاتهم؛ بداهة أن جعل الجميع في صف واحد مع تفاوتهم في المستويات والمراتب مناف للعدل، كما أن هذا التفاوت ليس بالضرورة أن يكون تفضيلاً اعتبارياً، بل هو ما تقتضيه طبيعة الأعمال كما عرفت في تجسم الأعمال، وهذا ما تؤكده الأخبار التي وضعت لكل باب اسماً، فباب للشاكرين وباب للصابرين وأخرى للزاهدين وهكذا كما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم[1].

وعن الصادق عليه السلام: «أن للجنة باباً يقال له المعروف لا يدخله إلاّ أهل المعروف، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة»[2] وعن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم: «للجنة باب يقال له باب المجاهدين يمضون إليه فإذا هو مفتوح، وهم متقلدون سيوفهم، والجمع في الموقف والملائكة ترحب بهم»[3]

١ - انظر الأمالي (للصدوق): ص١٧٧-١٧٨، ح٢.
٢ - الكافي: ج٤، ص٣٠، ح٤.
٣ - الأمالي (للصدوق): ص٤٦٢، ح٨.

ومنها باب الريان لا يدخل منه إلاّ الصائمون[١]، ولعل وجه تسميته بالريان هو الجزاء الوفاق للصوم الملازم للجوع والعطش.

ومن خصوصيات أبواب الجنة أيضاً الكتابة المسطورة عليها، فإن لكل باب كتابة خاصة تتضمن بيان بعض الحقائق والمعارف، أو التعريف بالداخلين بها، وهي قد تشير إلى مزيد الفضل والإكرام لأهل الجنة، وفي عين الحال إظهار الحجة في أولياء الله، أو رفع مستوى الداخلين بسبب هذه الأذكار أو الحقائق المذكورة، كما تشير إليه بعض الأخبار، فقد ورد عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم: «الجنة فيها ثمانية أبواب على كل باب منها أربع كلمات، كل كلمة خير من الدنيا وما فيها لمن يعلم ويعمل بها ... فعلى أول باب منها مكتوب: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله علي ولي الله، لكل شيء حلية، وحلية العيش أربع خصال: القناعة وبذل الحق وترك الحقد ومجالسة أهل الخير.

وعلى الباب الثاني مكتوب: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله علي ولي الله، لكل شيء حيلة، وحيلة السرور في الآخرة أربع خصال: مسح رؤوس اليتامى، والتعطف على الأرامل، والسعي في حوائج المؤمنين، والتفقد للفقراء والمساكين.

وعلى الباب الثالث مكتوب: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله علي ولي الله، لكل شيء حيلة، وحيلة الصحة في الدنيا أربع خصال: قلة الكلام وقلة المنام وقلة المشي وقلة الطعام.

وعلى الباب الرابع مكتوب: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله علي ولي الله، من

١ - انظر معاني الأخبار: ص٤٠٩، ح٩٠.

كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم والديه، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو يسكت.

وعلى الباب الخامس مكتوب: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله علي ولي الله، من أراد أن لا يُظلم فلا يَظلم، ومن أراد أن لا يُشتم فلا يَشتم، ومن أراد أن لا يُذل فلا يَذل، ومن أراد أن يستمسك بالعروة الوثقى في الدنيا والآخرة فليقل: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله علي ولي الله.

وعلى الباب السادس مكتوب: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله علي ولي الله، من أراد أن يكون قبره وسيعاً فسيحاً فليبن المساجد، ومن أراد أن لا تأكله الديدان تحت الأرض فليسكن المساجد، ومن أحب أن يكون طرياً مطراً لا يبلى فليكنس المساجد، ومن أحب أن يرى موضعه في الجنة فليكسِ المساجد بالبسط.

وعلى الباب السابع مكتوب: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله علي ولي الله، بياض القلب في أربع خصال: عيادة المريض واتباع الجنائز وشراء الأكفان ورد القرض.

وعلى الباب الثامن مكتوب: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله علي ولي الله، من أراد الدخول من هذه الأبواب فليتمسك بأربع خصال: السخاء وحسن الخلق والصدقة والكف عن أذى عباد الله تعالى»[1] وتتضمن الرواية الشريفة الإشارة إلى عدة حقائق:

---

١ - بحار الأنوار: ج٨، ص١٤٤ - ١٤٥، ح٦٧.

الحقيقة الأولى: أن الجهة المشتركة التي توجب دخول الجنة من كافة أبوابها هي العقيدة الصحيحة المبنية على الإقرار لله سبحانه بالوحدانية، وللنبي بالنبوة، ولأمير المؤمنين بالولاية، وقد مر عليك أن صحة العقيدة هي الشرط الأساس للنجاة في الآخرة.

الحقيقة الثانية: أن المكتوب على كل باب يتضمن تعليمات أخلاقية وسلوكية تعلم الناس أسلوب التعامل الحسن مع الناس ومع الله سبحانه، ولم يرد ذكر للعبادات من صلاة وصيام وحج ونحوها على باب من الأبواب الخمسة، ولعل ذلك يعود لأحد وجهين:

الأول: إن الإقرار بأصول الدين عقيدة ملازمة للطاعة عملاً، وإلاّ كان خللاً في الإقرار.

الثاني: أن العمدة في دخول الجنة هو ضمان حقوق الله وحقوق الناس، وحقوق الله تحفظ بصحة العقيدة، وحقوق الناس تحفظ بالحقائق المذكورة.

ومن هنا نلاحظ أن المكتوب على الأبواب يتضمن إشارات إلى الشخصية الإيمانية الكاملة في صفاتها النفسية ومكانتها الأخلاقية وأساليبها في المعاملة، لاسيما في معاملة الناس، وهذه التوجيهات تؤكد على أن الملكات والأخلاق التي يلتزم بها المؤمن هي التي تهيئه لدخول الجنة، بل تكون هي جنته التي ينعم فيها، كما تؤكد العلاقة الحقيقية التكوينية بين الأعمال وبين نتائجها، فالمكتوب على كل باب من الأبواب الثمانية هو طريق حقيقي لدخول الجنة الخاصة به.

الحقيقة الثالثة: أن الجنان عبارة عن مستويات ومراتب، ولكل جنة باب

خاص وأناس خاصون تقودهم أعمالهم وصفاتهم إليها.

٤- أنهار الجنة

وصف القرآن الكريم الجنة بأنها تجري من تحتها الأنهار، وقد كثر هذا الوصف في آيات عديدة، وهذا التركيز في الوصف قد يعود إلى أنه إشارة إلى الجمال فيها؛ إذ لا شك في أن الأنهار من أهم مظاهر الجمال والزينة، أو إشارة إلى تنوع النعم والفوائد؛ لأن انهار الجنة غير مكررة، بل لكل نهر طعم وشكل وأهل، أو إشارة إلى دوام العطاء والخير الإلهي في الجنة، فإن الأنهار رمز إلى هذه الحقيقة، وبعضها أعطيت إكراماً لأولياء الله، كما في تفسير القمي أن الكوثر نهر أعطاه الله محمداً عوضاً عن ابنه إبراهيم عليه السلام[1]، ولعل وجه التعويض أنه جعل ذريته كثيرة من فاطمة عليها السلام، ولذا سميت بالكوثر، وبه يظهر وجه الجمع بين الحديثين، أي بين ما دل على أنها الكوثر وأن الكوثر نهر في الجنة. قال تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾[2] وهذا وصف عام لجميع الجنان.

ونلاحظ هنا أنه نسب الجري إلى النهر، وهو إما من باب التوسعة والمجاز؛ لأن النهر لا يجري وإنما هو موضع الجري، والماء هو الذي يجري كما قال به بعض المفسرين[3]، أو أن النسبة حقيقية؛ لما عرفت من أن عالم الآخرة يختلف عن عالم الدنيا، فإن كل شيء فيه ظاهر على حقيقته، وهو حي له شعور وفهم ونطق، ووصف الأنهار بأنها تحت الجنة قد يشير إلى أنّ مساكن أهل الجنة

١ - تفسير القمي: ج٢، ص٤٤٧.

٢ - سورة البقرة: الآية ٢٥.

٣ - انظر مجمع البيان: ج١، ص١٣٠.

مرتفعة، والأنهار تجري على الأرض لتسقي الأشجار، وتكون متعة لأهل الجنة، فإن هذه الأنهار تدور تحت القصور والحجب تتغنى أمواجها، وتسبح، وتطرب في الجنة كما يطرب الناس في الدنيا(١).

وفي آية أخرى أشار إلى حقيقة هذه الأنهار. قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾(٢) وذكر هذه الأنهار الأربعة من باب ذكر الأهم، أو ما يحتاجه الناس عادة، أو الأنهار التي يفهمها الناس ويدركون معانيها، وليس من باب الحصر؛ لما عرفت من أن كل ما يقال عن الجنة فهو للتقريب، وهذا ما يشهد له ورود الأنهار بصيغة الجمع في كل واحد من المطعومات الأربعة، فللماء أنهار، وللخمر أنهار، وكذلك للبن والعسل؛ إذ إن الأنهار كثيرة جداً في الجنة تتكثر بالعدد أو تكثر باعتبار أصناف المطعومات المذكورة فأن اللبن والعسل والماء والخمر على أصناف متعددة، ولعل بعضها أصلي وتتفرع منه فروع كما هو الحال في أنهار الدنيا، وهو أمر مناسب لمساحة الجنة وسعتها التي تسع السماوات والأرض.

ولعل ذكر هذه المطعومات الأربعة لغلبة الحاجة إليها، فإن جسد الإنسان بحاجة إلى ماء يرويه ويجعله طرياً، وإلى غذاء يطعمه ويشبعه وهو اللبن، كما أنه بحاجة إلى ما ينشيه ويبعث فيه التسلية والحيوية والأنس وهو الخمر، كما أنه بحاجة إلى القوة واللذة وهو العسل.

---

١ - جامع الأخبار: ص١٢٢؛ بحار الأنوار: ج٨، ص١٤٦، ح٧١.

٢ - سورة محمد: الآية ١٥.

ومن الواضح أن الخمر الأخروي ليس كخمر الدنيا، فإنه لا يزيل العقل، ومن المؤكد أنه منقى ومطهر من كل آفات الخمر ومساوئه، ولذا أكدت الآية على وجود اللذة فيه دون سواها.

وفي بعض الأخبار النبوية أن أربعة أنهار من الجنة: الفرات والنيل وسيحان وجيحان، فالفرات الماء في الدنيا والآخرة، والنيل العسل، وسيحان الخمر، وجيحان اللبن[١].

وظاهر (من) أنها نشوية، فتدل على أن هذه الأنهار أصلها من الجنة، وتنزلت إلى الدنيا بالصورة المعهودة لها، وهو ما قواه بعض المفسرين؛ إذ صرح بأن لها مادة من الجنة، واستودعها الله الجبال لقوله تعالى: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٢] [٣].

وروي عن النبي ﷺ أن الله تعالى أنزل من الجنة خمسة أنهار: سيحون وهو نهر الهند، وجيحون وهو نهر بلخ، ودجلة والفرات وهما نهرا العراق، والنيل وهو نهر مصر. أنزلها الله من عين واحدة، وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس في أصناف معائشهم[٤]، أو أن (من) جنسية فتدل على أن هذه الأنهار تكون من الجنة في الآخرة.

ولا يخفى ما في هذا الحديث من الإشارة إلى أن الأرض أيضاً من الجنة،

١ - الخصال (للصدوق): ص٢٥٠، ح١١٦؛ روضة الواعظين: ص٤٠٦.
٢ - سورة المؤمنون: الآية ١٨.
٣ - انظر مجمع البحرين: ج٣، ص٣٧٧،(سيح).
٤ - مجمع البيان: ج٧، ص١٨٢، تفسير الآية ١٨ من سورة المؤمنون.

وسيحان نهر يقع بين انطاكيا والروم[١]، وجيحان يخرج من حدود الروم، ويمتد إلى قرب حدود الشام[٢]، وربما يحمل على المعنى المجازي، والمعنى أنه خص هذه الأربعة بالذكر لعذوبة مائها، وكثرة منافعها، كأنها من أنهار الجنة، والأول أظهر وأوفق بالقواعد.

وقد سمت بعض الآيات بعض أنهار الجنة، وسمت الروايات بعضها الآخر، وذكرت خصوصية كل واحد منها:

منها: نهر الكوثر، وقد تقدم الكلام عنه في مشهد الحوض من الفصل السابق فلا نعيد.

ومنها: نهر التسنيم، وهو مشرب المقربين؛ إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[٣] والرحيق المختوم هو خمر صافية خالصة من كل غش، مختوم بطعم ريح المسك؛ إذا رفع الشارب فاه عن آخر شرابه وجد ريحه كريح المسك، ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجه لم يبق ذو روح إلاّ ونال طيبها، والتسنيم عين في الجنة، وهو أشرف شراب فيها[٤]، وإنما سمي كذلك لأنه يجري من الأعلى إلى الأسفل كما مر عليك، ونلاحظ هنا ثلاث دلالات:

---

١ - معجم البلدان: ج٣، ص٢٩٣؛ مجمع البحرين: ج٢، ص٣٧٧،(سيح).
٢ - مجمع البحرين: ج٣، ص٣٤٨،(جيح).
٣ - سورة المطففين: الآيات٢٢- ٢٨.
٤ - انظر مجمع البيان: ج١٠، ص٢٩٧- ٢٩٨، تفسير الآيات المباركات.

الأولى: أن شراب الأبرار غير شراب المقربين؛ إذ شراب الأبرار هو الرحيق المختوم الممزوج بشيء من التسنيم، بينما التسنيم نفسه فهو شراب المقربين، وفي ذلك إشارة لطيفة إلى تفاوت الدرجة بينهما؛ لأن شراب المقربين التسنيم الخالص بينما شراب الأبرار ممزوج به.

والثانية: أن الآية وصفت التسنيم بالعين، وهي المنبع، ولكن حيث أن النبع لابد وأن يجري ماؤه في أنهار وروافد أمكن إطلاق اسمها على أنهارها من باب إطلاق اسم السبب على المسبب.

والثالثة: أن وصف الشراب بالتسنيم يشير إلى أنه شراب خاص لأهل الطبقات العالية في الجنة، ويقدم بشكل كؤوس، أو أنه نهر يجري في الهواء فينصب في أواني أهل الجنة، وإلى كل واحد من التوجيهين ذهب جمع من المفسرين[1]، والظاهر إمكان القول بهما معاً؛ لوجود المقتضي من حيث الدلالة اللغوية وعدم المانع.

ويشهد لدلالة الآية في تخصيص التسنيم بالمقربين الروايات الواردة بطرق الفريقين:

ففي رواية جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ﴾ هو أشرف شراب في الجنة يشربه محمد وآل محمد عليهم السلام، وهم المقربون السابقون: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي بن أبي طالب والأئمة وفاطمة وخديجة وذريتهم الذين اتبعتهم بإيمان؛ ليتسنم عليهم من أعالي دورهم»[2] والمراد من

١ - انظر مجمع البيان: ج١٠، ص١٣٠.

٢ - تأويل الآيات: ص٧٧٨، ح١٠؛ بحار الأنوار: ج٨، ص١٥٠، ح٨٥.

الذرية مطلق الأتباع والموالين كما يستفاد من روايات أخرى[١] لأن التابع يعد ذرية للمتبوع معنوياً. نعم عن الباقر عليه السلام عن أبيه عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: «تسنيم أشرف شراب في الجنة يشربه محمد وآل محمد صرفاً، ويمزج لأصحاب اليمين وسائر أهل الجنة»[٢] ويمكن أن يجمع مع مدلول الحديث السابق بالحمل على تفاوت الدرجات، أو أنهم يشربون شيعتهم الخلص.

ومنها: نهر الخير، وهو من فروع نهر الكوثر، عليه منازل الأئمة عليهم السلام وشيعتهم، حافتاه منبت لجوار حسان كلما قلعت واحدة نبتت مكانها أخرى، وفيه دلالة على أن في الجنة تكاثراً في النفوس، لكن لا بنحو التوالد، بل الإنبات في الأرض، وهو الأصل في خلق النفوس، سوى أن الأرض في الدنيا هي أرحام النساء، والتي هي في نفسها ترجع إلى الأرض، إلاّ أنها في الآخرة ستكون أرض الجنة. دل على ذلك كله الإمام الصادق عليه السلام كما في رواية الحسين بن أعين قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الرجل للرجل جزاك الله خيراً ما يعني بذلك؟ قال أبو عبد الله عليه السلام: «أن خيراً نهر في الجنة مخرجه من الكوثر، والكوثر مخرجه من ساق العرش. عليه منازل الأوصياء وشيعتهم، على حافتي ذلك النهر جوار نابتات، كلما قلعت واحدة نبتت أخرى، سمي بذلك النهر، وذلك قوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾[٣] وإذا قال الرجل لصاحبه جزاك الله خيراً فإنما يعني بذلك تلك المنازل التي أعدها الله

١ - انظر البرهان: ج٤، ص٤٤٠.

٢ - تأويل الآيات: ص٧٧٩، ح١٢؛ بحار الأنوار: ج٨، ص١٥٠، ح٨٦؛ ج٢٤، ص٣، ح٨.

٣ - سورة الرحمن: الآية ٧٠.

عز وجل لصفوته وخيرته من خلقه»[١] وقريب منه ورد في تفسير علي بن إبراهيم[٢]، ويتضمن الحديث الإشارة إلى حقيقتين أخريين:

الحقيقة الأولى: أن قول الرجل (جزاك الله خيراً) دعاء يعود إلى قصد الداعي، والغالب عند الناس أنهم بهذا القول يطلبون مجازاة الرجل على العمل الحسن بالخير، وهو عرفاً ولغة كل ما فيه نفع كثير مادي أو معنوي[٣]، إلاّ أن الإمام عليه السلام أضاف معنى آخر وهو إما من باب بيان المعنى الباطن أو بيان المصطلح الشرعي في مثل هذا الدعاء؛ إذ فسر الخير بالنهر، فلا بد للمؤمن عند إرادة هذا المعنى من الدعاء أن يقصده؛ لوضوح أن الدعاء إنشاء وهو لا يتحقق إلاّ مع القصد والالتفات، ولذا قد يكون قصد هذا المعنى من شؤون الخواص.

الحقيقة الثانية: قوله: «إن خيراً نهر في الجنة مخرجه من الكوثر» يدل على أن الأنهار في الجنة لها منبع، وفيها أصول وفروع، ولكل فرع اسم خاص به ناشئ من جهة مناسبة، وقد عرفت في بحث الحوض أن الكوثر اسم مشترك بين حوض الكوثر الذي يقف عليه النبي ويسقي أهل المحشر من مائه، ويذود عنه جماعة من أصحابه، وكل من خالفه وخالف أولياءه فلا يرويهم من مائه، وبين نهر الكوثر الذي هو نهر في الجنة له خصوصياته كما عرفت.

وقوله: «عليه منازل الأوصياء وشيعتهم» يحتمل أن يكون المراد منه المعنى العام، أي جميع أوصياء الأنبياء وشيعتهم كما يفيد الجمع المحلى بأل، ويحتمل

---

١ – الكافي: ج٨، ص٢٣٠– ٢٣١، ح٢٩٨.

٢ – انظر تفسير القمي: ج٢، ص٣٤٦؛ تفسير نور الثقلين: ج٧، ص٢٢٥، ح٧٤.

٣ – انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٠٠، (خير).

أن يكون من مصاديق اللفظ العام الذي أريد به الخاص، والمراد الأئمةعليهم السلام وشيعتهم فقط ، والأول أظهر وإن كان هو الآخر يرجع إلى الثاني لأن الأنبياء وأولياءهم لا ينالون مقاماً إلاّ بمعرفتهم والإقرار بولايتهم، وهو ما يقتضيه الجمع الدلالي وقرينة العقل. نعم لا شك في أن منازل الأئمةعليهم السلام وشيعتهم تكون أعلى رتبة نظراً لعلو رتبهم على غيرهم، وهو ما يشير إليه قوله: «أعدها الله لصفوته وخيرته من خلقه» بداهة أن الصفوة والخيرة من الحقائق المشككة التي تتفاوت بالدرجات والرتب.

ومنها: نهر الرحمة، ولعله سمي بالرحمة لظهور لطف الله ورحمته بنبيهصلى الله عليه وآله، وفائدته أنه مغتسل للنبي وأهل بيتهعليهم السلام. ترابه من مسك، وعلى حافته بنيت بيوت النبيصلى الله عليه وآله وأزواجه. قد دل على ذلك خبر المعراج المروي عن الصادقعليه السلام قال: «قال النبيصلى الله عليه وآله ... ثم خرجت من البيت المعمور فانقاد لي نهران: نهر تسمى الكوثر ونهر تسمى الرحمة، فشربت من الكوثر، واغتسلت من الرحمة، ثم انقادا لي جميعاً حتى دخلت الجنة وإذا على حافتيها بيوتي وبيوت أزواجي (أهلي) وإذا ترابها كالمسك»[1] وقوله أزواجي يحتمل معنيين:

الأول: نساؤه، ومقتضى الجمع بين الأدلة أن يختص ذلك بمن كن مؤمنات بالولاية جمعاً بين الأدلة.

الثاني: أزواجه في الجنة، وهو الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ

١ - بحار الأنوار: ج٨، ص١٢٣، ح٢٠.

﴿فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾[١] وهو يشمل مطلق القرين، والأول أظهر، والحديث دال على وجود حاجة إلى الاغتسال في الجنة، ولعلها تعود إلى بعض الفوائد المادية كزيادة القوة أو الجمال أو السلامة، وبعض الفوائد المعنوية كتحصيل مزيد الفضل والرحمة، أو أنه يتضمن إظهار اللطف والكرامة بالعبد ونحو ذلك.

ومنها: جعفر، والظاهر انه من الأنهار الخاصة بمحمد وآل محمد وبإبراهيم وآل إبراهيم عليهم السلام، وهو ما أشارت إليه رواية الكافي عن شاذان عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: «قال لي أبي: أن في الجنة نهراً يقال له جعفر، على شاطئه الأيمن درّة بيضاء فيها ألف قصر. في كل قصر ألف قصر لمحمد وآل ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى شاطئه الأيسر درّة صفراء فيها ألف قصر في كل قصر ألف قصر لإبراهيم وآل إبراهيم عليهم السلام»[٢].

والدرّة واحد الدرّ، وهو كبار اللؤلؤ، سمي بذلك لاضطراب يرى فيه لصفائه وحسنه[٣]، أو نسبة إلى الدرّي وهو الكوكب المتلألئ الضوء، وجمعه دراري[٤]، والكوكب الدرّي عند العرب هو العظيم المقدار[٥]، وجميع المعاني تنطبق هنا ولا مانع من الجمع؛ لما عرفت من أن الاشتراك في المادة يرجع إلى معنى واحد جامع، والمعنى هنا أن قصورهم عليهم السلام تمتاز بالصفاء والنور

١ - سورة يس: الآية٥٦.
٢ - الكافي: ج٨، ص١٣٨،ح١٥٢.
٣ - انظر معجم مقاييس اللغة: ص٣٢٨،(درّ)؛ لسان العرب: ج٤، ص٢٨٢،(درّ).
٤ - المعجم الوسيط: ج١، ص٢٧٩، (درّ).
٥ - مجمع البحرين: ج٣، ص٣٠١،(درر).

المتلألئ لعظم مقدارهم، وعلو مكانتهم، فالمراد من الدرّة هنا أوصافها، ولعل اختلاف لون الدرة لزيادة الجمال، أو لاختلاف الرتبة والمرتبة، فإن اللون الأبيض أشرف من الأصفر في الجنة لظهوره وزيادة نوره.

ولعل وجه تسميته بجعفر هو اللغة، فإن جعفر فيها النهر الصغير الملآن[١]، أو هو النهر الكبير الواسع[٢]، وعلى الأول يدل على أن قصورهم على نهر فرعي، ولعله من فروع نهر الكوثر الذي نصّت بعض الأخبار على أنه محل سكناهم، فتكون القصور على هذا النهر لمزيد الراحة والاستئناس كما يفيده قوله: «لمحمد وآل محمد» الظاهر في الاختصاص بهم، ولم يشر إلى سكناهم فيها، وعلى المعنى الثاني فإنه يدل على أنه نهر أصيل، لكن الأول أنسب بمعنى جعفر وبالجمع بين الأدلة.

ويعضد المعنى الأول رواية بشير الدهان عن الباقر عليه السلام الواردة بشأن بعض الأنهار التي توزعت على دور آل محمد صلى الله عليه وآله، فلكل دار نهر. قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: جعلت فداك أي الفصوص أركبه على خاتمي؟ قال: «يا بشير أين أنت عن العقيق الأحمر والعقيق الأصفر والعقيق الأبيض، فإنها ثلاثة جبال في الجنة، فأما الأحمر فمطل على دار رسول الله صلى الله عليه وآله، وأما الأصفر فمطل على دار فاطمة صلوات الله عليها، وأما الأبيض فمطل على دار أمير المؤمنين عليه السلام، والدور كلها واحدة يخرج منها ثلاثة أنهار، من تحت كل جبل نهر أشد برداً من الثلج، وأحلى من العسل، وأشد بياضاً من الدرّ، لا يشرب منها إلاّ محمد وآله

١ - لسان العرب: ج٤، ص١٤٢، (جعفر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٢٤٨،(جعفر)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص١٢٥، (جعفر).
٢ - لسان العرب: ج٤، ص١٤٢، (جعفر).

وشيعتهم، ومصبها كلها واحد، ومجراها من الكوثر، وان هذه الثلاثة جبال تسبح الله وتقدسه وتمجده وتستغفر لمحبي آل محمد عليهم السلام»[١].

واللون الأحمر أنسب بمكانة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعلو رتبته، والأصفر أنسب بمقام الصديقة لأنه جميل زاهر، والأبيض أنسب بمقام أمير المؤمنين لظهور نور الولاية فيه، ويبدو من الرواية أن هذه الأنهار الثلاثة تمر بمنازلهم التي يسكنون فيها ومحال إقامتهم، فإن الدار يطلق على محل الإقامة الدائم، وهذا يؤكد ما تقدم في الرواية السابقة من أن بعض القصور ليست للسكنى بل للأنس والراحة، كما تدل على أن ما أعطى الله سبحانه من الكرامات لمحمد وآل محمد عليهم السلام غالباً ما يشاركهم شيعتهم فيها بالتبع، وهذا فضل عظيم يدعو العبد إلى مزيد المحبة والمعرفة لهم والاتباع لسيرتهم.

ومن كل ما تقدم: يستفاد أن أنهار الجنة كثيرة متعددة المنابع والمجاري، ومتنوعة الفوائد والطعوم، وهذا يتناسب مع سعة الجنة ومساحتها الشاسعة التي تشمل العالم بسماواته وأرضه.

ويستفاد من بعض الآيات والروايات أيضاً أن هناك عيوناً في الجنة تكون منشأ لأنهارها، فكما أن منابع أنهار الدنيا الجبال والعيون فكذلك في الجنة، وقد مر عليك عين التسنيم التي يشرب بها المقربون، وهناك عين أخرى تسمى (عين الكافور) وهي مشرب عباد الله كما أخبر الباري عز وجل بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾[٢].

---

١ - بحار الأنوار: ج٨، ص١٨٧، ح١٥٦.

٢ - سورة الإنسان: الآيات ٥-٦.

ويظهر من الآية المباركة أن الأبرار من عباد الله يشربون من كأس ممزوجة بالكافور؛ لأنهم أدنى رتبة، إلاّ أن عباد الله وهم أولياؤه يشربون خالصها، وهو الكافور الخالص لعلو رتبتهم، ومن خصوصية هذه العين هي أنها تتفجر لهم متى ما شاؤوا، كما تشير إليه نسبة التفجير إليهم؛ إذ قال: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

وفي المجمع أن أنهار الجنة تجري بغير أخدود، فإذا أراد المؤمن أن يجري نهراً خط خطاً فينبع الماء من ذلك الموضع ويجري بغير تعب[1]، والتفجير يوحي إلى قوة الدفق وغزارته كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنًا﴾[2] وهذا ما يدل عليه حديث الباقر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن أنهار الجنة تجري في غير أخدود - أي بدون انخفاض في الأرض - أشد بياضاً من الثلج، وأحلى من العسل، وألين من الزبد، طين النهر مسك أذفر، وحصاه الدر والياقوت، تجري في عيونه وأنهاره حيث يشتهي، ويزيد في جناته ولي الله، فلو أضاف من في الدنيا من الإنس والجن لأوسعهم طعاماً وشراباً وحللاً وحليّاً لا ينقصه من ذلك شيء[3].

والكافور مشروب طيب الطعم والرائحة، بارد الطبع والمزاج، وهو شراب خاص ليس ككافور الدنيا، يلتذ شاربه في ذوقه وشمه وهنائه، ونسبة العباد إلى الله تدل على أنهم في غاية القرب منه، وليسوا إلاّ محمداً وآل محمد، كما أن التسنيم كانت لهم، وعلى هذا فإنه يفهم منه أن النعم الخالصة مختصة

١ - انظر مجمع البيان: ج١٠، ص٢١٥، تفسير الآية المزبورة.
٢ - سورة البقرة: الآية ٦٠.
٣ - انظر الاختصاص (للمفيد): ص٣٥٧؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٢١٩، ح٢١١.

بهم، والذين هم أدنى رتبة منهم تمزج لهم النعم ولا يعطونها خالصة، وهذا أمر يتوافق مع مبدأ تنوع النعم والهبات الإلهية على حسب المقامات والرتب.

نعم قد يشاركهم خواصهم ببعض ما لهم من النعم كما مر عليك، وهذا ما يعضده قول الإمام الباقر عليه السلام في وصف هذه العين قال: «هي عين في دار النبي صلى الله عليه وآله تفجر إلى دور الأنبياء والمؤمنين»[1] ولعله من باب تجسم الأعمال ومسانخة الجزاء للعمل، فكما أن عيون الرحمة والعلم والحكمة تتفجر من بيت النبي صلى الله عليه وآله وتجري إلى قلوب عباد الله الصالحين وهو صلى الله عليه وآله سيد الأنبياء ومصدر علومهم ومعارفهم كذلك في الآخرة فإن شرب عباد الله من الأنبياء والمؤمنين يكون منه؛ إذ تتفجر عيون الشراب من بيته صلى الله عليه وآله، وتجري إلى بيوت المؤمنين.

٥- مساكن الجنة

والمستفاد من النصوص أن منازل الجنة ومساكنها غرف مبنية لا تحجب النظر، ولا تمنع من الرؤية، وهي ليست كغرف الدنيا يتوقف السكنى فيها على سلالم للصعود إليها أو الهبوط منها، بل هي طوع أمر سكانها، فإذا أراد الهبوط هبطت به، كما أن الأنهار ترتفع إليها إذا شاء ساكنها ذلك، وهي أيضاً غير محدودة بحيطان وجدران، بل تتسع لصاحبها وتكبر متى شاء، ولعل هذا ما يشير إليه قول الصادق عليه السلام عن آبائه عن الرسول صلى الله عليه وآله. قال: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، يسكنها من أمتي من أطاب

١ - الأمالي (للصدوق): ص٣٣٣، ح١٣؛ تفسير نور الثقلين: ج٨، ص٧٣، ح٢٤.

الكلام، وأطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلى بالليل والناس نيام»[١].

والظاهر أن هذه السمة بغرف الجنة من التوسعة والراحة المتناهية في سكناها ترجع إلى مسانخة هذه الأعمال لهذا الجزاء؛ لأن أصحاب الكلام الطيب الذين يطعمون الطعام ويفشون السلام يدخلون الراحة والسرور على عباد الله، فيكافئهم الله سبحانه في الجنة بما يريحهم ويسعدهم.

وفي تفسير القمي في معنى قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ﴾[٢] عن أبي جعفر عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «تلك الغرف بنى الله لأوليائه بالدر والياقوت والزبرجد، سقوفها ذهب محبوكة بالفضة، لكل غرفة منها ألف باب من ذهب، على كل باب منها ملك موكل به، وفيها فرش مرفوعة بعضها فوق بعض من الحرير والديباج بألوان مختلفة، حشوها المسك والعنبر والكافور، وذلك قول الله سبحانه: ﴿وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ﴾[٣] فإذا دخل المؤمن إلى منازله في الجنة وضع على رأسه تاج الملك والكرامة، وألبس حلل الذهب والفضة والياقوت والدر منظوماً في الأكليل تحت التاج، وألبس سبعين حلة بألوان مختلفة منسوجة بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت الأحمر، وذلك قوله: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾[٤] فإذا جلس المؤمن على سريره اهتز سريره فرحاً».[٥]

---

١ - الأمالي (للصدوق): ص٤٠٧، ح٥؛ بحار الأنوار: ج٨، ص١١٩، ح٥.

٢ - سورة الزمر: الآية٢٠.

٣ - سورة الواقعة: الآية٣٤.

٤ - سورة الحج: الآية٢٣.

٥ - تفسير القمي: ج٢، ص٢٤٦- ٢٤٧.

ويستفاد من الأخبار ان مساكن الجنة مراتب، وأشرف موضع فيها وسطها، وهو منزل محمد وأهل بيته[١] عليهم السلام، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «منزل محمد صلى الله عليه وآله من الجنة في جنة عدن، وهي وسط الجنان وأقربها من عرش الرحمن جل جلاله ... والذين يسكنون معه في الجنة هؤلاء الأئمة الاثنا عشر»[٢].

وخصوصية جنة عدن أن الله خلقها بيده، وغرس أشجارها واتخذ قصورها وشق أنهارها[٣]، ومن الواضح أن شيعتهم يجاورونهم في السكنى للروايات الكثيرة الدالة عليه[٤]، وورد عنه عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله في صفة قصور الشهداء فقال: «بناء هذه القصور لبنة من ذهب ولبنة من فضة، ملاطها المسك الأذفر والعنبر، حصاها الدر والياقوت، ترابها الزعفران؛ وكثيبها الكافور، في صحن كل قصر من هذه القصور أربعة أنهر: نهر من عسل، ونهر من خمر، ونهر من لبن، ونهر من ماء محفوف بالأشجار، والمرجان، على حافتي كل نهر من هذه الأنهار، وخلق فيها خيمة من درّة بيضاء لا قطع فيها ولا فصل. قال لها: كوني فكانت، يرى باطنها من ظاهرها، وظاهرها من باطنها، في كل خيمة سرير مفصص بالياقوت الأحمر، قوائمه من الزبرجد الأخضر، على كل سرير حوراء من حور العين، على كل حوراء سبعون حلة خضراء وسبعون حلة صفراء يرى مخ ساقها خلف عظمها وجلدها وحليها وحللها كما ترى الخمرة الصافية في الزجاجة البيضاء مكللة بالجوهر، لكل

---

١ - عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٧٣، ح٣١٤.
٢ - كمال الدين وتمام النعمة: ص٢٩٦، ح٣.
٣ - المحاسن: ص١١٥، ح١١٨.
٤ - انظر جامع الأخبار: ص١٧٠.

حوراء سبعون ذؤابة، كل ذؤابة بيد وصيف، وبيد كل وصيف، مجمر تبخر تلك الذؤابة يفوح من ذلك المجمر بخار لا يفوح بنار ولكن بقدرة الجبار»[١].

وفي الحديث الشريف دلالة صريحة على أن أبدان الحور العين من لحم وعظم، وأن أهل الجنة كذلك، وهو يؤكد المعاد الجسماني، وفي بعض الأخبار أن جنات الفردوس منزل خواص المؤمنين من أمثال أبي ذر والمقداد وسلمان الفارسي وعمار بن ياسر[٢]، وتؤكد الأخبار أيضاً أن منازل الشيعة هي في أعلى مراتب الجنة حتى ينظر أهل الجنة منازلهم كما ينظر الإنسان إلى الكواكب[٣].

٦- شجر الجنة وثمارها

في النبوي الشريف قال: «إن نخل الجنة جذوعها ذهب أحمر، وكربها زبرجد أخضر، وشماريخها در أبيض، وسعفها حلل خضر، ورطبها أشد بياضاً من الفضة، وأحلى من العسل، وألين من الزبد، ليس فيه عجم، طول العذق اثنا عشر ذراعاً، منضودة من أعلاه إلى أسفله، لا يؤخذ منه شيء إلاّ أعاده الله كما كان، وذلك قول الله عز وجل: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾[٤]»[٥] ويستفاد من الحديث أن نخل الجنة يشبه نخل الدنيا في الشكل والمظهر، ويختلف معه في الجوهر.

ويظهر من بعض الأخبار أن أكبر شجرة في الجنة هي شجرة طوبى تظلل

١ - تفسير الفرات: ص٥٩٤- ٥٩٥، ح٧٦٠؛ بحار الأنوار: ج٨، ص١٧٥، ح١٢٥.

٢ - انظر تفسير القمي: ج٢، ص٢٠.

٣ - جامع الأخبار: ص١٧٠؛ بحار الأنوار: ج٨، ص١٤٨، ح٧٨.

٤ - سورة الواقعة: الآية٣٣.

٥ - الاختصاص (للمفيد): ص٣٥٧- ٣٥٨؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٢١٩، ح٢١٢.

الجنان، أصلها من رضوان، وماؤها من تسنيم، غرسها الباري عز وجل بإرادته[١]، ومنبتها دار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام، وليس أحد من شيعته إلاّ وفي داره غصن من أغصانها، لا ينوي في قلبه شيئاً إلاّ أتاه ذلك الغصن به، ولو أن راكباً مجداً سار في ظلها مائة عام لم يخرج منها[٢].

وفي رواية أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى ما في الجنة دار ولا قصر ولا حجر ولا بيت إلاّ وفيه غصن من تلك الشجرة، وإن أصلها في داري» ثم أتى عليه ما شاء الله ثم، حدثهم في يوم آخر: «إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى ما في الجنة قصر ولا دار ولا بيت إلاّ وفيه من ذلك الشجر غصن، وإن أصلها في دار علي» فقال عمر: يا رسول الله! أوليس حدثتنا عن هذه وقلت أصلها في داري؟ ثم حدثت وتقول أصلها في دار علي؟ فرفع النبي رأسه فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أو ما علمت أن داري ودار علي واحد، وحجرتي وحجرة علي واحد، وقصري وقصر علي واحد، وبيتي وبيت علي واحد، ودرجتي ودرجة علي واحد، وستري وستر علي واحد ...» فلم يحسد عمر أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما حسده[٣] وفي رواية ابن عباس عنه صلى الله عليه وآله وسلم أن ثمارها لم يحرمها وليه ولن ينالها عدوه[٤].

ولعل معنى أن أصل الشجرة في دار النبي ودار علي عليه السلام أن نعم الجنة وظلالها تمتد منهما، أو أنه من باب تجسم الأعمال والصفات، فإنهما عليهما السلام

١ - الأمالي (للصدوق): ص٢٢٤، ح٨.
٢ - انظر الخصال: ص٤٨٣، ح٥٦.
٣ - جامع الأخبار: ص١٧٠.
٤ - تفسير الفرات: ص٢٠٨، ح٢٧٧.

في الدنيا أصل كل خير ومنبع العلوم والمعارف، فكذلك يكون الأمر في الآخرة، أو هي كناية عن حكومتهما في الآخرة تشبيهاً لها بالظل؛ لأن جميع أهل البيت عليهم السلام يدخل تحت ظل طوبى، وكذلك يدخل جميع المؤمنين تحت ظلهما وحكومتهما.

ومن خصوصيات شجرة طوبى أن أغصانها ترى من وراء سور الجنة تنبت بالحلي والحلل، والثمار متدلية على أفواههم[١]، ولا يؤخذ شيء من ثمارها إلاّ أعاده الله، وعلى كل ورقة منها ملك يذكر الله[٢]، وقد مثل الإمام الصادق عليه السلام هذه الحقيقة بالسراج يأتي القابس فيقتبس منه فلا ينقص من ضوئه شيئاً وقد امتلأت الدنيا منه سرجاً[٣]، فكذلك ثمار الجنة كلما أخذ منها تعود كهيئتها.

وفي الجنة شجرة آدم التي ابتلي بها، وميزتها أن سائر أشجار الجنة كل نوع منها يحمل نوعاً من الثمار والمأكول، ولكن تلك الشجرة وجنسها تحمل البر والعنب والتين والعناب وسائر أنواع الفواكه والثمار والأطعمة، فلذلك اختلف الحاكون بذكر الشجرة، فقال بعضهم: هي برة، وقال آخرون: هي عنبة، وقال آخرون: هي عنابة[٤]. وفي هذه إشارة صريحة إلى أن آدم لم يكن في جنة خاصة من الأرض. نعم يمكن الجمع بينها وبين هذه الرواية بالحمل على تعدد المرتبة، كما عرفت أن عالم الجنة مندمج بعالم الدنيا، ومكانها في

١ - الخصال: ص٣٣١، ح٣٠.
٢ - الاختصاص: ص٣٥٧.
٣ - الاحتجاج: ج٢، ص٩٩.
٤ - تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص٢٢٢، ح١٠٣؛ بحار الأنوار: ج٨، ص١٧٩، ح١٣٥.

السماوات والأرض، ولكن لا يدركها أهل الدنيا لفقدان الحس.

ومن خصوصيات ثمار الجنة أنها دانية كما قال سبحانه: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾[1] ولقربها يتناول المؤمن من النوع الذي يشتهيه من الثمار بغيته وهو متكئ، وأن الأنواع من الفاكهة لتعلن لولي الله يا ولي الله كلني قبل أن تأكل هذا قبلي، وليس من مؤمن في الجنة إلاّ وله جنان كثيرة معروشات، أي ما تقام على الأعمدة المرتفعة كأشجار العنب، وغير معروشات، وهي التي تقوم على سوقها، وتلقي بظلالها الوارفة على الأرض[2].

فإذا دعا بغذائه أتي بما تشتهي نفسه عند طلبه الغذاء من غير أن يسمي شهوته[3]، كما أن من خصوصياته أنه لا عاهة معه ولا فضلات، لأن غذاءها رقيق لا ثقل له، بل يخرج من أجسادهم بالعرق، وأن أشكالها تشبه ثمار الدنيا وفواكهها، إلاّ أنه يختلف عنه في الجوهر والطعم واللذة، وقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾[4].

عن الصادق عليه السلام أن أسماء الثمار كأسماء ما في الدنيا من تفاح وسفرجل ورمان ونحوها، لكنه في غاية الطيب، وأنه لا يستحيل إلى ما يستحيل إليه ثمار الدنيا من عذرة وسائر المكروهات من صفراء وسوداء ودم، بل لا يتولد عن مأكولهم إلاّ العرق الذي يجري من أعرافهم أطيب من رائحة المسك[5].

١ - سورة الإنسان: الآية ١٤.
٢ - انظر مجمع البيان: ج٤، ص١٧٦؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٥٨،(عرش).
٣ - حق اليقين: ص٤٧٩.
٤ - سورة البقرة: الآية٢٥.
٥ - تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ج٢، ص٢٠٢-٢٠٣، ح٩٢؛ بحار الأنوار: ج٨، ص١٤٠، ح٥٦.

المطلب الثاني: في صفات أهل الجنة وأحوالهم

يتمتع أهل الجنة بمزايا وخصوصيات إلهية كثيرة تكللهم بالنعم المادية والمعنوية، وقد تعرضت الآيات والروايات إلى بعض هذه المزايا والخصوصيات نلمح إلى بعضها في ضمن العناوين التالية:

١ - أوصاف أهل الجنة

نصت الأخبار عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أن أهل الجنة جرد مرد مكحلين مكللين مطوقين مسورين مختمين ناعمين محبورين مكرمين يعطى أحدهم قوة مائة رجل في الطعام والشراب ... ويجد لذة غذائه مقدار أربعين سنة، ولذة عشائه مقدار أربعين سنة، قد ألبس الله وجوههم النور، وأجسادهم الحرير، بيض الألوان، صفر الحلي، خضر الثياب[1]، ومجامرهم اللؤلؤ وأشاطهم الذهب[2]، وأنهم إذا دخلوا الجنة صاروا على طول آدم ستين ذراعاً، وعلى ملد عيسى أي شبابه ثلاثاً وثلاثين سنة، ويتكلمون العربية على لسان المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى صورة يوسف في الحسن، ثم يعلو وجوههم النور، وعلى قلب أيوب في السلامة من الغل[3].

---

١ - الاختصاص (للمفيد): ص٣٥٨؛ بحار الأنوار: ج٨، ص ٢٢٠، ح٢١٤.

٢ - تاريخ مدينة دمشق: ج٥، ص٤٠٤.

٣ - انظر الاختصاص (للمفيد): ص٣٥٦؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٢١٨، ح٢٠٧.

وفي الحديث النبوي أن في الجنة سوقاً ما فيها شرى ولا بيع إلاّ الصور من الرجال والنساء، من اشتهى صورة دخل فيها[١]، وهو يتنعم ولا ييأس أبداً، ويخلد ولا يموت أبداً، لا يبلى ثيابه ولا شبابه[٢].

والمستفاد من مجموع الآيات والروايات أيضاً أن أهل الجنة لا يهرمون ولا يسقمون ولا يمرضون ولا تصيبهم آفة ولا زمانة ولا هم ولا غم ولا حاجة ولا فقر، ولا يمسهم نصب ولا لغوب، لهم فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، لا يصابون ببغض ولا حسد ولا عداوة ولا نزاع ولا جدال، وكل منهم راض بما أعطاه الله تعالى لا يتمنى مرتبة غيره، وأهل المراتب العالية يأتون إلى ذوي المراتب الدانية يزورونهم، ويطلعون على أحوالهم، ويستأنسون بهم، وقيل: إن أهل المراتب الدانية لا يصعدون إلى ذوي المراتب العالية لكي لا يتنغص عليهم عيشهم، أو لأجل عدم لياقتهم، لكنهم في اجتماع متواصل مع أحبابهم وأخوانهم على سرر متقابلين، وسررهم مرصعة بالجواهر، فإذا قضوا المسامرة والمنادمة ركب كل واحد منهم فرساً من أفراس الجنة لها جناحان فتطير به إلى منازله، فهم يتزاورون على هذه الحالة، يبادلونهم الحديث والمفاكهة، وكل بيت من بيوتهم له غرفة مشرفة على أهل النار حتى إذا فتح بابها نظر إلى أهل النار وتعذيبهم فيها يزداد شكراً لله سبحانه على عاقبته الحسنة، وشعوراً بالرضا بصدق وعد الله ومحبته ورأفته به[٣].

كما أن أهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون، وليس فيهم كثافات، بل

١ - جامع الأخبار: ص١٧٠؛ بحار الأنوار: ج٨، ص١٤٨، ح٧٦.
٢ - جامع الأخبار: ص١٦٩؛ بحار الأنوار: ج٨، ص١٤٧، ح٧٤.
٣ - انظر الأنوار النعمانية: ج٤، ص٢٩٥.

تستحيل أغذيتهم وشرابهم إلى عرق طيب، ونساءهم لا يصبن بحيض ولا استحاضة ولا نفاس، ومنزهات من كل العيوب، ولذا وصفهن الباري عز وجل بالطهارة إذ قال سبحانه: ﴿أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾[١].

ولا يمر على أهل الجنة ليل ولا ظلمة، وليس ضياؤهم من الشمس والقمر والنجوم، وظل الجنة ممدود، وقيل: إن وقت ما بين الطلوعين في الدنيا مثل له، وليس في خمرهم وشرابهم سكر ولا صداع ولا قيء ولا مرارة وتهوع كما هو حال شراب الدنيا[٢]، وقد مثل الإمام الباقر عليه السلام لنصراني سأله عن أهل الجنة كيف صاروا يأكلون ولا يتغوطون؟ فقال عليه السلام: «هذا الجنين في بطن أمه يأكل ما تأكل أمه ولا يتغوط»[٣].

ولا يخفى أن التمثيل جاء لمحاكاة عقل النصراني في ذاك الزمان، وإلاّ فإن العلم لا يمنع منه؛ لأن الفضلات عبارة عن زوائد الطعام، فإذا انهضم جميع الطعام ولم يبق منه باقية فإنه تنتفي الحاجة إلى التغوط، وفي الدنيا هناك الكثير من الأطعمة التي لا تبقى لها فضلات كالموز واللبن؛ لأن الجسم يستفيد من جميعها.

٢- نساء أهل الجنة

نساء الجنة خيرات حسان كاملات الأخلاق والفضائل والجمال، حسان في المناظر والألوان، وهن أجمل من الحور العين كما في الخبر النبوي

---

١ - سورة البقرة: الآية ٢٥.

٢ - انظر حق اليقين: ص٤٧١.

٣ - تفسير القمي: ج١، ص٢٣٤.

الشريف[١]، وأبكار كلما قاربهن الزوج يعدن أبكاراً، وإذا ضحكت يعلو نور أسنانها حيطان الجنة وأشجارها[٢].

وورد أن نساء أهل الجنة من الحوريات يأخذ بعضهن بأيدي بعض في محفل جماعي، ويتغنين بأصوات لم يسمع الخلائق مثلها، نحن الرضيات فلا نسخط ، ونحن المقيمات فلا نظعن، ونحن خيرات حسان حبيبات لأزواج كرام، فإذا قلن هذه المقالة أجابتهن المؤمنات من نساء الدنيا: نحن المصليات وما صليتن، ونحن الصائمات وما صمتن، ونحن المتوضئات وما توضيتن، ونحن المتصدقات وما تصدقتن، فيغلبنهن بالسمات والمزايا[٣]، ولعل وجه الغلبة هو أن نساء الدنيا يفتخرن بالعبودية والطاعة، وهي أرقى رتبة من الصفات النفسية والجمالية والجسدية.

وفي رواية أخرى يتكلمن بما لم يسمع الخلائق مثله، فيقلن: «نحن الخالدات فلا نموت، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن المقيمات فلا نظعن، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن خلق لنا، وطوبى لمن خلقنا له، نحن اللواتي لو علق إحدانا في جو السماء لأغنى نورنا عن الشمس والقمر، لو أن قرن إحدانا علق في جو السماء لأغشى نوره الأبصار»[٤] وفي كلام آخر لهن : (نحن الطاعمات فلا نجوع أبداً، ونحن الكاسيات فلا نعرى أبداً ...

١ - انظر بحار الأنوار: ج٨، ص ١٠٦؛ مجمع البيان: ج٩، ص٣٥٢.
٢ - تفسير العياشي: ج١، ص١٨٧، ح١٥.
٣ - انظر مجمع البيان: ج٩، ص٣٥٢؛ بحار الأنوار: ج٨، ص١٠٧.
٤ - انظر تفسير القمي: ج٢، ص٨٢-٨٣.

فطوبى لمن كنا له وكان لنا، نحن خيرات حسان، أزواجنا أقوام كرام)[١].

وظاهر بعض الأخبار أن الأزواج في الدنيا يتخيرون زوجاتهم في الآخرة، ففي مجمع البيان عن الصادقعليه السلام أنه سئل عن المؤمن تكون له امرأة مؤمنة يدخلان الجنة يتزوج أحدهما بالآخر؟ فقال: «أن الله حكم عدل، إن كان هو أفضل منها خيّر هو، فإن اختارها كانت من أزواجه، وإن كانت هي خيراً منه خيرها، فإن اختارته كان زوجاً لها»[٢] ولو كان للمرأة زوجان في الدنيا تتخير المرأة، وتختار أحسنهما خلقاً، وخيرهما لأهله كما أخبر بذلك رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم أم سلمة، وعلله بأن حسن الخلق ذهب بخير الدنيا والآخرة[٣]، ولا يتلذذ أهل الجنة بشيء أشهى من النكاح[٤].

وفي رواية أبي بصير عن الصادقعليه السلام: «أن في الجنة نهراً في حافتيها جوار نابتات، إذا مر المؤمن بجارية أعجبته قلعها وأنبت الله مكانها أخرى»[٥] وأكثر الأنهار تنبت عليه الكواعب الأتراب نهر الكوثر، يزوره أولياء الله يوم القيامة[٦].

وعن الرضاعليه السلام أن الحور العين خلقن من الزعفران والتراب لا يفنين[٧]،

١ - جامع الأخبار: ص١٧٠.
٢ - مجمع البيان: ج٩، ص٣٥١.
٣ - الأمالي (للصدوق): ص٥٨٨، ح٨.
٤ - تفسير العياشي:ج١، ص١٦٤، ح١٠.
٥ - تفسير القمي: ج٢، ص٨٢.
٦ - بحار الأنوار: ج٨، ص١٤٧، ح٧٢.
٧ - انظر المناقب (لابن شهر آشوب): ج٣، ص٤٦٥.

والتراب هو تراب الجنة، وقد مر عليك في بيان أرض الجنة أنه الورس والزعفران والمسك، ولعل وجه خلقهن من الزعفران هو توفر الزعفران على خصوصيات كثيرة تناسب الحور، فإنه مبهج نقي اللون طيب الريح والطعم يذهب الغم والهم ومعمر، وأن الحور أشد شوقاً إلى المؤمن، ولو كان المؤمن في الحساب ينتظرنه أزواجه على عتبات الأبواب، فإذا جاء قلن: مرحباً وأهلاً ما أهلك الذي كنت عندهم في الدنيا بأحق بك منا[١]، ولو أن حوراء من حور الجنة أشرفت على أهل الدنيا وأبدت ذؤابة من ذوائبها لأماتت أهل الدنيا، وإن المصلي ليصلي فإذا لم يسأل ربه أن يزوجه من الحور العين قلن: ما أزهد هذا فينا[٢]!

وفي بعض الأخبار أن لكل مؤمن سبعين زوجة حوراء وأربع نسوة من الآدميين، والمؤمن ساعة مع الحوراء وساعة مع الآدمية وساعة يخلو بنفسه على الأرائك متكئاً ينظر بعضهم إلى بعض، وإن المؤمن ليغشاه شعاع نور وهو على أريكته، ويقول لخدامه: ما هذا الشعاع اللامع...؟ فيقول له خدامه... : بل هذه حوراء من نسائك ممن لم تدخل بها بعد قد أشرفت عليك من خيمتها شوقاً إليك، فالشعاع الذي رأيت و النور الذي غشيك هو من بياض ثغرها[٣].

وصفائه ونقائه ورقته فتنزل إليه من خيمتها، وعليها سبعون حلة منسوجة بالذهب والفضة، مكللة بالدر والياقوت والزبرجد، صبغهن المسك والعنبر

١ - بحار الأنوار: ج٨، ص١٩٧، ح١٩٢.
٢ - بحار الأنوار: ج٨، ص١٩٩، ح٢٠٠.
٣ - الكافي: ج٨، ص٩٩، ح٦٩.

بألوان مختلفة يرى مخ ساقها من وراء سبعين حلة طولها سبعون ذراعاً، ثم يعانقها وتعانقه فلا تمل ولا يمل[١]، وأفضل نساء الجنة أربع: خديجة بنت خويلد وفاطمة الصديقة ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون[٢]، وأفضل الأربعة الصديقة الكبرى سيدة النساء عليها السلام.

٣- مراكب أهل الجنة

يستفاد من الأخبار أن أهل الجنة يتزاورون ويتنقلون ولهم في ذلك وسائل يركبونها، وهي نتائج بعض الأشجار، فعن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إن في الجنة لشجرة يخرج من أعلاها الحلل، ومن أسفلها خيل بلق مسرجة ملجمة ذوات أجنحة لا تروث ولا تبول، فيركبها أولياء الله، فتطير بهم في الجنة حيث شاؤوا، فيقول الذين أسفل منهم: يا رب ما بلغ بعبادك هذه الكرامة؟ فيقول الله جل جلاله: إنهم كانوا يقومون الليل ولا ينامون، ويصومون النهار ولا يأكلون، ويجاهدون العدو ولا يجبنون، ويتصدقون ولا يبخلون»[٣].

والخيل البلق التي في لونها سواد وبياض[٤]، وظاهر الخبر أن الخيل البلق من جنس الحيوان، وحمل اللفظ عليه أولى استناداً إلى القاعدة القاضية بأصالة حمل الألفاظ على معانيها الحقيقية ما لم يمنع منه مانع، وهل خروج الخيل من أسفل الشجرة بنحو الولادة كما تخرج الشجرة من الشجرة أم تخرج من

١ - انظر حق اليقين: ص٤٧٩- ٤٨٠.
٢ - الخصال: ص٢٠٥، ح٢٢.
٣ - الأمالي (للصدوق): ص٣٦٦- ٣٦٧، ح١٤.
٤ - انظر المعجم الوسيط: ج١، ص٧٠،(بلق).

موضع واقع في أسفل الشجرة؟ احتمالان: والأول أقوى.

وقد مر عليك في الجواري اللاتي ينبتن على نهر الكوثر وأن القوانين الحاكمة في الآخرة تختلف تماماً عن قوانين الدنيا، فلا يصح أن نحكم على الآخرة بقوانين الدنيا، وقد عرفت أن الجنة لا تشهد ولادة الجنس من الجنس كما هو الحال في الدنيا، بل كل شيء فيها يوجد بالخلق المباشر، أو بالإنبات والإثمار على الأشجار.

ونلاحظ أن الذين يحظون بهذه المراكب في الجنة ليسوا جميع أهل الجنة، بل أولياء الله منهم، وأعلاهم رتبة هم محمد وآل محمد عليهم السلام، ثم شيعتهم، كما هو مقتضى الجمع بين الأدلة، وهو نوع إكرام وتعظيم لهم، بل في حديث المعراج أن شيعة علي عليه السلام يلبسون الحلي والحلل، ويركبون الخيل البلق، وينادي مناد: هؤلاء شيعة علي صبروا في الدنيا على الأذى فحبوا هذا اليوم، والمراد الصبر على التشيع، فإن التشيع يستدعي نوعين من الصبر: صبر على الطاعة وصبر على الأذى الذي يسببه الظالمون لهم بسبب تشيعهم؛ إذ كان الشيعة ولازالوا يعانون من الظلم والجور في هذا السبيل، فلذا جعل الله في الآخرة نصيبهم الأوفر وحظهم الأوفى.

بل المستفاد من بعض الأخبار أن الشيعة يحشرون راكبين أيضاً إكراماً وإعظاماً لهم، ففي تفسير الفرات عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لعلي عليه السلام: «هذا جبرئيل يخبرني عن الله أن الله يبعثك وشيعتك يوم القيامة ركباناً غير رجال على نجائب رحلها من النور، فتناخ عند قبورهم، فيقال لهم: اركبوا يا أولياء الله، فيركبون صفاً معتدلاً أنت أمامهم إلى الجنة، حتى

إذا صاروا إلى الفحص ثارت في وجوههم ريح يقال لها: المثيرة، فتذري في وجوههم المسك الأذفر، فينادون بصوت لهم: نحن العلويون، فيقال لهم: فأنتم آمنون ولا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون»[١].

ويتضمن هذا الخبر الإشارة إلى عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن المراد من الشيعة ما هو أخص من المحبين، وهم الذين يوالون محمداً وآل محمد عليهم السلام، ويتبعونهم في القول والعمل، وإضافتهم إليه عليه السلام تشريفية أو تخصيصية، وهذا ما يشير إليه مخاطبتهم بأولياء الله؛ بداهة أن هذا النحو من التعظيم والتكريم لا يليق بغير المؤمن العامل بمقتضيات إيمانه.

الحقيقة الثانية: أن النجائب خيار الإبل وأفضلها[٢]، ولعل المراد هنا مطلق المركوب الفاضل في نوعه، بناء على أن تعريف النجائب بالإبل تعريف بالمصداق، إلاّ أن قوله: «تناخ عند قبورهم» أظهر في الأول، ولعل الوجه في كون رحلها من نور هو مزيد التعظيم والتجليل، أو هو من باب مسانخة النور لأعمالهم، أو للحاجة إليه؛ لما عرفت من حاجة أهل المحشر إلى النور بسبب تكور الشمس وانهدام الكواكب النيرّة.

الحقيقة الثالثة: قوله: «فتناخ عند قبورهم فيقال لهم: اركبوا» يدل على أن الحشر يبدأ من القبر، وأنه يتعلق بالبدن؛ لوضوح أن الذي يدفن في القبر هو الجسد لا الروح، وهذا يؤكد أن المعاد جسماني لا روحاني.

---

١ - تفسير الفرات: ص١٢٠، ح١٢٦؛ بحار الأنوار: ج٨، ص١٧٤، ح١٢٣.
٢ - انظر القاموس: ص١٣٨-١٣٩،(نجب).

الحقيقة الرابعة: الظاهر أن المراد من الفحص هو موقف الحساب والاستعداد للميزان، وقد عرفت أن الناس يقفون هناك ليسألوا ثم توزن أعمالهم ليتميز أهل الجنة منهم من أهل النار، فإذا ثارت الريح بالمسك الأذفر الذي هو من عطور الجنة فيعرفون أمام الملأ بأنهم شيعة أمير المؤمنين، ويكون هذا الإظهار إكراماً لهم وله عليه السلام في موقف مخيف يكون العباد في أمس الحاجة إلى الأمان والاطمئنان.

والظاهر أن لهذا النحو من الخيل شكلاً آخر تجسد في عالم الدنيا مع الملائكة الذين نصروا النبي وأمير المؤمنين عليه السلام؛ إذ كانوا يتنزلون على خيل من الجنة نصت الأخبار على أنها بلق، وأنها تملك من الطاقات والقدرات ما هو أعظم مما تملكه الخيول العادية، فقد أجمع المؤرخون والمفسرون على مثال الملائكة في معركة بدر، وهم على خيل بلق مسومة[1].

ومعنى الخيل المسومة أي المعلمة بالعلامات الخاصة، وقد ذكر البعض أنها كانت معلمة بالصوف الأبيض في نواصيها وأذنابها، وأن جبرئيل عليه السلام كان يقاتل على أحدها اسمه الحيزوم، وهو من أفراس الجنة انتقل بأمر الله سبحانه إلى رسول الله[2] صلى الله عليه وآله وسلم، ومن بعده انتقل إلى أمير المؤمنين عليه السلام كما ورد عن الصادق عليه السلام، وهو الذي قاتل عليه سيد الشهداء عليه السلام في كربلاء، ولذا كان يتمتع بمزايا لا ترقى إليها خيول الدنيا، فكان يسمع الكلام ويفهم، ولطخ ناصيته بدمه الطاهر بعد الشهادة، وركض إلى خيم النساء وأخبرهن بشهادته، ورمح برجله، وقاتل وقتلَ من الأعداء جماعة، وغاب عن الأنظار،

١ - انظر مجمع البيان: ج٢، ص٣٨٣.

٢ - انظر الحاشية على أصول الكافي: ص١٧١؛ صحيح مسلم: ج٥، ص١٥٧.

ولم ير بعدها أبداً، إلى غير ذلك من العلامات التي تدل على أنه لم يكن من أفراس الدنيا العادية، ويعد هذا الفرس من مواريث الإمامة التي سيظهر بها سيد الوجود المهدي الموعود في آخر الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف، وبه يقاتل أعداء الله[1].

وتؤكد بعض الأخبار أن فرس جبرئيل صهيله التسبيح والتقديس، فإذا نزل جبرئيل عليه السلام عليها علمت الملائكة أن نزوله للرحمة، وإذا نزل منشور الأجنحة علمت أن نزوله للعذاب[2].

والخلاصة: أن الروايات تؤكد أن الفرس هو مركوب أهل الجنة، كما أنه مركوب الملائكة، وقد نزل بعضها إلى الأرض لنصرة أولياء الله كما أشار إلى ذلك القرآن في واقعة بدر وأحد، وعند إغراق فرعون إذ نزل جبرئيل على فرس تقدم فرس فرعون حتى أورده البحر ليغرقه، كما أنها وصفت هذا النوع من الأفراس بأنها بلق مسومة، وهذه الحقيقة تحاكي صفة أفراس أهل الجنة التي يركبها أولياء الله، وللكلام تفاصيل ليس هنا محل بحثها.

٤- مجالس أهل الجنة وغنائهم

نصت الأخبار على أن مفتتح كلام أهل الجنة في كل شيء التسبيح، ومختتم كلامهم التحميد، ويكون التسبيح في الجنة بدل التسمية في الدنيا، وتحيتهم فيها سلام[3]، وأما طربهم فهو أجل وألطف مما يتصوره أحد، فقد روي أن أعرابياً جاء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله! ذكرت في الجنة كل شيء فأين

١ - انظر الحاشية على أصول الكافي: ص١٧١.
٢ - انظر السيرة الحلبية: ج٢، ص٤٢٧.
٣ - انظر الأنوار النعمانية: ج٤، ص٣٠٠.

الغناء؟ فقال: «نعم يا إعرابي إن في شجرها أجراساً معلقة إذا ضرب واحد منها خرجت منه نغمات لو أن أهل الدنيا سمعوا نغمة منها لماتوا من الشوق والطرب»[١].

ودلالة هذا الحديث على الغناء مبني على تعريف الغناء بكل صوت فيه نغمة، أو أن غناء الجنة هكذا، بخلافه في الدنيا الذي يتضمن الكلام مع اللحن، وفي مجالس طربهم من الولدان الحسان ما لا يحصى، وهم يخدمونهم في مجالسهم كما قال سبحانه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾[٢] وإنما شبههم باللؤلؤ لشدة بياضهم، ورقتهم ونعومتهم، ولطافة أشكالهم، وحسن أسلوبهم، ووصفهم باللؤلؤ المنثور دون المنظوم من جهة انتشارهم في ساحات الجنة، وعلى مجالس أهلها للخدمة، وفي يد كل واحد منهم قدح من الشراب الطهور يقدمه لأهل المجلس، وفي بعض الأخبار أن على أشجار الجنة طيوراً تصوت بالتسبيح والتقديس لا يقدر أهل الدنيا على سماعها[٣].

وفي تفسير القمي عن الصادق عليه السلام: «إن في الجنة شجرة يأمر الله رياحها فتهب فتضرب تلك الشجرة بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلها حسناً، ثم قال: هذا عوض لمن ترك السماع للغناء في الدنيا من مخافة الله»[٤] وظاهر الخبر أن الصوت الحسن تصدره الريح، فهو ناشئ منها، ومحله الشجرة ولعله نوع

١ - مجمع البيان: ج٨، ص٥٠-٥١.
٢ - سورة الإنسان: الآية ١٩.
٣ - انظر الأنوار النعمانية: ج٤، ص٢٩٥- ٢٩٦.
٤ - انظر تفسير القمي: ج٢، ص١٧٠؛ بحار الأنوار: ج٨، ص١٢٧، ح٢٧.

من الموسيقى لا الغناء، أو أنه غناء خاص لمن ترك الغناء من مخافة الله خاصة، وأما سائر أهل الجنة فيسمعون الغناء بما نصت عليه الرواية الأولى. نعم في رواية أبي إمامة الباهلي عن رسول الله ﷺ أن غناء الجنة مشتمل على الكلام، ولكنه ليس بالكلام الباطل، بل بالذكر والتقديس، وأن هذه منحة عامة لجميع أهل الجنة. قال: «ما من عبد يدخل الجنة إلاّ ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين تغنيانه بأحسن صوت سمعه الأنس والجن، وليس بمزمار الشيطان، ولكن بتمجيد الله وتقديسه»[١].

وفي رواية أبي الدرداء قال: كان رسول الله ﷺ يذكر الناس فذكر الجنة وما فيها من الأزواج والنعيم وفي القوم أعرابي، فجثا لركبتيه وقال: يا رسول الله! هل في الجنة من سماع؟ قال: «نعم يا أعرابي، إن في الجنة نهراً حافتاه الأبكار من كل بيضاء يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط ، فذلك أفضل نعيم الجنة»[٢] وتغنيهن بالتسبيح[٣]، والمراد من النعيم اللذة المعنوية لا المادية فلا يتنافى مع ما تقدم من أن أفضل لذة عند أهل الجنة الجُماع.

وفي رواية أخرى عن المصطفى ﷺ أن الله تعالى يوحي إلى شجرة في الجنة: أن أسمعي عبادي الذين اشتغلوا بعبادتي وذكري عن عزف البرابط

١ - انظر مجمع البيان: ج٨، ص٥٠، تفسير الآية ١٥ من سورة الروم؛ بحار الأنوار: ج٨، ص١٩٥، ح١٨١.

٢ - انظر مجمع البيان: ج٨، ص٥٠، تفسير الآية المزبورة؛ بحار الأنوار: ج٨، ص١٩٦، ح١٨٢.

٣ - مجمع البيان: ج٨، ص٥٠؛ بحار الأنوار: ج٨، ص١٩٦، ح١٨٢.

والمزامير، فترفع صوتاً لم يسمع الخلائق بمثله قط من تسبيح الربّ[١].

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام أن الحور العين ... يصوتن بأصوات لا أصوات أحلى منها ولا أحسن، حتى ما يبقى في الجنة شيء إلاّ اهتز لحسن أصواتهن. يقلن: ألا نحن الخالدات فلا نموت أبداً، ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً، ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً[٢]، وربما يجمع بين هذه الأخبار بحمل كل واحدة منها على ظاهرها، فتحمل الرواية الأولى والثانية على الموسيقى، والروايات الأخرى على غناء الشجر والحور، وأما أصوات الطير فهو قد يكون نوعاً من الغناء لكل أهل الجنة كما هو حال الطيور الغرّيدة في الدنيا.

١ – مجمع البيان: ج٨، ص٥١.

٢ – كتاب الزهد: ص١٠٢، ح٢٧٦؛ بحار الأنوار: ج٨، ص١٩٨، ح١٩٦.

المبحث الثالث
في أوصاف النار وأهلها

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: في أوصاف النار وخصوصياتها

النار من أعظم مخلوقات الله سبحانه هيبة وعظمة، وهي سجن الله في الآخرة، وسميت جهنم لبعد قعرها[1]، وقد جمعت المتناقضات لاختلاف الجزاء فيها، ففيها الحرور وهو أقصى درجات الحر، والزمهرير وهو أقصى درجات البرد، وقد جمعت الآلام المادية والمعنوية، فهي تحرق بلهيبها الأجساد، وتؤلم الأنفس والقلوب؛ لأنها دار الهوان ودار الانتقام من أهل الكفر والعصيان، وهي دار الخلود للمعاندين من الكفار والمشركين كما عرفت تفصيله مما تقدم، ويجب الاعتقاد بها؛ لأنها من الضروريات في دين الإسلام، بل في الأديان السماوية[2]، وتضافرت في الدلالة عليها وشرح أوصافها وخصوصياتها الآيات والروايات، ولعل من أهمها خمساً:

---

١ - انظر المعجم الوسيط: ج١، ص١٤٤، (الجهنام).

٢ - انظر الاعتقادات (للمفيد): ص٧٧- ٧٨؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٣٢٤- ٣٢٥، ح١٠٢.

الخصوصية الأولى: أنها حقيقة حية متحركة وناطقة، فتأتي وتذهب وتظهر وتخفى وتسمع الكلام وتفهمه وتتكلم وتفهم كما يستفاد من النصوص. قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾[1] وسئل النبي ﷺ عن مجيء جهنم فقال: «بذلك أخبرني الروح الأمين أن الله لا إله غيره إذا برز الخلائق وجميع الأولين والآخرين أتي بجهنم تقاد بألف زمام يقودها مائة ألف ملك من الغلاظ الشداد، لها هدة وغضب وزفير وشهيق، وإنها لتزفر الزفرة فلولا أن الله أخرهم للحساب لأهلكت الجميع»[2].

وقوله: «تقاد بألف زمام يقودها مائة ألف ملك» يحتمل معنيين:

الأول: المعنى الحقيقي، وذلك لتسخير النار لأمر الملائكة، فتكون طوع أمرهم، كما سخر الله سبحانه الحيوانات العظيمة الهيكل للإنسان يتصرف فيها كما يشاء، أو أن الملائكة أقوى وأشد منها، كما قد يشير إليه وصفهم بالغلاظ الشداد.

والثاني: المعنى المجازي، فيحمل العدد المذكور على بيان شدة القوة، والأول أقوى وأقرب إلى مضامين الأدلة الأخرى، ويستفاد من قوله: «فلولا أن الله أخرهم للحساب» أن ظهور النار وحضورها في الآخرة يكون في ساحة المحشر قبل الحساب؛ لتكون مرحلة من مراحل عذاب أهلها كما مر عليك في مواقف المحشر ومشاهده.

---

١ - سورة الفجر: الآية ٢٢-٢٣.

٢ - تفسير القمي: ج٢، ص٤١٨.

ويشهد لهذه الخصوصية قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾[١] أي أظهرت وكشف عنها الغطاء، فيرى من كان أعمى عنها بسبب وجود الحجب النفسية أو الجسدية، والموصول يدل أن جماعة يرونها في هذه الحالة وليس الجميع، ولعل هذا يؤكد أن هذا البروز هو رتبة من مراتب العذاب، فلذا يقتصر على من يراه لا غير، وربما تشير الآية إلى أن المؤمن لا يرى النار، بل يرى الجنة لأنها تبرز له، أو أن الذين يحشرون عميان الأبصار؛ لأنهم كانوا عميان البصائر في الدنيا لا يرون النار، وإنما يتعذبون بها، وفي بعض الأحيان يكون العذاب بالسماع أكثر من النظر؛ لأن الحقائق قد تتهول لدى السماع بخلاف النظر، فتأمل.

ويؤكد قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾[٢] وهم الضالون المعاندون من المسلمين سموا بالغاوين لأنهم يعلمون بما يوجب الخيبة من الثواب لتوهم أن فيه الثواب[٣]، والتعبير بالإبراز ظاهر في أن النار موجودة محيطة بهم، ولكنهم لا يرونها إلاّ في الآخرة تظهر لهم بعد أن كانت مخفية.

وتؤكد الأخبار أنها تكلمهم وتوبخهم، ففي الخصال عن النبي ﷺ قال: «تكلم النار يوم القيامة ثلاثاً: أميراً وقارياً وذا ثروة من المال، فتقول للأمير: يا من وهب الله له سلطاناً فلم يعدل، فتزدرده كما يزدرد الطير حب

---

١ - سورة النازعات: الآية ٣٦.

٢ - سورة الشعراء: الآية ٩١.

٣ - انظر مجمع البيان: ج٧، ص٣٣٤- ٣٣٥، تفسير الآية المزبورة.

السمسم، وتقول للقاري: يا من تزين للناس وبارز الله بالمعاصي فتزدرده، وتقول للغني: يا من وهب الله له دنياً كثيرة واسعة فيضاً وسأله الفقير اليسير قرضاً فأبى إلاّ بخلاً فتزدرده»[١] وقوله: «تزدرده» يصور النار بمنزلة كائن عظيم يلتهم الشخص ويبتلعه بسرعة خاطفة لا يبقي له مجالاً للاعتذار، كناية عن شدة الاستحقاق للعذاب، كما يدل على أنها حقيقة حية متحركة مدركة وناطقة تجتمع على أهلها وتعاقبهم بنفسها.

الخصوصية الثانية: أنها تشترك مع نار الدنيا في الاسم، وربما في الشكل والمظهر، إلاّ أنها في حقيقتها وجوهرها تختلف تمام الاختلاف، فلذا لا تقاس هذه بتلك أبداً، بل إن نار الدنيا نفسها تصبح من نار الآخرة وتحترق بها، ففي تفسير القمي عن الصادق عليه السلام: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وقد أطفئت سبعين مرة بالماء ثم التهبت، ولولا ذلك ما استطاع آدمي أن يطفئها، وإنه ليؤتى بها يوم القيامة حتى توضع على النار فتصرخ صرخة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلاّ جثا على ركبتيه فزعاً من صرختها»[٢].

والجثو على الركبة تشبيه لشدة الفزع والخوف، فإن الفزع والخوف يصيب الإنسان بهبوط ضغط الدم حتى يجلس على الأرض، أو أن شدة الخوف

١ - الخصال: ص١١١، ح٨٤؛ مستدرك الوسائل: ج٤، الباب٧ من أبواب قراءة القرآن، ص٢٥١، ح١٠.
٢ - تفسير القمي: ج١، ص٣٦٦؛ انظر كتاب الزهد: ص١٠١.

تخل بتوازن قواه فلا تحمله رجلاه حتى يجثو على الأرض، وظاهر الحديث أن الملائكة أيضاً لهم خوف وفزع وضغط وحالات انفعالية كما للإنسان، ونلاحظ من منطوق الرواية أنه دال على أن نار الآخرة لا تنطفئ؛ لأنها خالدة بخلاف نار الدنيا فإنها مهما اشتعلت فلابد وأن تضعف وتنطفئ.

الخصوصية الثالثة: أنها سوداء مظلمة بخلاف نار الدنيا فإنها صفراء في الغالب ومضيئة، وفي رواية أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: يا بن رسول الله خوفني فإن قلبي قد قسا، فقال: «يا أبا محمد، استعد للحياة الطويلة، فإن جبرئيل جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو قاطب وقد كان قبل ذلك يجيء وهو مبتسم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا جبرئيل! جئتني اليوم قاطباً، فقال: يا محمد! قد وضعت منافخ النار، فقال: وما منافخ النار يا جبرئيل؟ فقال: يا محمد! إن الله عز وجل أمر بالنار فنفخ عليها ألف عام حتى ابيضت، ثم نفخ عليها ألف عام حتى أحمرت، ثم نفخ عليها ألف عام حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة، لو أن قطرة من الضريع قطرت في شراب أهل الدنيا لمات أهلها من نتنها، ولو أن حلقة واحدة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً وضعت على الدنيا لذابت الدنيا من حرها، ولو أن سربالاً من سرابيل أهل النار علق بين السماء والأرض لمات أهل الدنيا من ريحه... ثم قال: وإن جهنم إذا دخلوها هدوا فيها مسيرة سبعين عاماً، فإذا بلغوا أعلاها قمعوا بمقامع الحديد، وأعيدوا في دركها، فهذه حالهم، وهو قول الله عز وجل:

﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾[1] ثم تبدل جلودهم غير الجلود التي كانت عليهم»[2] والضريع نبات أحمر منتن الريح ذو شوك يابس[3].

الخصوصية الرابعة: أنها لا تقتل أهلها بل تعذبهم وتهينهم، وبهذا تختلف عن نار الدنيا أيضاً، فعن الباقرعليه السلام قال: «إن أهل النار يتعاوون فيها كما يتعاوى الكلاب والذئاب مما يلقون من ألم العذاب. ما ظنك يا عمرو بقوم لا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها، عطاشى فيها جياع كليلة أبصارهم، صم بكم عمي مسودة وجوههم، خاسئين فيها نادمين مغضوب عليهم فلا يرحمون، ومن العذاب لا يخفف عنهم، وفي النار يسجرون، ومن الحميم يشربون، ومن الزقوم يأكلون، وبكلاليب النار يحطمون، وبالمقامع يضربون، والملائكة الغلاظ الشداد لا يرحمون، فهم في النار يسحبون على وجوههم، ومع الشياطين يقرنون، وفي الأنكال والأغلال يصفدون، إن دعوا لم يستجب لهم، وإن سألوا حاجة لم تقض لهم، هذه حال من دخل النار»[4].

ومن الواضح أن هذا الجزاء هو صورة أعمالهم وصفاتهم النفسانية على ما عرفت تفصيله في تجسم الأعمال، وفي كتاب مولانا أمير المؤمنينعليه السلام إلى أهل مصر في وصف النار ورد: «قعرها بعيد، وحرها شديد، وشرابها

---

١ – سورة الحج: الآية ٢٢.
٢ – تفسير القمي: ج٢، ص٥٥.
٣ – انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٠٦، (ضرع).
٤ – الأمالي (للصدوق): ص٦٥١، ح١٤.

صديد، وعذابها جديد، ومقامعها حديد، لا يفتر عذابها، ولا يموت ساكنها، دار ليس فيها رحمة، ولا يسمع لأهلها دعوة»[٥].

وفي رواية أخرى يشرح حال أهلها فيقول عليه السلام: «وأما أهل المعصية فخلدوا في النار، وأوثق منهم الأقدام، وغل منهم الأيدي إلى الأعناق، وألبس أجسادهم سرابيل القطران، وقطعت لهم مقطعات من النار، هم في عذاب قد اشتد حره، ونار قد أطبق على أهلها فلا يفتح عنهم أبداً، ولا يدخل عليهم ريح أبداً، ولا ينقضي منهم الغم أبداً، والعذاب أبداً شديد، والعقاب أبداً جديد، لا الدار زائلة فتفنى، ولا آجال القوم تقضى، ثم حكى نداء أهل النار فقال: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ قال: أي نموت، فيقول مالك: ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾»[٦] وبهذا يتضح أن لا يوجد مجال للمقايسة بين نار الدنيا ونار الآخرة، فإذا كان الإنسان لا يطيق نار الدنيا فكيف سيطيق العاصي نار الآخرة؟ نسأل الله سبحانه أن يجيرنا من عذابها.

الخصوصية الخامسة: أن نار الآخرة لها دركات ومراتب تتفاوت في شدتها وعذابها، يتعذب في كل مرتبة منها جماعة من الناس تتناسب أعمالهم معها، وهذه ميزة أخرى تختلف فيها عن نار الدنيا، بل المستفاد من النصوص أن نار الآخرة بمنزلة السجون والطبقات والأبواب، وفي كل طبقة منها جماعة. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ

٥ – الأمالي (للطوسي): ص٢٩، ح٣١؛ الأمالي (للمفيد): ٢٦٦.
٦ – تفسير القمي: ج٢، ص٢٨٩.

جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾[١].

وقد وردت بعض الأخبار بشرح لهذه الآية؛ إذ سأل النبي ﷺ جبرئيل عنها فقال: «أهي كأبوابنا هذه؟ فقال: لا، ولكنها مفتوحة بعضها أسفل من بعض، من باب إلى باب مسيرة سبعين سنة، كل باب منها أشد حراً من الذي يليه سبعين ضعفاً، يساق أعداء الله إليها، فإذا انتهوا إلى أبوابها استقبلتهم الزبانية بالأغلال والسلاسل، فتلك السلسلة في فيه وتخرج من دبره، وتغل يده اليسرى إلى عنقه، وتدخل يده اليمنى في فؤاده، وتنزع من بين كتفيه، ويشد بالسلاسل، ويقرن كل آدمي مع شيطان في سلسلة، ويسحب على وجهه، فتضربه الملائكة بمقامع من حديد، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها»[٢].

ولعل الشيطان الذي يقرن به هو شيطانه الذي كان يقرنه في الدنيا، وكان العبد يتبعه وينقاد إليه واقترانه به يزيد عذابه لأنه من نار واعماله نارية الحقيقة، وقد شرح الإمام الباقر عليه السلام أسماء دركات النار ونوع عذابها فقال: «إن الله جعلها سبع دركات: أعلاها الجحيم يقوم أهلها على الصفا منها تغلي أدمغتهم فيها كغلي القدور بما فيها.

والثانية: ﴿لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴾[٣].

١ - سورة الحجر: الآية ٤٣- ٤٤.
٢ - انظر علم اليقين: ج٢، ص١٠٤٠.
٣ - سورة المعارج: الآية ١٥- ١٨.

والثالثة: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ٢٩ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾[1].

والرابعة: الحطمة، ترمي بشرر كالقصر، كأنها جمالات صفر، تدق كل من صار إليها مثل الكحل، فلا يموت الروح كلما صاروا مثل الكحل عادوا.

والخامسة: الهاوية، فيها ملأ يدعون: يا مالك أغثنا، فإذا أغاثهم جعل لهم آنية من صفر من نار فيها صديد ماء يسيل من جلودهم كأنه مهل، فإذا رفعوه ليشربوا منه تساقط لحم وجوههم فيها من شدة حرّها، وهو قول الله تعالى: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾[2] ومن هوى فيها هوى سبعين عاماً في النار، كلما احترق جلده بدل جلداً غيره.

والسادسة: السعير، فيها ثلاثمائة سرادق من نار، في كل سرادق ثلاثمائة قصر من نار، في كل قصر ثلاثمائة بيت من نار، في كل بيت مائة لون من عذاب النار، فيها حيات من نار، وعقارب من نار، وجوامع من نار، وسلاسل وأغلال من نار، وهو الذي يقول الله: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا﴾[3].

والسابعة: جهنم، وفيها القلق، وهو جب في جهنم إذا فتح أسعر النار سعراً، وهو أشد عذاباً، وأما صعوداً فجبل من نار وسط جهنم، وأما أثاماً

---

١ - سورة المدثر: الآية ٢٧- ٣٠.

٢ - سورة الكهف: الآية ٢٩.

٣ - سورة الإنسان: الآية ٤.

فهو واد من صفر مذاب يجري حول الجبل، فهو أشد النار عذاباً»[١].

وفي رواية أخرى حددت شرائح المعذبين وصفاتهم، وهي ما رواه الصدوق رحمه الله عن الصادق عليه السلام عن آبائه عن جده عليه السلام قال: «للنار سبعة أبواب: باب يدخل منه فرعون وهامان وقارون، وباب يدخل منه المشركون والكفار ممن لم يؤمن بالله طرفة عين، وباب يدخل منه بنو أمية هو لهم خاصة، لا يزاحمهم فيه أحد، وهو باب لظى، وهو باب سقر، وهو باب الهاوية تهوي بهم سبعين خريفاً، وكلما هوى بهم كذلك سبعين خريفاً فار بهم فورة ... فلا يزالون هكذا أبداً خالدين مخلدين، وباب يدخل فيه مبغضونا ومحاربونا وخاذلونا، وإنه لأعظم الأبواب وأشدها حراً»[٢].

والظاهر أن الأقوام والصفات المذكورة ليست على نحو الموضوعية، بل الطريقية، فباب فرعون وهامان وقارون ناظر إلى كونهم أئمة الكفر، فعلى هذا يشاركهم فيها من كان على شاكلتهم، وهكذا باب بني أمية، كما أن العطف في قوله: «هو باب لظى وباب سقر وباب الهاوية» إما للإشارة إلى تداخل هذه الأبواب على بني أمية، أو على اتصاف دركهم بأشد العذاب الجامع لعذاب تلك الأبواب، كما أن اختصاص باب الآخرين بالناصبة يشير إلى أن النصب أقبح الذنوب وأسوأها.

وربما يظهر من مثل هذه الأخبار أن العذاب المقرر في دركات النار وأبوابها

---

١ - بحار الأنوار: ج٨، ص٢٨٩- ٢٩٠، ح٢٧؛ تفسير القمي: ج١، ص٣٧٦- ٣٧٧.
٢ - الخصال: ص٣٦١، ح٥١.

هو اعتبار إلهي خصصه الله سبحانه عقاباً لأهل النار، إلاّ أنك عرفت أن نوع العذاب وكيفيته هو نتاج العمل، ويرجع إلى مستويات أهل النار أنفسهم في صفاتهم النفسية وفي أعمالهم، وهو ما يستفاد من بعض الأخبار عن الصادق عليه السلام: «إن في النار لناراً يتعوذ منها أهل النار، ما خلقت إلاّ لكل متكبر جبار عنيد، ولكل شيطان مريد، ولكل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، وكل ناصب العداوة لآل محمد، وقال: إن أهون الناس عذاباً يوم القيامة لرجل في ضحضاح من نار، عليه نعلان من نار، وشراكان من نار، يغلي منها دماغه كما يغلي المرجل، ما يرى أن في النار أحداً أشد عذباً منه، وما في النار أحد أهون عذاباً منه»[١].

ومن الواضح أن شدة العذاب وخفته لا يمكن أن تكون جزافاً، بل لابد وأن تخضع لميزان، وميزانها هو نوع العمل ونتائجه، ومن هنا أكدت الأخبار أن المنافقين يكونون في الدرك الأسفل من النار[٢]، كما أن النواصب كذلك، والوجه فيه هو أن المنافق يدفن حقيقة كفره في قعر نفسه وعمق قلبه، ويظهر على جوارحه إسلامه، وكذلك الناصبي فلا يناسبه إلاّ أسفل دركات النار.

وفي الحديث النبوي الشريف: «أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى، يسقون من الحميم في الجحيم، ينادون بالويل والثبور، يقول أهل النار بعضهم لبعض: ما بال هؤلاء الأربعة قد آذونا على ما بنا من أذى؟

---

١ – تفسير القمي: ج٢، ص٢٥٧– ٢٥٨.

٢ – انظر مجمع البيان: ج٢، ص٢٠٠.

فرجل معلق في تابوت من جمر، ورجل تجري أمعاؤه صديداً، ورجل يسيل فوه قيحاً ودماً، ورجل يأكل لحمه ... الأول مات وفي عنقه أموال الناس لم يجد لها في نفسه أداءً ولا وفاء، والثاني كان لا يبالي أين أصاب البول من جسده، والثالث كان يحاكي فينظر إلى كل كلمة خبيثة فيفسد بها ويحاكي بها ثم يغتاب الناس، والرابع كان يأكل لحوم الناس بالغيبة ويمشي بالنميمة»[١].

ومن خلال هذا الحديث يظهر جلياً وجه التناسب بين العمل والجزاء، وأن الجزاء لا يكون جزافاً، وتدل الأخبار على أن مسانخة الجزاء للعمل لا تختص بالرجال، بل تشمل النساء، فإن كل عمل يختص بالمرأة ستجده حاضراً في الآخرة، فإن كان صالحاً كان نعيمها وجنتها، وإن كان طالحاً صار عذابها ونارها.

ففي حديث الإسراء: أن أمير المؤمنين عليه السلام وفاطمة عليها السلام دخلا على رسول الله صلى الله عليه وآله فوجداه يبكي بكاء شديداً، فسأله علي عليه السلام وقال: «فداك أبي وأمي يا رسول الله ما الذي أبكاك؟ فقال: يا علي ليلة أسري بي إلى السماء رأيت نساء من أمتي في عذاب شديد، فأنكرت شأنهن فبكيت لما رأيت من شدة عذابهن، ورأيت امرأة معلقة بشعرها يغلي دماغ رأسها، ورأيت امرأة معلقة بلسانها والحميم يصب في حلقها، ورأيت امرأة معلقة بثديها، ورأيت امرأة تأكل لحم جسدها والنار توقد من تحتها، ورأيت امرأة قد شد رجلاها إلى يديها وقد سلط عليها الحيات والعقارب، ورأيت امرأة صماء عمياء

١ - انظر ثواب الأعمال: ص٢٤٧- ٢٤٨، (بتصرف).

خرساء في تابوت من نار يخرج دماغ رأسها من منخرها، وبدنها متقطع من الجذام والبرص، ورأيت امرأة معلقة برجليها في تنور من نار، ورأيت امرأة تقطع لحم جسدها من مقدمها ومؤخرها بمقاريض من نار، ورأيت امرأة يحرق وجهها ويداها وهي تأكل أمعاءها، ورأيت امرأة رأسها رأس خنزير وبدنها بدن الحمار، وعليها ألف ألف لون من العذاب، ورأيت امرأة على صورة الكلب والنار تدخل في دبرها وتخرج من فيها والملائكة يضربون رأسها وبدنها بمقامع من نار.

فقالت فاطمة عليها السلام: حبيبي وقرة عيني أخبرني ما كان عملهن وسيرتهن حتى وضع الله عليهن هذا العذاب؟ فقال: أما المعلقة بشعرها فإنها كانت لا تغطي شعرها من الرجال، وأما المعلقة بلسانها فإنها كانت تؤذي زوجها، وأما المعلقة بثديها فإنها كانت تتمنع من فراشها، وأما المعلقة برجليها فإنها كانت تخرج من بيتها بغير إذن زوجها، وأما التي كانت تأكل جسدها فإنها كانت تزين بدنها للناس، وأما التي شدت يداها إلى رجليها وسلط عليها الحيات والعقارب فإنها كانت قذرة الوضوء قذرة الثياب، وكانت لا تغتسل من الجنابة والحيض، ولا تتنظف، وكانت تستهين بالصلاة، وأما العمياء الصماء الخرساء فإنها كانت تلد من الزنا، فتعلقه في عنق زوجها، وأما التي تقرض لحمها بالمقاريض فإنها تعرض نفسها على الرجال، وأما التي كانت تحرق وجهها وبدنها وهي تأكل أمعاءها فإنها كانت قوّادة، وأما التي كان رأسها رأس خنزير وبدنها بدن حمار فإنها كانت نمامة كذابة، وأما التي كانت

على صورة الكلب والنار تدخل في دبرها وتخرج من فيها فإنها كانت قينة (مغنية) نواحة حاسدة، ثم قال صلى الله عليه وآله: ويل لامرأة أغضبت زوجها، وطوبى لامرأة رضي عنها زوجها»[1].

والرؤية هنا هي الرؤية البصرية لا القلبية كما مر عليك تفصيله، ويمكن توجيه رؤيته صلى الله عليه وآله للنساء اللاتي رآهن بأربعة وجوه:

احدها: أن تكون النساء اللاتي رآهن هن نساء مسلمات متن في عهد النبي صلى الله عليه وآله، وقد قامت قيامتهن على ما عرفت تفصيله من أن بعض الممحضين للكفر والعصيان تقوم قيامتهم حين وفاتهم.

ثانيها: أن يكون صلى الله عليه وآله رأى حقيقة أفعال مثل هذه النسوة؛ لما عرفت من أن صورة العمل هي باطنه وجوهره وعدم رؤيته بالعين في الدنيا لوجود المانع، إلاّ أن النبي صلى الله عليه وآله لقوة روحه رآه على واقعه وحقيقته، وحيث إن عالم الآخرة مجرد عن الزمان فإن الجنة والنار تكون حاضرة لديه، ويرى أعمال أمته الصالحة والطالحة على حقيقتها وإن كانوا هم لا يرونها.

وثالثها: أن يكون قد رأى الصورة بعين الواقع، وقد أخبر عنه بسبب الجزم بوقوعه، وهو من الاستعمالات المتداولة في عرف العرب، حيث يخبرون عن المستقبل المتحقق الوقوع بصيغة الماضي تأكيداً لوقوعه.

ورابعها: أن يكون قد رأى النساء من أمم سائر الأنبياء، وإنما نسبهن

١ - عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص١٣- ١٤، ح٢٤.

لأمته؛ لأنه آخر الأنبياء وسائر الأمم والرسالات هي أمته بلحاظ حجته عليها.

والأول والثاني أقرب إلى الظهور، وأوفق بقواعد العقل والنصوص الكثيرة[١]، ويعضده الإخبار عن عمل تلك النسوة بصيغة الماضي الذي لا يصدق إلاّ فيما سبق عمله، وهو أوفق بضابطة الجزاء القاضية بأن يكون العقاب بعد العمل ونتاجه لا قبله، وكيف كان فإن الرواية صريحة في تجسم الأعمال، وأن النار ليست إلاّ نتائج أعمال الناس وليست بالجعل الاعتباري.

ويتحصل مما تقدم عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن ملازمة الجزاء للعمل، وكونه باطنه وجوهره يفيد أن الذنوب والمعاصي ليست على درجة واحدة؛ لأن تنوع الجزاء واختلافه في شدة العذاب وضعفه يدلنا على أن الذنوب هي الأخرى كذلك، وهذا ما أكدته بعض النصوص المتقدمة، وأيضاً في الخبر النبوي الشريف في معنى قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾[٢] قال: «جزء أشركوا بالله، وجزء شكوا في الله، وجزء غفلوا عن الله»[٣] ومن الواضح أن درجة المشرك غير درجة الشاك، وهو الآخر غير درجة المؤمن الغافل أو المشرك الغافل بسبب قصوره.

١ - انظر الخصال: ص٣٥٩، ح٤٥.
٢ - سورة الحجر: الآية ٤٤.
٣ - انظر تفسير الميزان: ج١٢، ص١٧٠ تفسير الآية المزبورة.

الحقيقة الثانية: أن معنى دخول الناس في النار لا يعني أنهم يدخلون كما يدخل الإنسان في داره أو في غرفته؛ لأن النار محيطة بهم من كل جانب ولكنهم لا يشعرون، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

وبذلك يتضح أن الله سبحانه لا يدخل الناس النار، بل الناس أنفسهم يدخلون، وهذا ما يؤكده قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[2] بل الله سبحانه لحبه لعبده ولرحمته ورأفته لا يريد لعبده العذاب، إلاّ أن العبد بسوء اختياره يوقع نفسه فيه.

الحقيقة الثالثة: أن الذي يختار نوع الجزاء هو الإنسان نفسه بواسطة اختياره للعمل الذي يعصي ربّه فيه، وبه يبطل القول بأن الله سبحانه غني عن الناس فلماذا يعذبهم؟ كما أن به يتضح أن شدة العذاب وقسوته ترجع إلى ذات العبد واختياره، فمثله مثل من يشرب السم طمعاً في ري العطش، فإن نتيجته ستكون الموت ولكن باختياره هو.

الحقيقة الرابعة: أن وجود النار نعمة كبيرة، كما أن وجود الجنة كذلك، سوى أن نعمة وجود النار تتجلى في كونها مظهر غضب الله سبحانه وانتقامه، كما أن الجنة مظهر رحمته ولطفه ورأفته.

ومن هنا ورد في النصوص أن الجنة حق، والنار حق؛ إذ لولا وجود النار لكان الوجود ناقصاً مختلاً في تكوينه، ومختلاً في تشريعه. أما في تكوينه

---

١ - سورة العنكبوت: الآية ٥٤.

٢ - سورة النحل: الآية ١١٨.

فلاستلزامه مفارقة الجزاء للعمل والأثر للمؤثر، وهو من المحالات، وأما في تشريعه فلأنه لطف إذ لولا وجود النار والكشف عنها والتذكير بها لما أمكن في الغالب نشر الرسالات السماوية والعمل بها.

المطلب الثاني: في أوصاف أهل النار وحالاتهم

أهل النار في عذاب دائم كلما نضجت جلودهم بدلوا بجلود غيرها، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه، وثيابهم من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود، وهم في حالة غم وشقاء أبدي؛ إذ قال سبحانه: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾[1] وقد فصلت الآيات الشريفة الكثير من أحوالهم، وكذلك الروايات، وحيث إن أحوالهم في النار فوق طاقة العقل والبرهان فينحصر طريق معرفتها بما ورد به النقل، وفي هذا المجال نكتفي باستعراض بعض أحوالهم حسب ما أخبرت به الروايات فضلاً عما مر عليك منها، وذلك ضمن العناوين التالية:

١ - حالة أهل النار

أخبر مولانا أمير المؤمنين عليه السلام عن الحالة التي يكون عليها أهل النار وهم في جهنم. قال: «مرضى لا يعاد سقيمهم، وجرحى لا يداوى جريحهم، وأسرى لا يفك أسيرهم، من النار يأكلون، ومنها يشربون، وبين أطباقها

١ - سورة الحج: الآية ٢٢.

يتقلبون، وبعد لبس القطن والكتان مقطعات النيران يلبسون، وبعد معانقة الأزواج مع الشياطين مقرنون»[١].

ويستفاد من بعض الأخبار أن لغة أهل النار المجوسية[٢]، ويحتمل أن يكون المراد بها لغة خاصة كان المجوس يستعملها، ولعل وجه المناسبة لهم هو عبادتهم للنار، ويحتمل أن يكون المراد لغة الفرس؛ لأن المجوسية كانت في بلادهم، وربما يراد بها المعنى المجازي لا الحقيقي أي لغة غير الموحدين، كما أن لباسهم السواد[٣]، ويغلي الزقوم والضريع في بطونهم كغلي الحميم، وشرابهم غساق وصديد يتجرعه الشارب ولا يكاد يسيغه، ويأتيه الموت من كل جانب وما هو بميت، ومن ورائه عذاب غليظ[٤]، والزقوم أطعمة كريهة[٥] طعمها مر[٦]، والغساق ما يقطر من جلود أهل النار[٧]، والصديد ما حال بين اللحم والجلد من القيح.

والمنافقون المعادون لعلي أمير المؤمنين عليه السلام منهم في أشق الأحوال، وهم على أصناف منهم من هو بين أنياب أفاعي النار تمضغه، ومنهم من هو بين مخالب سباعها تعبث به وتفترسه، ومنهم من هو تحت سياط زبانيتها

١ - انظر حق اليقين: ص٤٩٤.
٢ - انظر عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص٢٢١- ٢٢٢، ح١.
٣ - انظر علل الشرائع: ص٣٤٦، ح١؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٣١٢، ح٨١.
٤ - تفسير العياشي: ج٢، ص٢٤٠، ح٧.
٥ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٨٠، (زقم).
٦ - انظر المعجم الوسيط: ج١، ص٣٩٦، (زقم).
٧ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٠٦، (غسق).

.... ومنهم من هو في بحار حميمها يغرق ويسحب فيها، ومنهم من هو في غسلينها وغساقها تزجره زبانيتها، ومنهم من هو في سائر أصناف عذابها[١].

والغسلين غسالة أبدان الكفار في النار[٢].

وفصلت بعض الروايات قوة العذاب بما لا يقوى على تحمله عبد، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «والذي نفس محمد بيده لو أن قطرة من الزقوم قطرت على جبال الأرض لساخت إلى أسفل سبع أرضين ولما أطاقته، فكيف بمن هو شرابه، والذي نفسي بيده لو أن مقماعاً واحداً مما ذكره الله في كتابه وضع على جبال الأرض لساخت إلى أسفل سبع أرضين ولما أطاقته، فكيف بمن يقع عليه يوم القيامة في النار»[٣] ونفاذ الطاقة في تحمل كل ذلك قد ينشأ من شدة العذاب أو ثقله، أو من شدة الخوف والفزع، فإن الخوف يسلب طاقة الإنسان ويفقده القدرة على التحمل، والظاهر انطباق كلا السببين هنا، ولا مانع من الجمع بينهما لوجود المقتضي وانعدام المانع.

٢- منازل أهل النار

أخبر الباقر عليه السلام عن منازل أهل النار فقال: «إن في جهنم لوادياً يقال له غساق فيه ثلاثون وثلاثمائة قصر، في كل قصر ثلاثون وثلاثمائة بيت، في كل بيت ثلاثون وثلاثمائة عقرب، في حمة كل عقرب ثلاثون وثلاثمائة قلة سم، لو

١ - انظر بحار الأنوار: ج٨، ص٢٩٨، ح٥١.
٢ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٠٧، (غسل).
٣ - انظر بحار الأنوار: ج٨، ص٣٠٢، ح٦١.

أن عقرباً منها نضحت سمها على أهل جهنم لوسعتهم سماً»[١].

وأخبر الصادقعليه السلام عن بعض طرق أهل النار حينما سئل عن معنى الفلق، فقالعليه السلام: «صدع في النار فيه سبعون ألف دار، في كل دار سبعون ألف بيت، في كل بيت سبعون ألف أسود، في جوف كل أسود سبعون ألف جرة سم لا بد لأهل النار أن يمروا عليها»[٢].

ويحتمل أن تكون الأعداد المذكورة كناية عن الكثرة، ولا يبعد أن يكون هو المعنى الحقيقي؛ فيحمل أهل النار على أئمة الكفر والضلالة الذين يخلدون في العذاب؛ لكنهم قد يكونوا الأقلية بالقياس إلى المؤمنين والكفار القاصرين، فتأمل.

والأسود يطلق على العظيم من الحيّات وأخبثها وأنكاها[٣].

وفي الخصال بسنده عن الإمام الكاظمعليه السلام قال: «إن في النار لوادياً يقال له سقر، لم يتنفس منذ خلقه الله تعالى، ولو أذن الله عز وجل له في التنفس بقدر مخيط لاحترق ما على وجه الأرض، وإن أهل النار ليتعوذون من حر ذلك الوادي ونتنه وقذره وما أعد الله فيه لأهله، وإن في ذلك الوادي لجبلاً يتعوذ جميع أهل ذلك الوادي من حر ذلك الجبل ونتنه وقذره وما أعد الله فيه لأهله، وإن في ذلك الجبل لشعباً يتعوذ جميع أهل ذلك الجبل من حر ذلك

١ - كتاب الزهد: ص١٠٠، ح٢٧٢، وفيه (لوادٍ).
٢ - تحف العقول: ص٢٤٣؛ مستدرك سفينة البحار: ج٨، ص٣١٨.
٣ - انظر المعجم الوسيط: ج١، ص٤٦١، (ساد).

الشعب ونتنه وقذره وما أعد الله فيه لأهله، وإن في ذلك الشعب لقليبا يتعوذ أهل ذلك الشعب من حر ذلك القليب ونتنه وقذره وما أعد الله فيه لأهله، وأن في ذلك القليب لحية يتعوذ جميع أهل ذلك القليب من خبث تلك الحية ونتنها وقذرها وما أعد الله في أنيابها من السم لأهلها....»[١].

ويدل الحديث على أن أهل النار مراتب ودرجات، كما أن عذابها دركات، وهناك تفاوت في شدة العذاب بين واحدة وأخرى، ويستفاد من بعض الأخبار أن الجبارين في أشق أحوال النار، فعن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن في جهنم لجبلاً يقال له الصعدى، وإن في الصعدى لوادياً يقال له سقر، وإن في سقر لجباً يقال له هبهب، كلما كشف غطاء ذلك الجب ضج أهل النار من حره، وذلك منازل الجبارين»[٢].

ويظهر من الرواية أن الهبهب اسم علم للوادي المذكور، ولعله مأخوذ من المعنى اللغوي، فإن هبهب في اللغة بمعنى هاج وتزعزع في حركته، كما يأتي بمعنى الخفيف السريع[٣]، وهو يتوافق مع المعنى الأول، وكلاهما يشيران إلى أن منازل الجبارين لا قرار لها ولا استقرار، والجبارون لغة وعرفاً المتكبرون الذين يتعالون على قبول الحق، وهو منشأ شدة عذابهم[٤].

---

١ - الخصال: ص٣٩٨- ٣٩٩، ح١٠٦.
٢ - ثواب الأعمال وعقاب الأعمال: ص٣٢١؛ بحار الأنوار: ج٨، ص٢٩٧، ح٤٩.
٣ - انظر المعجم الوسيط: ج٢، ص٩٧٠، (هبهب).
٤ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٨٤، (جبر).

٣- نجاة أهل النار بالشفاعة

مر عليك البحث في الشفاعة وخصوصياتها، وأن جماعة من أهل النار تنالهم شفاعة محمد وآل محمد عليهم السلام والمؤمنين من شيعتهم فينقذون منها بعد فترة عذاب، وهذا ما تواترت به الأخبار، فقد روى الشيخ الصدوق رحمه الله في الأمالي عن جابر عن الباقر عليه السلام: «أن عبداً مكث في النار سبعين خريفاً، والخريف سبعون سنة، ثم أنه سأل الله عز وجل بحق محمد وأهل بيته لما رحمتني. قال: فأوحى الله إلى جبرئيل أن أهبط إلى عبدي فأخرجه. قال: يا ربّ وكيف لي بالهبوط في النار؟ قال: إني قد أمرتها أن تكون عليك برداً وسلاماً. قال: يا ربّ فما علمي بموضعه؟ فقال: إنه في جب من سجين. قال: فهبط في النار فوجده وهو معقول على وجهه فأخرجه، فقال عز وجل: يا عبدي كم لبثت تناشدني في النار؟ قال: ما أحصيته يا ربّ. قال: أما وعزتي لولا ما سألتني به لأطلت هوانك في النار، ولكنه حتمت على نفسي أن لا يسألني عبد بحق محمد وأهل بيته إلاّ أن غفرت له ما كان بيني وبينه، وقد غفرت لك اليوم»(١)

والسجين اسم لجهنم، ويستفاد من الرواية أنه سجن من سجونها عميق، ويشهد له ما ورد في بعض الأخبار من تفسير السجين بالأرض السابعة السفلى(٢)، وتضمنت الرواية الإشارة إلى أن الدعاء يجدي أهل النار وينقذهم

١ - الأمالي(للصدوق): ص٧٧٠- ٧٧١، ح٤.
٢ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٩٩، (سجن).

منها، وأن استجابة الدعاء عند الله محفوظة لجميع العباد وفي جميع الأحوال تفضلاً منه ورحمة، وهذا يتوافق مع الوعد الإلهي العام الذي قطعه الله سبحانه لعباده بقوله سبحانه: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾(١) وإطلاقها يشمل جميع الحالات والأحوال، بل يستفاد من بعض الأخبار أن مطلق الذكر والعبادة لها قيمة عند الله، ولأجلها ينجي عباده من العذاب، فقد روي: «أنه يأمر الله تعالى برجال إلى النار، فيقول لمالك قل للنار لا تحرقي لهم أقداماً، فقد كانوا يمشون بها إلى المساجد، ولا تحرقي لهم أيدياً، فقد كانوا يرفعونها إليّ بالدعاء، ولا تحرقي لهم ألسنة، فقد كانوا يكثرون تلاوة القرآن، ولا تحرقي لهم وجوهاً، فقد كانوا يسبغون الوضوء، فيقول مالك: يا أشقياء فما كان حالكم؟ فيقولون: كنا نعمل لغير الله، فقيل لهم: خذوا ثوابكم ممن عملتم له»(٢).

ولا يخفى عليك ما مر من أن الشفاعة متوقفة على الولاية لمحمد وآل محمد عليهم السلام، وعدم البغض لهم، ونكتفي هنا ببعض رواية مفصلة تدل على مدى الرحمة الإلهية نجعلها خاتمة لبحث النار، وبها نفتح أبواب الأمل برحمة الله وشفاعة أوليائه محمد وآل محمد للعصاة من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذين ماتوا ولم يتوبوا، وأسأله سبحانه أن يرزقنا شفاعتهم، وأن يعتقنا من النار بحقهم عنده، فقد ورد أن جبرائيل جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ساعة ما كان يأتيه فيها متغير

---

١ - سورة غافر: الآية ٦٠.

٢ - انظر الاعتقادات (للصدوق): ص٧٨- ٧٩؛ ثواب الأعمال: ص٢٢٣- ٢٢٤؛ علل الشرائع: ج٢، ص٤٦٦، ح١٨.

اللون، فقال النبيﷺ: «ما لي أراك متغير اللون؟ فقال: يا محمد جئتك في الساعة التي أمر الله تعالى بمنافخ النار أن ينفخ فيها، ولا ينبغي لمن يعلم أن جهنم حق أن تقر عينه حتى يأمنها، فقال النبيﷺ: صف لي النار يا جبرئيل، فأخذ بوصفها وذكر أبوابها، فقال النبيﷺ: من سكان هذه الأبواب؟ قال: فأما الباب الأسفل ففيه المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون واسمها الهاوية، والباب الثاني ففيه المشركون واسمه الجحيم، والباب الثالث ففيه الصابئة واسمه سقر، والباب الرابع ففيه ابليس ومن تبعه من المجوس واسمه لظى، والخامس ففيه اليهود واسمه الحطمة، والسادس ففيه النصارى واسمه السعير، ثم أمسك جبرئيلعليه السلام، فقال النبيﷺ: إلاّ تخبرني من سكان الباب السابع؟ قال: يا محمد لا تسألني عنه، فقال: بلى يا جبرئيل أخبرني عن الباب السابع، فقال: فيه أهل الكبائر من أمتك الذين ماتوا ولم يتوبوا، فخر النبيﷺ مغشياً عليه، فوضع جبرئيلعليه السلام رأسه في حجره حتى أفاق، فلما أفاق قال: يا جبرائيل عظمت مصيبتي، وأشتد حزني، أو يدخل من أمتي النار؟ قال: نعم أهل الكبائر من أمتك.... فإذا نظر إليهم مالك قال للملائكة: ما هؤلاء؟ فما ورد عليّ من الأشقياء أعجب من هؤلاء، لم تسود وجوههم، ولم توضع السلاسل والأغلال في أعناقهم، فيقول الملائكة: هكذا أمرنا أن نأتيك بهم على هذه الحال، فيقول لهم: يا معشر الأشقياء من أنتم؟ فيقولون: نحن ممن أنزل علينا القرآن، ونحن ممن نصوم رمضان، فيقول مالك: ما نزل القرآن إلاّ على محمدﷺ، فإذا سمعوا اسم محمد صاحوا فقالوا: نحن من أمة محمد، فيقول لهم مالك: ما كان لكم في

القرآن زاجر عن معاصي الله؟ فإذا وقف بهم على شفير جهنم نظروا إلى النار والزبانية، فقالوا: يا مالك أئذن لنا نبكي على أنفسنا فيبكون الدموع حتى لم يبق لهم الدموع فيبكون دماً، فيقول مالك: ما أحسن هذا لو كان في الدنيا، فلو كان هذا لبكاء في الدنيا من خشية الله تعالى ما مسكم النار اليوم، فيقول مالك للزبانية: ألقوهم في النار، فنادوا بأجمعهم: لا إله إلاّ الله، فترجع عنهم النار، فيقول مالك: يا نار خذيهم، فتقول النار: وكيف آخذهم وهم يقولون لا إله إلاّ الله؟ فيقول مالك: نعم بذلك أمر ربّ العرش فتأخذهم، فمنهم من تأخذه إلى قدميه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حقويه، ومنهم من تأخذه إلى حلقه. قال: فإذا أهوت النار إلى وجهه قال مالك: لا تحرقي وجوههم فطالما سجدوا للرحمن في الدنيا، ولا تحرقي قلوبهم فطالما عطشوا في شهر رمضان، فيبقون ما شاء الله فيها، فينادون: يا أرحم الراحمين يا حنان يا منان، فإذا أنفذ الله تعالى حكمه قال: يا جبرئيل ما فعل العاصون من أمة محمدﷺ؟ فيقول: إلهي أنت أعلم بهم، فيقول: انطلق فانظر حالهم، فينطلق جبرئيل إلى مالك - وهو على سرير من نار في وسط جهنم - فإذا نظر مالك إلى جبرئيلعليه السلام قام تعظيماً له، فيقول: يا جبرئيل ما أدخلك هذا الموضع؟ فيقول: ما فعلت العصابة العاصية من أمة محمدﷺ؟ فيقول: ما أسوأ حالهم وأضيق مكانهم! قد أحرقت النار أجسامهم، وأكلت لحومهم، وبقيت وجوههم وقلوبهم يتلألأ فيها الإيمان، فيقول جبرئيل: ارفع الطبق عنهم حتى انظر إليهم. قال: يأمر مالك الخزنة فيرفعون الطبق، فإذا نظروا إلى جبرئيل وإلى حسن خلقه علموا أنه ليس من ملائكة العذاب، فيقولون:

مَن هذا العبد الذي لم نر قط أحسن وجهاً منه؟ فيقول مالك: هذا جبرئيل الكريم على الله تعالى الذي كان يأتي محمداًﷺ بالوحي، فإذا سمعوا بذكر محمدﷺ صاحوا بأجمعهم وقالوا: يا جبرئيل أقرئ محمداً منا السلام، وأخبره أن معاصينا فرقت بيننا وبينه، وأخبره بسوء حالنا، فينطلق جبرئيل حتى يقوم بين يدي الله تعالى، فيقول الله عز وجل: كيف رأيت أمة محمدﷺ؟ فيقول: يا ربّ ما أشد حالهم وأضيق مكانهم! فيقول: هل سألوك شيئاً؟ فيقول: نعم يا ربّ سألوني أن أقرئ نبيهم السلام، وأخبره بسوء حالهم، فيقول الله جل جلاله: انطلق وأبلغه، فيدخل جبرائيل على النبيﷺ وهو في خيمة من درّة بيضاء لها أربعة آلاف باب، ولها مصراعان من ذهب، فيقول: يا محمد! جئتك من عند العصابة العصاة من أمتك يعذبون بالنار، وهم يقرئونك السلام، ويقولون: ما أسوأ حالنا وأضيق مكاننا! فيأتي النبيﷺ عند العرش فيخر ساجداً، ويثني على الله ثناءً لم يثنه أحد مثله، فيقول الله عز وجل: ارفع رأسك، واسأل تعط، واشفع تشفع، فيقول: يا ربّ الأشقياء من أمتي قد أنفذت فيهم حكمك، فيقول الله عز وجل: قد شفعتك فيهم، فأت النار وأخرج منها من قال: لا إله إلاّ الله، فينطلق النبيﷺ فإذا نظر مالك إلى محمدﷺ قام تعظيماً له، فيقول: مالك ما حال أمتي الأشقياء؟ فيقول مالك: ما أسوأ حالهم وأضيق مكانهم! فيقول النبيﷺ: افتح الباب وارفع الطبق، فإذا نظر أهل النار إلى محمدﷺ صاحوا بأجمعهم فيقولون: قد أحرقت النار جلودنا، وأحرقت أكبادنا، ويخرجهم جميعاً وقد صاروا فحماً قد أكلتهم النار، فينطلق بهم إلى نهر بباب الجنة يسمى الحيوان، فيغتسلون فيه، فيخرجون منه شباباً

جرداً مرداً مكحلين، وجوههم مثل القمر، مكتوب على جباههم (جهنميون عتقاء الرحمن من النار) فيدخلون الجنة، فإذا رأى أهل النار أن المسلمين قد أخرجوا منها قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين، وكنا نخرج من النار، وهو قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾[1]»[2] وقد تضمنت الرواية المباركة الإشارة إلى عدة حقائق هامة:

الحقيقة الأولى: أن النبيﷺ في الإسراء دخل الجنة، وأشرف على النار ولم يدخلها، ولذا فصلﷺ في أوصاف الجنة وأحوالها كما عرفته في بحث الجنة، بينما طلب من جبرئيل أن يصف له النار، وهذا الطلب لا يضر بعلمه بحقائق الأشياء وتفاصيلها؛ لأن الغاية منه هو إعلام الناس بالنار وإظهار مخاطرها على قدر عقولهم.

الحقيقة الثانية: أن تخصيص أسفل دركات النار للمنافقين ولآل فرعون يعود إلى عنادهما، فإن المنافقين حاربوا الحق وعاندوه ولم يقبلوه بوجه من الوجوه، كما أن آل فرعون ادعوا الربوبية، وملاك النفاق والتكبر والعناد منطبق على النواصب أيضاً الذين ناصبوا محمداً وآل محمدعليهم السلام وشيعتهم لأجل تشيعهم العداء والمحاربة، ولذا لم يذكروا في باب مستقل؛ لأنهم داخلون مع المنافقين وآل فرعون.

الحقيقة الثالثة: لا يبعد أن تكون لظى هي النار التي يتعذب فيها عصاة

١ - سورة الحجر: الآية ٢.

٢ - انظر علم اليقين: ج٢، ص١٠٣٩.

الجن، وذلك لأن إبليس كان من الجن كما في الآية، ومن الواضح أنه كان له جنود يتبعونه، وإلحاق المجوس بهم لعله ناظر إلى المنشأ وهم الجن؛ لأنهم مخلوقون من نار، وربما يكون المراد أصحاب الدين المجوسي، وإنما يحشرون مع إبليس لأنهم يعبدون النار.

الحقيقة الرابعة: أن تخصيص أهل الكبائر بالذين لم يتوبوا يتوافق مع ما تقدم في بحث الشفاعة من أن التوبة قبل الموت في نفسها موجبة لغفران الذنوب، والمراد من الذنوب ليست المعاصي المعهودة كترك الصلاة والصيام، أو الكذب والغيبة، بل خذلان الولاية وعدم اتباع الأئمة عليهم السلام، فإنها أعظم ذنب ومعصية؛ بداهة أن العاصي الموالي تناله شفاعتهم عليهم السلام، ويدخلونه الجنة بعد اجتياز عذابي البرزخ والمحشر، وبهذا يتضح أن العصاة المقصودين في الرواية هم المسلمون الذين لم يوالوا علياً عليه السلام ولم يتبعوه، ولكنهم لم يكنوا له بغضاً، وأما المتخلفون عنه بالعناد والمكابرة فهم في الدرك الأسفل من النار.

الحقيقة الخامسة: أن طلب العصاة الفرصة لأن يبكوا على أنفسهم يؤكد ما ذكرنا في الحقيقة الثالثة؛ لأن في مثل هذه الحالة لا معنى للبكاء سوى بكاء الندم على ما فرطوا في ولاية أمير المؤمنين عليه السلام.

الحقيقة السادسة: أن النار لا تحرق موحداً أو ذاكراً بلا إله إلاّ الله، ويظهر من الرواية أن هذا قانون مودع في نار الآخرة في أنها لا تحرق المؤمنين، فلذا يتوقف إحراقها لهم على إذن خاص، ويؤكد هذا حقيقة الأمة المرحومة

المنصوص عليها بالروايات[١].

الحقيقة السابعة: أن إحراق النار لهم بنسب مختلفة، فبعضهم أحرقته إلى قدميه، وبعضهم إلى ركبتيه وهكذا، لعله يرجع إلى اختلاف درجات المعرفة بالولاية أو المحبة، أو عدم البغض إن قيل للعدم مراتب ودرجات، وهو يؤكد ما تقدم من أن الجزاء يكون على وفق العمل ومستواه، ويظهر من عدم إحراق النار لوجوههم وقلوبهم أنهم كانوا يتحلون ببعض الصدق في إيمانهم وعملهم، ولكن كانت تنقصهم الولاية؛ إذ لو كانوا كاذبين لحشروا مع المنافقين وفقدوا أهلية الشفاعة.

الحقيقة الثامنة: أن سماع جبرئيل لندائهم وتلبيته لحاجتهم ربما يدل على أن الملك - ولو كان في أعلى مصاف الملائكة كجبرئيل - يمكن أن يسمع لأهل النار، ويقضي لهم حاجة، أو أن جبرئيل استمع لهم لأن حاجتهم كانت عند الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وهو مأمور بخدمته، لاسيما وأن الطالبين كانوا من أمته، أو لاقتضاء طبع جبرئيل أن يستجيب ويقضي الحاجة ولو كانت لأهل النار؛ لأن طبعه الخير والمحبة لعباد الله الموحدين.

الحقيقة التاسعة: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم استجاب لندائهم وأسرع في تلبية الطلب؛ لأنه حريص عليهم بالمؤمنين رؤوف رحيم كما وصفه الباري عز وجل، وأكد أنه رحمة مهداة إلى العالمين حتى مشركيهم وكفارهم فما بالك بالعصاة من أمته؟

---

١ - تفسير القمي: ج١، ص٩٨؛ تفسير نور الثقلين: ج١، ص٢٧٠، ح١٠٨٤.

الحقيقة العاشرة: أن الدعاء والخضوع لله سبحانه هو مفتاح رضاه سبحانه وسر قبول الأعمال، ومن هنا بادر النبي صلى الله عليه وآله إلى السجود وإظهار الخشوع والعبودية لأجل الوصول إلى الغاية، وفي هذا العمل المبارك تعليم كبير لنا ولسائر عباد الله في أن يسلكوا طريق العبادة والدعاء لنيل المقاصد والرغبات ماديها ومعنويها، وها أنا ذا أسأل الله سبحانه ببركة أوليائه محمد وآله الطاهرين أن يتقبل منا هذا العمل القليل، وأن يدخره لي في ساعات احتضاري وقبري وحشري ونشري ليكون شهادة صدق على إيماني به وإقراري بالعبودية له وتولي أوليائه والتبري من أعدائه أعدائهم فإني عبده الضعيف المسكين المستكين الذي لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وأقر له بالوحدانية التامة الكاملة لا أعبد غيره، ولا أرجو سواه، ولا أطلب الخير إلاّ من عنده، والحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم من الجن والإنس أجمعين.

كربلاء المقدسة

السبت المصادف

٢ ربيع المولود ١٤٣٢هـ

مصادر البحث

(أ)

١ـ إثبات عذاب القبر: للبيهقي، دار الفرقان، ١٤١٣- ١٩٩٢م، الطبعة الثالثة.

٢ـ الاحتجاج: لأحمد بن علي الطبرسي، دار النعمان – النجف، ١٣٨٦- ١٩٦٦.

٣ـ الاختصاص: للشيخ المفيد، دار المفيد للطباعة والنشر بيروت، ١٤١٤- ١٩٩٣، الطبعة الثانية، وجماعة المدرسين – قم المقدسة.

٤ـ اختيار معرفة الرجال: للشيخ لمحمد بن الحسن بن علي الطوسي، جامعة مشهد – مشهد؛ ومؤسسة آل البيت عليهم السلام، ١٤٠٤هـ.

٥ـ الإرشاد: للشيخ المفيد، منشورات الأعلمي - بيروت، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، الطبعة الثالثة، ودار المفيد - بيروت، ١٤١٤ - ١٩٩٣، الطبعة الثانية.

٦ـ الاعتقادات في دين الإمامية: الشيخ الصدوق، دار المفيد - بيروت، ١٤١٤-١٩٩٣، الطبعة الثانية.

٧ـ إقبال الأعمال: للسيد ابن طاووس، مكتبة الإعلام الإسلامي، ١٤١٦، الطبعة الأولى.

٨ـ الإلهيات على هدى الكتاب والسنّة: محاضرات الشيخ جعفر السبحاني بقلم الشيخ حسن محمد مكي العاملي، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام - قم المقدسة ١٤٢٦هـ ق -١٣٨٤هـ ق، الطبعة السادسة.

٩ـ الأمالي: للسيد المرتضى، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، ١٣٢٥- ١٩٠٧م، الطبعة الأولى، و١٤٠٣.

١٠ـ الأمالي: للشيخ الطوسي، دار الثقافة، قم المقدسة، ١٤١٤، الطبعة الأولى.

١١ـ الأمالي: للشيخ المفيد، دار المفيد للباعة - بيروت، ١٤١٤- ١٩٩٣م، الطبعة الثانية، وجماعة المدرسين في الحوزة العلمية - قم المقدسة.

١٢ـ الأمالي: للشيخ الصدوق، مركز الطباعة والنشر في مؤسسة بعثة، ١٤١٧، الطبعة الأولى.

١٣ـ الإمام علي بن أبي طالب: لأحمد الرحماني الهمداني، المنبر للطباعة والنشر - طهران، ١٤١٧، الطبعة الأولى.

١٤ـ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: للشيخ ناصر مكارم الشيرازي، دار

أحياء التراث العربي، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، الطبعة الثانية.

١٥ـ الأنوار النعمانية: للسيد نعمة الله الجزائري، منشورات مؤسسة الأعلمي - بيروت، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤، الطبعة الرابعة.

١٦ـ آيات العقائد: للسيد إبراهيم الحجازي تحقيق وإعداد رامين الكلمكاني، مجمع البحوث الإسلامية - مشهد المقدسة ١٤٢٤هـ ق - ١٣٨٢هـ ش، الطبعة الأولى.

١٧ـ الايقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة: للحر العاملي، دليل ما - قم المقدسة، ١٤٢٢- ١٣٨٠، الطبعة الأولى.

(ب)

١٨ـ بحار الأنوار: لمحمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء - بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي - لبنان، ١٤٠٣ -١٩٨٣، الطبعة الثالثة.

١٩ـ البداية والنهاية: لابن كثير، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤٠٨ -١٩٨٨م، الطبعة الأولى.

٢٠ـ بصائر الدرجات: لمحمد بن الحسن الصفار، مؤسسة الأعلمي - طهران ١٣٦٢ش - ١٤٠٤ق.

(ت)

٢١ـ تاج العروس: للزبيدي، دار الفكر- بيروت، ١٤١٤- ١٩٩٤.

٢٢ـ تاريخ الطبري : للطبري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.

٢٣ـ تاريخ مدينة دمشق: لابن عساكر، در الفكر للطباعة والنشر- بيروت، ١٤١٥.

٢٤ـ تأويل الآيات الظاهرة: للسيد علي الحسيني الاسترابادي، مؤسسة النشر الإسلامي - قم المقدسة، ١٤٠٩هـ، الطبعة الأولى.

٢٥ـ تأويل الآيات في فضائل العترة الأطهارة: للسيد شرف الدين علي الحسيني الاسترابادي النجفي، تحقيق مدرية الإمام المهدي عليه السلام، ١٤٠٧، الطبعة الأولى.

٢٦ـ التبيان في تفسير القرآن: محمد بن الحسن الطوسي، الأميرة للطباعة والنشر- بيروت، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م، الطبعة الأولى، ومكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٩، الطبعة الأولى.

٢٧ـ تحف العقول عن آل الرسول: للحسن بن علي بن شعبة البحراني، مؤسسة الأعلمي- بيروت، ١٤١٧هـ -١٩٩٦م، الطبعة السادسة، مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرسين، ١٣٦٣ - ١٤٠٤، الطبعة الثانية.

٢٨ـ تذكرة الفقهاء: للعلامة الحلي، ومؤسسة آل البيت عليهم السلام، ١٤٠٤هـ.

٢٩ـ تصحيح اعتقادات الإمامية: للشيخ المفيد، دار المفيد - بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، الطبعة الثانية.

٣٠ـ التعجب: لأبي الفتح الكراجكي

٣١ـ تفسير أبي السعود: لأبي السعود، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٣٢ـ التفسير الأصفى: للفيض الكاشاني، مكتب النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٢٠ - ١٣٧٨ش، الطبعة الأولى.

٣٣ـ التفسير: للإمام أبي محمد الحسن بن علي العسكري عليه السلام، مدرسة الإمام المهدي- قم المقدسة، ١٤٠٩، الطبعة الأولى.

٣٤ـ تفسير البرهان: للسيد هاشم البحراني، مؤسسة الأعلمي- بيروت، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، الطبعة الأولى.

٣٥ـ تفسير بيان السعادة في مقامات العبادة: لسلطان محمد الجنابذي، مؤسسة الأعلمي- بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، الطبعة الثانية.

٣٦ـ تفسير الثعلبي: للثعلبي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤٢٢- ٢٠٠٢م، الطبعة الأولى.

٣٧ـ تفسير الصافي: للمولى محسن الفيض الكاشاني، مكتبة الصدر - طهران، ١٤١٦، الطبعة الثانية، ومؤسسة الهادي - قم المقدسة، ١٤١٦، الطبعة الثانية.

٣٨ـ تفسير العياشي: للنضر محمد بن سعود بن عياش السلمي السمرقندي، المكتبة العلمية الإسلامية - طهران.

٣٩ـ تفسير غريب القرآن: لفخر الدين الطريحي، انتشارات زاهدي- قم المقدسة.

٤٠ـ تفسير الفرات الكوفي: لفرات بن إبراهيم الكوفي، مؤسسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي - طهران، ١٤١٠- ١٩٩٠، الطبعة الأولى.

٤١ـ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن): لمحمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الحديث - القاهرة، ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢م.

٤٢ـ تفسير القمي: لعلي بن إبراهيم القمي، مؤسسة الأعلمي- بيروت،١٤١٢هـ - ١٩٩١م، الطبعة الثالثة.

٤٣ـ التفسير الكبير: لمحمد الرازي، دار الفكر - بيروت، ١٤٢٥هـ -٢٠٠٥م، الطبعة الأولى.

٤٤ـ تفسير كنز الدقائق: للميرزا محمد المشهدي، دار الغدير- قم، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، الطبعة الأولى.

٤٥ـ تفسير مختصر ابن كثير: لمحمد علي الصابوني، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى.

٤٦ـ تفسير مقاتل: لمقاتل بن سليمان، دار لكتب العلمية، ١٤٢٤- ٢٠٠٣م، الطبعة الأولى.

٤٧ـ تفسير مقتنيات الدرر وملتقطات الثمر: للسيد علي الطهراني الحائري،

دار الكتب الإسلامية – طهران، ١٣٣٧هـ ش.

٤٨ـ تفسير الميزان: للسيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي- بيروت،١٤١٧هـ-١٩٩٧م،الطبعة الأولى،وجماعة المدرسين-قم المقدسة.

٤٩ـ تفسير نور الثقلين: للشيخ عبد علي العروسي، مؤسسة التاريخ العربي، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، الطبعة الأولى، ومؤسسة اسماعيليان- قم المقدسة، ١٤١٢، الطبعة الرابعة.

٥٠ـ تفصيل وسائل الشيعة: محمد بن الحسن الحر العاملي: ومؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث- قم المقدسة، ١٤١٢هـ، الطبعة الأولى.

٥١ـ تقريب القرآن إلى الأذهان: للسيد محمد الحسيني الشيرازي، دار العلوم - بيروت، ١٤٢٢هـ -٢٠٠٣، الطبعة الأولى.

٥٢ـ تهذيب الأحكام: للشيخ الطوسي، در الكتب الإسلامية - طهران، ١٣٦٤ش، الطبعة الثالثة، ١٣٦٥ش، الطبعة الرابعة.

٥٣ـ التوحيد: للشيخ الصدوق، جماعة المدرسين- قم المقدسة، ١٣٨٧هـ.

٥٤ـ توضيح المراد: للسيد هاشم الحسيني الطهراني، طهران، ١٣٦٥هـ ش، الطبعة الثالثة.

(ث)

٥٥ـ ثواب الأعمال: للشيخ الصدوق، الشريف الرضي - قم المقدسة، ١٣٦٨ ش، الطبعة الثانية.

(ج)

٥٦ـ جامع أحاديث الشيعة: للسيد البروجردي، مطبعة مهر- قم المقدسة، ١٤١٤- ١٣٧٢، و١٤٠٩- ١٣٧٦.

٥٧ـ الجامع الصغير: لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الفكر - بيروت، ١٤٠١، الطبعة الأولى.

٥٨ـ الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، مؤسسة التاريخ العربي - بيروت، ١٤٠٥.

٥٩ـ الجزية وأحكامها: لعلي أكبر الكلانتري، مؤسسة النشر الإسلامي - قم المقدسة، ١٤١٦.

(ح)

٦٠ـ الحاشية على إلهيات الشرح الجديد للتجديد: للمولى أحمد الأردبيلي، مركز النشر التابع لمنظمة الإعلام الإسلامي - قم المقدسة، ١٤١٩هـ -١٣٧٧هـ ش، الطبعة الثانية.

٦١ـ حقائق التأويل في متشابه التنزيل: للسيد الشريف الرضي، دار المهاجر - بيروت.

٦٢ـ حقيقة عالم الموت: للعلامة المجلسي، ذوي القربى - قم المقدسة،

١٣٨٦ هـ ش، الطبعة الأولى.

٦٣ـ حق اليقين في معرفة أصول الدين: للسيد عبد الله شبر، مؤسسة الأعلمي- بيروت،١٤١٨هـ - ١٩٩٧مـ، الطبعة الأولى.

٦٤ـ الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة: لصدر الدين محمد الشيرازي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ١٩٨١، الطبعة الثالثة، ١٤١٠، الطبعة الرابعة.

(خ)

٦٥ـ الخرائج والجرائح: لقطب الدين الراوندي، مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام - قم المقدسة، ١٤٠٩، الطبعة الأولى.

٦٦ـ خصائص الأئمة: للشريف الرضي، مجمع البحوث الإسلامية - مشهد المقدسة، ١٤٠٦.

٦٧ـ الخصال: للشيخ أبي محمد علي بن الحسين بن بابويه الصدوق: جامعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدسة، ١٤٠٣- ١٣٦٣ش، ومؤسسة الأعلمي - بيروت، ١٤١٠هـ -١٩٩٠م، الطبعة الأولى.

٦٨ـ خلاصة عبقات الأنوار: للسيد حامد الحسيني التقوي، مؤسسة بعثة - قم المقدسة، ١٤٠٥هـ ، الطبعة الأولى.

٦٩ـ الخلاف: للشيخ الطوسي، مؤسسة النشر الإسلامي- قم المقدسة، ١٤٠٧، الطبعة الأولى.

(د)

٧٠ـ درر الأخبار: لخسرو شاهي، دفتر مطالعات تاريخ ومعارف إسلامي، ١٤١٩، الطبعة الأولى.

٧١ـ درر الفوائد تعليق على شرح المنظومة للسبزواري: للشيخ محمد تقي الآملي، مؤسسة اسماعيليان – قم المقدسة.

٧٢ـ الدر المنثور: لجلال الدين السيوطي، دار المعرفة – بيروت.

٧٣ـ الدعاء والزيارة: للسيد محمد الحسيني الشيرازي، مؤسسة الفكر الإسلامية- بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، الطبعة الأولى.

٧٤ـ الدعوات: لقطب الدين الراوندي، مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام – قم المقدسة، ١٤٠٧، الطبعة الأولى.

٧٥ـ دلائل الإمامة: لمحمد بن جرير بن رستن الطبرسي، مؤسسة البعثة – قم المقدسة، ١٤١٣، الطبعة الأولى.

٧٦ـ دلائل الصدق لنهج الحق: للشيخ محمد حسن المظفر، ومؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث العربي – دمشق، ١٤٢٥، الطبعة الأولى.

(ر)

٧٧ـ رسائل الشهيد الثاني: للشهيد الثاني، مكتبة بصيرتي – قم المقدسة.

٧٨ـ رسائل المرتضى: للشريف المرتضى، دار القرآن الكريم – قم المقدسة، ١٤٠٥.

٧٩ـ رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار: لمحمد بن إسماعيل أمير الصنعاني، المكتبة الإسلامية - بيروت، ١٤٠٥، الطبعة الأولى.

٨٠ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم: لمحمود الآلوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، الطبعة الأولى.

٨١ـ الروضة المختارة (شرح القصائد العلويات السبع): لابن أبي الحديد المعتزلي، مؤسسة الأعلمي- بيروت.

٨٢ـ روضة الواعظين: لمحمد بن الفتال النيسابوري، منشورات الشريف الرضي- قم المقدسة.

(ز)

٨٣ـ الزهد: للحسين بن سعيد الكوفي الأهوازي، المطبعة العلمية - قم المقدسة، ١٣٩٩.

(س)

٨٤ـ سنن ابن ماجة: لمحمد بن يزيد القزويني، دار الفكر - بيروت.

٨٥ـ سبل الهدى والرشاد: لصالح الشامي، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٤- ١٩٩٣، الطبعة الأولى.

(ش)

٨٦ـ شرح إحقاق الحق: للسيد المرعشي، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي - قم المقدسة.

٧٨ـ شرح الأخبار: لقاضي النعمان المغربي، مؤسسة النشر الإسلامي – قم المقدسة.

٨٨ـ شرح الأسماء الحسنى: للملا هادي السبزواري، مكتبة بهريتي– قم المقدسة، الطبعة الحجرية.

٨٩ـ شرح أصول الكافي: للمولى محمد صالح المازندراني، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٢١ – ٢٠٠٠م، الطبعة الأولى.

٩٠ـ شرح رسالة الحقوق: للإمام زين العابدين عليه السلام، مؤسسة إسماعيليان – قم المقدسة، ١٤٠٦، الطبعة الثانية.

٩١ـ شرح مئة كلمة: لكمال الدين ميثم بن علي ميثم البحراني، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية – قم المقدسة.

٩٢ـ شرح المقاصد في علم الكلام: للتفتزاني، دار المعارف النعمانية، ١٤٠١– ١٩٨١، الطبعة الأولى، ومنشورات الشريف الرضي– قم المقدسة، ١٤٠٩– ١٩٨٩، الطبعة الأولى.

٩٣ـ شرح نهج البلاغة: لابن أبي الحديد، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٣٧٨– ١٠٥٩م، الطبعة الأولى.

٩٤ـ شواهد التنزيل لقواعد التفضيل: لعبيد الله بن أحمد المعروف بالحاكم الحسكاني، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، ١٤١١، الطبعة الأولى.

(ص)

٩٥ـ الصحاح: للجوهري: دار العلم للملايين - بيروت، ١٤٠٧، الطبعة الرابعة.

٩٦ـ صحيح البخاري: للبخاري، دار الفكر، ١٤٠١- ١٩٨١م.

٩٧ـ صحيح مسلم: لمسلم بن الحجاج النيسابوري، دار الفكر-بيروت.

٩٨ـ الصحيفة السجادية: للإمام زين العابدين عليه السلام، مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، ومؤسسة أنصاريان- قم المقدسة، ١٤١١، الطبعة الأولى، لجماعة المدرسين الحوزة العلمية - قم المقدسة.

٩٩ـ صفات الشيعة: للشيخ الصدوق، كانون انتشارات عابدي، طهران.

(ط)

١٠٠ـ طب الأئمة: لابن سابور الزيات، الشريف الرضي - قم المقدسة، ١٤١١- ١٣٧٠ش، الطبعة الثانية.

(ع)

١٠١ـ عقائد الإمامية: للشيخ محمد رضا المظفر، مؤسسة الإمام علي عليه السلام، ١٤١٧، الطبعة الأولى.

١٠٢ـ العقد النضيد والدر الفريد: لمحمد بن الحسن القمي، دار الحديث للطباعة والنشر، ١٤٢٣- ١٣٨١ش، الطبعة الأولى.

١٠٣ـ علل الشرائع: للشيخ الصدوق، المكتبة الحيدرية ومطبعتها، النجف الأشرف، ١٣٨٦هـ -١٩٦٦م.

١٠٤ـ عوالي الآلي: لابن جمهور الإحسائي، مطبعة سيد الشهداء- قم المقدسة، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، الطبعة الأولى.

١٠٥ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام: للشيخ الصدوق، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، ١٤٠٤- ١٩٨٤م، الطبعة الأولى.

١٠٦ـ عيون الحكم والمواعظ: لعلي بن محمد الليثي الواسطي، دار الحديث، الطبعة الأولى.

(غ)

١٠٧ـ غاية المرام: للسيد هاشم البحراني

١٠٨ـ الغدير: للشيخ الأميني، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٣٩٧- ١٩٧٧م، الطبعة الرابعة.

١٠٩ـ غنائم الأيام: للميرزا القمي، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، ١٤١٧- ١٣٧٦ش، الطبعة الأولى.

١١٠ـ الغيبة: لمحمد بن الحسن الطوسي، مؤسسة المعارف الإسلامية - قم المقدسة، ١٤١١هـ، الطبعة الأولى.

(ف)

١١١ـ فتح القدير: لمحمد بن علي محمد الشوكاني، عالم الكتب

١١٢ـ الفصول المختارة: للشريف المرتضى، دار المفيد للطباعة - بيروت، ١٤١٤- ١٩٩٣، الطبعة الثانية.

١١٣ـ الفصول المهمة في معرفة الأئمة: للحر العاملي، مؤسسة معارف إسلامي الإمام الرضا عليه السلام، ١٤١٨هـ - ١٣٧٦ش، الطبعة الأولى.

١١٤ـ الفضائل: لشاذان بن جبرئيل القمي، المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف، ١٣٨١- ١٩٦٢م.

١١٥ـ فضائل الشيعة: للشيخ الصدوق، كانون انتشارات عابدي - طهران.

١١٦ـ الفقه (البيع): للسيد محمد الحسيني الشيرازي، دار العلوم - بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م الطبعة الأولى.

١١٧ـ الفقه (الحكم في الإسلام): للسيد محمد الحسيني الشيرازي، دار العلوم - بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م الطبعة الأولى.

١١٨ـ الفقه حول السنة المطهرة: للسيد محمد الحسيني الشيرازي، دار العلوم - بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م الطبعة الأولى.

١١٩ـ فقه الرضا عليه السلام: لعلي بن بابويه، المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام - مشهد المقدسة، ١٤٠٦، الطبعة الأولى.

١٢٠ـ الفقه (الطهارة): للسيد محمد الحسيني الشيرازي، دار العلوم - بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م الطبعة الأولى.

١٢١ـ الفقه (العقائد): للسيد محمد الحسيني الشيرازي، مؤسسة الإمامة - بيروت، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م الطبعة الثانية.

١٢٢ـ فلسفات إسلامية: للشيخ محمد جواد مغنية، مؤسسة دار الكتاب العربي- بيروت، ١٤٢٧- ٢٠٠٦م، الطبعة الأولى.

١٢٣ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير: لمحمد بن عبد الرؤوف المناوي، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ، الطبعة الأولى.

(ق)

١٢٤ـ القاموس المحيط: لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م، الطبعة الثانية.

١٢٥ـ القول السديد في شرح التجريد: للسيد محمد الحسيني الشيرازي، قم المقدسة، ١٤٠١، الطبعة الثالثة.

(ك)

١٢٦ـ الكافي: للشيخ الكليني، دار الكتب الإسلامية - طهران، ١٣٦٢، الطبعة الرابعة، دار الكتب الإسلامية - آخوندي، ١٣٨٩ - ١٣٤٨هـ، الطبعة الثانية.

١٢٧ـ كامل الزيارات: لجعفر بن محمد بن قولويه القمي، مؤسسة النشر الفقاهة، ١٤١٧، الطبعة الأولى.

١٢٨ـ الكامل في التاريخ: لابن أثير، دار صادر ودار بيروت، ١٣٨٦-١٩٦٦م.

١٢٩ـ كتاب الصمت وآداب اللسان: لابن أبي الدنيا، دار الكتاب العربي- بيروت، ١٤١٠، الطبعة الأولى.

١٣٠ـ كتاب العين: للخليل الفراهيدي، مؤسسة الهجرة، ١٤١٠، الطبعة الثانية.

١٣١ـ كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: لمحمد علي التهانوي، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، ١٩٩٦م، الطبعة الأولى.

١٣٢ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل: لجار الله الزمخشري، مكتبة مصر.

١٣٣ـ كشف الغمة: لابن أبي الفتح الإربلي، دار الأضواء - بيروت، ١٤٠٥- ١٩٨٥م ، الطبعة الثانية.

١٣٤ـ كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: للعلامة الحلي، مؤسسة الأعلمي- بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، الطبعة الأولى، وانتشارات شكوري - قم المقدسة، ١٣٧٣ش، الطبعة الرابعة.

١٣٥ـ كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر عليهم السلام: للخزار القمي الرازي، انتشارات بيدار، ١٤٠١هـ.

١٣٦ـ كمال الدين وتمام النعمة: للشيخ الصدوق، مؤسسة النشر الإسلامي- قم المقدسة، ١٤٠٥- ١٣٦٣ش.

١٣٧ـ كنز العمال: للمتقي الهندي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٠٩- ١٩٨٩.

(ل)

١٣٨ـ لسان العرب: لابن منظور، نشر أدب الحوزة - قم المقدسة، ١٤٠٥هـ، ودار صادر- بيروت.

(م)

١٣٩ـ مثير الأحزان: لابن نما الحلي، المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف، ١٣٦٩- ١٩٥٠م.

١٤٠ـ مجمع البحرين: لفخر الدين الطريحي تحقيق أحمد الحسيني مؤسسة الوفاء - بيروت، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م، الطبعة الثانية، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ١٤٠٨- ١٣٦٧ش، الطبعة الثانية.

١٤١ـ مجمع البيان في تفسير القرآن: لأمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، مؤسسة الأعلمي - بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م الطبعة الأولى.

١٤٢ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: لنور الدين الهيثمي، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م.

١٤٣ـ المجموع: لمحيي الدين النووي، دار الفكر للطباعة والنشر.

١٤٤ـ المحاسن: لأحمد بن محمد بن خالد البرقي، دار الكتب الإسلامية - طهران، ١٣٧٠-١٣٣٠ ش.

١٤٥ـ المحتضر: لحسن بن سليمان الحلي، المكتبة الحيدرية، ١٤٢٤- ١٣٨٢ش، ١٣٧٠- ١٩٥٩، الطبعة الأولى.

١٤٦ـ المحلى: لابن حزم، دار الفكر ومؤسسة الوفاء- بيروت، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م، الطبعة الثالثة.

١٤٧ـ مختار الصحاح: لمحمد بن عبد القادر، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٥- ١٩٩٤، الطبعة الأولى.

١٤٨ـ مختصر بصائر الدرجات: للحسن بن سليمان الحلي، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٧٠هـ -١٩٥٠م، الطبعة الأولى.

١٤٩ـ مختصر تفسير ابن كثير: لمحمد علي الصابوني دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى.

١٥٠ـ مدينة المعاجز: للسيد هاشم البحراني، مؤسسة المعارف الإسلامية - قم المقدسة، ١٤١٣هـ - ١٤١٤، الطبعة الأولى.

١٥١ـ مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول عليهم السلام: للعلامة المجلسي، دار الكتب الإسلامية - طهران، ١٣٨٣هـ ش، الطبعة الثانية.

١٥٢ـ المزار: لمحمد بن المشهدي، القيوم - قم المقدسة: ١٤١٩، الطبعة الأولى.

١٥٣ـ المزار: للشهيد الأول، مؤسسة الإمام المهدي- قم المقدسة، ١٤١٠، الطبعة الأولى.

١٥٤ـ المستدرك: للحاكم النيسابوري، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة - بيروت، ١٤٠٦.

١٥٥ـ مستدرك سفينة البحار: للشيخ علي نمازي الشاهرودي، مؤسسة النشر الإسلامي- قم المقدسة، ١٤١٩.

١٥٦ـ مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل: للمحقق النوري الطبرسي، مؤسسة آل البيت: لإحياء التراث، ١٤٠٨هـ، الطبعة الثانية.

١٥٧ـ مسند أحمد: لأحمد بن حنبل، دار صادر- بيروت.

١٥٨ـ مسند زيد بن علي: لزيد بن علي، دار الحياة - بيروت.

١٥٩ـ مشارق أنوار اليقين: للحافظ رجب البرسي، مؤسسة الأعلمي- بيروت، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، الطبعة الأولى.

١٦٠ـ مشكاة الأنوار في غرر الأخبار: لأبي الفضل علي الطبرسي، دار الحديث - قم المقدسة،١٤١٨هـ ، الطبعة الأولى. المكتبة الحيدرية- النجف الأشرف، ١٣٨٥هـ -١٩٦٥م.

١٦١ـ مصابيح الأنوار في حل مشكلات الأخبار: للسيد عبد الله شبر، مؤسسة النور للمطبوعات - بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، الطبعة الثانية.

١٦٢ـ المصباح: للكفعمي، مؤسسة الأعلمي- بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، الطبعة الثالثة.

١٦٣ـ مصباح المتهجد: للشيخ الطوسي، مؤسسة فقه الشيعة - بيروت، ١٤١١- ١٩٩١، الطبعة الأولى.

١٦٤ـ المظاهر الإلهية في الولاية التكوينية، للشيخ فاضل الصفار، مؤسسة الفكر الإسلامي - بيروت ١٣٢٤هـ - ٢٠٠٣م، الطبعة الأولى.

١٦٥ـ المعاد بين الروح والجسد: للشيخ محمد تقي فلسفي، مؤسسة الأعلمي- بيروت، ١٤١٤هـ -١٩٩٤م، الطبعة الأولى.

١٦٦ـ معالم الزلفى في معارف النشأة الأولى والأخرى: للسيد هاشم البحراني، مؤسسة إحياء الكتب الإسلامية - قم المقدسة،١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م، الطبعة الأولى.

١٦٧ـ معاني الأخبار: لمحمد بن علي بن بابويه القمي، مكتبة الصدوق - طهران، ١٣٧٩هـ ، ومؤسسة النشر الإسلامي - قم المقدسة، وانتشارات إسلامي،١٣٦١ش.

١٦٨ـ المعتبر في شرح المختصر: للمحقق الحلي، مؤسسة سيد الشهداء عليه السلام، ١٣٦٤ش.

١٦٩ـ معجم البلدان: للحموي، دار إحياء التراث العربي - بيروت،١٣٩٩هـ -١٩٧٩م.

١٧٠ـ معجم مقاييس اللغة: لأحمد بن فارس بن زكريا، دار إحياء التراث العربي - بيروت،١٤٢٢هـ -٢٠٠١م الطبعة الأولى، ومكتبة الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤.

١٧١ـ المعجم الكبير: لسليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة الثانية.

١٧٢ـ المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة -استانبول.

١٧٣ـ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: للراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داوودي دار القلم دمشق الدار الشامية بيروت، ١٤٢٥هـ، الطبعة الرابعة، ودفتر نشر الكتاب ١٤٠٤، الطبعة الثانية.

١٧٤ـ مفردات غريب القرآن: للراغب الأصفهاني، دفتر نشر الكتاب، ١٤٠٤، الطبعة الثانية.

١٧٥ـ المقنعة: للشيخ المفيد، مؤسسة النشر الإسلامي- قم المقدسة، ١٤١٠، الطبعة الثانية، و١٤١٧، الطبعة الرابعة.

١٧٦ـ منازل الآخرة والمطالب الفاخرة: للشيخ عباس القمي، مؤسسة النشر الإسلامي – قم المقدسة، ١٤١٩، الطبعة الأولى.

١٧٧ـ المناقب: للموفق بن أحمد بن محمد المكي الخوارزمي، مؤسسة النشر الإسلامي لمجموعة المدرسين – قم المقدسة، ١٤١١هـ، الطبعة الثانية.

١٧٨ـ مناقب آل أبي طالب: لابن شهر آشوب، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٧٦- ١٩٥٦م.

١٧٩ـ من لا يحضره الفقيه: لمحمد بن علي بن بابويه، جماعة المدرسين، ١٤٠٤، الطبعة الثانية، ومؤسسة الأعلمي- بيروت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، الطبعة الأولى، ودار الأضواء- بيروت، ١٤١٣- ١٩٩٢، الطبعة الثانية.

١٨٠ـ منهاج الصالحين: للسيد الخوئي، مدينة العلم، ١٤١٠، الطبعة الثامنة والعشرون.

١٨١ـ مهذب الأحكام في بيان الحلال والحرام: للسيد عبد الأعلى السبزواري، مؤسسة المنار- قم المقدسة، ١٤١٣هـ، الطبعة الرابعة.

١٨٢ـ المواقف للإيجي، دار الجيل، ١٤١٧- ١٩٩٧، الطبعة الأولى.

١٨٣ـ مواهب الرحمن في تفسير القرآن: السيد عبد الأعلى السبزوري، دار التفسير ، قم المقدسة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، الطبعة الأولى.

(ن)

١٨٤ـ نهج الإيمان: لابن جبر، مجمع الإمام الهادي عليه السلام - مشهد المقدسة، ١٤١٨، الطبعة الأولى.

١٨٥ـ نهج البلاغة: خطب الإمام علي عليه السلام تحقيق الشيخ محمد عبده، دار المعرفة - بيروت ودار الذخائر - إيران ١٤١٢- ١٣٧٠ش، الطبعة الأولى، ومؤسسة المختار - القاهرة، ١٤٢٩- ٢٠٠٨، الطبعة الثانية.

١٨٦ـ النوادر: لفضل الله الراوندي، مؤسسة دار الحديث الثقافية - قم المقدسة، الطبعة الأولى.

١٨٧ـ نيل الأوطار: للشوكاني، دار الجيل - بيروت، ١٩٧٣.

(ي)

١٨٨ـ ينابيع المودة لذوي القربى: للقندوزي ، دار الأسوة ، ١٤١٦، الطبعة الأولى.

فهرست الكتاب

الجزء الأول

الفصل الأول: في حقيقة المعاد وأصنافه وأدلته ٧
المبحث الأول: في حقيقة المعاد وغايته ٩
المطلب الأول: في تعريف المعاد وتاريخه ٩
المطلب الثاني: في ثمرات الإيمان بالمعاد ١٩
المبحث الثاني: في أصناف المعاد والأقوال فيه ٣٠
المبحث الثالث: في أدلة المعاد ومناقشتها ٥٠
المطلب الأول: في أدلة المعاد ٥٠
المطلب الثاني : المدارس المنكرة للمعاد ٨٤
الفصل الثاني: في منازل المعاد ومشاهده الدنيوية ١٣١
تمهيد ١٣٣
المبحث الأول: أول منازل الآخرة ١٣٩
المطلب الأول: الاحتضار ١٣٩
المطلب الثاني: الموت ١٧٤
المبحث الثاني: في عالم القبر ٢٠٦

الأمر الأول: معنى الإيمان المحض والكفر المحض ٢٣٨
الأمر الثاني: سبب إهمال المستضعفين ٢٤١
المبحث الثالث: في عالم البرزخ.. ٢٤٥
الفصل الثالث: في المعاد ومشاهده الأخروية ٣١٣
تمهيد: ٣١٥
المبحث الأول: في علائم القيامة...................................... ٣١٧
المبحث الثاني: في القيامة الصغرى (الرجعة) ٣٤٠
المطلب الأول: في حقيقة الرجعة والإيمان بها ٣٤٢
المطلب الثاني: في أدلة الرجعة.. ٣٤٧
المبحث الثالث: في القيامة الكبرى (الحشر) ٣٧٥
المطلب الأول: وقت الحشر وحالاته.................................. ٣٧٨
المطلب الثاني: في خصائص قوانين الآخرة ٣٩٣

الجزء الثاني

المطلب الثالث: في مشاهد الحشر ٥
المشهد الأول: الإحياء والنشر ٥
المشهد الثاني: الحساب والشهود ٨
المشهد الثالث: الميزان ٦٣
المشهد الرابع: الصراط ٩٩
المشهد الخامس: الأعراف ١٢٣
المشهد السادس: لواء الحمد... ١٤٢
المشهد السابع: حوض الكوثر ١٥٢

المشهد الثامن: الشفاعة ١٥٥
الفصل الرابع: في الجنة والنار والحياة الأبدية ٢٣٣
تمهيد ٢٣٥
المبحث الأول: في الحقائق المشتركة بين الجنة والنار ٢٣٩
المطلب الأول: في حقيقة الجنة والنار ٢٣٩
المطلب الثاني: الآراء في الجنة والنار ٢٤٣
المطلب الثالث: في خلق الجنة والنار وعدمه ٢٤٨
المطلب الرابع: في مكان الجنة والنار وسعتهما ٢٧٢
المطلب الخامس: في معنى الخلود في الجنة والنار ٢٨٥
الأمر الأول: في معنى الخلود وحقيقته ٢٨٦
الأمر الثاني: في المخلدين في الجنة والنار ٢٩٤
الأمر الثالث: الخلود في النار والعدل الإلهي ٢٩٩
المبحث الثاني: في أوصاف الجنة وأهلها ٣١٢
المطلب الأول: في أوصاف الجنة ٣١١
المطلب الثاني: في صفات أهل الجنة وأحوالهم ٣٤٦
المبحث الثالث: في أوصاف النار وأهلها ٣٦٠
المطلب الأول: في أوصاف النار وخصوصياتها ٣٦٠
المطلب الثاني: في أوصاف أهل النار وحالاتهم ٣٧٧
مصادر البحث ٣٩١
فهرست الكتاب ٤١٤